الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الخامس و العشرون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 5

الجزء الخامس و العشرون‏

سورة يس‏

[سورة يس (36): الآيات 1 الى 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يس (1) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى‏ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (9)

وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (12)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 6

سورة تبتنى من تفاصيل الأصول الثلاثة ما تميزّها في حقولها عن سائر السور التي تحويها، مبتدأة بدعامتي هذه الرسالة السامية: القرآن و نبيّ القرآن، ثم المبدأ، و من ثم المعاد، حيث الأوليان تعرّفان الرسالة و تبينان أصلي المبدء و المعاد.

و لأن هذه الأصول هي القرآن كله، و هي قلب القرآن و ريحانته، إذا فياسين هي القرآن كله‏ «1» و هي قلب القرآن‏ «2» و ريحانته‏ «3» بل هي قلب القلب‏ «4» حيث القرآن قلب الكتب كلها! و إنها ذات الفواصل القصيرة، و الإيقاعات السريعة اليسيرة، ملتحمة بملاحم عميقة الإيحاء من براهين بارعة في مختلف الحقول، تدق على الفطر و الحواس و العقول دقّات متوالية متعالية، تعمل على مضاعفات آثارها في أعماق الضمائر و الألباب.

يس (1) هي من الحروف المقطعة- و على حدّ تعبير الأمير (عليه السلام): «من مفاتيح كنوز القرآن» المغيّبة عن غير أهل بيت القرآن، و لكنها من بينها قد تلمح إلى معناها، و تلمح فيها مغزاها، «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» تلمح لذكر سابق عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لم يسبق إلّا «يس» إذا فهي نداء للرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بيائها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2)

الدر المنثور 5: 256 اخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لكل شي‏ء قلب و قلب القرآن يس و من قرأ يس فكأنما قرأ القرآن عشر مرات، و في ثواب الأعمال باسناده الى أبي عبد اللّه (عليه السلام) مثله‏

إلا في ذيله.

(3)

تفسير البرهان 4: 3 في مجالس الشيخ باسناده قال: قال ابو عبد اللّه (عليه السلام): علموا أولادكم يس فانها ريحانة القرآن.

(4)

الدر المنثور عن انس قال: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ان لكل شي‏ء قلبا و قلب القلب يس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 7

و تسمية له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بحرف من صفة الرسالة، السابقة عليها، المعبّدة الطريق إليها، ك

«السامع الوحي» «1»

«وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» واقع موقع البرهان على سماع الوحي النبوءة و بث الوحي الرسالة، و إن كانت في صيغة الحلف.

فكما ان «ن» اسم من أسمائه و علها اختصار عن نبوته، كذلك «س» عن سماعه الوحي‏ «2» و قد تفترقان ان الاولى مقسم بها و الثانية منادى، مهما تشتركان في اشارة النبوءة و سماع الوحي! فهو بكيانه ككل، بقلبه و سمعه سماع و استذاعة للوحي و من ثم إذاعة له، و هما في أفضل مراتبهما و أكملهما.

وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ‏ 2 هي في صورة الحلف و سيرة البرهان، و كما هي السنة الدائبة في أحلاف القرآن، فالقرآن بحكمته البارعة أدبيا بأعلى قمم الفصاحة و البلاغة، و معنويا بأرقى درجات اللباقة، يكفي شاهد صدق على رسالة من جاء به: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان 4: 3- ابن بابويه بسند متصل عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق (عليه السلام) قال له يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما معنى قول اللّه عز و جل: يس؟ قال: اسم من اسماء النبي و معناه ايها السامع الوحي،

أقول و احتمال انه «يا إنسان» عن ابن عباس، ام «يا رجل» عن الحسن و أبي العالية، ام «يا محمد» عن سعيد بن جبير و محمد بن ضغنة أم «يا سيد» لا دليل عليه و لا سيما الذي ليس فيه «سين» حتى تكون إشارة إليه.

(2)

نور الثقلين 4: 374 ج 10 في كتاب الخصال عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ان لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عشرة اسماء خمسة في القرآن و خمسة ليست في القرآن فاما التي في القرآن فمحمد و احمد و عبد اللّه و يس،

أقول و منها في القرآن «طه» كأنها ساقطة من قلم الناسخ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 8

دليل واحد حكيم بين مدلولين اثنين، بين سين رمزا إلى سماع الوحي النبوءة و «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» في تصريحة الرسالة على صراط مستقيم، فحكمة القرآن في بيانه و تبيانه قد سدّت دونه ثغرات و احتمالات أنه من عند غير اللّه، فمهما بلغ الكلام من غير اللّه إلى مطلق الحكمة، ليس ليبلغ إلى حكمة مطلقة دون أية هفوة و ثغرة، حيث الكمال القمة اللّانهائية هي التي تقتضي الحكمة القمة، فكل درجة من حكمة الكلام دليل على نفس الدرجة من حكمة المتكلم حتى تبلغ إلى الدرجة القمة التي لا تدانيها حكمة، فهي- إذا- من حكمة اللّه لا سواه، حكمة ملأت قلب الرسول نبوءة: «يس» ثم تخطّته إلى العالمين رسالة في أعلى درجاتها: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فالقرآن حكيم لا مدخل فيه بأية شعرة في مثلث الزمان من أي إنس و الجان، و في أي حقل من حقوله المتمازجة على مختلف أبعادها، حيث تحلّق على كل العلوم في كل أبعاد الزمان، لا عوج فيه و لا ريب يعتريه، فلا انفصام لعروته‏

نور لا تطفأ مصابيحه و سراج لا يخبؤ توقّده، و بحر لا يدرك قعره، و منهاح لا يضلّ نهجه، و شعاع لا يظلم ضوءه، و فرقان لا يخمد برهانه، و تبيان لا تهدم أركانه ... حبلا وثيقا عروته، و معقلا منيعا ذروته ... «1».

و ما أحسنه برهانا حكمة القرآن، توجيها إليها بصورة الحلف، و لكي يعيش الناس تدبرا فيه و إمعانا في ألفاظه و معانيه، دون أن يوضّح جنبات حكمته فلا تتحرك العقول، فتبوء إلى عطالة دون حراك! إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (2) عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) رسالة عليا، على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من خطب الامام امير المؤمنين في النهج 193 ص 302.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 9

صراط مستقيم أعلى، حيث الحكمة القرآنية أعلى الحكم فلا أعلى منه و لا تدانيها حكمة، فالصراط المستقيم الذي لا عوج له هو طبيعته و ماهيته.

إنه‏ «عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» في‏

«الصورة الإنسانية» «1»

و العبودية: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (3: 51) و الإيمان و الاعتصام باللّه‏ «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» (4: 174) «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (3: 101) «قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (6: 161).

و لأنه ملي‏ء من الصراط المستقيم‏ «إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (42: 52) هداية أصيلة بالكتاب: «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ‏ ... وَ يَهْدِيهِمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (5: 16) و أخرى هامشية بسنته القاطعة: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ».

فهو «عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» في شخصه و رسالته، في الصورة الإنسانية، و صراط العبودية و الإيمان، و الاعتصام باللّه، و في هدي كتاب اللّه، و في رسالته، و إسلامه، و توحيده للّه، سبعة كاملة بأفضل درجاتها، منقطعة النظير بين كل بشير و نذير في ملإ العالمين من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين‏ «2».

إِنَّكَ ... عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏ «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى‏ صِراطٍ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الصافي عن الامام الصادق (عليه السلام).

(2) راجع تفسير الآية «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» ج 1 الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 10

مستقيم في بعدين فان لم يستقم البعد الاوّل من الصراط لم يستقم الثاني: «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» فقد كان الرسول على صراط الإنسانية المستقيم، و صراط العبودية حتى اصطفاه اللّه على صراط مستقيم من الوحي و الرسالة و النبوة بأكمل درجاتها. «1»

و قد يعني‏ «الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ»- إلى جانب قرآن محمد- محمد القرآن لأنه تجسيد لحكمة القرآن و أحكامه و معارفه، و قد كان خلقه القرآن‏ «2» فهو الثقلان مهما كان القرآن أكبر الثقلين، فهو عقله و قلبه القرآن الحكيم بما فيها من تفاصيل المعارف الإلهية، ما يحتاجه و يحتاجه العالمون أجمعون إلى يوم الدين.

و قد يتأيّد بما يأتي من إجابة المرسلين: «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» حيث استندوا لإثبات رسالتهم بظاهر التربية الخاصة الرسالية فيهم.

و أوضح من ذلك آية ثانية في يس: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» فالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو القرآن المبين كما القرآن مبين، بل هو أبين لأنه يجسّده بكل مظاهره، و يفسره بسنته.

فالقرآن دون الرسول كما الرسول دون القرآن جناح واحد في الدعوة ينقص ثانية، المحلّق بهما في اجواء الهداية الكاملة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» على الأول خبر ثان و على الثاني متعلق بالمرسلين.

(2) و كما

سئل ابن عباس ما كان خلق النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: كان خلقه القران.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 11

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ‏ 5 و لأنه تنزيل العزيز فهو عزيز: «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (41: 41) عزيز لا يغلب بنسخ أو تحريف، أو تحوير و تجديف، و في «تنزيل» مصدرا منصوبا إشارتان إلى عظم موقف القرآن، فلا يوصف بالتنزيل إذ هو فوق الوصف الذي ليس لزاما لموصوفه، «1» و التنزيل لزام القرآن و كيانه، ليس له وراء «تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» موقف حتى يوصف به، إذا فالوصف هنا هو الموصوف، و الموصوف هو الوصف دون فارق! ثم المصدر دليل ثان على ذلك الكيان المجيد للقرآن، أنه من عزة اللّه و رحمته المنزلة على خلقه، فلا يحمل كيانا إلّا ربوبيا في أعلى مظاهره.

و قد يعني «تنزيل» نبي القرآن مع القرآن فإنه منزل‏ «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا» (65: 10) و منزّل حيث الدرجات المتتالية منزلّة عليه من العزيز الحكيم منذ كان فطيما حتى بلوغه و حتى رسالته و إلى قضاء نحبه.

فمحمد القرآن و قرآن محمد هما تنزيل العزيز الرحيم، كما هما على صراط مستقيم، و كما يحملان مع بعض، هذه الرسالة القمة دون فكاك.

و لأنه تنزيل الرحيم فهو كتاب رحيم يعم برحمته و كما رسوله‏ «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» (21: 107).

كتاب عزيز رحيم، تنزيل العزيز الرحيم على رسول عزيز رحيم، عزة في التنذير و رحمة في التبشير و في كلما يتطلب عزة و رحمة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فان تنزيل منصوب اما على الاختصاص او على المدح او انه مفعول اعني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 12

لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (6) علة غائبة للإرسال و التنزيل.

صحيح أن القرآن لإنذار الناس أجمعين، من انذر آباءهم و أنفسهم أم لم ينذروا: «قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (11: 25) و لا الناس فقط بل العالمين: «تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» (25: 1) و لكن المحور الاوّل لإنذاره‏ «قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ» فإنهم أصلد و أصلب، فغيرهم أقوى تأثرا و أعبد «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» (19: 97) لدّا في عروبتهم، ولدا إذ لم ينذروا من قبل و لا آباءهم، أم لم ينذروا مهما أنذر آباءهم‏ «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» (32: 3) «... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (28: 46) «وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ» (34: 44).

فالذين أنذروا، هم و آباءهم، ثم الذين أنذر آباءهم دونهم، ثم من انذروا هم دون آبائهم، ثم من لم ينذروا هم و لا آباءهم، هم كلهم من العالمين تشملهم آية الفرقان، و لكنما العرب الذين لم ينذروا، هم و لا آباءهم، فيهم عراقيل ثلاث و جاه إنذار القرآن، و إذا كانت عزة القرآن و رحمته لحد تؤثر في هؤلاء بعراقيلهم الثلاث، فبأحرى تأثيرها فيمن دونهم عرقلة، فالتحلل عن القوميات يعبّد، و إنذار الآباء يعبّد، و إنذارهم أنفسهم يعبّد، تعبيدات ثلاث لتقبّل الإنذار على سهولة و يسر.

و لأن هذه الغفلة ليست لحد يسقط معها التكليف، فواجب الإنذار يوجّه إليهم على صعوباته و عراقيله.

فثالوث الغفلة التامة، الطامة أنفسهم، الناتجة عن هذه الثلاث، تجعل منهم معاندين متعنتين لحدّ:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 13

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى‏ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (7) لا يؤمنون لأنهم غافلون ثم و لا يريدون الهدى فهم قاصرون و مقصرون، فقد حقت على أكثرهم كلمة العذاب، و القلة الباقية بين قاصر مطلق دون تقصير، و بين من يؤمن رغم الغفلة الحاكمة، و يا لهذه القلة الثانية من يراعة و نصوع الإيمان إذ يجتازون ثالوث الغفلة إلى نور الانتباه:

أ ترى‏ «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» تفريع على حقّ القول على الأكثرية العاتية؟

و هو جبر و تسيير على عدم الإيمان! أم إن حق القول من مخلّفات‏ «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و الفاء إجابة عن سؤال السبب في حق القول، فلأنهم بغفلتهم يتعنّتون فلا يؤمنون‏ «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى‏ أَكْثَرِهِمْ» و «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ» (10: 96) لا تعني إلّا حق الكلمة على الذين يعلم اللّه أنهم لا يؤمنون تخيرا، فعلمه بأنهم لا يؤمنون حتى الموت حقق عليهم كلمة العذاب قبل الموت، و ليس العلم علة العصيان، بل هو كشف سابق عن العصيان! كما الكشف المقارن أو اللّاحق، فإنها سواء أن ليس العلم علة، بل هو انكشاف عما حصل أو يحصل أو هو حاصل بأسبابه، إن مخيرا فمخيرا و إن مسيرا فمسيرا.

«لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى‏ أَكْثَرِهِمْ» لأنهم لا يؤمنون، أم حيث حق القول على أكثرهم، لأن اللّه يعلم أنهم لا يؤمنون‏ «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، و حق القول هنا كاشف أنهم لا يؤمنون.

و كلما كثرت و تتابعت عوامل الغفلة تثاقلت الذكرى بطبيعة الحال، دون انسداد مطلق لطريق الهدى، حيث الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها تظلّ حجة دائبة تطارد العوامل الخارجية و الدخيلة، و كثير هؤلاء الذين تؤثر عليهم تلكم العوامل الجارفة، و قليل هؤلاء الذين يطاردونها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 14

و يتخلصون عن المعركة، و الغفلة ما لم تكن عامدة لا تحقّق القول على أصحابها، فمن لم ينذروا من قبل، و لا آباءهم، فهم في غفلة قاصرة، فإذا أنذروهم أنفسهم بمثل هذه الرسالة السامية القرآنية بحجتها البالغة، التي تزيل كل غفوة و غفلة، ثم لم ينتبهوا، فهم إذا في غفلة عامدة، «فَهُمْ غافِلُونَ» إذا له بعدان قصورا و تقصيرا، و ليس حق القول إلّا على أكثرهم و هم المقصرون في غفلتهم بعد ما أنذروا، و أما القاصرون و باحرى المؤمنون، فهم القلة الناجية التي لم تحق عليها القول، إلّا مغفرة و رضوانا أم و إيمانا!.

و «القول» كما في سائر القرآن هو وعد العذاب‏ «وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ» (29: 71) «1».

إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8).

و لماذا «لا يؤمنون»؟ لأنهم بما لم ينذروا و لا آباءهم غافلون، و لأنهم لمّا أنذروا ثبتوا على الغفلة عامدين، فقد تجاوبت العوامل الخارجية: «ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ» قصورا، و العوامل الداخلية تقصيرا، فتعمّقت الغفلة فيهم و تحمّقت لحد أصبحوا غفلة على غفلة «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ» «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» كما زاغوا، و مثلهم في زيغهم عن الحق و عماهم عن مشاهدة الحق، و استكبارهم على شاهد الحق‏ «إِنَّا جَعَلْنا ...».

و علّ الأول تمثيل عن الغفلة الأنفسية، و الثاني هي الآفاقية، فلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ» (37: 21) «وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ. ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ. أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (16: 108).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 15

يتبين لهم أنه الحق بما زاغوا عن الآيتين:

فهب إنهم لم ينذروا و لا آباءهم، فلما ذا لم ينظروا إلى الآفاق حتى يعتبروا، و لماذا لم ينظروا إلى أنفسهم حتى يتبصروا؟ فلما ركزت في أنفسهم عوامل الغفلة العامدة أنساهم اللّه أنفسهم‏ «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» و أعماهم عن آفاقهم فهم لا يبصرون‏ «وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ» (59: 19) «كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى‏» (20:) 126).

«إِنَّا جَعَلْنا» بجمعية صفات الجلال الانتقام يوم الدنيا «فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا» و ليس على أعناقهم، و إنما «في» المشيرة إلى أن «أغلالا» جعلت دواخل أعناقهم، و تملكه ذواتهم فلا يملكون فكّها، ثم‏ «فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ» أغلالا متراكبة طول الأعناق إلى الأذقان، فلا مجال لهم في حراكها على أية حال‏ «فَهُمْ مُقْمَحُونَ»: رافعون رؤوسهم كالمتأبّي، كبعير قامح، يرفع رأسه تأنفا فلا يشرب ماء و لا يأكل كلاء، و كأنهم شبّهوا- في تكارههم للإيمان و تضايق صدورهم لسماع القرآن- بقوم عوقبوا فجذبت أذقانهم بالأغلال إلى صدورهم، مضمومة إليها أيمانهم، ثم رفعت رؤوسهم ليكون ذلك أشد لإيلامهم و أبلغ في عذابهم! هؤلاء الحماقي الطغاة الغافلون البغاة أصبحوا رافعي الرؤوس كأنهم لا يملكون انحناء و إن لصالح أنفسهم، متأبّين عن شربة ماء الحياة، و لا يملكون النظر إلى أنفسهم ليدركوا آياتها، و يلمسوا حاجاتها، حارمين أنفسهم عن النظر إليها و إلى آيات اللّه فيها، وليتهم لم يحرموا النظر إلى آياته في الآفاق، كي يتبصروا بها و يرجعوا إلى أنفسهم منتبهين، و لكن:

وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (9) إنهم سدّت عليهم منافذ الرؤية للآفاق كما سدّت عليهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 16

أنفسهم، و «بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» تشمل الجهات كلها حيث «فأغشيناهم» هي غشية تشملهم دون إبقاء، لم تبق لهم منفذا من منافذ الإدراك للآفاق سمعا و لا بصرا و لا حسا، عقلا و لا قلبا و لا فطرة و لا أية نافذة قلبا أو قالبا «1» «فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ».

ذلك الإقماح و هذا السد ليس على ظاهر أبدانهم، بل على باطن قلوبهم‏ «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ ...»

توصيفا لما كان عليه هؤلاء عند سماع القرآن من تنكيس أذقانهم، وليّ أعناقهم، ذهابا عن الرشد، و استكبارا عن الانقياد للحق، و ضيق صدور بما يرد عليهم من مواقع البيان و قوارع القرآن.

و علّ‏ «بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» تعني- فيما عنت- مستقبل الحياة و هي الأخرى، «وَ ما خَلْفَهُمْ» تعني الحياة الأولى، فهم مغشيّون عن النظر إلى الحياتين و صالحهما لأنفسهم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104).

قد يحرم الإنسان إبصاره إلى آيات آفاقية، و يمنح آيات أنفسية، باطنة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 376 ج 19 في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى‏ «وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ...» الهدى أخذ اللّه سمعهم و ابصارهم و قلوبهم و اعمالهم عن الهدى، نزلت في أبي جهل بن هشام و نفر من اهل بيته و ذلك ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قام يصلي و قد حلف ابو جهل لعنه اللّه لئن رآه يصلي ليدمغه فجاءه و معه حجر و النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قائم يصلي فجعل كلما رفع الحجر ليرميه اثبت اللّه عز و جل يده الى عنقه و لا يدور الحجر بيده فلما رجع الى أصحابه سقط الحجر من يده ثم قام رجل آخر و هو رهطه أيضا فقال: انا اقتله فلما دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فارعب فرجع الى أصحابه فقال: حال بيني و بينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه فخفت ان أتقدم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 17

من الروح على فطرته و عقله، و ظاهرة من جسمه بأعضائه، و قد يحرم آيات أنفسية و يمنح الآفاقية، فله مجال على أية حال أن يتبصّر، فإذا حرم الإبصار إلى جمعي الآيات‏ «فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» وصولا إلى حقائق المبصرات مبدء و معادا، فيجمدون عليها دون تبصر، «فمن أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته» و أما إذا اهتدى إليهما ككل فقد هدي إلى صراط مستقيم.

فيا ويلاه إن وصلت حال الإنسان الى هذه الدركات و «ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» حيث لا يبقى له منفذ إلى النور، مقمح في ذاته، مسدود مغشي عن آفاقه‏ «فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ».

و لقد حصلت شعبة من هذه التعمية على أبي جهل لما أراد ان يدمغ النبي و هو يصلي‏ «1» و على قريش لما اجتمعوا ببابه ينتظرون خروجه ليؤذوه‏ «2» و كذلك على الذين مكروا به (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- و هو منهم- فمكر اللّه و اللّه خير الماكرين إذ قرأ عليهم آية السد فسدّ عليهم فهم لا يبصرون‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نفس المصدر السابق.

(2) كما

في الدر المنثور 5: 259- اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمعت قريش بباب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ينتظرون خروجه ليؤذوه فشق ذلك عليه فأتاه جبرئيل بسورة يس و امره بالخروج عليهم فأخذ كفا من تراب و خرج و هو يقرؤها و يذر التراب على رؤوسهم فما رأوه حتى جاز فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب و جاء بعضهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا ننتظر محمدا فقال: لقد رأيته داخلا المسجد قالوا قوموا فقد سحركم.

(3)

نور الثقلين 4: 377 ج 21 القمي في بيان خروج النبي (صلى اللّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 18

وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (10) «سَواءٌ عَلَيْهِمْ» إذ «لا يؤمنون» لا عليك، فان عليك الإنذار كما على الرسل‏ «عُذْراً أَوْ نُذْراً» و لا يعني‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ» إلّا بيان الواقع و تسلية لخاطر النبي الأقدس لكيلا يحزن عليهم‏ «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ».

ليس للمنذر- إرشادا او امرا و نهيا- أن يترك إنذاره بحجة أنهم لا يؤمنون، فعلّهم يؤمنون رغم حسابك حيث الواقع قد يتخلف عن العلم غير المحيط بالواقع، و حتى إذا كان قطعا، أم و تبين ان الإنذار كان عليهم سواء لم يسقط وجوبه عن المنذرين، إتماما للحجة و إيضاحا للمحجة.

و واقع اللّاإيمان من هؤلاء الأنكاد هو من الملاحم الغيبية القرآنية فهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و سلم) من بيته الى الغار و فيه: و امر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان يفرش له ففرش له فقال لعلي بن أبي طالب (صلى اللّه عليه و آله و سلم) افدني بنفسك قال:

نعم يا رسول للّه، قال: يا علي! نم على فراشي و التحف ببردتي فنام علي (عليه السلام) على فراش رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و التحف ببردته و قد جاء جبرئيل و أخذ بيد رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فأخرجه على قريش و هم نيام و هو يقرء عليهم‏ «وَ جَعَلْنا ...»

و

في كتاب الاحتجاج روى عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليه السلام) قال: ان يهوديا من يهود الشام و أحبارهم قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) فان ابراهيم (عليه السلام) حجب عن نمرود بحجب ثلاث؟ قال علي (عليه السلام): لقد كان كذلك و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حجب عمن أراد قتله بحجب خمس ثلاث بثلاثة و اثنان فضل، فان اللّه عز و جل و هو يصف محمدا قال: «وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا» فهذا الحجاب الاول‏ «وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» فهذا الحجاب الثاني‏ «فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» فهذا الحجاب الثالث ثم قال‏ «وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً» فهذا الحجاب الرابع ثم قال‏ «فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ» فهذه حجب خمس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 19

على استكبارهم و إصرارهم لإبطال حجة القرآن لم يؤمنوا و لو على ظاهر الحال تكذيبا لملحمة قرآنية، و كانوا أشخاصا خصوصا عرفوا بين الجموع بالكفر الصامد و الجحود العامد.

إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (11).

إن تأثير الإنذار منحسر عنهم، منحصر في‏ «مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ»: من إذا ذكّروا تذكروا دون عناد، و هم المتقون الذين إذا وقوا عن الشر اتقوه، فهم الأحياء بروح الذكر و التقوى: «لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» (70)، و قد يلمح المضيّ في «اتبع ... و خشي» لسابق هذه الحالة السابغة فيهم قبل الذكر فهم مهما كانوا قبل الذكر من الغافلين، و لا سيما إذ «ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ» من قبل و لا أنذروا، هم أنفسهم، و لكن الغفلة حيث كانت قاصرة دون تقصير، فكانوا يفتشون عن ذكر حتى يتذكروا، أم- و لأقل تقدير- كانوا لا يعاندون الحق على غفلتهم، فهما- إذا- ممن‏ «اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ» منذ الغابر و حتى الوقت الحاضر، عائشين إتباع الذكر، فهم- دوما- عنه يتتبعون! و هذا شك مقدس و غفلة غير مقصرة، لا ينقصه إلّا عدم بلوغ الحجة البالغة، و هؤلاء هم الذين يؤثر فيهم الإنذار.

«مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ» يعرف الرحمن كأصل أوّل في حقل الذكر، فيخشى الرحمن بالغيب، يخشاه و هو تعالى «بالغيب» ثم و يخشاه «بالغيب» عمن سواه دون رئاء، و يخشاه بغيب ضميره و سريرة قلبه، فتظهر الخشية في أفعاله- إذا- فهو في شهوده أخشى.

و كما اتباع الذكر درجات، كذلك خشية الرحمن بالغيب درجات:

بغيبه تعالى، ثم بالغيب عن خلقه، ثم بغيب ضميره، كما و لكلّ من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 20

هذه الثلاث أيضا درجات! فلما أثر الإنذار ياتي- إذا- دور التبشير «فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ» عما سلف‏ «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ» (2: 28) و مغفرة حين اتباع الذكر، و خشية الرحمن عن تقصيرات او قصورات، إذ لا يخلوا أي مكلف عن لمم إلّا السابقين و المقربين، ثم‏ «وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ»: واسع، أوسع مما يستحقه و يرجوه، فهو أجر كريم من إله كريم، إلى عبد كريم، و أين كريم من كريم؟.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (12) هنا جموع ثلاثة موكدّة بحرف التأكيد تؤكد إحياء الموتى في جمعية الصفات‏ «1» و جمع الجموع أولا في الذكر و هو آخر في الواقع، كما و توكد كتابة ما قدموا و آثارهم و ليس إلّا في حياة التكليف، كذلك و إحصاء كل شي‏ء في إمام مبين و هو يسبقهما، و ليس عكس الترتيب إلّا بحساب ترتيب الأهمية، فالمحور الرئيسي في هذه الثلاث هو إحياء الموتى، و يلحقه إنذار: «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ» ثم يتم الإنذار و يطم‏ «وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و لا يعني الجمع في مثله جمع اللّه و ملائكته امّن ذا إذ لا يجعل اللّه نفسه المقدسة مع عبيده و لا سيما في الأفعال الخاصة به، فقول الصدر الشيرازي في تفسير يس ص 39: اي هو تعالى او ضرب من ملائكته المقربين المهيمنين الذين فعلهم مطوي في فعل الحق لفناء ذواتهم بغلبة سلطان النور الكامس الازلي على أنوارهم و اقتفاء اشعة تأثراتهم العقلية تحت شعاع الضوء القيومي- مردود الى قائلة- و من الغريب اعترافه بفناء ذواتهم ثم تفسير اجمع «انا نحن» بظهورهم بجنب الحق لحد صنعوا بجنابه، و ظهروا بجانبه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 21

لا محيي للأحياء يوم الإحياء إلّا هو، و لا كاتب لأعمالهم في حياة التكليف إلّا هو، و لا محصي لكل شي‏ء قبل شيئه إلّا هو، توحيدا في مثلث الأفعال مبدأ و معادا و بين المبدء و المعاد «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

و عل «الموتى» يعم بعدي الموت، قبل الحياة الدنيا و بعد الموت عنها:

«كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (2: 28): نحيي موتى الأجنّة بعد موتها الكائن «فأحياكم» ثم نحي موتاهم بعد حياتهم و موتهم‏ «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ».

فالإحياء الأول قضية الفضل واقع مكرور على أية حال، ملموس غير منكور بحال، فبأحرى الإحياء الثاني قضية العدل و هو أهون عليه‏ «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27).

ثم‏ «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ» في الحياة الدنيا تثبيتا لها في ظروف عدّة، حجة لهم و عليهم يوم يقوم الأشهاد، كتابة في أعناقهم و ذوات أنفسهم بتسجيل الصور و الأصوات: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 14) و كتابة في أرضهم بأجوائها و أشيائها بأشياعهم: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» (99: 5) «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45:) 29) و كتابه بكرام كاتبين مؤمّرين من قبل رب العالمين‏ «كِراماً كاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» (82: 12) و كتابة في سجلّات ضمائر الشاهدين:

«وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ» (16: 84) كتابات أربع تجمع كافة الشهادات العينية و ما دونها.

و ترى ما هو الفارق بين‏ «ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ»؟ و الأعمال كلها مقدّمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 22

لأنها كلها مكتوبة متطائرة دون إبقاء! علّ الفارق بينهما أن «ما قدموا» هي الأعمال المنقطعة بعد ما عملت مهما سجّلت، إذ لا يبقى لها أثر يتّبع، و أما «آثارهم» فهي الباقية بعد ما عملت من سنة حسنة أو سيئة تتّبع و كما يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1» و ذلك كعلم ينتفع به او يضر، و بناء مسجد او مفسقة، و ولد خلف او متخلف، أمّاذا و من؟ من أثر خير أو شر يتّبع، فإنه مكتوب قدر ما يتبع، كما أن ما قدموا يكتب كما قدّم، بل و آثارهم في وجه هي مما قدّمت، و إنما أفردت بالذكر بعد «ما قدموا» تنبيها أنها تحسب بحساب صاحب الآثار مهما انقطع العمل، لأنه من عواملها إذ سنّها و عبّد طريقها.

و قد تشبه الآية «يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ» (75: 13) ف «ما قدم» هو ما قدموا، و ما «أخر» هو آثارهم.

و قد تعم «آثارهم» الأنفسية منها بجنب الآفاقية، فقد يعمل خيرا أو شرا منقطع الأثر نفسيا و خارجيا، و أخرى له أثر في نفسه نتيجة الإصرار و التكرار، فيصبح ملكة بعد ما كان حالا و عملا، و ثالثة له أثر خارجي لا نفسي كملكة، و رابعة له الأثران، ف «آثارهم» قد تعم الثلاثة الأخيرة مهما اختلفت درجاتها أو دركاتها، فانها مشتركة في بقاء آثار للأعمال بعد انقطاعها، و مثالا للأثر النفسي خيرا «أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» (58: 32) و آخر لها شرا «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 260- اخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد اللّه البجلي قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من سن سنة حسنة فله أجرها و اجر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أجورهم و من سن سنة سيئة كان عليها وزرها و وزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شي‏ء ثم تلا هذه الآية «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 23

(4: 155) فتلك من كبائر الحسنات، و هذه من كبائر السيئات.

فالأعمال- إذا- مكتوبة لا هي فحسب، بل بمفعولياتها و فاعلياتها، الباقية بعد انقطاعها، إن خيرا فخير و إن شرا فشر، و هذا هو السرّ في زيادة العقوبات زمنا على السيئات- أحيانا- و نقيصتها عنها أخرى- حيث العمل يوزن- يوم الوزن- بمخلّفاته، لا فحسب بذاته، فالخلود أبديا و غير أبدي، و هما محدودان لأصل الحد في العمل بمخلفاته و خلفياته، ذلك الخلود لا تجب موازاته زمنا و في مادة العذاب بنفس العمل مادة و زمنا، بل و كما يكتب‏ «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» من العمل و آثاره‏ «أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ»! و قد تشمل «آثارهم» آثار أقدامهم إلى حسنات‏ «1» أو سيئات، فإنها ليست مما قدموا كأصول الأعمال، فلا تشملها «ما قدموا» و لأنها من سنن تتبع حسنات او سيئات فهي من آثارهم.

«وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» مما قدموا و آثارهم أما ذا من شي‏ء كائنات العالم كله، و أفعالها و أحوالها ما ظهر منها و ما بطن، كل ذلك دونما إبقاء «أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» و الإحصاء هو العلم التفصيلي، و الإمام المقتدى، و المبين هو المظهر، فما هو الإمام المبين؟

لا نجد الإمام المبين إلّا هنا و في الحجر «وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ» (79)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر اخرج ابن أبي سيبة و احمد و ابن مردويه عن انس قال: أراد بنو سلمة ان يبيعوا دورهم و يتحولوا قريب المسجد فبلغ ذلك النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فكره ان تعرى المدينة فقال يا بني سلمة اما تحبون ان تكتب آثاركم الى المسجد قالوا بلى فأقاموا

و عن ابن عباس فأرادوا ان ينتقلوا قريبا من المسجد فنزلت‏ «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ» فقالوا: بل نمكث مكاننا، أقول و اخرج ما في معناه جماعة آخرون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 24

و هما أصحاب لوط و أصحاب الايكة بما انتقم اللّه منهم، فعلّه صيغة أخرى عن اللوح المحفوظ و أم الكتاب، و الكتاب المبين، تعبيرات أربعة عن علمه التفصيلي بكل شي‏ء، فهم و ما قدموا و آثارهم، و كل شي‏ء سواهم، و كل فعل بجزائه، كل ذلك سابق في علم اللّه حتى و إحياء الموتى و كتابة ما قدموا و آثارهم، و لكنه ليس تقدير التسيير، و إنما تقدير العلم الكاشف عما سيكون كما يكون، بتسيير أو تخيير، فليس إحصاء الأعمال التكليفية في كتاب مبين بالذي يقدرها تسييرا، و إنما هو كشف عنها كما يحصل تخييرا.

و لأن ذلك الإحصاء لكل شي‏ء لا يعزب عنه شي‏ء فقد ينحصر باللّه الذي يعلم كل شي‏ء و يقدره، منحسرا عمن سوى اللّه و ان كان الرسول الأقدس (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ذويه، فليس عندهم الإحصاء المطلق كما عند اللّه، إلّا مطلق الإحصاء مما علمهم اللّه، فهم- إذا- المصداق الثاني للإمام المبين‏ «1» و اللوح المحفوظ و أم الكتاب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 279 ح 27 في كتاب معاني الاخبار باسناده الى أبي الجارود عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عن أبيه عن جده (عليه السلام) قال: لما نزلت هذه الآية على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» قام ابو بكر و عمر من مجلسهما و قالا: يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو التوراة؟ قال: لا قالا فهو الإنجيل؟ قال: لا قالا فهو القرآن قال: لا قال، فأقبل امير المؤمنين (عليه السلام) فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو هذا انه الامام الذي احصى اللّه فيه تبارك و تعالى علم كل شي‏ء.

أقول: انه تفسير بمصداق ثان ناطق في الخلق و اوله رسول اللّه ثم أوله الصامت كتاب اللّه و كل الثلاث من المصاديق التالية لعلم اللّه.

و

في تفسير البرهان 4: 7 ح 8 الشيخ في مصابيح الأنوار باسناده عن رجاله مرفوعا الى المفضل بن عمر قال: دخلت على الصادق (عليه السلام) ذات يوم فقال لي يا مفضل عرفت محمدا و عليا و فاطمة و الحسن و الحسين (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كنه معرفتهم؟

قلت يا سيدي ما كنه معرفتهم؟ قال يا مفضل عرفت تعلم انهم في طير الخلائق بجنب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 25

و الكتاب المبين‏ «وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ».

و علّ التنكير في‏ «إِمامٍ مُبِينٍ» يلمح لذلك الشمول جريا للعلم المطلق على مطلق العلم، فكما يفسر هكذا الصراط المستقيم بأمير المؤمنين (عليه السلام) كذلك الأمر في إمام مبين، فإنهما من تفسير التطبيق على مصاديق دون المصداق المطابق المعنّي في أصل الكلام و لأن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و معه عترته المعصومون (عليهم السلام) من شهداء الأعمال، و اللّه يحصي فيهم اعمال العباد كلهم، فهم ممن يكتب فيهم‏ «ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ» و كما يكتب فيهم سائر العلم إلّا ما اختص اللّه بعلمه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الروضة الخضراء فمن عرفهم كنه معرفتهم كان معنا في السنام الأعلى قال قلت عرفني ذلك يا سيدي؟ قال: يا مفضل تعلم انهم علموا ما خلق اللّه عز و جل و ذراه و براه و انهم حكمة التقوى و خزناء السماوات و الأرضين و الجبال و الرمال و البحار و عرفوكم في السماء نجم و ملك و وزن الجبال و كيل ماء البحار و أنهارها و عيونها و ما تسقط من ورقة إلّا علموها و لا حبة في ظلمات الأرض و لا رطب و لا يابس إلا في كتاب مبين و هو في علمهم و قد علموا ذلك فقلت: يا سيدي قد علمت ذلك و أقررت به و آمنت قال: نعم يا مفضل نعم يا مكرم نعم يا طيب نعم يا محبوب طبت و طابت لك الجنة و لكل مؤمن بها

و

ح 9 عنه رواه عن أبي ذر في كتاب مصباح الأنوار قال‏ كنت سائرا في أغراض امير المؤمنين (عليه السلام) إذ مررنا بواد النمل و نمله كالسيل سار فذهلت مما رأيت فقلت: اللّه اكبر جل محصيه فقال امير المؤمنين (عليه السلام) و لا تقل ذلك يا أبا ذر و لكن قل جل باريه فوالذي صوّرك اني احصي عددهم و اعلم الذكر من الأنثى بإذن اللّه‏

و 10

عن عمار بن ياسر قال‏ كنت مع امير المؤمنين (عليه السلام) في بعض غزواته فمررنا بواد مملوء نملا فقلت يا امير المؤمنين (عليه السلام) ترى يكون احد من خلق اللّه يعلم كم عدد هذا النمل قال نعم يا عمار انا اعرف رجلا يعلم كم عدده و كم فيه ذكر و كم فيه أنثى فقلت من ذلك يا مولاي الرجل فقال يا عمار، قرأت سورة يس‏ «وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» فقلت: بلى يا مولاي قال انا ذلك الامام المبين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 26

[سورة يس (36): الآيات 13 الى 32]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (15) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَ ما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17)

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19) وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى‏ قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22)

أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

وَ ما أَنْزَلْنا عَلى‏ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (29) يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (30) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (31) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (32)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 27

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13).

«وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا» بطيّات إنذارك‏ «أَصْحابَ الْقَرْيَةِ» مثلا يشبه هذه الدعوة و المدعوين في كونهم قوما لدا و حجاجهم اللدود و مصيرهم العسير يوم الدنيا و يوم الدين.

و عدم الإفصاح عن اسم القرية و سمة أهلها مما يفصح أنهما لا يزيدان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 28

في دلالة القصة و إيحائها إلى ما يرام منها، فلا يهمنا أنها «انطاكية» كما تقول الروايات أم غيرها، و كما لم يفصح عن اسماء الرسل، حيث الرسالات طبيعتها واحدة، كما المرسل إليهم، مهما اختلفت مواد الدعوة في بعض صورها و أزمنتها و أمكنتها، و لذلك لا نرى من أسماء الألوف من الرسل إلّا زهاء ستة و عشرين رسولا في القرآن، كان ذكرهم لزاما في هذه الرسالة الأخيرة.

و قد تلمح «إذ أرسلنا» لرسالة دون وسيط من رسول الإنسان‏ «1» مهما كان رسول الرسول بأمر اللّه رسولا من اللّه، فلا تنافيه الرواية القائلة أنهم رسل المسيح (عليه السلام) «2» اللهم إلّا بولص الخائن إذ لم يكن من الحواريين و لم يؤمن بالمسيح إلّا غدرا بعد صعوده (عليه السلام) فلم يكن المسيح ليرسل رسولا إلا بإذن اللّه، و إذ لم يصدق «إذا أرسلنا» فمن المستحيل أن يرسله اللّه على علمه أنه خائن‏ «3».

إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 279 ج 30- تفسير القمي بسند متصل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن تفسير هذه الآية فقال: بعث اللّه عز و جل رجلين الى اهل مدينة انطاكية فجاءهم بما لا يعرفون فغلظوا عليهما فأخذوهما و حبسوهما في بيت الأصنام فبعث اللّه الثالث فدخل المدينة ...

(2) المصدر عن المجمع قال وهب بن منبه بعث عيسى هذين الرسولين الى انطاكية ... فلما كذب الرسولان و ضربا بعث عيسى (عليه السلام) شمعون الصفا رأس الحواريين على اثرهما لينصرهما ...

(3) الدر المنثور 5: 261- اخرج ابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال: اسم الرسولين الذين قال: إذ أرسلنا إليهم اثنين شمعون و يوحنا و اسم الثالث بولص!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 29

«فكذبوهما» كما كذّبت أمم قبلهم و بعدهم و معهم بعذرهم البائس المتكرر: «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ...» «فعززنا» الرسولين برسالتهما «بثالث» فإنّ في تلاحق الحجج مزيدا من الاعتزاز للحق «فقالوا» جميعا بكلمة واحدة: «إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ» صيغة سائغة صارمة بتأكيد «إنا» و تقدّم الظرف الموحي للاختصاص: «إليكم» مع التعزيز بثالث.

فقبل الثالث «كذبوهما» بإجمال دونما عناية و اعتداد، فلما عززنا بثالث فصرمت الحجة، أخذوا في سرد الرد عليهم بعرض عريض إذ عرفوا تلاحق الرسالة في تعزيز دونما وقفة، فحاولوا في نكرانها و احتالوا في تكذيبها بحجة مفصلة هي في زعمهم قاطعة قارعة، و لكي يرتاحوا عن تواتر الرسالة.

قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15).

«ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» كحجة أولى لتكذيبهم، حيوانية التصور، إذ تحصر إنسانية الإنسان ببشريته، دون ان تحسب روحه و روحانيته بحساب، و في هذا المقياس الحيواني هؤلاء هم أولى بالرسالة إذ يملكون من حيوانية الإنسان أكثر منهم، و هم كأمثالهم معترفون بمماثلتهم في بشريتهم، و لكنهم يمتازون عنهم بما يوحى إليهم قدر الاستعداد في روحياتهم و قابلياتهم: «قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ... قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ...» (14:) 11) «قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ ...» (41: 6).

فالمماثلة في البشرية ليس لزامها المماثلة في سائر الميزات الروحية بقابلياتها، و لكنهم يحصرون الإنسان في بشريته، و يحسرونه عما سواه من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 30

ميزاته، فقياسهم يمثل قياس إبليس اللعين: «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» و هم بذلك في أسفل سافلين! «وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ‏ءٍ» كنتيجة عن تلكم المماثلة الحاصرة الخاسرة الحاسرة أن لو أنزل من الرحمن شي‏ء لأنزل علينا كما أنزل عليكم، و إذ لم ينزل علينا «ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ‏ءٍ» على بشر.

و لأن «الرحمن» رحمة عامة، فللمماثلين في البشرية إما أن تنزّل هذه الرحمة على سواء، أم لا تنزل على سواء، و الجواب أن الوحي إنما هو من مبدإ الرحيمية، رحمة خاصة للخصوص من عباده الصالحين، فالنازل على الإنسان- كبشر- رحمة رحمانية، و لكنما النازل عليه كإنسان في مختلف المنازل الروحية، إنما هو رحمة رحيمية، من كتابة الإيمان و إلى نبوءة و رسالة و إمامة الرسل و خاتمة للوحي، «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» فإن قضية الربوبية الحكيمة عدم التسوية بين المختلفين في الاستعدادات و القابليات و الفاعليات، و الحاجة الضرورية للناس إلى الرسالات من أمثالهم في البشرية لتكون الحجة بالغة لا تبقي على أثر من نكران و عاذرة!.

فمهما لم ينزل الرحمن وحيا يعم البشر- و لن ينزل- فقد أنزل الرحيم وحيا: «وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ».

و «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» كنتيجة حاسمة في حسبانهم، هي حصرهم لدعواهم رسالة الوحي في الكذب! قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17).

أ ترى‏ «رَبُّنا يَعْلَمُ» تثبت لهم رسالة إلى هؤلاء الناكرين؟ و لكل مدع لا يملك برهانا على دعواه أن يقول‏ «رَبِّي يَعْلَمُ» و للناكر أن يعكسها نفيا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 31

لها «ربي يعلم انك لست بمرسل» و على أقل تقدير: أنّى لنا سبيل الى‏ «رَبُّنا يَعْلَمُ»! فإن هي إلّا حجة داحضة لا تليق بالرسل، و ليست إلّا مهزئة للناكرين الذين ينكرون الحجج البالغة للرسل فضلا عن هذه؟! الجواب كل الجواب تجده في‏ «رَبُّنا يَعْلَمُ» فلم يقولوا «الله يعلم» أو «رب العالمين يعلم» او «الرحمن يعلم» و إنما «رَبُّنا يَعْلَمُ» توجيها للناكرين إلى حجة ملاصقة بهم، ملازمة لهم، هي التربية الخاصة الإلهية الملموسة فيهم، من رحمة رحيمية خاصة تخص المرسلين.

فيعلم‏ «رَبُّنا يَعْلَمُ» بما يرى فينا، و يعلم من التربية الرسالية الإلهية، كحجة ملاصقة بنا، بعد ما يعلم أن «ربنا» لا يجعل الناس على سواء، و الحاجة إلى اصطفاء بين كل قبيل لدعوته ضرورة مدقعة! فلا تحصر حجج الرسالة الإلهية بآياتهم المنفصلة عنهم كإحياء الموتى و اليد البيضاء أمّاذا؟ فالرسل آيات الهية في ذوات أنفسهم قبل آياتهم، تتمثل فيهم التربية الرسالية، كما أفصح عن أهمها رجل من أقصى المدينة «اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» فهم يملكون ما يملكه الرسل في دعواتهم بموادها، بصورتها و سيرتها، ثم و قد يتزودون بآيات منفصلات إتماما للحجة و إيضاحا للمحجة: «وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» بلاغ يبين نفسه أنه رسالي إلهي، و يبين ما يخفى على المرسل إليهم من سبل إلى اللّه، و كمال الإبانة في بلاغهم ياتي بآيات بعد آيات أنفسهم، فالآية الكائنة معهم أينما كانوا هي آيتهم‏ «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» و الآية التي عليهم لإبانة البلاغ هي المنفصلة عن ذوات نفوسهم، و قد قضوا ما عليهم بطبيعة الحال، و لا سيما أمام هؤلاء الناكرين الألداء! و من ثم‏ «رَبُّنا يَعْلَمُ ...» توجيه إلى قضية الربوبية الرحيمية، أنها ليست على سواء بالنسبة للمربوبين، فلكلّ حسب فاعلياته و قابلياته، و كل حسب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 32

حاجيات العالمين الى درجات من الهدى، و «رَبُّنا يَعْلَمُ» دون سواه يعلم ما هي الحكمة في اختصاص بعض الناس بالرسالة دون بعض، «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» (6: 124) كما «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ» (22: 75).

«رَبُّنا يَعْلَمُ ...» هدم لصرح الاستحالة في رسالة البشر و إنزال الوحي عليه، ثم تبنّ لصرح الرسالة بآياتها الذاتية المشاهدة في المرسلين، و من ثم آيات منفصلة تؤيدها و اللّه من وراء القصد.

هذان شرطان أصيلان يتبنّيان الرسالة الإلهية: أن يحملوا معالم التربية الإلهية الرسالية، و أن يبلغوها البلاغ المبين: «وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» (24: 54).

هناك اندحضت حجة الناكرين فتحوّلوا إلى هراء في عراء عن شاكلة الحجة و إن بصورتها، قوله ناكبة ماردة لكل عاجز عن الحجة، حاجز عن المحجة، حيث تتهددهم بالرجم:

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18).

التطيّر هو التشام، فلما نكب أهل القرية في جواب الرسل عن تكذيبهم توصلوا إلى شطحات القيلات: «إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ» و التهديد بأشد العذاب: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ» و سائر العذاب: «وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ» و هكذا يسفر الباطل عن غشمه، و يطلق على الهداة تهديده و عربدته في التعبير و التفكير.

قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19).

ليس طائركم منا بل هو معكم، حيث تواجهون الناصحين بكل شؤم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 33

و لؤم، كالقبيح الدميم الناظر الى المرآة متطيرا بها قباحته و دمامته، و طائره معه لا سواه.

«أئن ذكرتم» بما يصلحكم فأنتم تتطيرون بنا، كلّا لا طائر معنا «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» في الزور و الغرور.

ليس هناك شؤم في زمان أو مكان أم ايّ كان لكي يأتي الإنسان من غيره، دونما شؤم في نفسه، رغم ما يتشأمه الشائمون حيث يتطيرون بأشياء أو أشخاص، و قد يسرفون في ذلك تطيرا بالصالحين المصلحين، خرافة جازفة جارفة لا تستقيم على أصل عقلي او علمي، إلّا أساطير الأولين.

و هكذا يكون دور القلوب المقلوبة المعقولة بعقالات الجاهليات، و الحق الحقيق بالاتباع‏ «أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» و أن‏ «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» و كل إنسان يعمل على شاكلته، فلا يصيبه شر إلّا من نفسه أو من هو كنفسه، فطائر كلّ معه و هو عند اللّه، يصيبه به جزاء وفاقا: «فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (7: 131) «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ. قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» (27:) 47) ذلك و على حدّ

المروي عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا عدوى و لا طيرة و لا شؤم‏ «1»

و

«الطيرة على ما تجعلها إن هونتها تهونت و إن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 382 ج 35 في روضة الكافي قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 34

شددتها تشددت و ان لم تجعلها شيئا لم يكن شيئا» «1»

إذ ف‏ «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» و

«كفارة الطيرة التوكل» «2».

كل ذلك إذ لا أصالة للطيرة، إلّا أن تشدد تخيّلها فتشدد عليك، أم تتكل على اللّه فلا تجعلها شيئا.

ثم و ذلك التعزيز بثالث لم يفدهم إلّا إتمام الحجاج، و من ثم منهم تمام اللجاج، فقدتمّ دور الرسالة ببلاغها المبين، ثم يأتي دور من اتبع الذكر و خشي الرحمن بالغيب، دون اختصاص بإيمانهم الشخصي بل و مناصرة الرسل المكذبين، و لم يكن في البلدة كلها إلّا رجل من أقصاها:

وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى‏ قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20).

و رجل من أقصى المدينة هو رجل الضاحية، متحررا عن أغلال المدينة بأوساطها، متحللا عن أوزارها و أوضارها، خالصا في إيمانه، ساعيا في إتيانه، و كما «جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى‏ قالَ يا مُوسى‏ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ» (28:) 20).

و هكذا تكون الرجولة البطولة للصالحين الصامدين من المؤمنين أنهم يعيشون نصرة الرسالات و المرسلين، بكل ما لديهم من طاقات و إمكانيات، دونما نظرة لجموع محتشدة ينضمون إليهم، فالقيام للّه مثنى و فرادى: «قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى‏ وَ فُرادى‏ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 382 ج 33 في روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام): ...

(2) المصدر عنه (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 35

(34: 46) «وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» (40:) 28).

و في مجي‏ء رجل من أقصى المدينة دلالة أن بلاغ الرسل بلغ من أقصاها إلى أقصاها، فقد ملئت ببلاغهم المبين لحد يجذب لمناصرتهم رجلا من أقصاها، مليئا من دعوة الرسالة أقصاها، متخطيا في مجيئه هذا أقساها قلبا و أدناها.

و لا مهمة في أن نعرف اسمه و شغله، فليس الأشخاص و الأشغال و الشخصيات بالتي تخلق الرجولات و إنما هو الإيمان الصارم الصامد أينما حل، في وسط المدينة أم قصيّها أو أقصاها، فلا يهمنا أنه حبيب البخار أو الحراث أو القصار أم رجل الغار «1»، حيث القصص القرآنية هي نخبة تقص عن تاريخ الماضين، فيها عبرة لأولى الألباب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 5: 261- عن قتادة قال بلغني انه رجل كان يعبد اللّه في غار، و عن عمر بن الحكم قال بلغنا انه كان قصارا، و عن ابن جريح كان حراثا، و

في نور الثقلين 4: 384 ج 41 في امالي الصدوق باسناده الى عبد الرحمن بن أبي ليلى رفعه قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين و حزقيل مؤمن آل فرعون و علي بن أبي طالب (عليه السلام) و هو أفضلهم.

و في الدر المنثور 5: 262- اخرج ابو داود و ابو نعيم و ابن عساكر عن أبي ليلى عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مثله سواء، و اخرج البخاري في تاريخه عن ابن عباس مثله الا في «أفضلهم»

و

اخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: السبق ثلاثة فالسابق الى موسى يوشع بن نون و السابق الى عيسى صاحب يس و السابق الى محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) علي بن أبي طالب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 36

«رَجُلٌ يَسْعى‏» في مجيئه و في مناصرته المرسلين و في كلما تتطلّبه من سعي.

قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (21).

فالاهتداء الرباني فيهم ظاهرة الملامح و كما استدلوا به في حجاجهم على هؤلاء المكذبين، و هذه سنة دائبة للمرسلين، كما و أن عدم سؤال الأجر سنة لهم ثانية و بذلك لهم إمكانية البلاغ المبين، فالسائل اجرا في بلاغة يحدّده بحدود أجره، و يراعي فيه طلبات المرسل إليهم، و الذي لا يسأل اجرا و هو ضال، شيطان يرائي، و المهتدي الذي قد ينحو نحو ضلال قاصرا أو مقصرا لا يهدي إلى الحق الصراح: «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»؟ و اما من لا يسأل أجرا و هم مهتدون، فهم الهادون الذين يجب إتباعهم، فإن لهم البلاغ المبين دون أي خفاء في أصله و فرعه، في صورته و سيرته، كالنار على المنار و الشمس في رايعة النهار، تجب متابعتهم دون قيد و لا شرط لمكان العصمة و الهداية المطلقة كالرسل و الأئمة، و أما سائر العلماء الربانيين، فاتباعهم لغير العلماء محدود بحدود الهدى و المصلحة، حيث يسقط واجب اتباعهم و ولايتهم عند الاخطاء قاصرين أو مقصرين، و بأحرى ليس الفقيه وليا على فقيه آخر إلّا عمليا في باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر «1» و كما للمؤمنين ككل بعض البعض‏ «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (9: 71).

و ان تعجب فعجب من هؤلاء الذين يدفعون أجرا و يضلون، ثم من يضلون دون أجر، و من ثم يهتدون بأجر، فما الهدى الصالحة إلّا هدى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة الأحزاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 37

مطلقة دون أجر، ماديا أو معنويا «لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً» بل و حتى إن هتكوهم و ضربوهم فأحرجوهم و أخرجوهم، ليسوا هم بتاركي دعوة الحق، مما يدل على صدقهم القاطع، فلا مال هنالك و لا منال، إلّا حرمانا عن زهرة الحياة، و مهاجرة دائبة في سبيل الدعوة، و كما نراها في كل داعية رسالية! «اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» و حتى إذا لم يحملوا آيات الرسالة و معجزاتها، كما و هو السنة المتبعة في التقاليد الحقة الحرة لكل جاهل عن عالم، كيف و هم أولاء الرسل يحملون آيات الرسالات في ذوات نفوسهم و ذوات ألسنتهم و أيديهم و كما برهنوا بها «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ».

«ليس الأنبياء عملا و لا عمالا إلا لرب العالمين» (26: 109) «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (11: 51) «إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» (11: 29).

فمن لا يسأل على رسالته- على صعوباتها- أجرا و هم مهتدون، و ليست لهم رباط إلّا باللّه، إذا فأجرهم على اللّه، و كما رسالتهم من اللّه، و لا مغالاة لهم في سؤال الأجر و في الدلالة، فالمقتضي لاتباعهم- و هو الاهتداء بهم موجود، و المانع و هو الضلال أو الأجر مفقود.

فإنهم ليسوا ليطلبوا أو يأخذوا من دنياكم شيئا بديل الدعوة حتى تخسروا منها باتباعهم، و إنما يدلونكم إلى الهدى، فلكم في اتباعهم خير الآخرة و الأولى، و في تركه، هم- لأقل تقدير- لا يخسرون و أنتم الخاسرون، و هذا يشبه احتجاج علي (عليه السلام) «إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعا و إلا فقد تخلصنا و هلكت»! وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 38

و هنا انتقال من حجة الرسالة الى تجاوبها مع الفطرة: «و مالي»؟ فما هو بالي و وبالي أن اعبد من دون اللّه- الذي فطرني- من هو مثلي أو دوني أو من هو فوقي و «لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» و فطرهم، فما أشنعه ظلما بالحق أن أترك عبادة فاطري إلى عبادة المفطورين مثلي، أو اشركهم في عبادته‏ «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» دون الذين به تشركون ف‏ «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

فمالي، مالي أنجرف هكذا الى شفا جرف هار، و لا تجاوبه الفطرة و لا العقل و لا دعوات الرسل؟

و هنا «مالي» واجهتان أولاهما سئوال الرجل عن نفسه، و الأخرى سؤال كل ذي فطرة عن فطرته، «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يتبنّى الثانية كحجة على الكل، فلأن رجوعهم إلى الذي فطرهم لا سواه، فليعبدوه لا سواه، و «فطرني» تعني فطر الخلق، و خلقهم على فطرة التوحيد، فخالقيته لا سواه، ثم فطرة التوحيد، و من ثم الرجوع إلى الفاطر لا سواه أدلة ثلاثة على وجوب عباد اللّه لا سواه.

أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ (23).

و هذه حجة رابعة للتوحيد تعني الواجهة السلبية «إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ» هنا أو في الأخرى‏ «لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً» أن يشفعوا لي عند اللّه زعم التوهم الهراء: «هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ» ثم «و لا ينقذون» من ضر الرحمن مستقلين في إغنائهم عني، فلا هم مستقلون في دفع الضر عني، و لا هم شركاء شفعاء، فما تفيدني إذا عبادتهم، و ترفضها قبل ذلك الحجج الثلاث و تمجّها مجّا! إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) ضلال يبين نفسه أنه ضلال، دونما حاجة إلى اختلاق حجة و تكلّف برهان، حيث الفطرة تجاوب حق التوحيد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 39

و باطل الشرك كآية أنفسية قبل الآيات الآفاقية.

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) و هل المخاطبون هنا هم الرسل، يظهر لهم إيمانه بمعرض الناكرين، ليشهدوا له عند اللّه؟ و كانوا شاهدين إيمانه منذ جاء من أقصى المدينة! و اللّه هو شاهد الإيمان دون شهادة! أم هم الناكرون فليسمعوا إيمانه بحججه ليتبعوه أو يزيدهم حجة إذ ينكرون؟ و يناسبه «بربي» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» لا «بربكم» إذ كانوا يعبدون أربابا من دون اللّه! اللهم إلّا أن يعني الرب الفاطر الذي هم به مؤمنون.

قد يعنيهما جميعا جمعا بين الأمرين، و «بربكم» دون «أربابكم» يختصه باللّه الواحد، و لأن رب المرسلين هو ربه و رب المكذبين، و قد برهن لربوبيته الوحيدة في حجاجه، فأحسن الصيغ هنا «ربكم» مما سرّ المرسلين و أغاظ الناكرين لحدّ قتلوه فور قوله الجاهر القاهر، إذ كانت شهادته بالتوحيد- و هو رجل من أقصى المدينة- تجاسرا على أصحاب المدينة.

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) وَ ما أَنْزَلْنا عَلى‏ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ (28).

فأمره بدخول الجنة و تحسّره على جهل قومه، و غفران ربه له، و جعله من المكرمين، و «من بعده» لمحات خمس أنهم قتلوه فور قوله: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ»! و الجنة هنا هي البرزخية حيث يدخلها المؤمن فور ارتحاله إلى رحمة ربه، فإن الجنة الأخرى ليست إلّا للقيامة الكبرى، و إلّا لشي‏ء أصيل من هذا البدن قليل، و البدن الآن بكامله تحت التراب أمّاذا؟ و لمّا تأت القيامة الكبرى، فهذه من الآيات الدالات على الحياة البرزخية بعد الموت دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 40

فصل، فان «قيل» هنا و «قال» تدلان على استمرارية حياة الميت بعد الموت، فلا يعني الموت إلّا فصل الروح ببدنه البرزخي عن هذا البدن، و لا يعني موت الروح و فوته و كما تفصله الآيات البرزخية الأخرى.

و لما «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» قال مبتهجا لنفسه، متحسرا على قومه‏ «يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ» أمرين خفيا عنهما:

1- «بِما غَفَرَ لِي رَبِّي» أن أذهب عني سيأتي رفعا، و دفع عني التي كانت تهاجمني، و لا فحسب الغفران بل- 2- «وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» و هم بين الملائكة: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (21: 27) و بين سائر المؤمنين من مخلصين‏ «إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ‏ ...

وَ هُمْ مُكْرَمُونَ» (37: 42) و من مخلصين: «أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ» (70: 35) و هم مشتركون- على درجاتهم- في أنهم لا يعذّبون و لا يؤنّبون، و لذلك نرى الرجل يستقبل فور موته ب‏ «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ».

و كما اللّه أكرم ذلك الرجل الناصر للمرسلين، كذلك أهان قاتليه المكذبين أن اخمد ثائرتهم بصيحة واحدة دون أن ينزل عليهم من جند من السماء «وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ» جند السماء على مردة الأرض، و استصغارا لموقفهم و استضعافا.

إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (29) صيحة واحدة أخذت جموعهم المحتشدة المتكاثفة المتكاثفة، التي كانت كنيران مسعّرة على الرسالات‏ «فَإِذا هُمْ خامِدُونَ» خاملون دون حراك في أي عراك، ويكأنهم لم تسبق لهم حياة! صرعى سبات مهانين مصغّرين، و قد سدل الستار سراعا على مشهدهم البائس المهين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 41

و ترى كيف كانت معهم عاقبة المرسلين، فهل قتلوا مع صاحب يس؟

و «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» لا تشملهم! أم هم نجوا من هذه المعركة الدموية الصاخبة، و قتل مؤمن واحد لا يخلّف صيحة تخمدهم جميعا! الأمر الواضح في هذا البين أن الرجل الأقصى قتل و أن أصحاب القرية خمدوا بصيحة واحدة، و لو أن الرسل قتلوا لأشير إلى قتلهم كما الإشارات إلى قتل المناصر.

و الصيحة التي اخمدتهم كذلك تخمد الرواية القائلة أن السلطان آمن و أهل مملكته‏ «1» فلو أن هناك مؤمنين و لا سيما السلطان و جماهير من أتباعه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 379 ج 30 القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن مالك بن عطية عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن تفسير هذه الآية فقال: بعث اللّه عز و جل رجلين الى اهل مدينة انطاكية فجاءهم بما لا يعرفون فغلظوا عليهما فأخذوهما و حبسوهما في بيت الأصنام فبعث اللّه الثالث فدخل المدينة فقال أرشدوني الى باب الملك قال فلما وقف على الباب قال انا رجل كنت أتعبد في فلاة من الأرض و قد أحببت ان اعبد إله الملك فابلغوا كلامه الملك فقال أدخلوه الى بيت الآلهة فأدخلوه فمكث سنة مع صاحبيه فقال لهما بهذا ينقل قوم من دين الى دين بالخرق أ فلا رفقتما؟ ثم قال لهما لا تقران بمعرفتي ثم ادخل على الملك فقال له الملك بلغني انك كنت تعبد الهي فلم أزل و أنت اخي فسلني حاجتك فقال: ما لي من حاجة ايها الملك و لكن رأيت رجلين في بيت الالهة فما حالهما؟ قال الملك: هذان رجلان أتياني ببطلان ديني و يدعواني إلى آله سماوي فقال ايها الملك مناظرة جميلة فان يكن الحق لهما اتبعناهما و ان يكن الحق لنا دخلا معنا في ديننا و كان لهما ما لنا و عليهما ما علينا. قال:

فبعث الملك إليهما فدخلا اليه قال لهما صاحبهما: ما الذي جئتما به؟ قالا: جئنا ندعوه الى عبادة اللّه الذي خلق السماوات و الأرض و يخلق في الأرحام ما يشاء و يصور كيف يشاء و أنبت الأشجار و الثمار و انزل القطر من السماء قال: فقال لهما إلهكما هذا الذي تدعوان اليه و الى عبادته ان جئنا بأعمى يقدر ان يرده صحيحا؟ قالا: إذا سألناه أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 42

فلما ذا الصيحة و القتلة الجماهيرية؟

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (30) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (31) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (32)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يفعل فعل ان شاء قال: ايها الملك عليّ بأعمى لم يبصر شيئا قط قال:

فأتي به، فقال لهما ادعوا إلهكما أن يرد بصر هذا فقاما وصليا ركعتين فإذا عيناه مفتوحتان و هو ينظر الى السماء فقال: ايها الملك علي بأعمى آخر فأتى به قال: فسجد سجدة ثم رفع رأسه فإذا الأعمى بصير فقال: ايها الملك حجة بحجة علي بمقعد فأتي به فقال لهما: مثل ذلك فصليا و دعيا اللّه فإذا المقعد قد أطلقت رجلاه و قام يمشي فقال: ايها الملك على بمقعد آخر فأتى به فصنع به كما صنع اوّل مرة فانطلق المقعد فقال: ايها الملك قد أتيا بحجتين و أتينا بمثلهما و لكن بقي شي‏ء واحد فان هما فعلاه دخلت معهما في دينهما ثم قال: ايها الملك بلغني أنه كان للملك ابن واحد و مات فان أحياه إلههما دخلت معهما في دينهما فقال له الملك: و أنا أيضا معك ثم قال لهما: قد بقيت هذه الخصلة الواحدة قد مات ابن الملك فادعوا إلهكما ان يحييه قال فخرا ساجدين للّه عز و جل و أطالا السجود ثم رفعا رؤسهما و قال للملك ابعث الى قبر ابنك تجده قد قام من قبره ان شاء اللّه قال: فخرج الناس ينظرون فوجدوه قد خرج من قبره ينفض رأسه من التراب قال: فأتى به الى الملك فعرف انه ابنه فقال له: ما حالك يا بني؟ قال: كنت ميتا فرأيت رجلين بين يدي ربي الساعة ساجدين يسألانه ان يحييني قال: يا بني تعرفهما إذا رأيتهما؟ قال: نعم قال: فاخرج الناس جملة الى الصحراء فكان يمر عليه رجل رجل فيقول له أبوه انظر فيقول لا ثم مروا عليه بأحدهما بعد جمع كثير فقال: هذا أحدهما و أشار بيده اليه ثم مروا ايضا بقوم كثيرين حتى رأى صاحبه الآخر فقال: و هذا الآخر قال: فقال النبي صاحب الرجلين اما انا فقد آمنت بإلهكما و علمت ان ما جئتما به هو الحق قال: فقال الملك و انا ايضا و آمن اهل مملكته كلهم.

أقول و في المجمع عن وهب بن منبه ذكر القصة باختلاف يسير، و هذه القصة تخالف الآيات من جهات عدة فهي إذا مختلقة مردودة لمخالفة القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 43

«يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ» و هم عباد اللّه تكوينا و تشريعا، كيف أصبحوا عباد الشيطان، ف- «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» طول التاريخ الرسالي، و هم المترفون المفرطون في تكذيب الرسالات، و أتباعهم الضعفاء. «ألم يروا» رؤية في أعماق التاريخ، و أصدقه ما يقصه القرآن‏ «كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ» الطائلة «أنهم» بعد هلاكهم‏ «إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ» فهل ينتظرونهم لكي يخبروهم بصدق الحياة الحساب بعد الموت أم كذبه؟ أم ينتظرونهم أن يرجعوا فيصلحوا أعمالهم، و لات حين مناص، إذ فات يوم خلاص! إن الهلكى و سواهم «إن كل» دونا استثناء «لما» إلا «جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» إحضارا للحساب فالثواب أو العقاب، كسائر المؤمنين، أم ثوابا دون حساب‏ «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 44

[سورة يس (36): الآيات 33 الى 47]

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (37)

وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40) وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (42)

وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى‏ حِينٍ (44) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (46) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (47)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 45

آيات خمس ذات دلالات على وحدانية المبدإ الخالق المدبر المعبود و إمكانية و لزوم المعاد، نعيشها طول حياتنا ليل نهار و نحن عنها غافلون.

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) الأرض الميتة بموتتها الأولى قبل حياتها، و بموتات لها تترى، إنها آية لميتاتهم، أولاها لأولاها و أخراها لأخراها: «أحييناها» عن موتتها الأولى، و يستمر إحياءها طول كونها قبل قيامتها الكبرى: «وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى‏ إِنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (41: 39) أ فلا يدل هذا الواقع المكرور على إمكانية إحياءكم بعد موتكم؟ و من ثمّ على لزومها في ميزان العدل و الفضل كما «وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» فذلك الحب الكامن في الأرض لا يخرج ليؤكل إلّا بإحياء الأرض بالماء، و كذلك معادن الإنسانية و كنوزها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 46

لا تخرج كاملة شاملة إلّا بإحيائها بعد موتها، إذ لا نرى محاصيل أعمالها و مساعيها خيرا أو شرا في أولاها فلتخرج في أخراها.

ففي الحياة بعد الموت أولويتان اثنتان بالنسبة للحياة الدنيا، أولاها بجنب القدرة الإلهية أنها أهون على اللّه: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) و أخراها بجنب العدل و الفضل حيث الأولى قضية الفضل و الأخرى قضية العدل و الفضل.

وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (35).

في حياة الأرض جنات و عيون، ليأكلوا من ثمر ذلك الإحياء «1» أو الجعل، أم ثمر اللّه‏ «وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ» نفيا و اثباتا «2» ليأكلوا من ثمره و لم تعمله أيديهم كله، حيث الأرض بأشجارها و عيونها ليست من عملهم، و إنما يعملون فيها فتثمر لهم أكثر مما عملوا، و «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ» و من ما عملته أيديهم، فهنالك ثمر لم تعمله أيديهم و هو الأكثر من كيان الثمر، و هناك ثمر عملته أيديهم و هو الأقل من محاولات صورية لنضد الثمر و نضجه «أ فلا يشكرون» اللّه فيما أثمر لهم من إحياء الأرض و عمل الأيدي؟ ثم هم و أيديهم- كما الأرض- من عمله سبحانه «أ فلا يشكرون»؟ فيختلقون معاذير كأنها تحيل الحياة بعد الموت: استبعادا لإحياء الموتى؟ «الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها» و نحييها بعد موتات طول كونها! أو استحالة لأنه من إعادة المعدوم الممتنعة عقليا؟ و ليس المعاد في المعاد إلّا الروح بعينه و البدن بمثله، و المادة من مادته الأولى، فكما المعاد في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الضمير الغائب لا يصلح رجوعه ادبيا و معنويا الا الى الإحياء المستفاد من أحييناها او لجعل اللّه المحيي الجاعل.

(2) «ما» هنا تعني النافية و الموصولة معا فالمعنيان معنيّان و هما متقاربان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 47

ثمرات الأرض الميتة هي أمثالها في صورها و أعيانها في موادها، كذلك الأحياء في الإحياء هي اولى حيث الأرواح هي عين الأرواح! و إنما تماثلها الأجساد.

أو استحالة حيث استئناف الحياة بحاجة إلى استعداد البدن لقبول الحياة، و اكتماله بمضي المراحل الجنينية؟ و خالق الاستعداد ليس محصورا في خلقه بصورة واحدة كما في هذه النشأة، بل قفزة في الأخرى كما في الخلق الأول هنا: «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» و كما الأرض تحيى لمرات تترى، و اللّه هو الذي يعيدها في طائل الزمن أم قصيره! أم إن الحياة بعد الموت لا غاية فيها ترجحها أو تلزمها؟ و «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ» في إحياء الأرض بعد موتها بيان لغاية قصوى من إحيائها «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ» مثالا لثمرات الصالحات أنها تربوا أعمال أيديهم في وجه النفي من «ما عملت» أم و في الإثبات ايضا حيث الثمر ليس عمل أيديهم! بل كل ذلك من يد اللّه و أياديه، فكما قدرت الزرع على الحياة و النماء، كذلك أقدرتهم على العمل‏ «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ»؟ و كذلك يكون الثمر في اليوم الآخر حيث يخرج اللّه من المكلفين حبوبهم و ثمارهم‏ «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً» (17: 13) و ذلك الكتاب هو مجموعة العقائد و النيات و الأقوال و الأعمال، و هي هي جزاء أصحابها بما تظهر في ملكوتها و حقائقها ف‏ «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (52: 16) إلّا أن العقاب ليس إلّا عدلا جزاء وفاقا دون زيادة على العمل بل و قد ينقص، و لكنما الثواب فضل و عطاء غير مجذوذ: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ» (10: 26) «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ»؟ كعلة غائية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 48

قصوى للإحياء في الأولى ثم الأخرى، و الأولى قائد الأخرى و رائدها «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36).

ما سوى اللّه كلّها أزواج، ف‏ «الْأَزْواجَ كُلَّها» تعني الكائنات كلها سوى اللّه: «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (51: 50) «1» فكل ممكن زوج تركيبي، مزدوج الكيان، فليس بالإمكان كونه إلّا في زوجية مّا أيا كان، فلا كائن فردا بسيطا إلّا اللّه، فلا غنيّ مطلقا إلّا اللّه‏ «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ» ف‏ «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها ...» أن يتخذ منها شريكا و الكل فقراء إلى اللّه فكيف يفتقر إليها اللّه؟! و زوجيته كلّ شي‏ء هي لأقل تقدير ذات بعدين، في ذاته، و بالنسبة لسواه، فحاجة ذات بعدين يتعلق فيها باللّه: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ» حيث ازدواجية الرباطات المنضّدة بوحدة القاعدة الضابطة في التكوين، إنها تشي بوحدة اليد المزدوجة المبدعة على اختلاف الأشكال و الأحجام و الميّزات و السمات ف‏ «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها ..» من شريك أو ند، أو عجز أو ظلم أمّا ذا من نقص في ساحته أو ركس في سماحته.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد بحثه الوافي في الفرقان ج 27 ص 337- 343 و في الدر المنثور 5: 262 اخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله سبحانه‏ «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها» قال: الأصناف كلها الملائكة زوج و الانس زوج و الجن زوج و ما تنبت الأرض زوج و كل صنف من الطير زوج ثم فسر فقال: مما تنبت الأرض و من أنفسهم و مما لا يعلمون- الروح لا يعلمه الملائكة و لا خلق اللّه لم يطلع على الروح احد و قوله: و مما لا يعلمون: لا يعلم الملائكة و لا غيرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 49

و من‏ «الْأَزْواجَ كُلَّها» «مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» مثل ثلاثي عن الأزواج كلها، كنموذج شامل يمثل لنا الأزواج كلها، فإن أرض الأزواج كسمائها، متماثلة في طولها و عرضها و «مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» تعم ما لا نعلمه أو لن نعلمه.

و «مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ» تشمل نباتاتها الجمادية و النباتية و الحيوانية و كما الإنسان: «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (71: 17) ف «من أنفسهم» تخصيص لذكر الإنسان بعد تعميم فإنه المحور في ذلك التذكير.

ثم‏ «وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» يشمل من كائنات الأرض و سواها ما نجهله، و علمنا وجودها كالروح، أم لم نعلم ككائنات في الأرض أو في السماء لمّا عرفناها، و مما سوف نعلمه كما عرفنا الذرة بأجزاء لها بعد قرون من نزول القرآن، و ما لن نعلمه رغم التأكّد من وجوده كالمادة الأولية الأم بتركّبها الثنائي، حيث العلم بحقيقتها يساوق القدرة على إيجادها و إفنائها، و هو منحصر في الخالق منحسر عن غير الخالق، ف «لا يعلمون» تعم كل من له أن يعلم دون خصوص الإنسان.

إذا ففي الكون مثلث‏ «مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» ثالثه مما لن نعلمه، و صاحباه ما لم نعلمه ثم علمناه او علّمناه أم نستكمل معرفتنا إياه.

فالروح من الأزواج‏ «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» فهي مما لا يعلمون، و المادة الأم من الأزواج و هي مما لن يعلموه، و الذرة من الأزواج و قد علموها شيئا مّا! وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) أ ترى الليل لابس لباس النهار حتى يسلخ منه النهار «فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ»؟

و كلّ من الليل و النهار حالة تعرض الأثير بإشراقة الشمس عليه أو إطباقتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 50

عنه! و لماذا الليل نسلخ منه النهار دون النهار نسلخ منه الليل؟

هذا تعبير قاصد لمثل آخر زمانا بعد المكان يمثّل تواتر الموت و الحياة، إحياء لميت المكان: «وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ» ثم إماتته هناك، و إماتة لحي الزمان ثم إحياءه كما هنا، يصور لنا الليل ملتبسا بالنهار، فكما الحياة للأرض المكان كانت عارضة متواترة، كذلك الحياة النور لليل الزمان عارضة متواترة، أصالة الموت في المكان و الزمان، و عارضية الحياة فيهما، و الأثير المظلم في أصله يصبح بإشراقة الشمس نهارا، فإذا سلخ منه لباس النهار يرجع ليلا كما كان.

إن الجو بالزمان ككل هو مدار الليل الأصل و النهار الفرع: «يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ» (39: 9) «وَ آيَةٌ لَهُمُ» توحيدا للمبدء و تحقيقا للمعاد «الليل» الخامل بظلامه مثالا لميت الزمان‏ «نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ» نزعا للباس النهار عن الجو «فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ» فالأرض الكروية بفضائلها في دورتها حول نفسها في مواجهة شمسها، تمر كل أفق و نقطة منها بضوء الشمس فتحيا بالنهار، ثم يسلخ منها و إلى نقاط و آفاق أخرى‏ «فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ»: داخلون في الظلام.

تعبير يصور الحقيقة الدائبة المتواترة الكونية بأدق تصوير، فليس النهار لابس الليل حيث الأصل في الأثير، الجوّ الظلام، ثم يلبس النور النهار، و بانتقالة الشمس عن كل أفق يسلخ النهار عن الجو فيرجع ليلا كما كان.

و ما ألطفه تعبيرا «نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ» و السلخ هو إخراج الشي‏ء مما لابسه و التحم به، فكلّ من الليل و النهار متصل بصاحبه اتصال الملابس بأبدانها، لا- بل الجلود بحيوانها، ففي تخليص أحدهما من الآخر لحد لا يبقى منه شي‏ء، آية باهرة للمبدء و المعاد، أن اللّه تعالى يسلخ لباس الحياة عن هذا البدن فيبقى ميتا لا حياة فيه، ثم يرجعه حيا كأنه لم يمت قط!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 51

فسلخ النهار من الليل ثم رجعه إليه ثم سلخ و رجع، آية ذات بعدين للحياة بعد الموت، أن الموت اصيل تعرضه الحياة «وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ» و إن عارضة الحياة متواترة متلاحقة متلاصقة.

فكما أن في الحياة الدنيا- مكانا و زمانا- لبس للحياة و خلع، كذلك الموت خلع للروح عن هذا البدن ثم لبسه للحياة الأخرى، طالما الحياة العارضية العادية هنا تصبح أصيلة دائبة هناك في الأخرى.

و كما أن في إحياء الأرض بعد موتها إخراج لحبّها و ثمرها فمنه يأكلون كذلك في لبس الليل بالنهار و تكوير النهار على الليل حركات للحياة، فهما إذا آيتان للمبدء و المعاد نعيشهما في كل مكان و زمان.

فليس سلخ النهار الضوء من الليل إلّا بانسلاخ الشمس غاربة في آفاقها، فإنها تجري لمستقر لها، فإن الظلمة عرض قائم بالأثير لزام، و النور عرض يعرض ذلك العرض بمعروضه، و النور تموّج، و إذا كثرت الموجات النورية في الثانية الواحدة آلاف الملايين تصبح ضوء أحمر و أصفر و برتقاليا و بنفسجيا إلى سائر الألوان السبعة، فإذا تعددت في الثانية الواحدة زهاء (700) مليون تصبح ضوء النهار المرسل من الشمس و هو لباس على الظلمة العارضة على الجو، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل‏ «فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ»: جوهر مظلم ألبس نورا، فإذا سلخ منه النور رجع كما كان مظلما.

ندرس على ضوء هذا السلخ، و ذلك الإحياء للأرض، أصالة الموت و عارضية الحياة المتواترة على الميتات، الأرض الميتة تحيى للإثمار، و الليل المظلم يضاء لمنافع منها الإثمار، و كما الحياة الدنيا للإثمار كذلك الأخرى و بأحرى‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 52

وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38).

و «آيَةٌ لَهُمُ» ثالثة «الشمس» حال أنها «تجري» طول حياتها و بجريها الدائب تسلخ النهار عن الليل، و لو لا حراكها لكان النهار سرمدا في أفقها، و الليل سرمدا في آخر، و لكنها تجري، و بجريها تسلخ النهار عن الليل.

و هل إن جريها هو حركتها الدورية حول الأرض كما يترائى؟ و قد أثبتت النظرية العلمية أن الأرض هي التي تجري حول الشمس كما تجري حول نفسها! أم إن جريها أعم من هذه الحركة و هي على أقل تقدير غير ثابتة، و من حركات أخرى كشف العلم النقاب عن وجه البعض منها و بقيت الأخرى؟ و المترائى من جريها من مشارقها الى مغاربها ليس إلّا صورة ظاهرة عن جري الأرض حولها! فكما أن راكب الطائرة يخيّل إليه أن الجاري هو الفضاء بما فيه حولها، كذلك سفينتنا الفضائية «الأرض» الجارية في يمّ الفضاء و خضمّ الأثير تترائى لركابها كان الشمس و القمر هما الجاريان حولها و «كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى» (31: 29) و ليست الأرض أجلا لهما و لا مسمى، فلا يعني جريها حول أرضها.

فللشمس جريانات واقعية و أخرى خيالية علّ منها أو أنها ما نراه من حركة الشمس حول الأرض، و من الأولى حركتها حول نفسها دورية، و حركتها مع سياراتها نحو النسر انتقالية أماذا؟

و ترى ما هو «لِمُسْتَقَرٍّ لَها»؟ هل هو- فقط- الأجل المسمّى: «وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى.» (31: 29)؟ و قضيته «إلى مستقر لها» الصريحة الخاصة لمنتهى الغاية الأخيرة من جريها!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 53

أم إن مستقرها هو الفلك الذي تجري عليه، و الجادة الفضائية التي تسري فيها، فهو مستقر الجري، قرار جري بنظام دون قرار، و كما الأرض على حدّ تعبير الأمير عليه السّلام «و أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال و أرساها على غير قرار ...»؟ و ليس ذلك لها أجلا مسمّى و «كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى»! «لمستقر» كجنس تناسب لها مستقرات عدة، تعنيها المصدر الاستقرار، و اسم زمانه، و مكانه، و هي بين ما يترائى لها، من مستقرات غروباتها عن كل أفق حيث تسلخ عندها الأنهار، و هذا مستقر لها فيما نرى كما «وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» و لا واقع لغروبها فيها و لا لأي مغرب إلّا وجدان الرؤية و هي شارقة منذ خلقها إلى تكويرها و تكديرها، فغروبات الآفاق الأرضية ليست إلّا لدوران الأرض حولها، و هذه من مستقراتها الزمانية و المكانية المتكررة في حياتها، و كما أن غاية ارتفاعها صيفا و غاية انخفاضها شتاء هما من مستقراتها السنوية.

و من ثم لها مستقر فيهما نهائيا في قيامتها و هي أجلها المسمى، و هو تكديرها النهائي عند تكويرها حين لا تبقى شمس تجري أو تسكن حيث تستقر عن كونها و كيانها فضلا عن جريها، كما مستقرها البدائي هو تقدير العزيز العليم و بينهما متوسطات: بين المبدء و المعاد.

و لا جامع بين هذه المستقرات في بعديها أدبيا إلّا «ل» دون «إلى» مع العلم أن الأهم هنا مستقرها المبدء و مستقرها المعاد المسمى في أجلها كما في آيات عدة.

الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها تعم مصدر المستقر لاستقرارها طول جريها بتقدير اللّه و كعاية لها في جريها بقصده، و اسم زمانه و مكانه في دنياها و أخراها، مهما كانت الأصالة المعنية مبدءها و أجلها المسمّى، و «ذلِكَ تَقْدِيرُ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 54

الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»: تقديرا لها حيويا سلخا للنهار و لباسا له، كحياة و موت متواترين تلو بعض في جريها الدائب على فلكها، و تقديرا لتكويرها في مستقرها الأخير و أجلها المسمى، ثم يجدد اللّه حياتها بعد تكويرها حين‏ «لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً» (76: 13) كميّزة لأهل الجنة، فلو لا وجود الشمس يوم القيامة، كان أهل الجنة و اهل النار سواء في عدم رؤيتها و الزمهرير، مهما كانت هي الوحيدة في هذه اللمحة بين ال «33» من آيات الشمس!.

في قيامة الإماتة تكوّر الشمس كما سائر الأحياء إلّا من شاء اللّه، ثم في قيامة الإحياء تحيى الشمس كما سائر الأحياء دونما استثناء، ففي جري الشمس لمستقر لها آية القدرة الإلهية، و كما في توالي الموت و الحياة حتى لغير المكلفين، فهم أحرى بذلك في ميزان العدل و الرحمة و «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

و أين هذه المستقرات للشمس الجارية و «لا مستقر لها» كما يروى عن الأئمة الثلاث‏ «1» نفيا مستغرقا لأي استقرار، و هي على أقل تقدير لها مستقر التكوير بالمبدء العلي القدير، و ساحة الأئمة براء عن كل تجديف و تحوير! و لأن الشمس من الكواكب و هي كلها في السماء الدنيا، فلتطرح الرواية بجريها في السماوات السبع‏ «2» او تؤوّل كما يناسب القرآن، فقد تعني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مجمع البيان و روي عن علي بن الحسين زين العابدين و أبي جعفر الباقر و جعفر الصادق (عليه السلام) «لا مستقر لها» بنصب الراء.

أقول و هذا باطل لفظيا حيث يحمل فرية التحريف و معنويا كما بيناه في المتن.

(2)

نور الثقلين 4: 385 ج 47 في كتاب التوحيد باسناده الى أبي ذر الغفاري رحمه اللّه قال: كنت آخذا بيد النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و نحن نتماشى جميعا فما زلنا ننظر الى الشمس حتى غابت فقلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)! اين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 55

سجدتها تحت العرش خضوعها لإرادة الرب في عرش التدبير ف‏

«مستقرها تحت العرش» «1»

تعني لها مستقرا لجريها هو «تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» تقديرا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

تغيب قال: في السماء ثم ترفع من سماء الى سماء حتى ترفع الى السماء السابعة العليا حتى تكون تحت العرش فتخر ساجدة فتسجد معها الملائكة الموكلون بها ثم تقول: يا رب من اين تامرني ان اطلع امن مغربي ام من مطلعي؟ فذلك قوله عز و جل‏ «وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» يعني بذلك صنع الرب العزيز في ملكه بخلقه فيأتيها جبرئيل بحلة ضوء من نور العرش على مقادير ساعات النهار في طوله في الصيف و في قصره في الشتاء او ما بين ذلك في الخريف و الربيع قال: فتلبس تلك الحلة كما يلبس أحدكم ثيابه ثم تنطلق بها في جو السماء حتى تطلع من مطلعها قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): كأني بها قد حبست مقدار ثلاث ليال ثم لا تكسى ضوء و تومر أن تطلع من مغربها فذلك قوله عز و جل: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ» و القمر كذلك من مطلعه و مجراه في أفق السماء و مغربه و ارتفاعه الى السماء السابعة و يسجد تحت العرش ثم يأتيه جبرئيل بالحلة من نور الكرسي فذلك قوله عز و جل‏ «جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً».

أقول سير الشمس و القمر في السماوات و سجودها تحت العرش بانتظار امر الرب، كل ذلك تعبيرات عن مستقر تقديره تعالى، ف‏ «لِمُسْتَقَرٍّ لَها» تبتدئ من المستقر الربوبي و تنتهي الى مستقر قيامتها.

(1).

الدر المنثور 5: 263- اخرج عبد بن حميد و البخاري و الترمذي و ابن أبي حاتم و ابو الشيخ في العظمة و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي ذر قال: كنت مع النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في المسجد عند غروب الشمس فقال يا أبا ذر! أ تدري اين تغرب الشمس؟ قلت: اللّه و رسوله اعلم قال: فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله‏ «وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها» قال: مستقرها تحت العرش،

و

اخرج عند جماعة عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن الآية قال‏ «مستقرها تحت العرش»

و

في نقل ثالث عنه قال: دخلت المسجد حين غابت الشمس و النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) جالس فقال يا أبا ذر أ تدري اين تذهب هذه قلت اللّه و رسوله اعلم قال فانها تذهب حين تسجد بين يدي ربها فتستأذن في الرجوع فيأذن لها ربها و كأنها قيل لها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 56

لجريها كما و كيفا، و تقديرا لعمرها و كل أمرها.

فالشمس تجري لمستقر تقدير العزيز العليم دونما فوضى، لكافة مستقراتها و جرياناتها في أولاها و أخراها، دونما تخلف و لا قيد شعرة و لا آن عن ذلك التقدير العزيز العليم! إذا ف «لا مستقر لها» ك «إلى مستقر لها» لا مستقر لها لفظيا و معنويا، فإن‏ «لِمُسْتَقَرٍّ لَها» تجمع كل مستقراتها من قراراتها في جرياناتها يوم دنياها، و إلى قرارها عند تكويرها «1» في قيامتها، و إلى تجديد حياتها لقرارات أخرى في أخراها، فكل جري لها و كل قرار بادئ من مستقر التقدير من عزيز حكيم، و منته إلى ذلك المستقر من العزيز الحكيم‏ «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

و للشمس في مستقرها الأخير يوم التكوير آراء متهافتة، من مائل إلى أنها سرمد في حراكها، كما العالم أجمع كقسم من الدهريين، و من قائل على ضوء العلم أنها تجري إلى انقراضها «2» و لا نجد تعبيرا كالذي في القرآن عن جريها لمستقر لها و تكويرها و جمعها مع أخيها القمر، فلها كورها بعد دورها كما لكلّ كائن دور و كور و «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

تقدير بعزة و علم و لا تقدير إلّا بعد عزة و علم، و بعد التقدير قضاء و إمضاء و كما سئل العالم: الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السّلام): كيف علم اللّه؟ فقال: علم و شاء و أراد و قدّر و قضى و أمضى، فأمضى ما قضى، و قضى ما قدر، و قدر ما أراد، فبعلمه كانت المشية و بمشيته كانت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اطلعي من حيث جئت فتطلع ..

أقول: فهذه رواية واحدة عن أبي ذر تشترك في‏

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «مستقرها تحت العرش»

و المعنى المناسب ان مستقرها في كل قرار هو امر الرب، جريا و وقوفا ام أيا كان.

(1، 2). راجع سورة التكوير ج 30: 137 للتعرف الى تكويرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 57

الإرادة، و بإرادته كان التقدير و بتقديره كان القضاء و بقضائه كان الإمضاء، و العلم متقدم المشية، و المشية ثانية، و الإرادة ثالثة، و التقدير واقع على القضاء بالإمضاء، فلله تبارك و تعالى البداء فيما علم متى شاء، و فيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء، فلا بداء، فالعلم في المعلوم قبل كونه، و المشية في المنشأ قبل عينه، و الإرادة في المراد قبل قيامه، و التقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها و توصيلها عيانا و وقتا، و القضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات ذوات الأجسام المدركات بالحواس من ذوي لون و ريح و وزن وكيل و مأدب و درج من إنس و جن و طير و سباع و غير ذلك مما يدرك بالحواس فلله تبارك و تعالى فيه البداء مما لا عين له، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء و اللّه يفعل ما يشاء، فبالعلم علم الأشياء قبل كونها، و بالمشيّة عرف صفاتها و حدودها و أنشأها قبل إظهارها، و بالإرادة ميّز أنفسها في ألوانها و صفاتها، و بالتقدير قدر أقواتها و عرف أولها و آخرها، و بالقضاء أبان للناس أماكنها و دلهم عليها، و بالإمضاء شرح عللها و أبان أمرها و «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» «1».

و ختامه المسك لمحة لامعة أن جري الشمس و معه كل جري ليس إلّا بتقدير العزيز العليم، فللكل مبدء و معاد و بينهما متوسطات الحياة، فلجري الشمس مستقر التقدير من اللّه الى مستقر التكوير و بينهما عوان من مستقرات غروباتها و جريها في فلكها، و من الفارق بين المستقر و سواه أنه مصدر لفظيا و معنويا و سواه صادر اسم زمان أو مكان.

فالشمس إذا تجمع بين مستقرات لها فعلية هي لزامها في كونها و كينونتها، و مستقرات مستقبلة في أمكنة و أزمنة آتية يوميا و سنويا و عند

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 385 ج 48 في اصول الكافي الحسين بن محمد عن معلى بن محمد قال سأل العالم (عليه السّلام) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 58

تكويرها و من ثم خلفها مرة أخرى.

فكما أن مستقرات الغروبات للشمس- المتكررة يوميا- ليست إلّا مرئيات و هي في الحق شارقة دوما، لا غاربة و لا لحظة، كذلك الأموات هم في الحق أحياء مهما نراهم في ظاهر الأمر أمواتا، فليس الموت فناء و فوتا حتى تستبعد رجعة الحياة، فالروح بعد الموت هو الروح و أروح منه، و البدن هو البدن بمادته، فعملية الإحياء ليست إلّا خلق الأمثال للأبدان و نقل الأرواح إليها.

و كما أن المستقر الأخير للشمس في التكوير ليس هو الأجل الأخير حيث ترجع بمثلها، كذلك الإنسان لا يعني موته عن هذه الحياة فوته عن أية حياة.

و كل‏ «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» فله القدرة على كل تحوير و تغيير و تقدير، و له العلم كذلك دون اي مانع و نكير!.

وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) «و» آية لهم رابعة «الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ» له في جريه كما يترائى مكانا و مكانة و زمانا، «حتى عاد» كما بدء في منزله الأول ليلة هلاله و استهلاله‏ «كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» و هو عذق النخلة اليابس إذا قدم فانحنى.

فالقمر في منازله الثمانية و العشرين، يبتدء من هلاله مبتدرا كالعرجون القديم إلى ختامه كالعرجون القديم كما بدء، فهو كالولد حين يولد ثم يكبر رويدا رويدا حتى بدره الأربعين، ثم يتنازل شيئا فشيئا منكّسا و يرجع كالولد «وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ» ثم يموت و من ثم الحياة كما بدء «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ».

و هذه آية لتواتر الموت و الحياة تلو بعض، و كما القمر في منتقص منازله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 59

يترائى للناظرين ناقصا عن بدره لحد الانمحاء التام، و لكنه لا ينتقص في واقعه، و إنما يحتجب بحجب، كذلك ميت الإنسان ليس بميّت و إنما الحياة الروح تحتجب عن هذا البدن ثم تعود إليه يوم المعاد.

و علّ العود كالعرجون القديم لمحة إلى أن المعاد في المعاد ليس كل البدن، و إنما أصله العرجون الذي عاشه طول حياته، فالأقمار الإنسانية و أضرابها تقدّر منازل في سيرها الحيوي حتى تنمحي ثم تعود كأصغر ما كان كالعرجون القديم، حيث يمثّل كيان الإنسان كأصل عاشه في حياته خيّرة و شرّيرة.

أهلّة القمر الثمانية و العشرون تفيدنا مواقيت الشهور و الحج‏ «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ» و تفيدنا إمكانية المعاد و كيفيته لوجه ما.

للقمر في منازله أشكال حسبها كما قدرها العزيز العليم، من منزل المحاق أو الاقتران و الاجتماع و التوليد، لا يرى فيه لأن وضعه مجاور جدا في الظاهر للمحل الذي تشغله الشمس في السماء، فيوجه نصف كرته المظلم المحجوب عن الأشعة الشمسية نحو الأرض ماكثا في استتاره يومين أو ثلاثة، و لكن لحظة الاقتران المضبوطة التي يستدل عليها من السنويات الفلكية، تحصل متى كان للشمس و القمر طول واحد.

و في اليوم الثاني او الثالث بعد تلك اللحظة يظهر القمر ليلا بعد غروب الشمس بمدة قليلة على شكل هلال رفيع تحد به نحو القطعة التي توجد فيها الشمس تحت الأفق، و بسبب الحركة اليومية يغرب القمر بعد قليل في الأفق الغربي.

و في اليوم التالي تحصل الحالة بعينها و لكن الجزء المستنير فيه أعظم، و لأنه فيه أبعد من سابقه عن الشمس يتأخر غروبه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 60

و في اليوم الرابع بعد الاقتران يغرب بعد الشمس بثلاث ساعات.

و بعد اليوم الرابع يسمى التربيع الاوّل، ثم ينمو شيئا فشيئا، و بين اليوم السابع و الثامن من لحظة الاجتماع يظهر لنا نصف دائرة و يرى في النهار مدة، و الحركة اليومية لا تأتي به في مستوى الزوال إلّا بعد مرور الشمس به بست ساعات تقريبا.

و بين التربيع الأول و البدر تمضي سبعة أيام أخر، في غضونها يقرب الجزء المستنير شيئا فشيئا حتى يصبح دائرة تامة و بدرا كاملا.

و بعد الاقتران بخمسة عشر يوما يظهر لنا قرصا بأكمله مستنيرا، و لحظة شروقه- إذا- كلحظة غروب الشمس حيث تشرق عند غروبه، و متى ارتقى إلى أعلى نقطة من سيره و هو بمستوى الزوال يكون نصف الليل، و فيه تمرّ الشمس تحت الأفق بمستوى الزوال الأسفل بحيث يكون القمر مقابلا للشمس بالضبط بالنسبة للأرض.

و بعد ذلك يتناقص على التوالي‏ «حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» و في البين له التربيع الثاني نازلا عكس التربيع الأول صاعدا.

فالمنازل الرئيسية هي المحاق و الهلال و التربيع الأوّل و البدر و التربيع الثاني‏ «حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ».

و لأن قدم العرجون لأقل تقدير هو ستة أشهر فقد يصدق عليها القديم لأقل تقدير، فقد نصدّق الرواية القائلة بسناد الآية أنها من القديم‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 386 القمي حدثني أبي عن داود بن محمد النهدي قال: دخل ابو سعيد المكاري على أبي الحسن الرضا (عليه السلام) فقال له ابلغ من قدرك أن تدعى ما ادعاه أبوك؟ فقال له الرضا (عليه السلام) ما لك اطفأ اللّه نورك و ادخل الفقر بيتك اما علمت ان اللّه عز و جل اوحى الى عمران اني واهب لك ذكرا فوهب له مريم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 61

حيث القرآن أطلق عليها القديم.

و لأن العرجون القديم هو عذق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته، و قديمه المنحنى المقوّس بصفرته، فوجه الشبه إذا هو مثلث الاصفرار و الدقة و الاعوجاج، و هو بداية المنازل، و نهايتها العودة كما بدئت.

و «قَدَّرْناهُ مَنازِلَ» دون «قدرنا له منازل» أم «ذا منازل» كما تكلفوهما تقديرا، علّه لأن منازله ظاهرة في نفسه بالمحاق و الهلال و التربيعين و البدر، بين منازل الصعود و النزول، مهما كانت له منازل في مسيره ليل نهار، و لكنما المقصود هنا منازله الأولى التي تنتهي إلى العرجون القديم.

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40).

في تقدير العزيز الحكيم نظام دائب حيوي دونما فوضى جزاف ف‏ «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ» في جريها لمستقراتها الحيوية، و هي أكبر منها و أقدر بملائين الأضعاف، لاختلاف الفلك المجرى المقدر لكلّ منها، و اختلافهما في جريهما كما و كيفا، فلو أدركته في سيره بمسيره لكان في شهر واحد صيف و شتاء أمّا ذا من فوضويات التكوين! فإذا كان القمر على أفق المشرق أيام الاستقبال كانت الشمس على أفق المغرب تقابله، و يطلع القمر عند غروبها و يغرب عند طلوعها، فلا ينبغي للشمس أن تدرك القمر، و لو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و وهب لمريم عيسى فعيسى من مريم و مريم من عيسى و عيسى واحد و انا من أبي و أبي مني أنا و أبي شي‏ء واحد فقال له ابو سعيد فأسألك عن مسألة قال: سل و لا إخالك تقبل مني و لست من غنمي و لكن هاتها فقال له: ما تقول في رجل قال عند موته كل مملوك لي قديم حر لوجه اللّه؟ قال: نعم ما كان لستة أشهر فهو قديم حرّ لأن اللّه عز و جل يقول‏ «وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» فما كان لستة أشهر فهو قديم حر قال: فخرج من عنده و افتقر و ذهب بصره ثم مات لعنه اللّه و ليس عنده مبيت ليلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 62

كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس و لا تدركه، و للشمس حركة واحدة بها تتأخر عنه و لا تدركه، لبقيا لمدة مديدة في مكان واحد، لأن حركة الشمس كل يوم درجة، فقدر العزيز العليم في السيارات حركات أخرى دون حركة الشهر و السنة هي الدورة اليومية، فلا تسبق- إذا- سيارة أخرى، إذ تطلع كلّ و تغرب مقابلها، و في ذلك النظام‏ «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا ...».

كما و لا ينبغي لها أن تدركه في ميزّاته الذاتية و تأثيراته الخاصة فضلا عن أن يدركها القمر في ميّزاتها و خواصها، فلا درك هنا و لا هناك و لا تدارك إلّا درك التلاقي الجمع يوم التلاق الجمع: «وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ» «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ...».

«وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ» كما لا يسبق النهار الليل،- إذا- يجتمع ليلان أو نهاران فيختل بذلك النظام، ف:

«الشمس سلطان النهار و القمر سلطان الليل، لا ينبغي للشمس أن تكون مع ضوء القمر و لا يسبق الليل النهار فلا يذهب الليل حتى يدركها النهار وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ‏ يجي‏ء وراء فلك الاستدارة» «1».

و لأن الليل و النهار متضايفان، فلا ليل إلّا بعد نهار حيث الليل يحصل بغروب الشمس عن الأفق، فليس الليل- إذا- سابق النهار منذ البداية، كما لا يسبقه حتى النهاية و كما وردت به الرواية «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 378 ج 52 تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية.

(2)

نور الثقلين 4: 387 ج 53 عن المجمع العياشي في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال: كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا و الفضل بن سهل و المأمون في الإيوان بمرو فوضعت المائدة فقال الرضا (عليه السلام) ان رجلا من بني إسرائيل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 63

في سبق الليل النهار تأخير طلوع الشمس قدر الليل فيقوم- إذا- مقام النهار و هذا لا ينبغي في نظام الكون.

إذا فللنظر في رد الشمس و أضرابه مجالات هذه منها في حقل النظام المقدر الحيوي و «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»! ..

و من سبق الليل النهار أن يمانع ظهور النهار و الجو الحامل لهما واحد، كذلك لا ينبغي ان يكون الموت سابق الحياة ان يمنع لحوقها بعده في الدار الحيوان، كما الحياة لم تمنع الموت قبل الحياة الحيوان.

و كيف ينبغي الفوضى- إذا- في درك او سبق «و» في ذلك التقدير «كل» من الأرض و الشمس و القمر «في فلك» يخصه، و جادة معبّدة فضائية تخصه «يسبحون»؟! كل من هذه الثلاث عمال للدرك و السبق سلبا و إيجابا دونما استغلال لليل أو نهار، فانما هو الأرض و الشمس و القمر السابقة الذكر، العاملة لحادث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

سألني بالمدينة فقال: النهار خلق قبل ام الليل فما عندكم؟ قال: و أداروا الكلام فلم يكن عندهم من ذلك شي‏ء فقال الفضل للرضا (عليه السلام) أخبرنا بها أصلحك اللّه قال: نعم من القرآن ام من الحساب؟ قال له الفضل من جهة الحساب فقال (عليه السلام) قد علمت يا فضل ان طالع الدنيا السرطان و الكواكب في موضع شرقها فزحل في الميزان و المشتري في السرطان و الشمس في الحمل و القمر في الثور فذلك يدل على كينونة الشمس في الحمل في العاشر من الطالع في وسط الدنيا فالنهار خلق قبل الليل و في قوله تعالى‏ «وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ» اي قد سبقه النهار.

و

فيه عن روضة الكافي ابن محبوب عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: ان اللّه خلق الشمس قبل القمر و خلق النور قبل الظلمة.

و

في الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ قال السائل: فخلق النهار قبل الليل؟ قال: نعم خلق النهار قبل الليل و الشمس و القمر و الأرض قبل السماء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 64

الليل و النهار، و لإمكانية السبق و الدرك لولا «تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» فلا سبح لليل و لا نهار و لا فلك فيه يسبحان، اللهم إلّا سبحا بالأرض في فلكها.

إن لكلّ من سابحات اليمّ الفضاء فلكا تسبح فيه، و جادّة فضائية جادّة لا تنزلق عنها، و إلّا لاصطدمت و تساقطت و تناثرت و قامت قيامتها! «كل» هنا دون ريب تعم و لأقل تقدير هذه الثلاث، و مما يبرهن له «يسبحون» دون «يسبحان» و لماذا السابحات هذه و هي غير العاقلة «يسبحون» و هي للعقلاء؟

لأن سبحها في أفلاكها هو سبح العقلاء و أعقل، إذ لا تغرق في يمّ الفضاء و لا تنزلق عن أفلاكها، و لا تتغير عن حراكها المقدرة لها، فللأرض فلكها و حراكها، و للشمس فلكها و حراكها، و للقمر فلكه و حراكه دون تبادل و اصطدام، و لا تعارك فانهزام، اللهم إلّا في حرب قاصدة هادفة يوم القيام.

هذه الثلاث كأضرابها من سابحات السيارات تسبح دائبة في خضمّ الفضاء الفسيح، و هي على ضخاماتها الهائلة لا تعدو و ان تكون نقطا و سماكا صغيرة في ذلك اليم دون خرق أو غرق، و كم من خارقة و غارقة في خضمّ الحياة من إنسان و سواه و هو من أعقل العقلاء.

و حقيق للإنسان أن يتضاءل أمام هذه السابحات و يتساءل العزيز العليم، ما هذه القدرة الشاملة التي انتظمت هذه الملائين الملائين من سابحات السيارات التي لا تحصى؟ ... و الجواب‏ «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» فهل بعد من ريبة في إحياءه الموتى و هو أهون عليه من ذلك التنظيم القويم! وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 65

مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (42) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى‏ حِينٍ (44).

«وَ آيَةٌ لَهُمْ» خامسة للمبدء و المعاد «أَنَّا حَمَلْنا ...» و ترى من هم المعنيون ب «هم» ثم من هم ذريتهم؟ و من ثم ما هو الفلك المشحون؟

«لهم» تعني الموجودين زمن نزول الآية لأقل تقدير و متيقنه، حيث الآيات الخمس و أضرابها المسرودة في القرآن تعني توجيه الحاضرين كمبتدء الدعوة، و من ثم الآخرين لمّا يلحقوا بهم و هو العزيز الحكيم.

أ ترى ذريتهم هم أولادهم، فإنها الأولاد من الذر: الصغير- كما في آياتها ال (32) دونما استثناء؟ و هم لم يحملوا أنفسهم في الفلك المشحون:

سفينة نوح، فضلا عن ذريتهم! أم إن ذريتهم هم أولادهم و الفلك المشحون هي السفن الموجودة زمنهم؟ و لكنه مشحون من مبعدات في أبعاد:

فالفلك ياتي مفردا كما هنا و في عديدة سواها، و جمعا كأخرى و منها «حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ» (10: 32) و لم يأت المشحون في آيات الفلك ال «32» إلا شذرا! ثم و أين ذلك الفلك الواحد الذي حمل- فقط- ذريتهم زمنهم و هو مشحون؟ ثم هل هو مشحون بهم و ذريتهم أم و سواهم بذريتهم أم هم جميعا بهم؟ و هكذا حمل أسهل و أرحم من حمل ذريتهم بخصوصهم لو كان! و الفلك أيا كان يحملهم و ذريتهم مشحونا و غير مشحون.

ثم لا يحمل الفلك صفعة المشحون إلّا هنا و في الشعراء «فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (119) شحنة تجمع النماذج من بني الإنسان و مختلف الحيوان: «قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 66

عَلَيْهِ الْقَوْلُ ...» (11: 40) شحنة مطلقة تجمع من دوابّ الأرض ما تبقي نسلها، ثم لا نجد مشحونا آخر في (32) فلكا في سائر القرآن إلّا نسبيا في يونس‏ «إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (37: 140).

إذا فليس الفلك المشحون الحامل ذريتهم إلّا فلك نوح‏ «1» إذ لا يحملهم يونس، فلا نحتمل أنه فلك زمنه يحمل- فقط- ذريتهم، كما و تؤيده أخيرا «وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ» و إذا لم يكن فلكا بخصوصه و عم كل فلك فما مثله إلّا نفسه؟

أم إن «ذريتهم» هنا هم جدودهم الأعلون الناجون في سفينة نوح (عليه السلام) بتأويل أنهم ذرّوهم كما أنهم ذروا منهم؟ و ليست الجدود ذرية لا في اللغة و لا في القرآن كلما أتت بمختلف صيغها في ال «32» موضعا و قد قوبلت بالآباء الشاملة للجدود: «وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ ...» (6: 87) «مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ» (13:) 23) و (40: 8).

فليست ذريتهم جدودهم بل هم من‏ «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً» (17: 3).

و حتى إذا أتت الذرية بمعنى الجدود في لغة شاذة و ما أتت، لا ينبغي حمل لغة في القرآن على الشاذ، الشارد عن مستعملات القرآن و اللغة الرائجة الفصحى!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 387 ج 56 في كتاب الخصال عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه قال: فما التسعون؟

قال: الفلك المشحون اتخذ نوح (عليه السلام) فيه تسعين بيتا للبهائم، و في الدر المنثور 5: 364 هي سفينة نوح- أخرجه جماعة عن أبي مالك و أبي صالح و ابن عباس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 67

اللّهم إلّا ان يعنى بها هم أنفسهم بجدودهم و أولادهم إلى يوم القيامة، صيغة واحدة تضم مثلث المعاني مهما اختلفت مراتبها في إطلاق الذرية عليهم، و هو عبارة أخرى عن النسل الإنساني منذ نوح حتى القيامة الكبرى! و قد لا تلائم الجدود آية الجارية لمكان «كم» أم لا تنافيها حيث «كم» فيها لا تمانع أعم منه هنا.

ف «ذريتهم» إذا لا هم أولادهم و لا جدودهم، بل هم أنفسهم و قد كانوا ذرية في أصلاب من حمل مع نوح‏ «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ. لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ» (69: 12) و لم يحمل المخاطبون هنا في الجارية إلّا و هم ذرية «1» إذا ف «ذريتهم» هنا من إضافة الشي‏ء إلى نفسه و كما في آية الذر «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏ ...» «2» (7:

172) حملناهم في الفلك المشحون و هم ذرية، و كما أنهم كانوا ذرية في الفلك المشحون، فبأحرى ذريتهم الموجودين و الذين يأتون إلى يوم الدين، إذا ف «ذريتهم» تعني أنفسهم و هم ذرية، و بضمنهم ذريتهم إلى يوم القيامة حيث الكل حملوا في الفلك المشحون في أصلاب من حمل مع نوح‏ «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً».

و هذه منة ربانية بنعمة بالغة أنه حملهم في الفلك المشحون الجارية و لم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير آية الجارية الى ج 29 ص (88- 94).

(2) ف «ذريتهم» في آية الذر ليست لتعني أولادهم، فان «بني آدم» تشملهم بأولادهم، ففيما تعني «هم» في «ذريتهم» الآباء فقط من بني آدم، فالأبناء ايضا آباء لآخرين كما الآباء أبناء للأولين، فلا يصح «ذريتهم» الا كونها اضافة الشي‏ء الى نفسه، و المقصود ذرية الأرواح لمكان «اشهدهم» و هي الفطر لأنها أعمق أعماق الأرواح كما النطف اعمق اعماق الأجساد، فالأرواح تتبنى الفطر كما الأجساد تتبنى النطف و التفصيل راجع الى محله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 68

يكونوا شيئا مذكورا، «وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ» و هم ذرية في أصلاب آباءهم‏ «فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» و لا صراخ مهما كان لآبائهم‏ «وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ» ...

أو ليس الذي حملكم في الفلك المشحون و أنتم ذرية بقادر على أن يحمل أرواحكم بأجسادكم بعد موتكم في فلك الأرض المشحون، السابحة في خضمّ الفضاء و أرواحكم هي أرواحكم و أجسادكم من أجسادكم، يحملكم ليعيدكم فيها مرة أخرى؟ «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 11).

فآية القدرة البارعة الإلهية لإمكانية المعاد، باهرة في‏ «أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» رحمة كامنة تظهر يوم المعاد، كما كانت لذريتهم.

«وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ» هم أنفسهم، فبعد ما حملوا في أصلاب آبائهم في الفلك المشحون كنعمة سابقة سابغة، يحملون هم كآباء حاملين ذريتهم في مثله تداوما في أنسال بني الإنسان.

و هنا «من مثله» دون «مثله» لتعم كافة أمثاله مما يركب. فالمماثلة بين فلك نوح المشحون، قد تكون تامة، و لا تعنيه «من مثله» إذ لا مثيل له تاما طول التاريخ الإنساني، أم غير تامة تلمح لها «من» فقد تكون مماثلة في «المشحون» نسبيا، أم- فقط- في كونه فلكا، أم و حتى أية سفينة أمّاهيه من مركوبات بحرية، أم- فقط- في كونه مركوبا بحريا او بريا او جويا، مصنوعا أم حيوانا و أيّا كان من مركوب طول الزمان و عرض المكان، فقد تعني «من مثله» كل هذه الأمثال على اختلافها كونا و كيانا.

فالآية- إذا- على غرار «وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ» (16: 8) إذ تشمل ما علّه شملته آية «وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 69

ما يَرْكَبُونَ»- «وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ» (40: 80) «وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ» (43: 12) اللّهم إلّا بفارق المضي في «و خلقنا» هنا و «يخلق» هناك حيث تخرج المخترعات المستقبلة عن نطاق الآية و يبقى ما مضى.

فتعم كل ما صنعه الإنسان و يصنعه من سفن فوق البحرية و تحت البحرية و الجوية التي تسبح في البحر كما في الفضاء و البر، بمختلف الوسائل الشراعية بالرياح، و البترولية و الكهربائية و الذرية أمّاذا؟.

«وَ خَلَقْنا لَهُمْ» لا ينافي أنها من صنعهم، فإن اللّه هو خالقهم و خالق المواد و الطاقات التي يستخدمونها، و خالق العقل الذي يدبرها كيف يخترعها؟ فهم بما صنعوا خلقناهم و خلقنا لهم، فنصيب الصانعين و المخترعين مما صنعوا أو اخترعوا بجنب ما خلق اللّه ضئيل هزيل، إذ لا يبقى لهم منها إلا اختيار الفعل، و هو أيضا من خلق اللّه، فهي من حيث الخلق و الصنعة إلى اللّه أنسب منها إليهم و أقرب.

«وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ» لا تشمل مركوبات البر، و لكنها تعم البحرية و فوق البحرية، ثم البحرية «إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ» تعم غرقهم في سفينة نوح.

إذا «فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» تعني لا صراخ لهم إذ لا كون لهم و لا كيان إذ هم ذرية في أصلاب آبائهم و بأحرى‏ «لا يُنْقِذُونِ».

ثم في سفن أخرى‏ «فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» تعم صراخهم كما هم في الفلك المشحون، و الذي يستجيبهم في صراخهم، و لذلك‏ «فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» دون «لا صراخ لهم» علّه ليشمل الأمرين، ثم‏ «وَ لا يُنْقِذُونِ» حتى إذا كان لهم صريخ و صراخ، إذ لا يقدر أحد أن ينجيهم و اللّه يشاء أن يغرقهم! فلك في خضمّ البحر الملتطم كالريشة في مهب الرياح المتماوجة و عصف في بثج الأمواج الهائجة، لا يدرك هو له إلّا غامر البحار، فمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 70

ذا الذي ينجي الغرقى حين تقطعت بهم الأسباب‏ «إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى‏ حِينٍ».

اجل‏ «فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» من غرقه تعالى‏ «إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا» و هنا يصح المقال: أعوذ بك منك، و برحمتك من عذابك، «وَ مَتاعاً إِلى‏ حِينٍ» قرر في الذكر الحكيم و اللوح المحفوظ، متاع الحياة ابتلاء و امتحانا لعلهم يتقون.

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (46).

رغم كافة الآيات الدالة على المبدء و المعاد هم أولاء الحماقى الأغفال لا يتبصرون بها «وَ إِذا قِيلَ‏ ... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» لا يتقون.

لا ياتي هنا صراح الجواب إذ هو معروف من حالهم النكدة البئيسة، و بما يعمم حالهم: «إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ» و «ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ» تعم:

حالهم الحاضرة و ما تستقبلها يوم الدنيا، و حياتهم الأخرى التي يستقبلونها بعقوبات فيهما فإنهما «ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ» كما و أن «ما خلفكم» تعم حالهم الغابرة هنا و الحياة الدنيا بأسرها التي يستدبرونها بما أصاب من قبلكم من عقوبات، و تقوى الآخرة هي حصيلة تقوى الدنيا بترك الطغوى فيها «1» و التذكر بآيات الرب و التربّي بها.

هذه الآيات الصارمة هي بذواتها تكفي هزّة و ارتعاشة و انتفاضة لقلب مفتوح، و لكنهم على قلوبهم أقفالها و رينها «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 388 ح 57 في المجمع روى الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: معناه اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب و ما خلفكم من العقوبة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 71

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (47).

كلمة إيمان يقولها النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الذين آمنوا، للذين كفروا «أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» رزقكم لا لكم- فقط- أنفسكم بل و «أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» (57: 7) «آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ» (34: 33) «قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ» استنكارا في عجاب من قولة الإيمان، أن الرزق إنما هو بمشيئة اللّه، و ليس إنفاقنا ايمانا بل هو شرك باللّه و استقلال بجنب اللّه، فلو شاء اللّه لأطعمهم، دون حاجة إلى مطالبة وسيط و التكدي من عباده المرزوقين، فإذ لم يطعمهم اللّه لم يشاء إطعامهم، فهل نحن أنداد له ألدّاد حتى نخالف مشيئته، أو نخلفه في رازقيته؟ «إن أنتم» المؤمنين‏ «إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» يبينه ذلك الاقتراح الضال، حيث يمس من كرامة التوحيد و الربوبية الوحيدة «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» لا ما سعاه غيره، فلا يرزق أحد إلّا قدر سعيه، و أنتم تطالبوننا خلاف هذه السنة الإلهية.

إن حماقى الطغيان لم يشعروا، أو تجاهلوا الحقيقة الناصعة في الفرق بين المشيئتين: التكوينية و التشريعية، فقد يشاء اللّه أن يرزق بسعي أم دون سعي و لا راد لمشيئته، و هما وجهان من مشيئة التكوين كسنة إلهية اولى في الأرزاق، و قد يشاء ان ينفق المرزوقون المخلّفون من فضل ما آتاهم ربهم للذين لم يؤتوا قدر الكفاف تحننا و امتحانا، و لكي يرتبط الخلق برباط العطف و الحنان‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» سعيا في طلب الرزق، و سعيا في إنفاق العفو «وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» (2: 219) و هذا من خالص إيمان التوحيد، و هنالك تتوارد المشيئتان: التشريعية بالإنفاق، و التكوينية أن يرزق الفقراء بأيدي الأغنياء.

و الحياة الدنيا ككل هي دار ابتلاء بتجاوب المشيئتين، فمن عصى اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 72

لن يغلبه في مشيئته الاولى، بل هي الثانية التي يعصى فيها، و من أطاعه لم ينصره في أمر يعجز عنه، و إنما تشرّف بكونه من أداة مشيئته.

و قد تكون هذه القالة الضالة من المجبرة و كما «قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» (16: 35) «وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ» (43: 20) حصرا للأفعال كلها في مشيئة اللّه دونما وسيط الإختيار.

هي قولتهم في كل شي‏ء، و قولة من سواهم من المغالطين أننا مهما كنا مختارين فالرزق بيد اللّه‏ «أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ».

[سورة يس (36): الآيات 48 الى 65]

وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى‏ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى‏ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54) إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55) هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (56) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ (57)

سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58) وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59) أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62)

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى‏ أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (65)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 74

وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48).

اقتراح متعنت مكرور على ألسنة الناكرين ليوم الدين‏ «1» كأنه حجة على المصدقين، و ما هي الصلة بين كونهم صادقين و أن يعلموا متى وعد يوم الدين؟! أليس يعلم كل منا بيقين انه سوف يموت و لكنه لا يدري متاه و مداه، فهل لنا نكران موتتنا إذ لا نعلم وقته بيقين؟ إن هي إلّا هرطقة حمقاء يخيّلون إلى الحمقاء كأنها حجة على كذب هذا الوعد! و لا جواب لهذا السؤال- و بعد كافة البراهين القاطعة على إمكانية و ضرورة المعاد- لا جواب إلّا واقعه، إذ لا انتظار بعد لجواب آخر:

ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (49).

و إنها صيحة الإماتة لقيامة التدمير، و تتلوها صيحة أخرى لقيامة التعمير، و ترى كيف ينظرونها و هم ينكرونها؟ إنه واقع الانتظار و إن كانوا ينكرون، حيث المنتظر لهم واقع الجواب، فإذا لا تقنعهم البراهين القاطعة فلتكفهم صيحة واحدة تأخذهم و هم يخصمون.

إنهم ما ينظرون إجابة عن‏ «مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ» فحتى لو حدّد لهم كذبوه و زيادة، فليس لهم- إذا- إلّا واقع الانتظار لواقع الجواب و آخر الدواء الكي! إن الصيحة الواحدة تأخذهم على غفلة و نكران، إذا فالارتجاف أتم و الإيخاف أعظم و أطمّ، و تكفيهم إجابة عن سؤالهم المستهزء المتعنّت، ثم الصيحة الثانية واقعة و ليست إجابة بعد الأولى، و لذلك‏ «ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً» لا أكثر، «وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ» (38: 15) و تلكم الصيحة الواحدة تجعلهم حيارى لحد:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نجد نفس الصيغة في 10: 48 و 21: 38 و 34 و 67: 25: 25. و آية يس خامستها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 75

«فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى‏ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» (50).

أهلهم كأمثالهم في أخذة الصيحة، فأين التوصية لهم أو الرجوع إليهم؟ و حتى إذا لم تأخذهم! فالصيحة هي المانعة لهم عن هذه أو تلك و كما

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): (لتقومن الساعة و قد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه و لا يطويانه، و لتقومن الساعة و هو يليط حوضه فلا يسقى فيه، و لتقومن الساعة و قد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، و لتقومن الساعة و قد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها «1».

ثم تتلو الصيحة الواحدة نفخة هي الصيحة الثانية للإحياء: «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» (50: 42):

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى‏ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51).

ليس الصور جمعا للصورة، و قرائة الفتح مردودة لمخالفتها المتواترة، و لرجوع ضمير المفرد المذكر إليه في سائر القرآن: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ».

و هنا نفختان هما الصيحتان، و صيحتان هما النفختان: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68) «وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ» (27: 87).

و الصور هو البوق الصارخ في أعماق الأرواح فتفيق عن صعقتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 265- اخرج سعيد بن منصور و البخاري و مسلم و ابن المنذر و ابو الشيخ عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 76

الناتجة عن النفخة الأولى بأبدانها المثالية، و في نسل الأبدان الدنيوية على قدر.

و هو نقرة الناقور «1» تضرب إلى الأعماق‏ «فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى‏ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ».

فكما الصيحة الأولى أماتتهم لوطئتها، كذلك الثانية تحييهم لوقعتها، إزعاجة لها فاعليتها، إماتة مرة و إحيائة أخرى، و لا عوان بين إماتة و إحياء للأرواح، فالصيحة الصور بين إماتة كالأولى و إحياءة كالثانية، و لأن الأرواح- إلّا من شاء اللّه- مصعقة في النفخة الأولى، كما الأبدان ميّتة، فنسلهم من أجداثهم إلى ربهم هو إفاقة الأرواح و رجعها إلى أبدانها «فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» «وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ».

و ترى ما هو نسلهم من أجداثهم إلى ربهم؟

الأجداث هي القبور: الأمكنة التي تحوي الأجساد برزخية و دنيوية بأرواحها، سواء أ كانت تحت الأرض أمّاذا؟ مجموعة الأجزاء أم متفرقة، منضمة إلى أشياء أو أبدان أخرى أم مستقلة، فإنها لا تضلّ عن علم اللّه مهما ضلت عنا، فللكل أجداث لأجسادهم و أرواحهم و هي المحالّ التي تضمها: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 11) «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى‏ نُصُبٍ يُوفِضُونَ» (70: 43) «خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ» (54: 7): خروجا للأرواح داخلة في أجسادها على قدر اللازم في المعاد.

و النسل هو الانفصال‏ «وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» (21: 96)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 34- 36 من تفسير سورة النبأ ففيه نبأ فصل عن الصور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 77

انفصالا من كل المرتفعات، كما انفصال الذرية عن الآباء: «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ» (32: 8) «وَ إِذا تَوَلَّى سَعى‏ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ» (2: 205).

أفترى أن نسلهم من أجداثهم هو- فقط- انفصالهم عنها بأجسادهم؟

و ليس كل انفصال نسلا! بل هو انفصال خاص في انفعال خاص كنسل الذرية عن الآباء و هو الخاص بيوم الدنيا، و نسل الإنسان مرة أخرى يوم الأخرى دون آباء «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» (7: 29) و لكنهم ينسلون هنا سراعا دون مكوث الأولى في رحم أمّاذا؟.

فإذا كان العود كالبدء إلّا في الآباء و المكوث في الأرحام، فليكن «ينسلون» خلقا لهم جديدا لهم كما خلقوا أوّل مرة.

إنهم ينفصلون بكل أجزائهم عن كل اتصال غريب، ثم تنفصل أجزاؤهم الأصيلة التي عاشوها في حياة التكليف و كل الحيات، ثم تنسل هذه الأجزاء لخلق آخر كالأوّل، دون اختلاف عن الخلق الاوّل إلّا فيما نعلمه هنا «1» أمّاذا؟ سراعا و دون أصلاب و أرحام! فنطفته التي خلق منها أوّل مرة بطول الآماد و الأبعاد، يخلق منها مرة أخرى دون أبعاد و آماد، و دون أصلاب و أرحام.

و هنا نسل الأرواح هو انفصالها عن صعقتها، و نسل الأبدان كما بيناه، ثم الأرواح ترجع إلى أبدانها، و هذا النسل المثلث يكون إلى ربهم‏ «فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ»! إن النفخة الثانية تنسلهم إلى ربهم سراعا دون مهل، خلاف ما كانوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كخروج النطفة من الصلب و الترائب و استقرارها في الرحم طول مدة الحمل، و تنقّلها من صورة إلى صورة حتى انشأها اللّه خلقا آخر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 78

ينسلون من الأصلاب و الأرحام يوم الدنيا، و انهم يوم الدنيا كانوا ينسلون إلى ربهم بربوبية الامتحان التكليف، و في الأخرى ينسلون الى ربوبية الجزاء دون تكليف، و أين نسل من نسل، يوم الوصل و يوم الفصل؟

قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52).

الويل و العويل هناك ليس إلّا لمن كذب الرحمن و المرسلين، و كذب بيوم الدين، و لكنما المرقد يعمهم و جميع المكلفين، و ما أحسنه و أوضحه تعبيرا عن الحياة البرزخية بالمرقد، ضلع متضلع بين مربع الاحتمالات في الحالة البرزخية «1» و هي الآية الوحيدة اليتيمة التي تحمل لها سمة المرقد، و الرقدة هي النومة مقابل اليقظة «وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ» (18: 18) فالمرقد هو الرقدة و زمانها و مكانها.

و لأن القرآن كتاب هدى و بيان، فليس ينقل مقالة زائفة زائغة إلّا زيفها، فهم- على كفرهم- مصدّقون في «مرقدنا» لا سيما و هم في نهاية البرزخ و بداية القيامة، فليسوا ليكذبوا على اللّه و هم في يوم اللّه.

إنهم حينذاك‏ «قالُوا يا وَيْلَنا» و قد كنا نكذب بيوم الدين و هذا يوم الدين‏ «مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» و قد كنا راقدين قبل بعثنا في برزخنا.

أ ترى كيف يعبر عن الحياة البرزخية بالمرقد و هم فيها أحياء يرزقون أو يعذبون؟ لأن الغالب لهم فيها الرقاد دون رزق فيه و لا عذاب، فإنما اليقظة لهم بكرة و عشي‏ «وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» (19: 64)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فبعد التأكد من الحياة البرزخية كنا بين محتملات اربع رابعها المرقد، و الثلاثة الأخرى هي اليقظة الدائمة و الرقدة الدائمة و غلب اليقظة على الرقدة، و عكسها و هي الرابعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 79

«وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ» (40: 50).

و كما أن غرفة النوم يغلب فيها النوم و اليقظة قلة قليلة كمقدمة له و مؤخرة عنه، كذلك البرزخ هو كغرفة النوم، و هذا هو الذي يحملهم أن يقولوا «لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» أماذا من قلة قليلة من لبثهم في برزخهم.

و ترى كيف يستنكرون بعثهم عن مرقدهم في عجاب، و بحسبهم الحياة البرزخية دليلا صارما على حياة الحساب الجزاء بعد الموت؟

«يا ويلنا» ليست إلّا تصديق الويل لهم ما لم يكونوا يحتسبون و «من بعثنا» ليس استنكارا، بل هو استعجاب، و لم تبرهن لهم الحياة البرزخية إلّا نفسها و لمّا يعلموا بيقين أنهم مبعوثون ليوم الدين، إذ تعرّق الكفر في أعماقهم لحد لا يخرج إلّا بواقع الحياة الحساب، فقالوا «يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» ثم أجابوا هم أنفسهم‏ «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ» أن نبعث من مرقدنا «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» فيما أرسلوا به و منه بعثنا، أو أن الجواب من اللّه أو من يجيبهم عن اللّه؟ قد يعنهما «هذا ...» و لو خص بغيرهم لجي‏ء بما يخصه، ك «قيل» أو «قلنا»، ثم «الرحمن» دون «الرحيم» مما يلمح أنه قولهم مهما همّ غيره، فلو كان قول الرحمن لكان «وعد الرحيم» حيث الرحمة الرحيمية هي المقتضية للحياة الحساب، مهما اقتضت الرحمانية إمكانية العود في المعاد، و ليس- أخيرا- وعد الرحمن إجابته تعالى عن فاعل البعث، و إنما تحقيق الوعد و تطبيق الصدق.

إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (53).

«إن كانت» النفخة الثانية في الصور كما الأولى‏ «إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً» فالنفخة هي الصيحة النقرة «وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» (54: 50) دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 80

تكلّف الزيادة، فصيحة واحدة تأخذهم إماتة، و صيحة واحدة تحضرهم لدى ربهم إحياءة! أ ترى ليسوا هم أولاء هم محضرين عند ربهم حتى يصبحوا في الأخرى محضرين؟ ... بلى قد كانوا و لكنهم في امتحان الإختيار، ثم هم يوم الأخرى ليس لهم إمتحان و لا إختيار، فهم فيها «جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» حضورا مطلقا بعد ما كانوا عنده بمطلق الحضور، و أين حضور من حضور؟

حضور قد يتخلف عن مرضاته و ليس فيه هناك حساب و لا عقاب، و حضور لا يتخلف و فيه الحساب فالعقاب أو الثواب.

و «جميع» تجمع الأولين و الآخرين خروجا عن خصوص الكافرين:

قل إن الأولين و الآخرين لمجموعون إلى يوم الدين ف «ذلك يوم الجمع» أم يخص الكافرين حيث المحضر تلمح لحضور مكره، و ليس في حضور المؤمن لذلك المحضر اي مكره! و آيات «المحضرين» تخص الكافرين.

فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54).

لا تظلم نفس انتقاصا في ثواب يستحقه بفضل اللّه كما وعد، أم في عقاب بزيادة فإنه بعدل اللّه كما أوعد، و على اية حال ف‏ «لا ظُلْمَ الْيَوْمَ» فلا نفس تظلم نفسها حيث الحقائق مكشوفة و الظلم نتاج الجهل او الجهالة، و لا أية نفس تظلم غيرها- و كذلك الأمر- و لا أن اللّه يظلم نفسا، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، فلا المظلوم يوم الدنيا يظلم في الأخرى ألا يقتص من ظالمه كما يحق، و لا الظالم يظلم ان تزداد عقوبته على ظلمه، فالجو هناك جو العدل و الفضل، و في «اليوم» لمحة باهرة بانحصار الظلم في حياة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 81

التكليف الدنيا، و اما في البرزخ و الأخرى ف‏ «لا ظُلْمَ الْيَوْمَ» خلاف ما في الأولى‏ «وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (16: 33).

ثم و ليس هناك جزاء «إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» عمل الجوانح و الجوارح في عقائد و أعمال صالحة أم طالحة، و أما النيات فما هي بأعمال على أية حال، و إن كان المؤمن يثاب بنية الخير فبفضل اللّه و ليس جزاء إذ لا عمل، كما و فضل الثواب له عدة و مدة إنما هو بفضل اللّه، لا جزاء يزيد عن العمل، ثم العدل في عقاب الطالحات يقتضي جزاء وفاقا، و من أقله تجاوب الجزاء و العمل في كونهما محدودين عدة و عدة و تأثيرا.

و ترى كيف يصدق‏ «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» على عقيدة القلب، و كيف تمثّل بخيرها و شرها جزاء وفاقا؟ العمل حين يقابل الإيمان فهو عمل الإيمان، و حيث يطلق يعمه و عمل الجنان، بل هو أحرى بصيغة العمل حيث يصاغ العمل عن العقيدة، و لأن العمل هو بملكوته و حقيقته هو الجزاء فليتمثل أيا كان من عمل الأركان و الجنان، بل و البيئة الصالحة تتمثل كما الأعمال، كل على حدة.

و لئن لم تعن‏ «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» عقيدة القلب- إذا- فلا جزاء بها إلّا ما يعمل وفقها أو خلافها، اللّهم إلّا بتأويل أن العمل هو الجزاء ليس إلّا، حيث العقيدة تبرر في الأعمال على أية حال، ثم صالح العمل مشروط فيه صالح العقيدة و النية كما طالح العمل بطالحها، صالحا بصالح و طالحا بطالح.

و لأن المجزيين لا يجزون إلّا ما كانوا يعملون، فلا موقع للظلم، فحتى أن الجزاء ليس انتقاما في العقاب أو ثوابا في الصواب، فإنما العمل و العمل فقط هو الجزاء يوم الجزاء، بفضل اللّه أو عدله.

و لئن سئلنا فما هو- إذا- موقف الحسنات الحابطة بأسبابه و السيئات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 82

المعفوة بأسبابه؟ فالجواب أن الجزاء هو العمل الذي يبقى مع الإنسان إلى يوم البقاء، دون الحابط المعفو، فالتائب عن الذنب كمن لا ذنب له، كما الحابطة حسناته لا حسنات له! ثم إنّ العمل أيّا كان فهو محدود بحدود، فالجزاء الذي هو العمل كذلك محدود بحدود، و مهما خرج الثواب عن حدود «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فانما هو بفضل اللّه، فقولة القائلين بالعذاب لغير النهاية للخالدين المؤبدين فرية ظالمة هاتكة لساحة رب العالمين و ارحم الراحمين، و لقد بيناها في طيات آياتها كرارا و مدرارا.

«ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» في بعدية جانحة و جارحة، فإنه في باطن ملكوته يوم الملكوت هو الجزاء، فليس الجزاء العقاب يومئذ انتقاما، بل هو ظهور ما كان خفيا في عالم الخفاء و يصبح حليا في عالم الظهور: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» و على حد المروي عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): (إنما هي أعمالكم ترد عليكم) فأهل العذاب: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ» (29:) 54) و هم في الدنيا، في غفلة عنها، ثم و يحيط بهم و هم يحرقون بها! و أهل الثواب: «فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (32: 17) و لا إخفاء إلّا لكائن حاله، و لا خفاء في الدار الآخرة حيث ترى نفس كل جزاءه بالحسنى، فإنما الخفاء هنا، فالصورة الجلية للصالحات أتعاب و حرمانات، ثم الصورة المخفية ثواب و رحمات‏ «جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» يحمله العمل بملكوته!.

لقد طويت الحوار حول يوم القرار في سرعة خاطفة عاطفة تلك المشاهد الثلاثة ببعض، متخطية إلى حالات لكل من أصحاب الجنة و اصحاب النار:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 83

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55).

إنهم- و الحمد للّه- في شغل عمن سوى اللّه و عما سوى الجنة «فاكهون» متفكهون فيها متنعمون بنعمها كلها «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» فهم «فاكهون» بكل فكاهات و فاكهات الجنة، فلا تعني «فاكهون» أكل الفاكهة إذ يأتي بعد هنيئة «لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ» ثم «فكه» لا تعني أكل الفاكهة مهما شمله، فإن من الفكاهة حديث ذوي الأنس‏ «وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى‏ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ» (3: 31) «وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ» (44: 27) و لا تختص النعمة بالفاكهة بل هي مطلق النعمة روحية و مادية: «فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ» (52: 18) و من كونهم فاكهين التفكه بالعذارى‏

«حواجبهن كالأهلة و أشفار أعينهن كقوادم النسور» «1».

و كأن الفاكهة أيضا من الفكاهة فإنها نافلة الطعام و زهرته، و علّ كل نافلة عن اللازم فاكهة، من عذارى الحور فإنهن نافلات الزوجات الإنسيات، و مفاخر الملابس و المساكن، و مؤنسات المقالات و المبصرات أمّاذا من الماديات، و كذلك من المعنويات، و لذلك ترى الآيات التالية تذكر موارد من هذه كمصاديق ل «فاكهين» و منه فاكهة الأزواج:

و «في شغل» دون «على» أو «الشغل» يشغل البال بحيطة الفكاهة عليهم كأنهم فيها غارقون، لمكان «في» و أن شغلهم لا يوصف عدة و عدة لمكان التنكير «في شغل»! و أفضل الشغل يوم اللّه و في دار اللّه و بجنابه و حضرته القدسية: «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» فأشغل «شغل» لهم الحالة الروحية الغالية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 389 ح 65 في مجمع البيان في الآية و قيل شغلوا بافتضاض العذارى عن ابن عباس و ابن مسعود و هو المروي عن الصادق (عليه السلام) قال: حواجبهن ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 84

بلقاء المحبوب، و من ثم\* «في شغل» هامشي بمظاهر النعم، و ذلك هو المشغول فيه.

و أما المشغول عنه فهو الطريق الشاق الطويل يوم الدنيا، الملي‏ء بالأشلاء و الدماء، بالمكروهات و الحرمانات و طول التصبّر عن اللذات و المحرمات.

فهم يومئذ في شغل عن كل ذلك و عن كل مسابب و مناسب لا يناسب رحمة اللّه و لا تناسبه.

هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (56).

و ترى من هم «أزواجهم»؟ أهم حلائلهم؟ و لسن كلهن من أصحاب الجنة! و التي هي منهم تشملها «أَصْحابَ الْجَنَّةِ»! «أزواجهم» هم قرنائهم الأتباع في الصالحات، و كما «أزواجهم» في الصافات هم قرناء أهل النار و أتباعهم في الطالحات: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى‏ صِراطِ الْجَحِيمِ» (37: 23).

ف «أزواجهم» هنا و هناك هم الأتباع، سواء أ كانوا من أزواجهم سببيّا كالبعولة و الزوجات، أم سواهم، ف «هم» فيهما تعني الأصلاء من أصحاب الجنة و أصحاب النار رجالا و نساء، و «أزواجهم» هم الفروع منهما رجالا و نساء، مهما شملت الحور العين‏ «1» و بين البعولة و زوجاتهم من أهل الجنة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في روضة الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ سأل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- حديث طويل و فيه عن حال اهل الجنة- و المؤمن ساعة مع الحوراء و ساعة مع الآدمية و ساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئا ينظر بعض المؤمنين الى بعض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 85

و النار عموم من وجه! إذا ف «هم» لا تختص بالبعولة، كما «أزواجهم» لا تختص بالزوجات، فمن الزوجات من هن أصيلات و بعولتهن الفروع، أم هم من أهل النار، كما العكس كذلك، فتفسير «أزواجهم» بحلائلهم تفسير ردي‏ء لا إجابة صالحة عن مشاكله ...

و «في ظلال» هنا و في سائر القرآن لأصحاب الجنة لمحة صريحة أن هناك شمسا يستظل منها، و إلّا فلا موقع لظلال إذ لا شمس مشرقة و حارة ف‏ «دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها» (76: 14) «وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا» (4: 57) و «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ» (77: 41) «وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ» (56: 30) و «أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها» (13: 35) آيات بينات تجاوب «في ظلال» أن هناك شمسا، ثم آية الزمهرير تصارح: «لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً» (76: 13).

إن ظل الجنة عن الشمس من ميزات أصحابها، و السالبة بانتفاء الموضوع مسلوبة عن مذهب الفصاحة و البلاغة، مهما ذهب إليها المنطق تجويزا عقليا، ثم في ظلال لا يختص بظلال الأبنية و الأشجار و سائر المظلات، بل و قبلها الأهم منها و أحرى ظلّ اللّه و ظل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته الطاهرين (عليه السلام) و قد تشير إليها «في» حيث المظلات الظاهرية هي فوق المستظلين و هم تحتها لا فيها، و لكن «في» تعني فيما تعني مع الظلال الظاهرة، الظلال الباطنة التي يستظل فيها، كما و أن تنكير «ظلال» يلمح بذلك، فإنه ظل ظليل بمدّ طويل يشمل الأرواح و القلوب و الأفئدة.

لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ (57).

«فاكهة» كما يشتهون من كمها و كيفها و «يدعون» كما يشتهون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 86

و ماذا تعني «ما يدعون»؟ إنه من الادّعاء: الافتعال من الدعوى، أي: ما يتطلّبون لأنفسهم و يتمنون دونما حد و لا حدود: «وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ» (41: 33) و علّ الفارق بين الاشتهاء و الادّعاء أن الثاني اشتهاء ظاهر في طلب، و الأول يعمه و دون طلب، و أنه يعم الادعاء في الأولى كما الأخرى، و الأول اشتهاء يوم الأخرى: «وَ قِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ» (67: 27).

و كما أن في حصول ما يشتهون دون طلب حفاوة و إكراما كذلك فيما يحصل بطلب، حيث المطلوب هو الرب الرحيم، و الطلب منه تعالى بحصول المطلوب رحمة على رحمة و حفاوة على حفاوة، فمن العباد من يعطيهم ربهم هنا بعض ما يشتهون دون طلب لكيلا يطلبوا فيسمع دعاءهم لبعدهم عن ساحته، فمهما لم يكن في الجنة بعد لأهلها ف‏ «لَهُمْ ما يَدَّعُونَ» إكرام لهم بصورة أخرى بعد «لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ»!.

ثم و لهم في كونهم فاكهين: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58) هم في دار السلام لهم سلام من الرب الرحيم السلام، سلام قولا منه هنا دون وسيط كما سلام حالا و فعلا هناك، سلام على سلام! فإنها «دار السلام».

لأصحاب الجنة كل سلام و لأصحاب النار كل سأم، قولا لهولاء «سلام» و لأولاء في كلمة خاطفة:

وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59): أمر تكويني للذين أجرموا بامتيازهم و انفصالهم عنهم مكانا و مكانة و خطابا و حالا و مقالا أم أيا كان مما يكون و ما كان.

إنهم يتلقون كل تحقير و ترذيل يستحقونه بما كانوا يجرمون في كل الجهات و الجنبات بأمر إمر: «و امتازوا»:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 87

امتيازا في سيماهم: «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» (55: 41).

و امتيازا عن شفعائهم الشركاء الذين كانوا يدّعون: «وَ ما نَرى‏ مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ» (6: 96).

و امتيازا عن أنسابهم و أنسبائهم: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ» (23: 101).

و امتيازا لبعضهم عن بعض في فرقة بعيده بائدة، و غربة غريبة سائدة فهم رغم اجتماعهم في النار ليس لهم اجتماع فيه يستأنسون، و الفرقة هناك- كما هنا- عذاب فوق العذاب، فلكلّ منهم بيت من النار يدخل فيه فيردم بابه لا يرى و لا يرى.

و امتيازا عما كانوا يدّعون، فهنا يدّعون إلى جهنم دعّا رغم ما يدّعون.

و امتيازا في تميّز النار من الغيظ: «تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ» (67: 8).

و امتيازا لأعمالهم و ما كانوا يعتقدون أو ينوون عما للمؤمنين و لذلك يتفرقون: «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ» (30: 16).

امتيازات سبعة في دركات سبع بتبكيت قارع يعمهم أجمعين!:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. (60) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 88

عهد سابق سابغ، صابغ فطرة الإنسان سلبا لعبادة الشيطان و إيجابا لعبادة الرحمن:

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30) «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏ شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» (7: 173).

فذلك عهد فطري لا يتخلف، ثم عهد عقلي مأخوذ على العقول بدرجاتها و هو أخص من الفطري إذ يخص العقلاء، و من ثم عهد رسالي قد يتخلفون عنه تخلفا عن عهد الفطرة و العقل و فيه تفصيل ما في عهد الفطرة: «يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ...»

(7: 27) «إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ...» (41: 14).

و العهد الرسالي أخص من العقلي و بأحرى من الفطري، حيث لا يعم من عاش زمن الفترة، إذا فهم على دين العقل و الفطرة.

و ترى لماذا «بني آدم» و آدم مفطور على الفطرة نفسها و مأمور بعهد الرسالة كما هم؟ علّه لأنه أوعد ذريته بعدائه: «قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17:) 62) و أن آدم ما عبد الشيطان في عصيانه و لم يكن ليعبده، كما و أن السابقين و المقربين من بني آدم لا يشملهم خطاب التنديد، حيث لم ينقضوا عهد اللّه مهما كان من آدم بعض النقض: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» ثم و «بني آدم» دون «العقلاء» ام «الذين بلغهم عهد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 89

الرسالة» ذلك لمحة أنه عهد إلى كل بني آدم لزاما لهم دونما انفصال على أية حال، فهو- إذا- عهد الفطرة، و لا سيما إذا اكتمل بعهد العقل و الشرعة، حجة مثلثة قاطعة على أصحابها، مهما كانت الفطرة دونهما، أم و العقل دون الشرعة ايضا حجة، مهما بان البون بينهما.

ثم لماذا «لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ» الخاصة بعبدة الشيطان دون سائر العصاة من ملحدين أو مشركين أو موحدين من مسلمين و سواهم؟ علّه ليشمل العصاة الأصول في عصيانات هي كعبادة للشيطان! أم و سواها من سائر دركات العصيان، توسيعا للعبادة لحدّ

(من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن اللّه فقد عبد اللّه و إن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس‏ «1».

فطاعة الشيطان بدركاتها عبودية له بدركاتها، من اتخاذه إلها أو إشراكه باللّه، إلى طاعته في أي عصيان و بينهما متوسطات.

كما و طاعة الرحمن درجات، عبودية له بدرجات، فكل طاعة نتيجة عبادة في حدها ف‏ «لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ» كجملة مستقلة نهي عن كل طاعة للشيطان في أي عصيان كبيرا او صغيرا، و لكن صلي الجحيم يخص أصول الكفر و الضلالة إلحادا في اللّه أم إشراكا باللّه أماذا من أصل في ضلالة عقائدية أو عملية.

ثم و ما يعبد من دون اللّه ليس إلّا عن عبادة الشيطان و يلحقه كل عصيان مهما تفارقا في الطاعة المطلقة و مطلق الطاعة، و لكنما المحور الأصيل في‏ «أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ» هم الكفار، و قد تدل عليه إضافة إلى صيغة «لا تعبدوا» هنا «اصْلَوْهَا الْيَوْمَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 391 ح 70 في كتاب اعتقادات الإمامية للصدوق و قال (عليه السلام):.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 90

و لماذا لا نعبد الشيطان؟ ل‏ «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» يبين عدائه فيما يحملكم عليه من خلاف الفطرة و العقل و العدل، و فيما يخلفكم ذلك الغرور من وعده الغرور! «أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ» تخلية عن عبادة غير اللّه أن «لا إله» «وَ أَنِ اعْبُدُونِي» تحلية بعبادة الرحمن «إلا الله» و «هذا» السلب المطلق و الإيجاب المطلق: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» «صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ»: صراط العبودية.

وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62).

سيروا في الأرض فانظروا إلى من أضله الشيطان من الجبلّ الكثير فلم يبق إلّا القليل و كما أوعدكم منذ البدء: «لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» و الجبلّ من أصل الجبل تدليلا على معنى العظم، فكثيره هو الجماعة الكثيرة المغلّظة، كما الجبلّة هي الجماعة المجبولة المفطورة على أمر: «وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ» (26: 184) فكما الجبل مفطور على الصلابة و الصلادة، كذلك الناس أجمعون فأنهم مجبولون و مفطورون على فطرت اللّه التي فطر الناس عليها.

فالجبلّ الكثير هم المفطورون على‏ «أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ‏ ... وَ أَنِ اعْبُدُونِي» في عهد الفطرة، فهؤلاء الكثير تخلفوا عن جبلّتهم بما أضلهم الشيطان، و جبلّ قليل هم الباقون عليها الماشون صراطها المستقيم «أ فلم تكونوا» في واقع هذه التجربة العظيمة «تعقلون» و تأخذون حكم الفطرة بقوة؟

و لأن‏ «كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» (4: 76) فإضلالة الجبلّ الكثير عن جبلتهم و فطرتهم و عقليتهم و شرعتهم، على كثرتهم، ليس ذلك لقوته، بل لضعف هؤلاء الجبلّ الكثير، لا ضعفا في فطرتهم فإنها حجة اللّه، و إنما تعاميا عنها و تركا لاستعمال عقولهم، و لأنهم لم يعقلوا شرعة اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 91

كما يجب، كما لم يعقلوا فطرة اللّه و عقولهم.

فحجة الفطرة أقوى من حجة الشيطان التي تسترها، لأنها ليست إلّا غواية، و حجة العقل أقوى و هي في الشيطان أغوى، و حجة الرسالات معصومة تفصيلا كما حجة الفطرة إجمالا، فإضلال الشيطان للجبل الكثير ليس إلّا استضعافا لحجج اللّه داخلية و منفصلة، حيث لم يعقلها العاقلون: «أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ» أنتم الماشون سبيل الجبلّ الكثير كما هم، فالعقل مفتاح الفلاح و الصلاح حين يستعمل على ضوء الفطرة كآية أنفسية، و على ضوء ساير الآيات الآفاقية و كما في الحديث «العقل ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان»! هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ‏.

المخاطبون هنا هم المجرمون الذين‏ «يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» دون بني آدم أجمعين، و لا عصاتهم أجمعين، حيث الصلي إيقاد كما في سائر القرآن، و ليس إلّا لأصول الضلالة دون الأتباع: «لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» (92: 15) «وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (3: 10) «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98).

و علّ «هذه» إشارة إلى جحيم ضلالتهم على عقلهم إذ لم يعقلوا، ثم جحيم البرزخ و هي حصيلة تلك الجحيم، و من ثم جحيم الآخرة و هي بروز كامل لهما حيث‏ «يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» فهم- إذا- في ثالوث الجحيم كلّ تلو الأخرى، صورا ثلاث عن جحيم واحدة! فليست آيات اللّه آفاقية و أنفسية بالتي تقهر أمام كيد الشيطان، و إنما الانسلاخ منها بعد إيتاءها: «و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. و لو شئنا لرفعناه بها و لكنه أخلد إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 92

الأرض و اتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تركه يلهث» (7: 176).

[سورة يس (36): الآيات 66 الى 83]

وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى‏ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى‏ مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ (67) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (68) وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (70)

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (71) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ (72) وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (73) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75)

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (76) أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)

أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى‏ وَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 93

وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى‏ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى‏ مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ (67).

«الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى‏ أَفْواهِهِمْ» و هنالك بطل تكلمهم باختيارهم، و بقيت أعينهم ناظرة، فعلّهم- و لن يستطيعوا- يفتشون عن صراط الجنة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 94

ليهتدوا إليه‏ «وَ لَوْ نَشاءُ»- و لن! إذ لن يستطيعوا- «لَطَمَسْنا عَلى‏ أَعْيُنِهِمْ»:

إلحاما للشقوق بين الأجفان حتى تكون مبهمة لا شق فيها و لا شفر لها، و بأحرى- إذا- يبطل إدراكها كسفا لأنوارها فصارت ممسوحة لا يبصرون‏ «فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ» في التزاحم التسارع إلى الصراط، استبقوه متجاوزين عنه! جاعلين إياه ورائهم ظهريّا «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» أنهم جاوزوه، و أنى يبصرون الصراط حتى لا يسبقوه؟

أم لو أنهم اهتدوا إلى الصراط على طمسهم بغتة و صدفة، رغم استحالة اهتدائهم حتى إذ أبصروا، هنا «لو نشاء» و لن‏ «لَمَسَخْناهُمْ عَلى‏ مَكانَتِهِمْ»: إمكانيتهم في المضي، و مكانهم، و مكاناتهم التي يزعمون‏ «فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا» إلى الصراط «لا يرجعون» إلى دنياهم تخلصا عن بلية العقاب.

هذه الطمسة المسخة ليست بذلك البعيد عن قدرته تعالى و بالنسبة للكافرين المستحقين لها، كيف؟

وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (68).

إن النكسة في الخلق هي في أرذل العمر: «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى‏ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» (16: 70) فلا يزال الإنسان منذ ولادته إلى قوة و لحد الأربعين، و من ثم يتنازل إلى ضعف و ضعف لحد النكسة الأرذل حيث تزول طاقاته الجسمية و الروحية و لحد الطفولة و أرذل: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ» (30: 54) إنا نعيد الشيخ الكبير إلى حال الطفل الصغير، في الضعف بعد القوة و التثاقل بعد النهضة، و الأخلاق بعد الجدة، تشبيها بمن انتكس على رأسه فصار أعلاه سفلا و أسفله علوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 95

إنهم و هم في دار السعي و الإختيار قد يردّون إلى النكسة، كيف و هم في دار الجزاء اللّا إختيار يسدون عنهم النكسة عن الصراط و هم في قبضة العلي القدير! «أَ فَلا يَعْقِلُونَ» عن ماضيهم لمستقبلهم؟! أ ترى كل من يعمّر ينكس لأرذل العمر، و قد عمّر نوح (عليه السلام) ألفا أو يزيد و هو رسول في كمال العقل و الدراية، و عمر المهدي القائم من آل محمد اثنى عشر قرنا و إلى ما لا ندري و هو يظهر في صورة شاب بالأربعين؟

إن هذا و ذاك تعمير دون نكسة و رذالة، يستثنى عن عموم التعمير، و لا سيما للمهدي (عليه السلام) فانه خارقة إلهية في عمره و كل أمره صلوات اللّه عليه و على آبائه الكرام.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى‏ أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (65).

هل إنه الختم المطلق على أفواههم يوم الحساب؟ و «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (24: 24) تشهد بشهادة ألسنتهم! و لكنها شهادة دون اختيار كما الأيدي و الأرجل! و من ثم ماذا نصنع بقولهم: «وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ...» (41: 20)؟.

القول الفصل هنا فصل القول، أن ليس قالهم بفتح أفواههم إلّا بعد شهادات الأعضاء بختم أفواههم: «حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ» (41: 22)، فاللّه هو الذي ينطق الألسنة و الأيدي و الأرجل و السمع و الأبصار و الجلود

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 96

بعد ما يختم على أفواههم، و شهادة كلّ بحسبه كما سجلت أصواتا في الألسن و السمع، و صورا في سائر الأعضاء، بما استنسخها اللّه: «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 39).

و ترى لماذا الختم على أفواههم حين استشهاد أعضائهم؟ لما قد يتطلبون «إني لا أجيز علي إلا شاهدا مني» «1» و ما يكذّبون‏ «2» «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ» (58: 18)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 267- اخرج احمد و مسلم و النسائي و ابن أبي الدنيا في التوبة و اللفظ له و ابن أبي حاتم و ابن مردوية و البيهقي في الأسماء و الصفات عن انس‏ في قوله تعالى‏ «الْيَوْمَ نَخْتِمُ ...» قال: كنا عند النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فضحك حتى بدت نواجذه قال أ تدرون مم ضحكت؟ قلنا لا يا رسول اللّه قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يا رب الم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول اني لا أجيز عليّ إلا شاهدا مني فيقول كفى بنفسك عليك شهيدا و بالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه و يقال لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه و بين الكلام فيقول بعد الكف و سحقا فعنكن كنت أناضل.

(2)

نور الثقلين 4: 391 ح 75- القمي عنه (عليه السلام) إذ جمع اللّه عز و جل الخلق يوم القيامة دفع الى كل انسان كتابه فينظرون فيه فينكرون انهم عملوا من ذلك شيئا فتشهد عليهم الملائكة فيقولون رب ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من ذلك شيئا و هو قول اللّه‏ «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ...» فإذا فعلوا ذلك ختم الله على ألسنتهم و تنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون‏

أقول علّها «عَلى‏ أَفْواهِهِمْ» حيث الألسن من شهود الأعمال مهما كانت خارجة عن اختيارهم.

و

فيه ح 76 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه ... فكذبهم اللّه فيما انتحلوه من الإيمان بقوله: «انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» فيختم اللّه على أفواههم و يستنطق الايدي و الأرجل و الجلود فتشهد بكل معصية كانت منه ثم يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم‏ «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 97

يختم على أفواههم سدا عن الكذب يوم الصدق و تسديدا للشهادة الصدق، ثم تفتح ف‏ «قالُوا لِجُلُودِهِمْ ...» قولة متحسرة متغيظة بعد ما تمت الشهادة و غلب هنالك المبطلون و لات حين مناص إذ فات يوم خلاص! فليست الأفواه كلها يومئذ مختومة، و لا أفواه الكاذبين على أية حال، بل في بعض الأحوال دون بعض لحكم قاضية، و تكلّم الألسن كسائر الشهادات المسجلة في الأعضاء ليس هنالك باختيار.

ثم ترى لماذا «تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ» «وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ» و شهادة الجوارح دون اللسان و السمع هي الأعمال المستنسخة فيها على سواء، ثم الشهادة تعمها حتى المتكلمة منها في آية النور؟

علّه لأن «أيديهم» تشمل سائر أعمال الجوارح بما فيها السمع و الألسنة المتكلمة بما سمعت أو تكلمت، و الأعين بما رأت، و الأيدي بما مدّت، و تكلم كلّ على حسبه، ثم الأرجل تشهد بما مشت أو تركت و لا كلام لها! إذا فقد جمعت الآية بين الجوارح العاملة كلها، تكلما فيما يحويه، و شهادة فيما لا يحويه! أم و لأن الأفواه المختوم عليها أستبدل عنها بتكلم الأيدي، شملت الألسن ام لم تشمل، فإن كانوا لا يتكلمون بما عصوا و يكذبون، فهذه أيديهم تتكلم بما كانوا يعملون، دونما حاجة إلى كلامهم باختيار! وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (69).

من حروب الدعاية التي شنّوها على الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) معتمدين فيها على النسق القرآني المنقطع النظير، قولتهم إن البشير النذير «شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» (52: 20) «بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 98

بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» (21: 5).

و ما قولهم إنه شاعر إلّا كقولهم هو ساحر، حيث الشعر يسخر العقول و يسحرها، و يأتي بالكذب المزخرف بأوزان ساحرة، فيخيّل إلى الناس صدقه، أو يقضي على الصدق فيظن كذبه، و الشعر يفدي جمال المعنى و حقّه لجمال اللفظ و الوزن، و يفدي جمال الحقيقة بتجميل الوزن، عامدا مختارا، أو مضطرا محتارا.

و مجمل القول عن قول الشارع و الشاعر، أن الشارع يؤصّل المعنى على جمال اللفظ دونما نفاق فيهما فإنهما في تعبيره العبير على حدّ سواء و حتى في الإعجاز، و الشاعر يعاكسه بتأصيل الوزن و المعنى تبع، و أحيانا ليس له معنى صالح او يهدم صرح الحقيقة.

و لقد كانوا على معرفة بما للشعر من زور و غرور على حبه الهيمان، فردفوه في عساكر التّهم الزور ضد الرسالة القرآنية، و يرد عليهم القرآن بواقعه النثر و إن كان لا يشبه شعرا و لا نثرا، و بما ينفي عن رسوله:

«وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ» و إذا لم نعلّمه شعرا فما هو بشاعر، لأنه أمّي لم يتعلم من غير اللّه شعرا و غير شعر، و لم يعلّمه اللّه الشعر، فليس- إذا- ليعلم شعرا لا إنشادا له‏ «1» و لا نقلا رساليا أم و مطلق النقل.

أ ترى الجهل بشي‏ء يعد في عداد مكارمه الرسالية، شعرا و غير شعر؟

أجل و في العلم المشوب الذي يجهّل و يريب الناس بالنسبة للرسالة الإلهية، و كما و أن تلاوة كتاب و خطه بيمينه يريب المبطلين:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 369- اخرج ابو داود و الطبراني و البيهقي عن ابن عمر و سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: ما ابالي ما أتيت ان انا شربت ترياقا او تعلقت نميمة او قلت الشعر من قبل نفسي،

أقول و هذا لا ينافي عدم تعليمه مطلق الشعر حتى نقله و انما ذكر إنشاده كاظهر مصاديقه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 99

«وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (29: 48) و الشعر ينهج غير منهج النبوة فإنه انفعال يستغل و هي فعل يستغل، هناك انفعال يتقلب من حال الى حال في مختلف الأحوال، و هنا منهج ثابت من اللّه لا يتبدل مع الأهواء المتجددة التي لا تثبت على حال، و هناك أشواق إنسانية واقعية أم متخيلة إلى ظاهر الجمال، و هنا حكم و أحكام إلهية مرسومة في كتاب التدوين تجاوب كتاب التكوين، فهما مختلفان من الأساس، لا نجد لكلّ في صاحبه اي مساس.

لذلك لم يعهد عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نقل أي شعر عن أي شاعر إلاليّا «1» فضلا عن إنشاده في سنته، و أحرى منها براعة يراعة قرآنه.

و أما إنشاء الشعر و نقله بين الأئمة المعصومين فقد ينبغي إذ ليسوا في موقف الرسالة، ثم و ما كان لهم في الشعر مراس، و كانوا يستحسنون أحسنه دعاية للإيمان بعد دعوة السنة و القرآن، و قد مدح اللّه الشعراء الذين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و لقد كان يقلب الشعر حين ينقله كما

في الدر المنثور 5: 369- اخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة قال‏ بلغني انه قيل لعائشة هل كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يتمثل بشي‏ء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث اليه غير انه كان يتمثل ببيت اخي بن قيس يجعل آخره اوله و اوله آخره و يقول: يأتيك من لم تزود بالاخبار فقال له ابو بكر ليس هكذا فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اني و اللّه ما أنا بشاعر و لا ينبغي لي أقول، و أصل المصراع: و يأتيك بالاخبار من لم تزود،

و

فيه اخرج ابن سعد و ابن أبي حاتم و المرزباني في معجم الشعراء عن الحسن‏ ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان يتمثل بهذا البيت: كفى بالإسلام و الشيب للمرء ناهيا- فقال ابو بكر اشهد انك رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما علمك الشعر و ما ينبغي لك.

أقول و أصله: كفى بالشيب و الإسلام للمرء ناهيا- و ما الطفه تقديمه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الإسلام معنويا، و لفظيا حيث ما علّم الشعر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 100

آمنوا و هم قلة، بعد ما ذم سواهم و هم كثرة: «وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ.»

«أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ. وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ».

و لكن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لو قال شعرا إنشادا أو نقلا، قرآنا و غير قرآن، لدخل في أقواله تهمة الشعر التخيّل، و لم يكن الشعر ليجمّله أكثر مما هو فصاحة و بلاغة، و لكنما الشعر يزيد المعنى جلاء في تخيّل، و هو نفاق و شرعة اللّه منه براء.

و القول: إن الشعر- هنا- يعني التخيلات المزخرفة موزونة و غير موزونة، فالحقائق الناصعة في أوزان ليست شعرا، و التخيلات في غير أوزان شعر، و إذا كانت في أوزان فهي شعر على شعر.

ذلك هنا مردود، بأن المفهوم من الشعر ما له وزن في تخيل و سواه، و هو لجمال وزنه مظنة التهمة، و الاستثناء في آية الشعراء ب‏ «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ...» عن‏ «الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ ...» و إضافة إلى مثلث التعريف بالشعراء دليل واضح لا مرد له أنه ليس مجرد التخيلات.

فليس ينبغي للرسول علم ما يريب الناس في رسالته‏ «وَ ما يَنْبَغِي لَهُ» و ليس الشعر ذكرا إلا نفاقا و زورا و غرورا، و لا مبينا لهدى إذ ليس صراطه مستقيما، و الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ»: إن الرسول إلّا ذكر ... و إن علمه إلّا ذكر، حيث «هو» يحتملها، و الأحرى أدبيا هو الرسول.

أ ترى الرسول «قرآن مبين» إلى كونه ذكرا؟ أجل إنه ذكر بكله، و قرآن مبين بكله، و قد كان خلقه القرآن‏ «1» قلبه القرآن و قالبه القرآن، ظاهره قرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يسأل ابن عباس ما كان خلق الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: كان خلقه القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 101

و باطنه قرآن، و مهما كان في القرآن التدوين متشابهات و مجملات تحتاج إلى بيان، فالرسول القرآن هو بنفسه مبين و بيان، فإنه قرآن متجسد مبين في كافة أحواله و أقواله.

إنه ذكر كما القرآن ذكر: «ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ» (3: 58) «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا ...» (65: 10) صنوان من أصل واحد هو خاتمة رسالات السماء، و إنه مبين كما القرآن مبين: «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (7: 184) «الر. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ» (12: 1).

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أنا القرآن و السبع المثاني‏ |  | و روح الروح لا روح الأواني‏ |

فهو قرآن كما القرآن قرآن، كما القرآن يقرأ تدوينا و هو يقرأ كتاب حياته تكوينا، و هما متجاوبان كأنهما واحد حال أنهما اثنان، فقرآن محمد و محمد القرآن آيتان بارعتان إلهيتان كأنهما آية واحدة، يستدل بالقرآن على رسالته و يستدل به على رسالة القرآن! و للرسول فضل على القرآن لأنه تفسيره بيانا و عملا و تطبيقا! هذا التعبير عن الرسول و إن كان منقطع النظير، فإنه يبين كيان ذلك البشير النذير، دمجا في القرآن كما القرآن مدمج فيه، فأية فرية على الرسول هي فرية على القرآن كما العكس كذلك، فكونه شاعرا يعني أن القرآن شعر، و كونه شعرا يعني أن رسوله شاعر.

ثم «إن هو» الثاني: علم الرسول‏ «إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» يخص علمه بهما، فالقرآن المبين هو الأصل المتن المتين في علمه بالوحي، ثم السنة ذكر يبين القرآن، و لو كان «هو»- فقط- القرآن لكان توصيفه ب‏ «قُرْآنٌ مُبِينٌ» توضيحا للواضح لدى الكل، و أما كون الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ببيانه قرآنا مبينا إلى كونه ذكرا، فمجهول لدى الأكثرية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 102

إذا ف «إن» الرسول و علمه‏ «إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» حاملا مثلثا من التبيين: ذكر- قرآن!- مبين:

لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (70).

مقابلة «مَنْ كانَ حَيًّا» ب «الكافرين» توحي بحياة الإيمان، أ ترى أنه واقع الإيمان و هو واقع بعد كمال الإنذار و التبشير؟

قد تعني قبول الإيمان بأية مرتبة كان فهو من كان عاقلا «1» يستعمل عقله في صالحه،: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (81: 28).

فالذي لا يعقل رغم عقله فلا يشاء أن يستقيم فهو ميت من الكافرين، لا يؤثر فيه الإنذار، فقد تعني ما تعنيه‏ «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» و «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ».

ف‏ «مَنْ كانَ حَيًّا» يشمل من كان كافرا يتبع الذكر و يتقي إذا وقي، إذ كان كفره عن قصور او تقصير جانبي و قد بقي فيه نور النجاة: «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (6: 122) ف‏ «مَنْ كانَ مَيْتاً» هنا تعني مطلق الموت الذي يشي إلى حياة، و في الأنعام الموت المطلق الذي لا يشي إلى الحياة: «فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» (30:) 53).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجمع روي ذلك عن علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 103

«لِيُنْذِرَ ... وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ»: كلمة العذاب‏ «عَلَى الْكافِرِينَ» الذين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و لكن إذا لم تنذرهم لم يحق القول عليهم، حيث تبقى لهم حجة أننا ما أنذرنا حتى نهتدي: «وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا».

أ ترى «لينذر» هو الرسول؟ فقد انقطع إنذاره بعد انقطاعه! أم هو القرآن؟ و محور الكلام كان هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و إنذار القرآن لا يتم إلّا بالرسول! المنذر هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالقرآن و القرآن بالرسول، و إذا انقطع الرسول عن الأمة فلا تنقطع سننه عنهم، و القرآن هو محور الإنذار، بالرسول ما دام فيهم، و بسنته و خلفائه بعده، و بالعلماء بعدهم؟ «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» (19: 97) «لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» (7: 2) «وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها ...» (6: 92) «وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» (6: 19) «قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ» (21: 45).

ثم‏ «مَنْ كانَ حَيًّا» دون الأحياء قد تعني الجمع بين من يؤثر فيهم الإنذار أجمع، ف «الأحياء» بالفعل هم المؤمنون بالفعل، و الأحياء شأنا هم الكافرون بالفعل من مشركين و كتابين أمّن هم؟، و «كان» تشملهم أجمع‏ «1» ثم لا يبقى إلّا من ليس في حياته حياة العقل و القبول، ليرجى به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 393 ح 80 في اصول الكافي بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: و قال اللّه عز و جل‏ «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» فالحي المؤمن الذي تخرج طينته من طينة كافر و الميت الذي يخرج من الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن، فالحي المؤمن و الميت الكافر و ذلك قوله‏ أَ وَ مَنْ كانَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 104

إيمانه بالقرآن، الغافل الذي لا يستيقظ إذا أوقظ و لا يتعظ إذا وعظ فهو ميت مطلق لا ترجى حياته.

إذا فسابق الحياة السابغة شرط أصيل لتقبل الإنذار بالقرآن، و مهما كان القرآن حجة بالغة على كافة العقلاء و لكنه ليس ليؤثر إلّا فيمن له قابلية القبول، و هو من له بقية من حياة العقل و التحري عن الحق، دون من ليس ليستعمل عقله: «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» (7: 179).

فهؤلاء الذين هم في الكفر المطلق، مسدودين عن مطلق النور، فلا مدخل لنور الهدى إلى قلوبهم، هم في موت مطلق لا حياة عنه.

و المكلفون أمام إنذار القرآن أضلاع ثلاثة، فضلع متضلع بالإيمان، فهو يكمل إنذاره، و هو من أحي الأحياء، و ضلع ضليع عن الإيمان ميت عن كيانه كإنسان، فهو الميت المطلق الذي ليس له نصيب من الحياة:

«إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ ... وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (35: 22) ف‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و ضلع عوان هو في مطلق الكفر غير المستقصي كيانه و لا المستعصي عن إيمانه، فهو ضال قاصر يتحرى عن الهدى، أم- لأقل تقدير- لا يفر عنها مبتغيا سبيل الردى، فهو ميت حي، فإن مآله إلى الحياة المطلق و هو الآن في مطلق الحياة، فيشمله‏ «مَنْ كانَ حَيًّا» كما يشمل المتضلع في الإيمان، فإنذار القرآن يعم كل من فيه تجاوب قليلا أو كثيرا، بحياة عقلية قليلة أو كثيرة! فحياة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ‏ فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر و كان حياته حين فرق اللّه عز و جل بينهما بكلمته كذلك يخرج اللّه عز و جل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله الى النور و ذلك قوله عز و جل‏ «لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 105

الفطرة و العقل هما الظرفان الظريفان الطريفان لقبول الإيمان، دون الفطرة المحجوبة و العقل المكسوف بطوع الهدى، الذين يعيشون كفرا مطلقا قاصدا معاندا ف‏ «وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ»! أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (71) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ (72) وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (73).

ترى ما هو موقف الواو في «أولم يروا» و لا معطوف عليه مذكورا قبله؟

إنها سائر الآيات آفاقية و أنفسية، مشهودة لهم مرئية، لا غائبة و لا بعيدة، و لا غامضة غير مفهومة، فإذا لم يروها، ألّا مساس لهم بها حتى يفكروا فيها، أم رأوها و لم يعتبروا بها، «أو لم يروا» ما ينتفعون بها في حياتهم الحيوانية «أَنَّا خَلَقْنا» بجمعية الصفات حيث هناك جمعية الواجهات في نعمات «لهم» في اختصاص فانتفاع‏ «مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا» من ماء و تراب أمّاذا من مخلوقات حيث عملتها أيدينا، قدرات حسب مختلف النعمات‏ «خَلَقْنا لَهُمْ‏ ... أَنْعاماً»: جمع النعم و هي الدابة المحلّل أكلها ثمانية أزواج: «... وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ...» (39: 6) و مع أنها من خلق اللّه و ملكه حقا «فَهُمْ لَها مالِكُونَ» ملكا مجازيا مستخلفون فيه، و هذه من آيات الملكية الخاصة و طبعا بشرائطها العادلة. منحة ربانية و هبة إلهية مما عملته الأيدي الربانية، فأصبحت أيادي لهم مملوكه، هم مستخلفون فيها ابتلاء. و التفريعة في «فهم» تفريعة لرحمة اللّه، و تقريعة عليهم كيف هم يكفرون بنعمة اللّه‏ «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها».

ثم و ليس مجرد ملكهم إياها، حيث المستعصي على مالكه نقمة بدل كونه نعمة، و لكنا «وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ» ذلّا دون شماس، و ذلا بكل احتراس‏ «فَمِنْها رَكُوبُهُمْ»: «وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً» (6: 142) «وَ مِنْها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 106

يَأْكُلُونَ»: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ» (40: 79) «وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ» أخرى ككونها حمولة و فوائد من جلودها «وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ» (16: 80) أماذا؟ «و مشارب» جمع مشرب مصدرا ميميا و اسم زمان و مكان، شربا من ألبانها، و زمانه و مكانه، و من الأخير جلودها التي تعمل قربا للمياه شربا و مآرب أخرى، و كل هذه و تلك لعلكم تنتفعون و تشكرون «أ فلا تشكرون»؟

إنهم لا يقدرون على شي‏ء من هذه و تلك، فلا يملكون أن يخلقوا ذبابا و لو اجتمعوا له، و ما يملكون أن يذللوا ذبابة و لو اجتمعوا لها إلّا أن يقتلوها، و رغم ما يعترفون أن ذلك كله من تقدير العزيز الرحيم لا يشكرون:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74).

إنهم رغم كل هذه النصرة و الرحمة الإلهية «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً»:

أصناما و أوثانا و طواغيت‏ «لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ» من قبلهم رغم أن هؤلاء الآلهة!:

لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75).

هؤلاء الآلهة أيّا كانوا «لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ» على أية حال إن كان اللّه يريد أن يخذلهم «و هم» الآلهة «لهم» العبدة «جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» لديهم حيث يعيشونها في بيوتهم و يعبدونها، و هم الذين احضروهم لديهم لينصروهم و هم لهم عابدون، فكيف إذا غابوا عنهم؟.

بل «و هم» العبدة «لهم» الآلهة «جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» كأنهم أحضروهم‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 394 ح 82 تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 107

ليدافعوا عنهم الأخطار الموجهة إليهم، فإذا غابوا فهم في خطر كما آلهة نمرود لما غاب عنهم بشعبه، اغتنم إبراهيم تلك الفرصة «فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ».

و من ثم‏ «وَ هُمْ لَهُمْ» لعبدتهم‏ «جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» يوم القيامة، كما أنهم لآلهتهم يومئذ جند محضرون‏ «1» و ماذا يفيد جند لا يستطيعون نصرهم لا في الحياة الدنيا و لا في الآخرة؟!: «وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» (37: 158) فيا بؤسا لآلهة تحضر يوم الحساب للحساب كما يحضر عابدوها! فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (76) و إذا «لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» «فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ» في نكران المبدء و المعاد و الرسالة، ف‏ «إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ» ضد هذه الرسالة «وَ ما يُعْلِنُونَ» أمامها، فلا عليك منهم شي‏ء فيه و أمرهم مكشوف بظاهره و خافيه على الحكيم الخبير القدير، و قد هان أمرهم و ما عاد لهم من خطر عليك‏ «فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ...»

أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

السلام) في الآية يقول: لا تستطيع الآلهة نصرهم و هم للآلهة جند محضرون،

و في الدر المنثور 5: 269- اخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: محضرون لآلهتهم التي يعبدون يدفعون عنهم و يمنعونهم.

(1). الدر المنثور 5: 269 و اخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: هم لهم جند في الدنيا و هم محضرون في النار، و عن قتادة: لا يستطيعون نصرهم قال: نصر الآلهة و لا تستطيع الالهة نصرهم و هم لهم جند محضرون قال: المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا و هي لا تسوق إليهم خيرا و لا تدفع عنهم سوءا إنما هي أصنام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 108

ألم يروا من آيات إمكانية المعاد و ضرورته الآفاقية، فإن كانت منفصلة من ذوات أنفسهم‏ «أَ وَ لَمْ يَرَ ...» آية أنفسية حسية يراها كل راء «أَنَّا خَلَقْناهُ» الإنسان «من نطفة» لم تكن شيئا مذكورا «فإذا» بعد ما يكبر و يعقل‏ «هُوَ خَصِيمٌ»: كثير المخاصمة في حق المعاد و هو أهون من خلقه أوّل مرة، و هو «مبين» في خصومة متعنت:

وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (78).

ينسى خلقه أوّل مرة من نطفة، ثم يستنكر حائرا مائرا خلقه ثاني مرة من ترابه و هو أهون عليه، يضرب على ذلك مثلا ملموسا من عظم نخر يفركه‏ «1» ثم يقول قولته: «مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ»؟ و أحسن بجوابه الحاضر حيث يصدقه كل مصدق بالخالق: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ» مهما اختلف خلقه في المرتين، و هو في الثانية أهون‏ «وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ» كالأوّل أو أصعب «عليم» فضلا عن الأهون! و إنها براهين قاطعة قاصعة لا فواق لها لأي خصيم حول المعاد، فلئن كان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 395- 88 في الاحتجاج روى عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليه السلام) ان يهوديا من يهود الشام و أحبارهم قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) فان ابراهيم (عليه السلام) قد بهت الذي كفر ببرهان على نبوته؟ قال له علي (عليه السلام): لقد كان كذلك و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أتاه مكذب بالبعث بعد الموت و هو أبي بن خلف الجمحي معه عظم نخر ففركه ثم قال يا محمد «مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» فأنطق اللّه محمدا بمحكم آياته و بهته ببرهان نبوته فقال: «يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» فانصرف مبهوتا،

و في الدر المنثور 5: 269 عن ابن عباس ان ضارب هذا المثل العاص بن وائل، و عنه ايضا انه عبد اللّه بن أبي، و ثالث عنه انه أبي بن خلف، و رابع عنه انه ابو جهل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 109

السؤال حول اصل الاحياء، استأصله «الذي خلقها أول مرة» و إن كان حول: من يجمع ذرات العظام و سائر البدن المتفرقة هنا و هناك، عاد نفس الجواب «الذي خلقها أول مرة» حيث النطفة مجموعة من متفرقات عن مواد شتى، فانها أمشاج‏ «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ ...» (76: 2).

و قد يعني ضرب العظام مثلا و هي رميم، الأجزاء الأبعد عن الحياة في بعدي بعدها عن الحياة أوّلا، و رمّتها أخيرا، و لكن‏ «نَسِيَ خَلْقَهُ» أوّلا أن أجزاء النطفة كانت أرمّ من الرميم و أبعد من ذلك البعيد «وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» حيث الخلق في مراتبه أمثال في كونه خارقة إلهية، فلا تختلف صوره في قدرته تعالى حتى إذا كانت هيّنة و أهون و صعبة و أصعب بالنسبة للقدرات المحدودة، فانها سواء بجنب القدرة اللّامتناهية الإلهية، فلا صعب عنده و أصعب و لا هيّن و أهون، فالكل لديه هيّن، ف‏ «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»! هنا مراتب ثلاث من الخلق كل لاحق أهون من سابقه و ثالثها الإعادة يوم المعاد، و قبلها الخلق من نطفة يوم الدنيا، و أولاها خلق المادة الأولية لا من شي‏ء و «إن الذي أنشأه من غير شي‏ء و صوره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه» كما في حوار الامام الصادق (عليه السلام) «1» أجل و:

(خلقها قبل أن تكون أعجب من إحيائها و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 294- 87 في كتاب الاحتجاج للطبرسي في احتجاج أبي عبد اللّه الصادق (عليه السلام) قال السائل: أ فيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه ام هو باق. قال: بل هو باق الى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء و تفنى فلا حس و لا محسوس ثم أعيدت الأشياء، كما بدأها مدبرها و ذلك اربعمائة سنة يسبت فيها الخلق و ذلك بين النفختين، قال: و أنّى له بالبعث و البدن قد بلى و الأعضاء قد تفرقت فعضو ببلدة يأكله سباعها و عضو بأخرى تمزقه هوامها و عضو قد صار ترابا يبنى به مع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 110

كانت) «1».

فإعادة خلق الإنسان مثله أهون الخلق على الإطلاق، فقبله بدءه و أكبر منه خلق السماوات و الأرض و قبل الثلاثة خلق المادة الأولية لا من شي‏ء، و هم يرتابون في ذلك الخلق الأهون، و هو في ميزان العدل و الفضل أهم! و ترى أن مجموعة عظام الإنسان تحيى يوم المعاد، لمكان‏ «مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ» الظاهرة في كل العظام، و كذلك: «يحيها» حيث المرجع هو العظام نفسها؟ و قسم عظيم من اجزاء العظام كما من سائر الأجزاء هو اجزاء أصلية او فرعية لآخرين، فقد لا تبقى لأناس عظام و سواها حتى تحيى، في حين ان عظام آخرين تحيى، ترجيحا او ترجّحا دون مرجح، و حرمانا لمن رجّح عليه!.

ثم الضرورة القاضية لجسمانية المعاد عقلية، هي وصول الثواب و العقاب إلى الأرواح بواسطة أجسادها العاملة لصالحة الأعمال و طالحتها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الطريق في حائط؟ قال (عليه السلام): ان الذي ... قال أوضح لي ذلك قال: ان الروح مقيمة في مكانها، أرواح المحسنين في ضياء و فسحة و روح المسي‏ء في ضيق و ظلمة و البدن يصير ترابا كما منه خلق و ما تقذف به السباع و الهوام من أجوافها فما أكلته و مزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض و يعلم عدد الأشياء و وزنها، و ان تراب الروحانيتين بمنزلة الذهب في التراب فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور فتربو الأرض ثم يمخض مخض السقا فيصير تراب كل قالب الى قالبه فينتقل بإذن اللّه تعالى القادر الى حيث الروح فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها و تلج الروح فيها فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئا.

(1).

الدر المنثور 5: 27- اخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال‏ جاء أبي بن خلف الى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و في يده عظم حائل فقال يا محمد أنّى يحيى اللّه هذا فأنزل اللّه‏ «وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا ...» فقال له رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

خلقها ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 111

كما هما واصلان إلى الأرواح، فإن أعمال الأرواح بين ما هي تعملها دون وسيط الأعضاء، و ما هي عاملة بوسيط الأعضاء، فالجزاء العدل الوفاق وصول كلّ من صالح و صالح إلى الروح بوسيط و غير وسيط، و تكفي الأجزاء الأصيلة التي يعيشها الإنسان منذ هو جنين إلى الموت، تكفي هذه- فقط- لتكون وسيطة لوصول الجزاء إلى الروح! و الجواب أن‏ «مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ» استعجاب و استعظام لأصل إحياء العظام، دون نظرة و اتجاه إلى كمية منها أم و كيفية لها، و لم يكن السائل المتعنت من الفلاسفة حتى يفهم فيعي أو يعني كمية في ذلك الإحياء في حين أنه ناكر أصل الإحياء، ثم «يحييها» إجابة عن الشبهة في أصل الإحياء، سواء أ كان إحياء لكل العظام أم بعضها، فلا تطارد الأدلة العقلية و النقلية الدالة على اختصاص الإحياء ببعض الأجزاء.

و علّ منها «الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ» و الاوّلية الحقيقية لإنشاء العظام هي لانشاء النطفة الجرثومية، فإنها صورة مصغرة عن الجنين، كما هو مصغرة عن الوليد الجديد و إلى أعظم عظمها طوال عمره.

فالإنشاء الأول في ملاحظة دقيقة يخص النطفة الجرثومية، و في لحاظ أوسع و أعرف هو بداية نشوء العظام حين انشأت من المضغة: «فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً» (23: 14) و مضغة كل إنسان قياسا إلى مجموعة أجزائه الأصيلة و الدخيلة منذ عظامه إلى موته، علّها واحدة بالملايين من أجزائه التي يعيشها طول.

حياته و «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» (7: 29) قد تعني النطفة الجرثومية، أم تعني عظام المضغة بلحومها الكاسية لها، فالمعادة من أجزاء الإنسان على أية حال ليست إلّا الأجزاء التي يعيشها الإنسان دون تبدل و انفلات، مهما انضمت بعد الموت إلى أناسي آخرين، فإنها تصبح من أجزائهم الدخيلة دون الأصيلة، فلكلّ- إذا- أجزاء أصيلة تخصه، و يعاد فيها ليجزي بها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 112

جزاءه الأوفى، و الأجزاء الدخيلة هي بين أصيلة لآخرين فلآخرين، أم دخيلة على أية حال فلا تعاد لا مع الأولين و لا الآخرين.

و لأن دار الجزاء هي دار البقاء، فلتكن الأجزاء قابلة لذلك البقاء، كما هي قابلة للجزاء، و القول إن الخليّات كلها تتبدل سنين بعد سنين فلا أجزاء أصلية منها دون تبدل كما أثبته علم الفيزيولوجيا الإنساني! إنه تخرّص بالغيب مبني على ما يرى من تبدّلات، و لكنها لا تستقصي كلّ الأجزاء، فكما الروح لكل إنسان هو روحه مدى حياته، كذلك أجزاءه الأصيلة هي أجزاءه مدى حياته، و هي التي يحشر بها، ففي الحياة الدنيا هي باقية لكل إنسان حيث يعمل- كل ما يعمل- بها، ثم بعد الموت هي في قبضة ملك الموت مهما انتشرت و انتقلت إلى اشخاص آخرين، إذ لا تصبح من أجزائهم الأصيلة، و لكل إنسان نصيب يخصه من أجزاء هي المعاد في المعاد بأمثال الصور التي ماتت عنها.

و ليس من الممكن استقصاء كافة الخليات بتبدلاتها و تحولاتها فضلا عن تفلّتها كلها في سنين يدّعونها! و فصل القول حول كيفية المعاد و كمية المعاد يأتي في طيات آياتها الأحرى بالتفصيل إن شاء اللّه تعالى.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80).

فأين الشجر الأخضر المنملي من الماء؟ و أين النار المبخّرة للماء، و الماء المطفي للنار؟ و قد جمعها اللّه في الشجر الأخضر: «فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ»! و ليس حصول الحياة في الميت الذي كان حيا ثم مات بأبعد من شعلة النار المتخرجة من الماء و هما متضادان و هذان متلائمان و اللّه‏ «بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» صعبا و أصعب و هيّنا و أهون في كل ما دق و جل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 113

و علّ المقصود من هذا «الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ» شجر المرخ و العقار، تشتعلان باحتكاك أحدهما بالآخر أو بنفسه بعضه ببعض، شجر أخضر ريّان بالماء يصبح نارا، و وقود نار مع اللّدونة و الاخضرار، يا لها من عجيبة في الخلق و أعجب من إحياء الموتى و لا سيما في الخلق الثاني، «أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ... بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ»! و كما الشجر الأخضر يحوي نارا، فشجرة الإنسان الخضراء قد تحوي نارا بما يعارض شرعة اللّه، ثم اللّه يجعلها نارا في الأخرى أم وقود نار «وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (3: 10) كما و قد تحوي نورا بما تطبّق شرعة اللّه.

أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى‏ وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81).

أليس الذي خلق المادة الأولى لا من شي‏ء ثم بدأ خلقكم‏ «أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ»؟ عطفا على ألوان من الخلق أصعب عن الإعادة.

«أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى‏ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً» (17: 99) «نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ» (56: 61) «1» إنّ خلق المثل هو الإعادة في المعاد، حيث المعاد ليس عين البدن بصورته الأولى، بل هو هو بصورة ثانية كالأولى، و كما تعنيه آيات تبديل الأمثال أنه يبدّل أجسادكم أمثالها في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في ص 87- 92 ج 27 الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 114

الصورة مهما كانت من أعيانها في المادة، وحدة عينية في أصل المادة البدنية، و أخرى صورية مماثلة للأولى، فلا يعني مثلهم أعيانهم أو أشباههم في الأولى إذ لم ينكروا خلقهم فيها، و لا أعيانهم في الأخرى حيث المعاد فيها يختلف عن الأولى لأقل تقدير «1» في عين الصورة، فليس إلّا مثلها، أن تعاد الأجزاء الأصيلة لكل إنسان في مثل صورته التي ماتت عنها و الروح هو الروح، فالشي‏ء الثاني قد يكون ضد الأول فليس- إذا- إعادة للأول، أم مثله في الصورة أو المادة أم فيهما كلا أو بعضا، فهو إعادة للأول صورة أم مادّة أم فيهما، و أما أن يكون عينه؟ فلا! حيث العين لا يتعدد، إذ التعدد بحاجة ضرورية إلى ميّزة ما بينهما و لا ميّزة بين الشي‏ء و عينه، بل لا بين هنا حتى نفتّش عن الميّزات.

ف «إعادة المعدوم مما امتنعا»- كقاعدة فلسفية قطعية- لا تشمل المعاد حسب القرآن، حيث المعاد في المعاد إنما هو إعادة الروح في المادة الأصيلة البدنية بمثل الصورة التي مات عنها، فلا يعاد الروح بعينه لأنه لا يموت حتى يحيى مرة أخرى إلا عن غشوة تعتريه في النفخة الأولى، و لا تعاد الأجزاء الأصيلة إذ لم تنعدم، و لا تعاد عين الصورة التي زالت، و إنما يعاد الروح إلى الأجزاء الأصلية بعد فراقها، و يخلق مثل الصورة الأولى، و محطّ الجزاء الوفاق في الأصل هو الروح، و الروح هو الروح نفسه، و في الفرع هي الأجزاء الأصلية التي بها يعاقب الروح و يثاب و الأجزاء هي الأجزاء، ثم لاجزاء للصورة حتى يقال إنها فاتت، و المخلوقة ثانية ليست هي هيه، و إنما مثلها، و الجزاء العدل هو الوارد على عين الكائن العامل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و في تقدير آخر في كمية المادة كما فصلناه في الواقعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 115

دون مثله! و الأجزاء هي عين الأجزاء، و الصورة المماثلة للأولى ليست محطة الجزاء!.

فالخلاق العليم الذي خلق السماوات و الأرض أقدر على خلق أمثال الناس و هو الخلق الثاني الذي ينكره الناكرون‏ «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (40: 57) «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏» (: 33) ف‏

«إذا كان خلق السماوات و الأرض أبعد في أوهامكم و قدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي فكيف جوزتم من الله خلق هذا الأعجب عندكم و الأصعب لديكم و لم تجوزوا منه ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي» «1»

و خلق أمثالكم في المعاد أهون من الخلق الأول، كما الخلق الأول أهون من خلق السماوات و الأرض! و خلقهما أهون من خلق المادة الاولية.

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82).

... الأمر هنا بين فعل و إيجاب و هما منه واحد، فليس هنا الشي‏ء لمكان‏ «إِذا أَرادَ شَيْئاً» فإنما فعله و إيجابه التكويني إذا أراد شيئا أن يقول لذلك الشي‏ء كن فيكون دونما فصل أو تمنّع أو مانع.

فليس أمره إذا أراد شيئا كأمر المخلوقين أن يحول بين إرادته و مراده أمر آخر يمنع، أو يكلّف تحقيق مراده سوى إرادته أمر آخر او أمر آخر، ف‏ «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً» أيّا كان و أيّان من صغير و كبير، من بدء و إعادة «أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» و قوله فعله، تلميحة لطيفة بنفاذ أمره دونما نظرة أمر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 396 ح 91 الاحتجاج عن الامام أبي محمد الحسن العسكري (عليه السلام) في حديث تفصيل الجدال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 116

آخر أو أمر آخر، أو تصرّم الزمان إلّا أن يشاء هو التأجيل كما خلق السماوات و الأرض في ستة أيام.

«يقول لما أراد كونه: كُنْ- فَيَكُونُ‏»، لا بصوت يقرع و لا نداء يسمع، و إنما كلامه سبحانه فعل منه و إنشاء و مثله لم يكن من قبل ذلك كائنا و لو كان قديما لكان إلها ثانيا «1»

«فإرادة الله الفعل بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همة و لا تفكر و لا كيف لذلك كما أنه لا كيف له» «2».

ف «أمره» هنا فعله كما قوله، و «أراد» هي الإرادة القاطعة بعد العلم و المشية، و «شيئا» يعم كلما لا يستحيل ذاتيا أو في الحكمة، ارادة لتكوينه لا من شي‏ء كالمادة الأوّليه التي خلقت لا من شي‏ء، أم لتكوينه من شي‏ء خلقه قبله تبديلا له أيّا كان، و منه الإحياء بعد الإماتة، و اطلاق الشي‏ء على الأوّل باعتبار الأول دون أية فعلية إلّا إمكان إيجاده لا من شي‏ء، و من ثمّ الشي‏ء الكائن حيث يبدل إلى غير شيئه في صورته، ثم تبديله حيا بعد موته، و قد أطلق على المواد الأولية لفظة الحروف حيث تعني حروف التكوين كما في حوار الإمام الرضا (عليه السلام) مع عمران‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

. (2)

فيه ح 98 عن اصول الكافي باسناده عن صفوان بن يحيي قال‏ قلت لابي الحسن (عليه السلام) اخبرني عن الارادة من اللّه و من الخلق قال فقال: الارادة من الخلق الضمير و ما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل و اما من اللّه فإرادته احداثه لا غير ذلك لأنه لا يروّي و لا يهم و لا يتفكر و هذه الصفات منفية عنه و هي صفات الخلق فارادة اللّه ...

(3)

نور الثقلين 4: 397 ح 99 في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع اهل الأديان و المقالات في التوحيد كلام للرضا (عليه السلام) مع عمران يقول فيه: و اعلم ان الإبداع و المشيئة و الارادة واحدة و أسماءها ثلاثة و كان أول ابداعه و ارادته و مشيئته الحروف التي جعلها أصلا لكل شي‏ء و دليلا على كل مدرك و فاصلا لكل مشكل و تلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 117

فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83).

هنا ملك سريع الزوال، و هناك ملك أبطأ في الزوال لأنه أقوى ملكا، و شي‏ء منهما ليس مطلقا لا يغلب صاحبه، فقد يغلب و قد يغلب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحروف تعرف كل شي‏ء من اسم حق و باطل او فعل او مفعول أو معنى او غير معنى و عليها اجتمعت الأمور كلها و لم يجعل للحروف في ابداعه لها معنى غير أنفسها يتناهى و لا وجود لها لأنها مبدعة بالإبداع و النور في هذا اوّل فعل اللّه الذي هو نور السماوات و الأرض و الحروف هي المفعول بذلك الفعل و هي الحروف التي عليها الكلام و العبارات كلها من اللّه عز و جل علّمها خلقه و هي ثلاثة و ثلاثون حرفا فمنها ثمانية و عشرون حرفا تدل على لغات العربية و من الثمانية و العشرين اثنان و عشرون حرفا تدل على لغات السريانية و العبرانية و منها خمسة أحرف متحرفة في سائر اللغات من العجم الأقاليم اللغات كلها و هي خمسة أحرف تحرفت من الثمانية و العشرين حرفا من اللغات فصارت الحروف ثلاثة و ثلاثين حرفا، و أما الخمسة المختلفة «فتجحخ» لا يجوز ذكرها اكثر مما ذكرناه، ثم جعل الحروف بعد إحصائها و احكام عدتها فعلا منه كقوله عز و جل: «كُنْ فَيَكُونُ» و كن منه صنع و ما يكون به المصنوع فالخلق الاول من اللّه عز و جل الإبداع و لا وزن له و لا حركة لا سمع و لا لون و لا حس و الخلق الثاني حروف لا وزن لها و لا لون و هي مسموعة موصوفة غير منظور إليها و الخلق الثالث ما كان من الأنواع كلها محسوسا ملموسا ذا ذوق منظورا اليه و اللّه تبارك و تعالى سابق بالإبداع لأنه ليس قبله عز و جل و لا كان معه شي‏ء و الإبداع سابق للحروف و الحروف لا تدل على غير نفسها، قال المأمون:

كيف لا تدل على غير نفسها؟ قال الرضا (عليه السلام) لان اللّه تبارك و تعالى لا يجمع منها شيئا بغير معنى أبدا فإذا ألف منها أحرفا أربعة أو خمسة أو ستة أو أكثر من ذلك او اقل لم يؤلفها لغير معنى، و لم يك الا لمعنى محدث لم يكن قبل ذلك شيئا، قال عمران:

فكيف لنا بمعرفة ذلك؟ قال الرضا (عليه السلام) اما المعرفة فوجه ذلك و بيانه انك تذكر الحروف إذا لم ترد بها غير نفسها ذكرتها فردا فقلت: ا ب ت ث ج ح خ حتى تأتي على آخرها فلم تجد لها غير أنفسها و إذا الفت و جمعت منها و جعلتها اسما و صفة لمعنى ما طلبت و وجه ما عنيت كانت دليله على معانيها داعية الى الموصوف بها، أ فهمت؟ قال: نعم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 118

ثم و هنالك ملكوت هي حقيقة الشي‏ء و ما به الشي‏ء شي‏ء، فمن بيده الملك قد لا يملك، و من بيده الملك قد يضعف أو يزول ملكه، و لكن الذي بيده الملكوت فبيده ناصية كل شي‏ء إيجادا و إعداما و ما بينهما تحويرا و تغييرا، لا منعة عن إرادته فيه و لا مهلة بعدها له! و علّ الملكوت هي حقيقة الملك و الملك مبالغة فيهما حقهما، فليست إذا إلا للّه، لا يشاركه فيها سواه اللهم إلّا علما إذا علّم اللّه.

فهنا ملكوت يجوز النظر إليها و قد أمرنا به: «أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ ...» (7: 185) و هذه ملكوت تعرف بالنظر و هي افتقار الكائنات ذاتيا إلى من سواها.

و هناك ملكوت يريها اللّه من يشاء: «وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» (6: 75) و علّها إرائة لافتقار أعمق مما يحصل بالنظر، و قطعا ليست هي العلم المحيط بذوات الكائنات فإنه يساوق القدرة الخلاقة لها و «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ»؟

و هنالك ملكوت هي- فقط- بيده تعالى علما و قدرة: «قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ» (33: 88)؟ «فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» عن أن يعيى بخلق أمثالنا أو يتخذ في شي‏ء لنفسه شريكا «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» كحتمية تقضيها العدالة و الحكمة الإلهية! و إنها ايقاعة ختامية قاحلة لهذه الجولة الهائلة في السورة كلها، تضم الأصول الثلاثة بإجمال لطيف!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 119

سورة الصّافات مكيّة و آياتها ثنتان و ثمانون و مائة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 120

[سورة الصافات (37): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (2) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (3) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (4)

رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (6) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (7) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (8) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (9)

إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (10) فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 121

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْراً 2 فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (3).

أدلة ثلاثة متتاليات، متفرعة على بعض، صافات فزاجرات فتاليات، تاتي مثبتة لتوحيد اللّه بصورة القسم و سيرة البرهان، توحدا لهذا المثلث فيما يصفّ و يزجر و يتلو.

أ ترى «الصافات» هي- فقط- الملائكة: «وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ» (37: 166)؟ و الملائكة ليسوا إناثا و إن كانوا هم من الصافين! أم هم النبيون؟ فكذلك الأمر و أحرى إلّا يصاغوا في صيغة الأناث‏ «1»! أم إنها هي الطاقات الصافات ملائكية و بشرية أمّا هيه، جنود ربانية مصطفّة في أماكنها السماوية و الأرضية: «لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» و لو أن في الكون الهة متشاكسة لأصبحت مثلث الصافات في رسالاتهم التكوينية و الشرعية، متناحرة متشاكسة: «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا» فتناسق الصافات و وحدتها في اتجاهاتها برهان لا مرد له على وحدة الموجّه: «إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ».

فملائكة اللّه طاقات صافات في صفوف متراصّة على صنوفها المختلفة، ناظرين أمره سبحانه و منه تنزيل الوحي، و رسل اللّه صافات أخرى على درجاتهم لتلقّي الوحي ثم إلقاءه على المرسل إليهم، دونما تخلف قيد شعرة، و الطاقات الكونية كلها صافات صاغية لأمر اللّه في تدبير الكون مهما كانت وسائط مسيرة امّا هيه؟ ف- «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 400- 4- القمي في الآية قال: الملائكة و الأنبياء (عليهم السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 122

«وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ ...» (67: 5)

و «صفا» في تنكير التعظيم يعظم موقف صفيفها جنودا متراصة دونما فشل و لا فتور.

«فالزاجرات» هي الطاقات التي تزجر و تمنع عما زجر اللّه من هؤلاء الثلاث في شرعة و تكوين، و هل هي الصافات نفسها في صفة ثانية زاجرة، و من ثم التاليات؟ كأنها هي! فالصافات هي الطاقات المتحضرة لتطبيق أوامر اللّه، و تختصر أعمالها و تحتصر في سلب: «فالزاجرات» ثم إيجاب «فالتاليات». و إنها تمثّل كلمة التوحيد «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» في بعدي، «زاجرات و تاليات» نفي ثم إثبات، و في: أنها لا تختلف فيما تحمّل، و لا تتخلف عما يؤمل، صافات زاجرات تاليات في وحدة صفوف و توحيد صفوف مهما اختلفت صنوف الصفوف.

«فَالزَّاجِراتِ زَجْراً» تزجر الشياطين عن تدخلاتهم في وحي اللّه و سائر فعله الصارم ملائكية، و تزجر الدعايات المضللة عن فاعليها، بشرية رسالية و ما تلاها، و تزجر التهرجات الكونية عن إفسادات لا قبل لها إلّا من اللّه.

«فَالتَّالِياتِ ذِكْراً» ملائكة على الرسل، و رسلا على المرسل إليهم، و آيات آفاقية و أنفسية تتلوا ذكر اللّه لمن أبصر بها فبصّرته، و لمن أعرض عنها فأعمته.

و هذه الثلاث في كل من الزاجرات و التاليات متوافقات متتاليات تعضد بعضها بعضا، فكتاب التكوين و التشريع هما من كاتب واحد «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ»؟:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 123

«إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ» (4) «رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ» (5).

و مع الصافات الزاجرات التاليات، فالسماوات و الأرض تشهدان و ما بينهما و المشارق‏ «إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ» هنالك للكواكب الناجمة السيارة مشارق، كما لها مغارب، فللشمس وحدها مشارق عدد أيام السنة، و في حساب أدق‏ «1» عدد الآفاق التي تشرق عليها و تغرب منها، فالأرض في دورتها حول الشمس تتوالى المشارق كما المغارب- على بقاعها المختلفة، و علّ هنا «رب المشارق» فقط دون و المغارب- كما في غيرها: «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ» (70: 40) علّها لمناسبة المشبّه به و هو شروق الوحي من شموس الهداية الإلهية، بل و الكواكب هي مقاذف إلى من يخطف منه الخطفة في الملإ الأعلى!:

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (6) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (7) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (8) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ! (10).

آيات خمس حول النيازك النارية، هي في الملك واحدة «2» و في كلّ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بهذا الحساب في كل ثانية ام آن مشرق و مغرب، ففي اربع و عشرين ساعة حسب الثواني للشمس فقط/ 51840 مشرقا و مغربا ففي السنة 1869156600 مشرقا و مغربا.

(2) «وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ ...» (5) راجع ج 29 ص 21 الفرقان ففيه تفصيل من رجوم النجوم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 124

من الجن‏ «1» و الحجر ثلاث‏ «2» اثنتا عشرة آية في ساير القرآن تتحدث عن الشهب الثاقبة و النيازك النارية المقذوفة من مدفعيات الكواكب بالحرس الشديد، و آيات الجن تختص بالحرس الشديد و الشهب منذ الوحي الأخير، و الأخرى تعم تأريخ الرسالات و ما قبلها منذ خلقت الكواكب.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (6) الكواكب تاتي في الملك و فصلت «مصابيح»: «وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» (5) و في الحجر «بروج» و في «ق» فقط تزيين السماء بها «أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها» (6) تعبيرات ثلاث عن زينة السماء، كل يعني معنى في موقفه الخاص، و علّ أشملها لمدن السماء و بروجها و مدفعياتها «الكواكب».

و «السَّماءَ الدُّنْيا» صفة بموصوفها تعني أدنى السماوات السبع إلينا ساكني هذه الأرض، أم و ساير الأرضين و كما فصلت في الطلاق و فصّلت، ف- «الدنيا» هنا مؤنث الداني من الدنو دون الدني الدنائة، فليست «سماء الدنيا»- مضافة- دون الآخرة، إذ للدنيا سماوات سبع لا واحدة، فهي سماوات الدنيا دون‏ «السَّماءَ الدُّنْيا»! «بزينة» لا فقط لأهل هذه الأرض، بل و لكلّ الناظرين أيّا كانوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً. وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً. وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً» راجع ج 9 ص 177 الفرقان ففيه بحث يخص الحرس الشديد و الشهب و انها هناك خاصة بمطلع الوحي المحمدي.

. (2) «وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ، وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (18)».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 125

«وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ» و هم كل من له أن ينظر من ساكني هذه المعمورة أم سواها من مدن السماء.

و «زينة» ك- «مصابيح» و «بروجا» مواصفات ثلاث ل- «الكواكب» و هي تستغرق الكرات السماوية كلها، و لو كانت «كواكب» لأبقت مجالا لكواكب أخرى في سماوات أخرى، و لكنها «الكواكب» جمعا محلّى باللام يفيد الاستغراق المطلق المطبق لكلّ ما يسمى كوكبا، ثم «و حفظا» مواصفة أخيرة لهذه الكواكب.

و لقد خيّل الى بعض القاصرين قصر «الكواكب» على التي يراها أهل هذه الأرض بعيون مجردة أم و مسلحة، و دون قصرها خرط القتاد!.

و «الناظرين» يعم النظر بالعيون المسلحة كما يعم كل الناظرين هنا و في سائر العالم، فهي- إذا- كل الكواكب في كل العالم و قد زينت بها السماء الدنيا، فهي إذا كلها في السماء الدنيا و كما تنتشر كلها في الأخرى: «إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ. وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ» (82: 2) فكما السماء تعم السماوات كلها، كذلك الكواكب تعمها كلها، ف «زينة الكواكب» تعمها على سواء.

وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (7) منذ تكوينها و الشياطين، و أما غير الشياطين من الجن فقد كانوا يتسمّعون و يسمعون حتى الوحي الأخير «وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً».

و «كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ» لا يخص شياطين الجن فإنهم بعضهم لا كلهم، فليست لغزاة الجوّ من شياطين الإنس حظوة من الملإ الأعلى على أية حال، مهما عزل المؤمنون من الجن و الإنس عن السمع منذ الوحي الأخير، و لم يكونوا قبله من المعزولين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 126

لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (8).

لا يتسمعون إلى الملأ الأعلى مهما حاولوا: «وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» (26: 212) «و يقذفون» بالنيازك النارية «مِنْ كُلِّ جانِبٍ» إذا تدنّوا تسمّعا، و لا يقذف إلا من تسمّع قذفا لدحره دون ثقب بالثواقب:

دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (9) قذف و دحر لمن تسمّع لكيلا يسمع أ ترى «دحورا» هي جمع الدحر بمعنى المصدر؟ أو اسم المفعول؟ أم هو المصدر مفردا؟ مفعولا له أو مفعولا مطلقا؟

معنى الدحر مفردا بعيد فإن لفظه لفظه لا دحورا، فقد تعني جمع الدّحر بمعنى المفعول مبالغة كأنهم نفس الدحور، ليس لهم إلا اندحار و فرار، هو حالهم إذ يسمعون فلا تتاح لهم فرصة و ما يستطيعون‏ «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» «وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ»: خالص دائب يوم الدنيا إذ يعيشون اندحارا في ترذّل عما كانوا يشتهون، و بأحرى يوم الأخرى فهم في جهنم خالدون.

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (10).

يقذفون من كل جانب لدحرهم دون ثقبهم حيث الجريمة هي التسمع في سمع و لمّا تقع، يقذفون دحورا «إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ» اختلاسا و استراقا «إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ» (15: 18).

ذلك الشهاب و النيزك الناري يتبع الخاطف المسترق و يثقبه، مبينا في الجو لكل مستبين، و مبينا أن هناك خطفة و استراقا، و مبينا أنهم «لا يسمعون» و «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 127

و «شِهابٌ ثاقِبٌ» يثقب بنوره الظلام، و يثقب خاطف الخطفة فلا يدعه يرجع إلى ناظريه بسلام، فلا يخطئ ثاقبه هدفه كما يرام.

و يا لهذه الكواكب البروج المصابيح الزينة كيف أصبحت من واجهة أخرى غيبية رجوما ثاقبة للشياطين، كوزارة الدفاع السماوية، حاوية تلك المدفعيات و المقاذف الجبارة، تقذف المتسمعين من الشياطين دحرا، و تتبع الخاطفين المسترقين ثقبا، فلا تبقي متسمعا إلّا دحرته و لا خاطفا إلّا ثقبته فالملأ الأعلى في حفاظ دائب مكانا و مكانة، فالمحادثات الغيبية لهم لا تعدوهم إلى مردة الشياطين، مهما تحرّصوا و لكي يتخرسوا على الغيب بخليطات من الملإ الأعلى و خيالات و هراءات من الأدنى، فيخيّلوا إلى البسطاء أنها كلها من صلب الغيب.

إذا ف- «الكواكب» داخلة في عسكر «الصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِراتِ زَجْراً. فَالتَّالِياتِ ذِكْراً» في معسكر سماوي حارس، و بالأحرى للملإ الأعلى في الأرض و هم الأنبياء و من يحذو حذوهم، بأحرى لهم أن يحفظوا عن استراق مردة الشياطين و مسّهم و جسّهم، حيث الملأ الأعلى في الأرض هم الأصلاء في مشارقهم، و الأعلى في السماء هم الوسائط الفروع!.

هذه من أهداف الشهب الثاقبة و النيازك النارية، يكشف الوحي عن وجهها القناع، ثم هناك أهداف أخرى كشف العلم عنها أم لم يكشف، دون مطاردة و مناحرة بينها، فالناكر لهذه الملحمة الغيبية لا يرمي إلّا في الظلام خرسا بالغيب.

و ترى من هم الملأ الأعلى المحظور التسمّع إليهم و أين هم؟

الملأ هو الجماعة التي تملأ العين، و هم في المكانة بين أدنى و أوسط و أعلى، و الأدنى هم أكثر ما جي‏ء بهم في القرآن، ثم الأوسط كملإ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 128

سليمان: «قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» (27: 28) و ليس الأعلى إلّا هنا و في ص: «ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحى‏ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70)» فالملأ الأعلى هم أعلى مكانا مطلقا، و مكانة بالنسبة لمن سوى النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا.

و ليس اختصام الملإ الأعلى إلّا حوارا في أنباء الغيب، و أنباءهم غيب عن أهل الشهود و الغيب، و حتى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلّا ما علمه اللّه، ف- «ما كان» تضرب إلى ماضيه قبل أن يوحى إليه بما أوحي‏ «إِنْ يُوحى‏ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (70).

و لأن الكواكب‏ «حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ» فهي إذا أمكنة الملإ الأعلى فيها و بينها في أجوائها، فليس لأي شيطان مارد التسمّع إليهم اقترابا إلى أمكنتهم.

و من ثم كيف يواصل الشياطين في تصعّدهم إلى الملإ الأعلى يسّمّعونهم، و هم عارفون تجربة و تكرارا أنهم يدحرون و يقذفون من كل جانب، أو يتبعهم شهاب ثاقب؟

من الجواب- إضافة إلى واقع ذلك التصعّد المكرور- أن الاستماع إلى الملإ الأعلى من أهم غاياتهم ليتنزلوا على كل أفاك اثيم: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى‏ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ. تَنَزَّلُ عَلى‏ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ» (26: 223) و كلما كان الهدف أسمى فالهادف إليه أسعى و لحد إحداق الخطر أو إطباقه، و كما يعاكسهم في الشرف المناضلون في سبيل اللّه، فحتى إذا علم المخلصون منهم أنهم يقتلون لا يبالون بدارا إليه بكل إصرار.

ثم الشيطان هو من الجان‏ «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 129

(15: 27) فكيف يصطدم بالنيزك الناري، المخلوق من نار السموم؟

الشيطان مخلوق من النار و ليس هو بعد خلقه نارا، كما الإنسان المخلوق من تراب فلم يظل ترابا، فكما يصدم الإنسان من تراب جامد و سواه من تراب، كذلك الشيطان بشهاب ثاقب و سواه من نار، و لا سيما أن في السرعة وقعتها، حتى إذا كان المرمي أرخى من المرمي إليه! و هل المدحورون بقذف أو شهاب هم- فقط- كل شيطان مارد يروم التسمّع فيرمى؟ أم و كل غاز للفضاء و إن لم يتسمع، في إمكانية السمع كالجن المؤمنين، او عدمها كغزاة من الإنس؟

آيات الرجوم و الشهب و المقاذف تختص كل شيطان رجيم: اللّهم إلّا آيات الجن حيث تعم الجان المؤمنين، فإذا هم لم يقعدوا مقاعد للسمع لا يدحرون، و بأحرى غيرهم من الإنس إذ لا يستطيعون! و أخيرا ترى أن السماوات الست- الباقية فوق الأولى- هي كلها خلو عن كواكب أمّاذا، حيث «الكواكب» استغرقتها في السماء الدنيا؟

علّ الكواكب الزينة للناظرين تختص السماء الدنيا، و قد تكون في سائر السماوات كواكب أخرى ليس لها ناظرون بأية عيون مجردة و مسلحة، أم ان ناظري أرضنا و هم المحور الرئيسى انهم لن يستطيعوا أن ينظروا إلى الكواكب في غير السماء الدنيا بأية عيون، كيف و هم عاجزون لحد الآن أن يتعمقوا بأقوى العيون المسلحة المجرات الفوقية لسمائهم؟

و على أية حال ليس لنا نفي وجود كواكب أخرى في سماوات أخرى، و لا التعرف إليها إن كانت، كيف و نحن حائرون في سمائنا و أرضنا، سبحان الخلاق العظيم! فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (11).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 130

«أهم» بنو آدم‏ «أَشَدُّ خَلْقاً» و أشدّه و أصلبه في البنية الجسدانية- فقط- ف- «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فلا أحسن منه في مطلق التقويم، مهما كان «من خلقنا» من سواه‏ «أَشَدُّ خَلْقاً»، و «من خلقنا» يعم الجن و الملائكة ممن نعرف، و غيرهما من ذوي عقول لا نعرفهم، و علّهم يشمل سائر الخلق ايضا «أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها» (79: 29) و السماء بما فيها من كواكب و غازات أشد خلقا من هؤلاء أجمع، «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ ...» غاز ما أصلبه و أصلده و قد خلقت منها الكواكب! و لكنما الإنسان‏ «إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ»: لازم بعضه بعضا و لازق، فبنية الإنسان أرخى من‏ «مَنْ خَلَقْنا» فخلقه أهون بدءا من بدئهم، فخلق أمثالهم يوم المعاد- و هو أهون- أسهل من خلق من خلقنا مرحلتين! «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» أكبر لأنه أشد و خلقهم أسهل! و «طِينٍ لازِبٍ» هو سلالة من طين: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» (23: 12)

(ثم جمع سبحانه من حزن الأرض و سهلها و عذبها و سبخها تربة سنّها بالماء حتى خلصت و لاطها بالبلة حتى لزبت) «1»

هناك الإنسان في أوّله تراب، ثم بسنّ التراب ماء حما مسنون: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (15: 26) ثم سلا من صلصاله فطين لازب، هو السلالة من طين بلا نتن من حمئه و لا يبس من ترابه، فإنما «طِينٍ لازِبٍ»! «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام)

(2) الدر المنثور 5: 273- اخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله‏ «مِنْ طِينٍ لازِبٍ» قال: اللازب و الحمأ و الطين واحد كان اوله ترابا ثم صار حما منتنا ثم صار طينا لازبا فخلق اللّه منه آدم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 131

ذلك التراب الحمأ المسنون الطين اللازب في خلق الإنسان الاوّل، فهل إن بنيه المتناسلين بالزواج كذلك مخلوقون من ذلك؟

كلّا في ظاهر التناسل بخلاف آدم المخلوق دون تناسل، و نعم حيث النطفة تنتهي إلى التراب، فإن الطعام كله ناشئ من التراب‏ «1».

و من ثم الطينة و هي النطفة تختلف في الإنسان، رغم أن الطين الأول في خلق الإنسان الأول واحد «2».

و قد تعم‏ «طِينٍ لازِبٍ» الطين الأول و سائر الطين و هي سائر الطينة، فكل طينة عليينية لازبة أشكالها، و كل طينة سجينية لازبة اشكالها، كما لزب الطين الأول في أجزائه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالجنين يتولد من المني المتولد من الدم المتولد من الغذاء و هو حيوانيا و نباتيا يتولد من الطين اللازب، اللازم بعضه بعضا!

(2)

نور الثقلين 4: 400 ح 9 في اصول الكافي محمد بن يحيى عن محمد بن الحسن عن النضر بن شعيب عن عبد الغفار الجازي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان اللّه خلق المؤمن من طينة الجنة و خلق الكافر من طينة النار قال: و سمعته يقول:

الطينات ثلاثة طينة الأنبياء و المؤمن من تلك الطينة الا ان الأنبياء هم من صفوتها هم الأصل و لهم فضلهم و المؤمنون الفرع من طين لازب كذلك لا يفرق اللّه عز و جل بينهم و بين شيعتهم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 132

[سورة الصافات (37): الآيات 12 الى 70]

بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (12) وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (13) وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَ قالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (15) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16)

أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (18) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (19) وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (20) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى‏ صِراطِ الْجَحِيمِ (23) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (24) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31)

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (36)

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (38) وَ ما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41)

فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلى‏ سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (44) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46)

لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (47) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (50) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (51)

يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (55) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56)

وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى‏ وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (61)

أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66)

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (69) فَهُمْ عَلى‏ آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 135

بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (12).

هنا أمران عجيبان هما عجاب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من إصرار حماقى الطغيان على نكران المعاد و أدلته واضحة وضح النهار، إذ هم معترفون بأشد من المعاد و هو الخلق الأول للمعاد، و خلق السماوات و الأرض.

ثم عجابهم من إصرار الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عجابه حين ينكرون، لحدّ «و يسخرون» من ملحمة المعاد الحساب، و لأنهم غافلون فلا يذكرون ما هو أشد و أصعب من المعاد، لكن:

وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (13) كلّما توالت عليهم ذكريات المعاد لإمكانيته بأحرى من الخلق الاول، و لوجوبه قضية العدل و الحكمة الإلهية،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 136

«لا يذكرون»- «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ» عن غيّهم على عيّهم في الإجابة عن أسؤلة الوحي حيث تبكتهم و تسكتهم! وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) فآيات اللّه البارعات التي هي مواد الذكرى و الإيمان باللّه، تنقلب عند هؤلاء- المقلوبة قلوبهم و المعقولة عقولهم- موادا للسخرية، يطلبونها وسائل الهزء بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و دعوته، ماء يزيدهم عطشا و دواء تزيدهم داء: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»:! وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (15).

فهل «هذا» نبأ الرسول العظيم أنكم ستحشرون؟ و ليس النبأ أيا كان سحرا مهما كان كذبا! أم «هذا» برهانه القاطع و تبيانه اللّامع الذي لا قبل له و لا جواب عنه، فهو يقنع العقول في كافة الحقول؟ «أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ» (52: 15) أ فكلما لا يلائم أهواءكم و ما تشتهون، إنه سحر مهما برهنت له براهين حسية و عقلية و فطرية «و ماذا بعد الحق إلا الضلال المبين»! الرسول يدعي أمرا ببرهان، و يدعوكم لتصدقوه دون مجازفة، ثم أنتم تنكرونه و تكذّبون دونما برهان، إلّا دعوى جازفة جارفة «إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» فما دائكم؟ و ما دوائكم؟! «أَ فَسِحْرٌ هذا» لقيلكم:

أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) و قد خلقكم اوّل مرة و لم تكونوا شيئا مذكورا! و قد خلق السماوات و الأرض و هو أشد من خلقكم اعيانكم و أمثالكم! أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) و هم أبعد عهدا في موتهم، فترابهم و عظامهم؟ و هم أعظم منا فأبعد أن يتقبلوا إعادة في المعاد؟ و هم و آباؤهم سواء أمام القدرة الحكيمة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 137

و لقد كان تأصيل الآباء القدامى- في أي أصل- من الخرافات الجارفة عند الجاهليين، فإذا تسهلوا في أمرهم أنفسهم استصعبوا ذلك الأمر من آبائهم الأولين، و هم على سواء فيما لهم و عليهم، و آباءهم كأمثالهم كانوا أبناء آباء لهم قبلهم و حتى ينتهى إلى آدم‏ «خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» «أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» و الجواب الصارم عن كل هذه الاستبعادات:

قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (18) «نعم» ليست إجابة عن سئوال استعجاب مجردا عن دليل، حيث البراهين تحتف بهم من بين أيديهم و من خلفهم و هم بكم عن جوابهم أنفسهم «نعم» و هنا إضافة «و أنتم» الأبناء الآخرين و الآباء الأولين «داخرون»: أذلّاء صاغرون، أمام القدرة الحكيمة: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ».

و ليس يطول بين «نعم» في إجابة لفظية، و بين «نعم» في إجابة واقعية، فإذا هم أمام مشهد من مطوّلة المشاهد و مهوّلتها، يلتقي فيها الوصف بالحوار و لات حين فرار:

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (19) في غمزة عاطفة، و ومضة خاطفة- فقط- قدر ما تطلبه زجرة واحدة:

«فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ». (79: 13) «فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ» ما كانوا ينكرون، ينظرون أنفسهم مبعوثين، و ينظرون حق الوعد يوم الدين بعد ما كانوا يوم الدنيا عنه عمين! «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 138

الخلق الأول لبني الإنسان كان يتطلب تدرجا في تنقّلات بزجرات واقعية: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ» (90: 4) و في المعاد زجرة واحدة: طردة بصوت قارع هو الصيحة و النفخة الثانية في الصور، و نقرة في الناقور «فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ» و كما في خلق آدم الأول‏ «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» (21: 104) «وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (16: 77) أ ترى كما النفخة هي للناكرين يوم الدين زجرة، كذلك هي للمصدقين زجرة؟ و هي بداية العذاب! كلا، فانها لمن‏ «قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ» كأولى ويلة لهم! دون سواهم.

ثم «هي» في «إنما هي» تعني الصيحة و النقرة و النفخة، فهي للناكرين زجرة و للمصدقين نفحة، مهما ليست هي في ذاتها إلّا هيه، فلكلّ شاكلته يوم الرجعة «فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ» «... بالساهرة»! وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (20) نقلة قاصدة من برهان الواقعة- لمّا لم يك ينفع- إلى واقعة البرهان، تستعرض معرض الويل و العويل من حصيلة الزجرة الواحدة علّهم ينتبهون، و عن غيّهم يرجعون! «يا ويلنا» كيف كذبنا يوم الدين رغم براهينه القاطعة! يا ويلنا مما وقعنا فيه نتيجة تكذيبنا ف‏ «هذا يَوْمُ الدِّينِ»: الطاعة، حيث تبرز في جزاء وفاق: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى».

و بينا هم في قولتهم الويلة، إذا لهم بويلة أخرى تقرعهم من حيث لا يحتسبون، كما لم يحتسبوا حسابا ليوم الدين:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 139

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21).

خطاب العتاب لأهل العذاب و التباب من رب الأرباب، أمّن يؤمرون بهذه القولة العاتبة، و ليس من كلامهم، إذ «كنتم» خطاب، فمن هو المخاطب منهم الخارج عن «تكذبون»؟ و قضيته- إذا- «كنا به نكذب» تلاوما بينهم أنفسهم، ثم «احشروا ...» تلوه دليل ثان أنه خطاب اللّه.

«هذا يَوْمُ الْفَصْلِ» بين المكذبين و المصدقين: «وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ» (90: 4) و «يَوْمُ الْفَصْلِ» بين كل حق و باطل مزيجان يوم الدنيا، و كذلك كل فصل يتطلبه‏ «يَوْمُ الدِّينِ» فصلا بالعدل و الفضل و من ثم خطاب للزبانية تحقيقا لجزاءهم الوفاق مع كل الرفاق:

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى‏ صِراطِ الْجَحِيمِ (23).

و ترى هؤلاء «الَّذِينَ ظَلَمُوا» يحشرون إلى صراط الجحيم، فما ذنب أزواجهم بعولة أم زوجات؟ فإن كانوا من الذين ظلموا شملتهم‏ «الَّذِينَ ظَلَمُوا» و إن كانوا من الذين عدلوا فقد سبقت لهم الحسنى، ف‏ «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» (21: 101) بعولة أم زوجات أو سواهم؟.

«الَّذِينَ ظَلَمُوا» هنا هم أصول الظلم و الضلال، ف «ظلموا» تضرب إلى عمق الماضي و تجعل حياة أصحابها ظلما، فهم الذين عاشوا ظالمين بحق الحق و بحق أنفسهم و عباد اللّه، ف «أزواجهم» هم أشباههم‏ «1» و قرنائهم الذين عاشوا على هامش الضالين يتبعونهم فيما هم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 401 ح 11- القمي قال قال: أشباههم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 140

بعولة أم زوجات أم أية أقارب أو أغارب، و لذلك يتباغصون في حوار:

«وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ» فالأوّلون هم فروع الضلالة و الآخرون المسؤولون هم الأصلاء.

و هل إن‏ «ما كانُوا يَعْبُدُونَ» تشمل كل المعبودين من دون اللّه، ملائكة و نبيين إلى جنب طواغيت و أوثان؟ كلّا! حيث المعبودون الثلاث لا يستحق كلهم الجحيم، فإذا الطواغيت يعذبون لطغيانهم و تألههم لأنفسهم، ثم الأوثان و الأصنام تحشر مع عابديها الجحيم تعذيبا ثانيا للعابدين، فما بال المسيح (عليه السلام) و ملائكة معبودين يعذبون و هم براء: «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ‏ ... إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ ...» (5: 117) و «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ» (21: 101).

لذلك تاتي هنا «ما» دالة على غير ذوي العقول من أصنام، أم و طواغيت بردفها في أنهم لا يعقلون، و كما أتت في غيرها «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98) «يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (25: 17).

و حتى إذا أتت فيما أتت «من» اختصت بغير «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏» و لأنهم صالحون.

احشروهم: جمعا بينهم يتراءون بعضهم البعض‏ «فَاهْدُوهُمْ إِلى‏ صِراطِ الْجَحِيمِ» فإذ لم يهتدوا يوم الدنيا إلى صراط مستقيم، فليهتدوا يوم الدين إلى صراط الجحيم، و الصراط هو السبيل المستقيم الذي يبتلع سائله دونما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 141

انحراف، فأهل الحق إلى صراط الجنة المستقيم، و أهل الباطل إلى صراط الجحيم، كلّ إلى ما خطط لنفسه من هدى و صراط و ما ربك بظلام للعبيد.

و يا لها من لهجة جازمة في تهكّم عارم، و ها هم أولاء قد هدوا إلى صراط الجحيم و لمّا يصلوها، إذ يبادرهم أمر الإيقاف:

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (24).

إنه ليس سؤال استعلام عن مجرمين و سواهم‏ «فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ. .. يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» (55: 41) «وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» (28: 78) و إنما هو سؤال تنديد و تبكيت عن المجرمين، ثم لا سؤال عن سواهم إلّا بيانا لموقفهم أمام أهل الحشر أجمعين تبجيلا لهم أو تخجيلا:

«فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ» (7: 7) «لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» (33: 8) و

قد يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: (يا معاشر قراء القرآن اتقوا اللّه عز و جل فيما حمّلكم من كتابه فإني مسئول و إنكم مسئولون، إني مسئول عن تبليغ الرسالة و أما أنتم فتسألون عما حمّلتم من كتاب اللّه و سنتي) «1»

و

(ألا كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته) «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 402 ح 22 عن اصول الكافي باسناده عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

(2) حديث مشهور

عنه في كتب عدة و في المصدر ح 15 في اعتقادات الامامية للصدوق‏ قال زرارة للصادق (عليه السلام) ما تقول يا سيدي في القضاء و القدر؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 142

و ليست المسؤولية بالنسبة للمكلفين فحسب بل‏

«اتقوا الله في عباده و بلاده فإنكم مسئولون حتى عن البقاع و البهائم» «1»

ف‏

«ما من داع دعى إلى شي‏ء إلّا كان موقوفا يوم القيامة لازما به لا يفارقه و ان دعا رجل رجلا ... «2» ..»

فلآية الوقوف موقف خاص بين آيها تختص فيه بالمجرمين، و موقف ثان يعم الخلق أجمعين، و في ذلك الموقف يعمهم السئوال عن الولاية:

ولاية اللّه و الرسول و الأئمة، و لأن الأخيرة مختلف فيها بين الأمة، ترى تظافر الروايات أنهم، مسئولون عن ولاية على بن أبي طالب (عليه السلام) «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: أقول ان اللّه تبارك و تعالى إذ جمع العباد يوم القيامة سألهم عما عهد إليهم و لم يسألهم عما قضى عليهم‏

و

فيه 16 عن العيون في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الاخبار المتفرقة حديث طويل و في آخره‏ ثم قال- و قد ذكر عليا (عليه السلام)- حاكيا عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): و عزة ربي ان جميع امتي لموقوفون يوم القيامة و مسئولون عن ولايته و ذلك قول اللّه عز و جل‏ «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ».

(1). المصدر عن نهج البلاغة عن الامام علي (عليه السلام): ...

(2) الدر المنثور 5: 273- اخرج البخاري في تاريخه و الترمذي و الدارمي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه عن انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):؟.

(3) و

قد أخرجه فيمن اخرج الحسكاني في شواهد التنزيل عن أبي النصر العياشي في تفسيره باسناده عن مندل الغزي يرفعه الى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في قوله‏ «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» قال: عن ولاية علي (عليه السلام) و رواه مثله عن أبي سعيد الخدري و منهم الحمويني في فرائد السمطين بسنده عن أبي سعيد الخدري و أخرجه مثله عنه الزرندي في نظم درر السمطين ص 109 و مثله عنه البدخشي في مفتاح النجا 41 مخطوط و الموفق بن احمد في المناقب 186 عن أبي إسحاق و العلامة العيني في مناقب علي 57 عن أبي سعيد عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الحافظ الحسين الجري في تنزيل الآيات 26 عن ابن عباس:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 143

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (25) و قد كنتم تزعمون شركاءكم لكم أنصارا، فأين نصرتهم لكم و أنتم معهم محشورون؟ أم نصرتكم لهم و قد كنتم لهم‏ «جُنْدٌ مُحْضَرُونَ»؟ أم نصرة كل من الظالمين لأنفسهم، و أزواجهم لأنفسهم؟ أم نصرة الظالمين لأزواجهم أمّا هي من نصرة؟

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26) ليس لهم أية قولة أو فعلة إلّا أن يؤذن لهم، و ليس لهم إلّا استسلامهم عابدين و معبودين لحكم أحكم الحاكمين، و قد يؤذن لهم في حوار لا تاتي لكلّ إلّا البوار و نارا على نار:

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27).

البعض الأزواج يتساءل البعض الذين ظلموا لماذا أغويتمونا خادعين، و «إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» (38: 64).

قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28) و هكذا يحمّلون أوزارهم على الذين حملوهم على الضلالة كأنهم براء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و السيد علي بن شهاب الدين الهمداني الحسيني في مودة القربى 92 و العلامة القندوزي في ينابيع المودة 257 عن أبي سعيد عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و العلامة بالكثير الحضرمي في وسيلة المآل 121 عن أبي سعيد عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و العلامة الأمر تسري في أرجح المطالب 56 و 549 نقلا عن تفسير الواحدي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و السيد ابو بكر الحضرمي في رشفة الصادي 24 عن الواحدي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اي عن ولاية اهل البيت و قال الحافظ جمال الدين الزرندي عقيب حديث الولاية قال الامام الواحدي: هذه الولاية التي اثبتها النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هي مسئول عنها كما في قوله تعالى: «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» () لحقات احقاق الحق ج 14 ص 182- 185) و في كفاية الخصام ص 359 في كتاب الفردوس لابن شيرويه الديلمي باسناده عن أبي سعيد عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مثله‏

و قد اخرج فيه روايات ثمان من طرق إخواننا السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 144

عما كانوا يفعلون، فيجيبهم الذين ظلموا:

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29).

حوار ما ألطفه بين أهل النار تأتي لهم بكل بوار: «وَ لَوْ تَرى‏ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى‏ بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (34: 33).

و خلاصة دعوى أزواجهم المستضعفين أننا كنا مؤمنين فصددتمونا عن الهدى إذ «كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ» في‏ «مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» و اليمين في المكر هو الإتيان من واجهة الحق و صورته بسيرة الباطل و سريرته، أن تجعل آيات اللّه و بيناته ذرائع لنكرانها من حيث لا يعلمون: «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» (7: 17).

و خلاصة الرد من المستكبرين الذين ظلموا «أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى‏ بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ»- «بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» «وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ» فالإيمان على بصيرة و يقين لا يزعزعه مكر الليل و النهار و الإتيان عن اليمين، فإن حجة الإيمان بالغة و حجة الكفر داحضة، و أين بالغة من داحضة؟ و إن كانتا في صراع دائب، فإن سعي الكفر- أيا كان- خائب‏

(فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف)!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 145

و كيف يزول إيمان بقوة و سلطان بل و ما كان لنا عليكم من سلطان! و السلطان الحجة منفي عن أهل الباطل، و السلطان القدرة ليس ليغير الإيمان‏ «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً» في البعض من أعمال الإيمان.

هنالك ثالوث‏ «بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ‏ ...- بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ‏- بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ» تفسح المجال لكل مضلّل، فإن مادة الضلال كائنة، و المضلّل يبرزها و يمدّها، و ليس له من سلطان مع وجود الإيمان و لا معه.

فالمستضعف المقصر في ضلاله بمضللين ليس إلا ردفا لمستكبرين ضالين، و إن كان التقصير دركات، فعلى كلّ دركه قدر ما قصّر، ثم المستضعف القاصر لا يردف بمستكبرين: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (4: 99).

فالمستضعفون المقصرون هم من الظالمين، و من أولياء الشياطين، يفتنهم الشيطان عن الإيمان و ما هم بمؤمنين: «ف-

إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجالا فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة و لو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) ينقله عنه في اصول الكافي، و في النهج باختلاف يسير في بعض ألفاظه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 146

نتعرف من هنا و هناك مدى فرض التحقيق في الإيمان، حتى يتحقق لحد لا يفتتن صاحبه بأية فتنة، فإن وصل إلى قمة فهو الهمة، و إن لم يصل- و كثير ما هم غير واصلين- فعلى صاحبه أن يأخذ حذره سلبا في الفرار عن المضللين و لحد الهجرة «أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها» و إيجابا أن يكون دائب التفتيش عما يحقق إيمانه و يبعده عن الفتن، إلّا المستضعفين في كلا السلب و الإيجاب‏ «لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً» لتقوية الإيمان و مقاومة الفتن‏ «وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» للفرار عن حكم المستكبرين، استضعافا في بعدية يجعلهم قاصرين دون تقصير، اللّهم إلّا الذي يعفى عنه لأنه تقصير فصير! قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30).

مادة الضلال كانت فيكم موجودة، و مادة الإضلال لمن آمن حقا فينا غير موجودة، و إنما ضعف فيكم يفسح مجال الإضلال لا سيما «بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ» في حد أنفسكم، فنحن زدناكم في طغيانكم، حيث تعاضدنا في الطغيان.

المستكبرون يتزايدون في حوارهم ردا على المستضعفين في ثالوث:

«بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» جوابا عن‏ «كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ» في وجه أوّل هو الدين، ثم‏ «وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ» في وجه ثان من اليمين و هو القوة و السلطان، و من ثم‏ «بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ» فحتى إذا لم نأتكم عن اليمين فسلب الإيمان و إيجاب الطغيان كان يكفيكم ضلالا!:

«وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 147

تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (14: 22) إذا فكلّ من المضلّل و المضلّل ظالم مهما اختلفت دركات الظلم:

فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31) ... لقد حقت علينا حقا و حقيقة كلمة العذاب بما ظلمنا او ظلمتم بما اجرمتم، فالظالم و المظلوم هكذا كلاهما في النار، حيث المظلوم المقصر في دفع الظلم عن نفسه أو فضح الظالم، ظالم بحق نفسه و بحق الآخرين، و من‏ «قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ»: «إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً» (78: 22) «فَأَمَّا مَنْ طَغى‏ وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى‏» (79: 37).

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32) أغويناكم كما غوينا، فإن كلا يجر النار إلى قرصته: «قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا ...» (28: 63).

يقولون قولتهم هذه كأنهم يعتذرون و لكنهم لا يعذرون كما المضلّلون المقصرون، و قد تكون عذرا لهم في حوار المستضعفين، أن ليس الإضلال كله منا، «بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ» «مجرمين» «بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» و إن كنا نحن مشاركين لكم في الظلم و الطغيان:

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (33) في أصل العذاب، إنهم كانوا ظالمين، و لكن دركاته ليست إلّا حسب دركات الظلم، فالظالم بحق نفسه له عذاب واحد، و المضلّل الظالم بحق غيره له ضعف العذاب قدر ما ضلّل، و كما العادل له ثواب مدى عدله اهتداء و إهداء:

(من سن سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 148

أجورهم و من سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة و لا ينقص من أوزارهم)

«لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ» (14: 25) «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» (29: 12).

أ ترى إذا كان ضعف العذاب لمضلّلين و ضعفه لمضلّلين فما ذا تعني «و قالوا رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ» (7: 38)؟.

هنا الفريقان من المستكبرين المضلّلين، مهما كان الآخرون ضلوا بسبب الأولين، فلكلّ ضعف، مهما اختلف ضعف عن ضعف حسب اختلاف البادي في الإضلال و الماشي سبيل الضلال و الإضلال: «وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ. قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا. فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا ...» (7: 36:) 38).

ثم هناك ضعف آخر أشد من ذلك هو الانظلام في الإضلال ثم ظلم في الضلال، و من ثم عذاب واحد لمن ضل دون إضلال، فلا هو أضل من سواه، و لا هو ضل بمن سواه، فله عذاب واحد.

فمن دون الآخرين هم في العذاب الضعف مشتركون مهما اختلف ضعف عن ضعف، ثم الثلاث في أصل العذاب مشتركون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 149

إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) أصيلين و فرعيين، دون أن نعذر الآخرين لأنهم مستضعفون، فإنهم كالأولين ظالمون، و كلّ يلقى أثامه كما ظلم قدره، و لا يظلمون فتيلا.

و المجرمون في اصطلاح القرآن هم الكفار الناكرون لتوحيد المبدء و المعاد حيث أجرموا الحياة و قطعوها عن أصلها و اثّاقلوا إلى الحياة الدنيا و زينتها:

إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) استكبارا عن توحيد اللّه و تخاذلا في الإشراك باللّه مستهينين برسول اللّه، ويكأن شركائهم أعظم من اللّه و أكرم:

يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) يعتبرون الدعوة إلى التوحيد شعرا و جنّة، فالدعوة إلى الشرك نثر و عقليّة، تسميه للشي‏ء باسم ضده، و تحويلا لحق اللّه إلى ندّه.

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37).

لا هو شاعر و لا مجنون فيما يحمل من دعوة الرسالة، فإنها حق بما تملك من بينات، و بما صدق المرسلين فيما أرسلوا به، فهل الرسل كلهم شعراء و مجانين رغم كافة البراهين، ثم أنتم بشركائكم عقلاء «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» «لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ».

فما دواؤكم بعد ذلك الداء العضال إلّا:

إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (38). وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39).

ليس عذابكم الأليم إلّا جزاء لكم، و ليس الجزاء إلّا أعمالكم، فإنها تبرز يوم تبلى السرائر بحقائقها الشريرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 150

ف- «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» هي جزاؤكم بكمها و كيفها، فهي داؤكم معكم لزاما إلى يوم الدين، تبرز جزاء و دينا.

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40).

أ ترى «إلا» استثناء؟ فعمّا هي تستثني؟ عن‏ «لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ» و هم أولاء المجرمون! دون شمول لفسقة المؤمنين فضلا عن المخلصين؟

و لو توسعنا في «إنكم» أنها تعني كل المكلفين، فحق الاستثناء «إلا المؤمنين» دون «المخلصين» حيث يظل المخلصون و من إليهم من المؤمنين من ذائقي العذاب الأليم! أم هي استثناء عن‏ «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» في وجهها الشامل لكل المكلفين، أن الجزاء العدل الوفاق للمجرمين ليس إلّا «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و أما المخلصون فلهم أجرهم الوفاق و زيادة، فضلا إلى عدل؟ و «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ» مخلصين كانوا ام مخلصين أم أيا من المحسنين! أم هي استثناء متصل عن‏ «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» في وجهها الشامل، و منقطع عن‏ «لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ» و متصل عن‏ «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» حيث المخلصون و هم أصحاب اليمين و السابقون المقربون لا سؤال عنهم إلا تبجيلا و تجليلا، و ليسوا رهناء أعمالهم و ما كسبوا:

«كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ» (74: 39) كل المكلفين للحساب يحضرون‏ «فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 128) حيث استقروا في قرارة ثابتة من العبودية، فبم يحاسبون؟ و عم يتساءلون؟

إن مثلث الاستثناء- منفصلا بين متصلين- يناسب أدب اللفظ و حدب المعنى، فلأن الآيات المسبقة تحدثت عن جزاء ألدّ المجرمين، فليقابلهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 151

أخلص المؤمنين و هم‏ «عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

هناك مخلصون في عبوديتهم للّه- و طبعا- كما يسطعون، فليس إذا الإخلاص القمة، و قد يشوبه لمم و صغار الذنوب، أم غير خالص الطاعة كما يحق، قصورا ذاتيا أم و تقصيرا قاصرا حيث للشيطان عليهم سبيل‏ «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» و هنا مخلصون أكمل لهم ربهم إخلاصهم فعصموا عن كل غواية عامدة أم خاطئة، فهم المعصومون أيا كانوا، مرسلين أم خلفاء لهم منصوصين كالأئمة الاثنى عشر من عترة الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

هم خلاصهم عن اي ذنب هو بين إخلاصهم أنفسهم كما يستطيعون، و من ثم إخلاص اللّه لهم: «إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» (38: 46) و هم المؤمنون حقا و معهم المخلصون: «إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً» (4: 164).

فالمخلصون مستثنون عن أية غائلة و هائلة قد تعم سائر المؤمنين:

«وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (15: 40) «فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 74) «فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 128) «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 160) «كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ» (12: 24) فلأن اللّه أخلصهم لنفسه: «وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» (20: 41) فلا سبيل لغير اللّه إليهم و لا سلطان عليهم فضلا عن الشيطان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 152

هنا على ذكر عباد اللّه المخلصين يعرض لهم صفحة جديدة ليوم الدين وجاه ذلك العذاب الأليم للمجرمين:

أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41).

آية منقطعة النظير في ساير القرآن تحمل ميّزات المخلصين ب- «رِزْقٌ مَعْلُومٌ» فما هي الميزة في‏ «رِزْقٌ مَعْلُومٌ»؟

إنه رزقهم عند ربهم في بعدية ماديا و معنويا، و من الثاني أنهم لا يسألون:

«وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57)» و غيرهم- ككلّ- من المحضرين المسئولين، مجرمين و مؤمنين مخلصين‏ «إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

و منه‏ «أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى‏ (59)» و لمن سواهم موتة ثانية هي عن الحياة البرزخية إلى الحياة الآخرة:

«وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» فالمخلصوص هم‏ «مَنْ شاءَ اللَّهُ» ألّا يصعقوا بعد صعقتهم الأولى و هي موتتهم الأولى.

و منه أنهم ليسوا رهناء أعمالهم‏ «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ» فليس جزاءهم كالمجرمين قدر أعمالهم، و لا كسائر المحسنين أنهم يسألون فيثابون قدر إحسانهم و زيادة قدرهم، فإنهم لا يحاسبون و لهم أجرهم من غير حساب و لا حدود، لأنهم كانوا مخلصين في عبودية اللّه دون حساب و لا حدود.

فذلك الرزق المعلوم، نعلم طرفا منه كما هنا و في ساير القرآن، و نجهل طرفا آخر، فهو لنا معلوم لحدّ، و للّه معلوم دون حدّ، و لعمّاله يوم القيامة معلوم كما يحدّ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 153

و هنا حسب السنة القرآنية يبتدئ بطرف من الرزق المحسوس، ترغيبا لأحاسيس المؤمنين، و من ثم طرف كما تطرّفناه من الرزق غير المحسوس، و أخيرا «لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ»:

فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (42).

فواكه غيرهم‏ «كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ» (23: 19) «فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ» (77: 42) إنها قد لا تمازجها إكراميات سواها، أم لهم منها قدرهم كجزائهم بفضله المقرر لهم، فلهم مطلق الإكرام، و لكن أولئك لهم الإكرام المطلق دون جدّ و هم يأكلون فواكههم مكرمين و متفكهين.

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) آي الجنات النعيم في سائر القرآن سبع‏ «1»، اثنتان منها- و هذه منهما- تختصان بالمخلصين و السابقين المقربين: «وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» (56: 12) و الخمسة الباقية تعم المتقين، و لكن اين نعيم من نعيم؟ فنعيم المخلصين المقربين هو أصل النعيم المطلق: «صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» و نعيم الباقين مطلق النعيم الفرع، و كما هم‏ «مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69).

عَلى‏ سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (44) تقابلهم على سررهم في أصله لا يختص بهم، فهو يعمهم و سائر أهل الجنة، و إنما يمتاز المخلصون ألّا يقابلهم إلّا من هو منهم لا دونهم، فالمكلفون هناك أشتات حسب شتات الدرجات أو الدركات و لا يظلمون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه 65/ 5 9/ 10 56/ 22 8/ 31 17/ 52 12/ 56

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 154

نقيرا، فالمقابلة على السرر في جنات النعيم الأصيلة تختص بأهلها، مهما كانت لمن دونهم معهم لقاءات و زيارات.

و حين نجد في هذه المواصفات ما تعمهم و كل أصحاب الجنة، تعمهم في درجاتهم، أو أن هذه المجموعة من ميّزاتهم مهما عمتهم مفردات بسواهم.

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (47).

تذكر خمر الجنة في آيات عدة لسائر أهل الجنة، بمواصفات لها فصلناها في طياتها، و لكنها هنا لا تذكر للمخلصين بلفظ الخمر، إكراما لهم زائدا على من سواهم من أصحاب الجنة، و تختص لهم ب- «بيضاء» إبعادا للونها كاسمها و سماتها عن خمر الدنيا، ثم‏ «لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» و في تنكير «لذة» إعظام لها لحد لا يحد و لا يوصف‏ «وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» (47: 15) «لا فِيها غَوْلٌ» هي ثانية البيضاء في ميّزات معين المخلصين‏ «وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» تعمهم و سواهم: «لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ» (56: 19) فالنزف هي النزف، و علّ الغول- كذلك- هي التصدّع، بفارق أن الغول هو إهلاك الشي‏ء من حيث لا يحسّ به، و التصدع اشتقاق الرأس و صداعه من الوجع.

إنه «كأس‏ مِنْ مَعِينٍ»: جار- نهرا و سواه، ما يزيد في طراوته «بيضاء» كأحسن لون و أنضره و انظره للناظرين، ففيها «لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» نظرة كما هي لهم طعما و شربة، ففيها كافة محاسن المشروب، بما ينفى عنها كافة مضاره‏ «لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» و ينزفون، نزف الجسم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 155

و نزحه، ام نزح الروح و نزفه، بل و تزيد في الجسم طراوة و طلاوة، و في العقل نزاهة و علاوة.

خمر الدنيا تخمر الجسم و العقل تنقيصا، و خمر الآخرة تخمر النقص و الجهل تمحيصا، و تجعل شاربها سكرانا في اللّه، غفلانا عما سوى اللّه، إذ تزداده معرفة باللّه و هيمانا في اللّه، و كما تبلور جسمه أكثر مما كان! نزيف خمر الدنيا في انتزاح الجسم و افتضاح الروح، و اغتياله لكلا الجسم و الروح، يجعلها تخمر الإنسانية و تسترها، و خلافه المضاد في خمر الآخرة يجعلها تخمر كل نقصان، فإنها «بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ‏. يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» (52:) 23).

في خمر الدنيا كل لغو و تأثيم و كل تصدّع و نزف و كل غول، و بخلافها خمر الآخرة التي تزيد شاربها كل صحة و معرفة، لذة حسية و معرفية، جسمية و عقلية أمّا هي من لذات لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر! وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48).

«هم» الذكور هنا للأغلبية الساحقة حيث المخلصات كالصديقة الطاهرة و مريم أمّن هي، هن بينهم قليلات، و «قاصرات» تعم الإنسيات و الحوريات و الجنيات، فإن بين الجن مخلصين كالإنس مهما اختلفت الدرجات.

و «قاصِراتُ الطَّرْفِ» عن أزواجهن، لا تعدوهم عيونهن حتى طرفا، لأزواجهن، و كذلك حيائهن و عفافهن الظاهر في قصور الطرف و خفضه، فهن اللواتي جعلن نظرهن مقصورا على أزواجهن، و حبسن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 156

نظرهن عليهم فلا يتعدينهم إلى غيرهم.

و إنما تقع الكناية عن ذلك بقصور الطرف، لأن طماح الأعين في الأكثر يكون سببا لتتبع النفوس و تطرب القلوب.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و انك إن أرسلت طرفك رائدا |  | لقلبك يوما أتعبتك المناظر |

و من قصور طرفهن أنهن لم ينظرن قبلهم إلى أزواج آخرين:

«فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ» (55: 56) و «عين» هي واسعات العيون و جميلاتها كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49).

بيض مكنون برياشها، مخبوءة عن سائر طلابها إلّا أصحابها، فلا تبتذلها الأيدي و لا العيون، و علّها بيض النعام فان كنّها أحفظ و أستر من سائر الكن، و هي أجمل من سائر البيض حيث يكنها الريش في عش عشيش، فلا يمسها الأيدي و يغبرها الغبار، فهي على صفائها كما بيضت، بيضاء تميل إلى صفراء، و ذلك الخلط الغالب عليه البياض من محاسن النساء.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (50) و هم‏ «عَلى‏ سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ» يتساءلون عما مضى من حوارهم مع أصحاب الجحيم أمّاذا من تساءل حبيب حميم:

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (53).

عرض لطرف مما مضى من المكذبين ليوم الدين، ثم استعراض لجزاء تكذيبهم و واقعه في الجحيم أنهم فيها مدينون:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 157

قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) تطلّعا إلى من في الجحيم ليروا مصير المكذب بيوم الدين.

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (55) و وسطه، حيث عاش في أوساط المكذبين.

أ ترى كيف يختار المخلص قرينا من المكذبين؟ إنه قرين لا صديق حميم، و لكل إنسان قرناء في الحياة جيرانا أو متعاملين، كما كان لرسول الهدى قرناء مشركون، و لكن المخلص لا يتأثر بسوء قرينه، فقد يؤثر فيه أم لا يؤثر، و لا يتأثر مهما كان قرينه من أقوياء المضلّلين لحد قال عنه أحد المخلصين:

قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) «كدت» من الكيد شرطا ل- «إن» و جزاءه «لتردين» إسقاطا إلى الجحيم كما أنت، بتساقط عن الإيمان كما أنت، و لكن اللّه صدّ عني كيدك و ميدك بنعمته‏ «وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي ...».

أو من كاد يكاد، أن قربت مني مؤثرا في بكيدك لتردين‏ «وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي ...».

أو المعنيان معنيّان، إن قربت مني و دنوت كودا و كيدا لتردين‏ «وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي».

أم «إن» «إن» مخففة، و اللّه إنك قربت أن تهلكني، و لكنه يقتضي لام الغاية دون التأكيد، و هنا تأكيد دون غاية، و قد تعني «إن» كلا الشرط و الوصل، كما تعني «ل» كلا الغاية و التأكيد تغليبا للأخير.

وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 158

و هذه النعمة هي التسديد العصمة فإنه مخلص من‏ «الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ» نعمة روحية قمة تعصم المنعم عليه من أية زلة و نقمة، و من أعلاها «ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» (68: 2) «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» (93:) 11) و من أوسطها «لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ» (68: 49) و تلك النعمة العصمة بأنهم من المخلصين، تجعلهم لا يحضرون لسؤال: «فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 128) هنالك رؤية القرين في الجحيم و هو المخلص في جنة النعيم تثير شعوره بجزالة نعمته، فيفصح بميزة له أخرى عن أصحاب الجحيم:

أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58). إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى‏ وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59). إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (61).

هنا يقتصرون موتتهم في الأولى التي كانت عن الحياة الدنيا، و يحتسرونها عن موتة البرزخ و في الحياة الأخرى، و لمن سوى المخلصين- لأقل تقدير- موتتان أخراهما عن الحياة البرزخية: «رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» و اعترافا من أهل النار، ثم هم يموتون ثانية حين تموت النار فلا نار- إذا- و لا أهل نار.

و سائر أهل الجنة يظلون فيها «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» دونما انقطاع، فلا موت لهم في الجنة كما لا خروج لهم عنها، و لكنهم ماتوا كسائر المكلفين موتة ثانية هي عن الحياة البرزخية:

«وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» فالمخلصون هم ممن شاء اللّه ألا يصعقوا بالصيحة الأولى و سائر أهل الحشر يصعقون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 159

فللمخلصين موتة واحدة، و للمخلصين موتتان، و للمجرمين ثلاث و لات حين خلاص! «1» «إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى‏» استثناء منقطع عن‏ «فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ» بلا اتصال، فإن المستثنى منه حان حينه منذ دخولهم في الجنة فكيف تستثنى منه‏ «الْمَوْتَةَ الْأُولى‏» إذا فهو استثناء حاصر فوق المتصل أن ليست لهم موتة بعد الحين و إن كانت فهي الأولى التي سلفت.

«وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» في النشآت الثلاث، لا في الأولى كفارة و ذكرى إذ لا خطأ و لا عصيان، و لا في البرزخ أو الأخرى جزاء وفاقا، لأنهم مخلصون لا سئوال عنهم و لا عذاب، إلّا الرحمة القمّة في جنة النعيم الرضوان‏ «لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (6:) 127) «إن هذا» الرزق المعلوم بحذافيره المسرودة في طرف منه‏ «لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» و «لِمِثْلِ هذا» الفوز العظيم و الرزق القمة الكريم‏ «فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ» كلام حق لهم، مهما كان كلام الحق أو كلامهم، فإنه إعلان قرآني صارخ في أعماق التاريخ.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 403 ح 31- القمي حدثني أبي عن علي بن مهزيار و الحسن بن محبوب عن النضر بن سويد عن درست عن أبي بصير عن أبي جعفر (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: إذا دخل اهل الجنة الجنة و اهل النار النار جي‏ء بالموت فيذبح كالكبش بين الجنة و النار ثم يقال: خلود فلا موت ابدا فيقول اهل الجنة «أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ...».

أقول: هنا توسعة لمقال المخلصين الى سائر اهل الجنة تعني انهم لا يموتون بعد ذلك ابدا، و لم يذبح في البرزخ حتى لا تشمل موتته غير المخلصين، و توسعة اخرى ذبح الموت بالنسبة لأهل النار، فالبعض منهم يخرجون الى الجنة فكاهل الجنة، و الخالدون ابدا لا يموتون مع بقاء النار مهما ماتوا مع النار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 160

في ذلك الختام لعرض من رزق معلوم للمخلصين، هم يعتبرون مكانتهم قمة عليا يحتذى بها و يقتدى، ف- «العاملون» تستغرق كل العاملين للّه، و لو كان فيهم من هو أرقى و أحرى بالقمة العليا، لكان‏ «لِمِثْلِ هذا» خطأ في عمومها! أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62).

«أذلك» الرزق المعلوم‏ «خَيْرٌ نُزُلًا»: تقدمة الضيف النازل، و نزولا في يوم اللّه إلى دار اللّه‏ «أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ» و هي من الشجرة الملعونة في القرآن: «وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ‏ ... وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» (17: 60).

و الزقوم هي شديدة الكراهية الكريهة النتنة العفنة، و في سائر القرآن ثالوث من ذكرى أليمة من الزقوم، هذه و «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» (44: 43) «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ» (56: 56) «1».

و للزقوم جرس اللفظ المعلن لجرس المعنى و ملمسه، كريه بأشدّه و شائك في أشدّه، بعيد عن التصور، ناء عن التصديق، فهو أكره طعام و أنتنه، ياتي في ثالوث الآيات و ثالوث الصفات:

إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير آيات الواقعة في ج 27 ص 80 و آيات الدخان في ج 25.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 161

هي فتنة للظالمين أيّا كانوا و في ايّ من الحياتين الأولى و الآخرة، فهنا يتقولون هازئين بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كما عن أبي جهلهم: يا جارية زقمينا، فأتته بتمر و زبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذي يخوفكم محمد فيزعم أن النار تنبت الشجر و النار تحرق الشجر، فأنزل اللّه‏ «إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ» «1».

الظالم الناكر ليوم الدين يزيد له نكرانا إذ يسمع شجرة الزقوم بمواصفاتها، أين الشجرة و النار بأشدها في أصل الجحيم، و هي تحرق بأخف النار؟! و ما يفيد تمثيلها في طلعها برءوس الشياطين، و لم ير أحدنا الشيطان؟! ان حماقى الطغيان و آباء الجهالات تجاهلوا القدرة الخلاقة للشجر و النار، و قد «جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ»! و قد تكون شجرة الزقوم من جنس النار فلا تحرق بالنار بل و قد تزيد في حرقة النار!.

و مهما لم ير أحد رؤوس الشياطين، يرون في أنفسهم أنها أقبح الرؤوس فيما يرون، و كفى الشجرة هولا أنها في بعدي الجهالة من كيانها: شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشياطين.

إنها أكلة رؤوس الشياطين، فلتكن كرؤوس الشياطين، و إنهم وقود النار و أصولها فلتخرج هي من أصل الجحيم، رأسا برأس و أصلا بأصل.

و كما أن عدّة الزبانية للجحيم- التسعة عشر- فتنة للذين كفروا، و مزيد إيمان للذين آمنوا، كذلك شجرة الزقوم بأصلها في أصل الجحيم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 404 ح 32 في المجمع في رواية الزقوم بلغة البربر التمر و الزبد فقال ابو جهل لجاريته: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 162

هنا هي فتنة للظالمين كما فتنوا، و واقع الفتنة العذاب لهم في أصل الجحيم.

صحيح أن الناس لا يعرفون رؤوس الشياطين، و لكنها مفزعة كما الشياطين، و مجرد تصورها في غيبها يثير الفزع و الجزع، فكيف إذا كانت طلعا يتطلع لطالع أكلتهم، و إذا كان طلعها كأنه رءوس الشياطين فما ذا- إذا- سائرها الذي أجمل عنه.

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (67).

عند ما تشوكهم شائلة الأكلة المالئة من هذه الشجرة الملعونة، حارقة بطونهم، تطلعوا- بطبيعة الحال- إلى شراب يخفف عن وطئتها، و يطفف عن وقعتها، فإذا لهم بشوب من حميم يشوبها، فهو يغلي كما تغلي، شوبا ثنائيا من غلي البطون: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» (44: 43) «فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ» (56: 55) شوب الحميم داخلي إذ شابه ما يحمّه أكثر من نفسه، و خارجي إذ شابته شجرة الزقوم، و ثالث ثالوثهم في عذابهم الأليم أنه‏ «شُرْبَ الْهِيمِ» و هل لهم مرجع يرجعون إليه و يلجئون؟:

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (69) فَهُمْ عَلى‏ آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70).

الجحيم: النار الشديدة التأجج، هي مرجعهم فتحرقهم بعد ما احترقوا بنزلهم ف- «إِنَّهُمْ أَلْفَوْا» و وجدوا «آباءهم» القدامى «ضالين» و رغم ضلالهم‏ «فَهُمْ عَلى‏ آثارِهِمْ» في الضلالة «يهرعون» و يسرعون،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 163

فكما كان مرجعهم في الاولى آباءهم الضالين، كذلك يوم الدين‏ «مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ» و بذلك يختم مشهد الظالمين و كأنه طرف من واقعهم المشهود! فما الحياة الآخرة إلّا صورة واقعية عن الحياة الدنيا، اللهم الا فضلا للذين أحسنوا ف- «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ».

[سورة الصافات (37): الآيات 71 الى 113]

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74) وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75)

وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (77) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلامٌ عَلى‏ نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (79) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80)

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82) وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (83) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (85)

أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90)

فَراغَ إِلى‏ آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (91) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (92) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (95)

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (96) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100)

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى‏ قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلامٌ عَلى‏ إِبْراهِيمَ (109) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110)

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى‏ إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 165

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73).

و تلكم الأكثرية الضالة دائبة في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، رغم تواتر الإنذار من المنذرين، فكان ضلالهم معمّدا بعد التحذير و الإنذار، «فانظر» نظرا في عمق الغابر «كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ» المصدقين منهم و الناكرين:

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74).

فهم بينهم لم تكن لهم عاقبة إلّا الحسنى، رغم السائرين من مكذبين، او مصدقين قاصرين او مقصرين، حيث نالوا ما قصروا او قصرّوا شطرا في الأولى‏ «ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏»! و الاستثناء يعم «من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 166

ضل» و «المنذرين» فإن للشيطان سبيلا الى غير المخلصين مهما كان لمما أو كبيرة.

و من هنا استعراضات وجيزة لعاقبة المنذرين و المنذرين، من مخلصين و سائر المؤمنين أو المكذبين، بادئا بأول المرسلين العظام نوح عليه السلام:

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75).

نداء و إجابة مهما كان بينهما من بون كما تقتضيه الحكمة الإلهية، و من ندائه‏ «فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ... وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (54: 14) «قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً ... مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً ... وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً ...» (71: 28) و الجمع في «نادانا» و «المجيبون» يعني جمعية الصفات جلالا بسحق الكافرين، و جمالا بنجاة المؤمنين‏ «فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» لمن هو نعم العبد! ...

«صدقت ربنا أنت أقرب من دعي و أقرب من يعطي فنعم المدعى و نعم المعطي و نعم المسؤول و نعم المولى أنت ربنا و نعم النصير» «1»

وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (77) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78).

هذه ثلاث إجابات لما دعا نوح (عليه السلام) بين نفي لغير أهله و إثبات لأهله، و أهله- هنا- الآهلون للنجاة، من أهله في النسب و أهله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 278- اخرج ابن مردويه عن عائشة قالت‏ كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية «وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» قال: صدقت ربنا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 167

في الإيمان، فلم ينج فيمن نجّي ابنه و امراته و هما أقرب أهله نسبيا، و قد نجّي من آمن به مهما كانوا أبعد عنه في النسب، فإنما الأهل هنا أهل الإيمان، سواء فيهم أقاربه و أغاربه: «قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ» (11: 40) «فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ. قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» (11: 46).

ترى و إذا كان أهله أعم من ذريته فما ذا تعني‏ «وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» و ابنه من ذريته و قد هلك، و المؤمنون القلة غير ذريته و قد بقوا؟

فهل هم ذرية الإيمان كما أهله؟ فلما ذا التحول من «أهله» إلى «ذريته»؟ علّها تعني ذرية أهله فإنهم ذريته إيمانيا كما هم أهله: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً» فلم يكن الباقون بعد طوفان نوح إلّا من انتسل من أهله و ذريته المؤمنين و سائر من آمن معه‏ «1».

و علّ من آمن معه كانوا هم أو أكثرهم من ذريته، ف- «أهلك» في يونس مقابل «من آمن» تعني الأقربين، و الآخرون هم سائر ذريته! «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 405 ح 36 علي بن ابراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية يقول: الحق و النبوة و الكتاب و الايمان في عقبه و ليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح قال اللّه عز و جل في كتابه‏ «احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» و قال اللّه عز و جل ايضا «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ».

(2)

الدر المنثور- اخرج الترمذي و حسنه و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن سمرة بن جندب عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: سام و حام و يافث- أقول و قد اخرج ما في معناه جماعة آخرون عن سمرة و أبي هريرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 168

أم إن المحمولين معه كانوا من ذريته و غيرهم، و لكنما الباقين لم يكونوا إلّا ذريته مهما شملتهم النجاة عن الغرق؟ فلما ذا اختصاص البقاء ببعض المحمولين و لم يختصوا بالإيمان، و علّ منهم من كان أفضل من ذريته؟

علّهم ماتوا في السفينة فلم تنسل لهم ذرية و كما يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في روايات عدة، و هي توافق ظاهر آية الذرية.

ترى و ماذا ترك عليه في الآخرين؟ و من هم أولاء؟

علّ الآخرين هم سائر حملة الدعوة الرسالية بعد نوح من إبراهيم و موسى و عيسى و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و من بينهم، و قد ترك اللّه و خلّد دعوته العالمية بين سائر الخمسة الذين دارت عليهم الرحى، فربط بينهم برباط الدعوة الوحيدة الموحدة، أو يعني‏ «تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ» ترك الدعوة ضده لمكان «على» و كما ترك عليه سلاما في الآخرين.

سَلامٌ عَلى‏ نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (79) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82).

فسلام عليه دائب في العالمين إلى يوم الدين دونما انقطاع لذكراه المجيدة الوطيدة الصامدة فإنه أوّل من انتهض في دعوة باهضة فائزة، بمقاساة أشد البلايا و الفتن طول الدعوة، فله نصيب من كل خير و سلام إلى يوم القيامة! و إنه سلام من اللّه و من أهل اللّه‏ «فِي الْعالَمِينَ» من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين أم أيا من المكلفين، «إِنَّا كَذلِكَ» الواسع الفاسح‏ «نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» ف- «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 169

و انه سلام جزاء الإحسان ل- «إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ» إيمان السلام و التسليم فله السلام كما سلّم، و من ثم لمن معه و تابعه «ثم» بعد ما نجيناه و أهله من الكرب العظيم‏ «أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ» و هم غير أهله،:

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (83).

فإبراهيم ممن شايع نوحا في دعوة التوحيد، وفاقه فيها، فقد يشايع الأعلى الأدنى كما الأدنى يشايع الأعلى، أو هما يتساويان، فلا تعني المشايعة لأحد تفاضلا في المشايع عليه، إلا نفس التوافق في سلك واحد، و من الأدنى شيعة موسى‏ «فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ» (28: 15) و شيعة علي (عليه السلام)، و ان شيعة الحق قد تكون متاخرة في الزمان لا في المكانة كإبراهيم بالنسبة لنوح، و قد تتقدم في الزمان و تتأخر في المكانة كالنبيين أجمع بالنسبة لخاتم النبيين، و بهذا الإعتبار يعد إبراهيم في عداد شيعة علي (عليه السلام) و هذا تاويل‏ «1» و ذلك تفسير.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 20 ح 2 شرف الدين النجفي قال روى عن مولانا الصادق (عليه السلام) انه قال‏ قوله عز و جل‏ «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ» اي ابراهيم من شيعة علي (عليه السلام)

قال و يؤيد هذا التأويل ما

رواه الشيخ محمد بن الحسن عن محمد بن وهبان عن أبي جعفر محمد بن علي بن رحيم عن العباس بن محمد قال حدثني أبي عن الحسن بن أبي حمزة عن أبي بصير يحيى بن أبي القاسم قال سأل جابر بن يزيد الجعفي جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) عن تفسير هذه الآية «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ» فقال ان اللّه سبحانه لما خلق ابراهيم (عليه السلام) كشف له عن بصره فنظر فرأى نورا الى جنب العرش فقال: إلهي ما هذا النور؟ فقيل هذا نور محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) صفوتي من خلقي و رأى نورا الى جنبه فقال الهي و ما هذا النور؟ فقيل له: هذا نور علي بن أبي طالب ناصر ديني و راى الى جنبهما ثلاثة أنوار فقال الهي و ما هذه الأنوار فقيل هذه نور فاطمة فطمت محبيها من النار و نور ولديها الحسن و الحسين فقال الهي و أرى تسعة أنوار قد صفوا بهم قيل يا ابراهيم هؤلاء الائمة من ولد علي و فاطمة فقال ابراهيم الهي بحق هؤلاء الخمسة الا ما عرفتني من التسعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 170

إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84).

و متى أصبح إبراهيم من شيعة نوح في دعوته المخلصة؟ «إِذْ جاءَ رَبَّهُ» حين جاء كداعية «بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» عما سوى اللّه، خاليا عن حب غير اللّه و الاتجاه إلى من سوى اللّه، تاما في محبة اللّه، طامّا من يم معرفة اللّه! «الذي يلقى الله و ليس فيه أحد سواه» «1» خاليا عن كل شك و شرك جلي أو خفي باللّه، بريئا عن كل تعلق بغير اللّه، في قمة عالية من توحيد اللّه و الفناء في اللّه و البقاء باللّه.

و إنه تعبير بسيط- لا تعقيد فيه- عن كافة معاني الإخلاص في الجوارح و الجوانح، حيث القلب إمامها كلها «2» فإذا سلم سلمت كلها على قدر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقيل يا ابراهيم أولهم علي بن الحسين و ابنه محمد و ابنه جعفر و ابنه موسى و ابنه علي و ابنه محمد و ابنه علي و ابنه الحسن و الحجة القائم ابنه فقال ابراهيم الهي و سيدي ارى أنوارا قد أحدقوا بهم لا يحصي عددهم الا أنت؟ قيل يا ابراهيم هؤلاء شيعتهم شيعة امير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال ابراهيم و بما تعرف شيعته فقال:

بصلاة احدى و خمسين و الجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم و القنوت قبل الركوع و التختم في اليمين فعند ذلك قال ابراهيم اللهم اجعلني من شيعة امير المؤمنين قال فأخبر اللّه في كتابه فقال: «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ».

و

فيه عن تفسير الامام ابو محمد العسكري (عليه السلام) قال‏ رجل لعلي بن الحسين يا ابن رسول اللّه انا من شيعتكم الخاص فقال له يا عبد اللّه فإذا أنت كإبراهيم الخليل (عليه السلام) إذ قال اللّه تعالى‏ «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ. إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» فان كان قلبك كقلبه فأنت من شيعتنا و ان لم يكن قلبك كقلبه و هو طاهر من الغش و الغل و الا فانك ان عرفت ان بقولك كاذب فيه انك مبتلى بفالج لا يفارقك الى الموت او جذام ليكون كفارة لكذبك هذا، أقول و فيه روايات اخرى مفصلة في شروط الشيعة

فراجع.

. (1). القمي في تفسيره قال قال: ...

(2)

في الكافي باسناده عن الامام الصادق (عليه السلام): القلوب أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 171

سلامته، و هو يؤدي على إجماله و جماله أوسع مما تؤديه تعبيرات هذه الصفات المتعاليات.

و إن مجيئه ربه بقلبه هو مجيئه بكل كونه و كيانه حيث القلب يقلّب كله، فقد جاء ربه متجليا بكافة التربيات الربوبية بكل وجوده.

إبراهيم جاء ربه بقلب سليم و دعا العالمين إلى قلب سليم‏ «وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (26: 89) و من مظاهر ذلك المجي‏ء صراعه في حوار صارم و عملية صارمة في أوسع ميادين الشرك و أخطرها:

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (85) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (87).

جولة خاطفة سريعة من حواره، و إلى تجوالة وسيعة عملية بين الأصنام، ما حمل عبدتها يتربصون به كل دوائر السوء.

في حين يراهم عاكفين على أصنام لهم يتساءلهم في هتاف و انعكاف إلى فطرة اللّه التي فطر الناس عليها، مستنكرا تحجبّهم عنها «ما ذا تَعْبُدُونَ» دون «من ذا» ملمحا أنها لا تشعر! فما هي- إذا- حال عابديها؟

ثم و قبل أن بذكرها كما يلفظون «آلهة» يهدم صرح ألوهيتها في تخيلهم الهابط الخابط: «أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ» فكل آلهة دون اللّه إفك مفترى، و كذب مختلق، لا تملك أية برهنة في عساكر البراهين! و في بدلية «آلهة» عن «إفكا»- دون عكس- إشارة إلى أنها ليست إلّا إفكا، فكل كيانها إفك ليس إلّا! و إذ تعبدون ما تنحتون‏ «فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» كيف- إذا- تعبدونه و أنتم عابدوا خلقه، و كيف تلاقونه و أنتم به مشركون، و هو أقبح ظلم و أشنعه؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 172

و في جمع الخطاب‏ «لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ» قطع للميزات و المفاصلات في المدعوين إلى اللّه لكل داعية قاطعة.

و أبوه هو عمه أو جده لأمه دون والده إذ فقده في طفولته فقام عمه مقامه في كافة شئون الأبوة، فرغم أنه عاش جو الشرك داخل بيته و خارج بيته، يصبح أصرم محارب و أصرحه ضد البيت و البيئة.

و إنه في حملته الصارمة العامة الشاملة بحاجة إلى خلق جوّ يسمح له بعد حجاج الكلام تحقيق حجاج العمل الجبار في كسر الأصنام، فما ذا يصنع- إذا- إلّا أن يتأخر عن خروجهم لعيد لهم في اعتذار، بمكر صادق جبّار، يجعله مع الأصنام دونما حاجز لكسرهم و لا صدام:

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89).

أ ترى كان به سقم؟ و ما هي رباطه بنظرة النجوم؟ ...

«و الله ما كان سقيما و ما كذب» «1»

«إنما عنى سقيما في دينه مرتادا» «2»

و هذه تقية «3» التّورية أن تلفظ بأمر و تعني خلاف الظاهر منه، فالكذب محرم على أية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 406 ح 46 في روضة الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال ابو جعفر (عليه السلام) عاب آلهتهم‏ «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ» قال ابو جعفر: و اللّه ...

(2)

المصدر ح 42 في كتاب معاني الاخبار باسناده الى صالح بن سعيد عن رجل من أصحابنا عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له: قوله تعالى: اني سقيم فقال:

ما كان ابراهيم سقيما و ما كذب انما عنى ...

(3)

المصدر ح 45 عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال: التقية من دين اللّه قلت: من دين اللّه؟ قال: اي و اللّه من دين اللّه، و لقد قال يوسف أيتها العير انكم لسارقون و الله ما كانوا سرقوا شيئا و لقد قال ابراهيم اني سقيم و الله ما كان سقيما

أقول هم سرقوا يوسف و هو غير ظاهر العبارة، و ابراهيم كان سقيما في روحه عنهم و هو غير ظاهر العبارة، و

فيه عن روضة الكافي عن أبي بصير قال‏ قيل لأبي جعفر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 173

حال، و في اضطرار التقية لا تحل إلّا التورية كما فعلها إبراهيم في قوله‏ «إِنِّي سَقِيمٌ» و الرواية القائلة أنه (عليه السلام) كذب‏ «1» مضروبة عرض الحائط، فما دار الأمر بين كذب إبراهيم و كذب الرواية عنه فكذبها أحرى من كذبه (عليه السلام).

إنهم هموا بالذهاب خارج البلد إلى عيد لهم جامع، فطلبوا إليه مرافقتهم فأبى معتذرا «إِنِّي سَقِيمٌ» و قد كان يهددهم بكسر أصنامهم:

«وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» (21: 57) فهل تناسوا تهديده في قبول عذره، أم استهانوا به أنه قولة جوفاء لا يتجرأ على تحقيقها؟ على أية حال قبلوا عذره، و هو عاقد عزمه على أن يهدم صرح آلهتهم و يقوّض عروش معبوداتهم بهذه الصراحة و الجرأة المسبقة و الاعتذارة الملحقة، رأى ان حجته القولية و إن وضحت وضح الشمس في رايعة النهار، و لكنها لا تنبت في أراضي قلوبهم الجرز نباتا فأراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم، و حواسهم مع أفئدتهم في تفهّم عقيدته علّهم يثوبون إلى رشدهم و يتوبون عن غيّهم.

لذلك و هو يهدف الهدف العظيم يضطر إلى ادعاء العلة عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) و انا عنده ان سالم بن أبي حفصة و أصحابه يروون عنك انك تكلم على سبعين وجها لك منها المخرج؟ فقال: ما يريد سالم مني؟ أ يريد أن أجيئ بالملائكة و اللّه ما جائت بهذا النبيون و لقد قال ابراهيم (عليه السلام) اني سقيم و ما كان سقيما و ما كذب.

(1).

في التفسير الكبير للفخر الرازي ج 26 ص 148 قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم (عليه السلام) كذبة و رووا فيه حديثا عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال‏ «ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات» قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي ان يقبل لان نسبة الكذب الى ابراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوي و بين نسبته الى الخليل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 174

مصاحبتهم، و يتظاهر بالسقم و ما كان سقيما في بدنه، و إنما كان سقيم النفس، كاسف البال، يتقطع فؤاده حزنا على ضلال قومه المبين، و يتميز غيظا أنهم لم يلبوا نداءه و يصغوا إلى دعوته، أم و إضافة إلى سقمه هذا الحالي ينظر إلى سقم استقبالي:

إني سوف أموت‏ «1» و لم أحقق بغيتي في تحقيق دعوتي، و الموت في تحسر سقم على سقم! أم إني سوف أسقم، و هذه طبيعة الحال لكل إنسان أن يعرضه سقم مّا في كل مستقبل ... أسقام كلها صادقة في حال و استقبال، في جسم أو حال، اللهم إلّا سقم الجسم في الحال إذ لا رباط له بالنظر في النجوم.

و أما نظرته في النجوم، فليست إلى نجوم السماء رؤية ظاهرة، و إنما نظر ... في و علّها تضاهي حجاجه الاول‏ «هذا رَبِّي» مسايرة ظاهرة و مماشاة، وفقا لما كانوا يزعمونه من دلالات النجوم على ما ستحدث من أحداث مستقبلة، إذ كانوا يحسبونها من أرباب الأنواع، و هذه الأوثان تمثّلها بمتناول أيدي عابديها، و لكي يقضي على هذه المزاعم الفاسدة بعد إذ جعل الأصنام جذاذا، و النجوم تعليمه و تعلّمه و البناء عليه محظور «2» إلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) كان من المعلوم بالضرورة ان نسبته الى الراوي اولى.

(1).

نور الثقلين 4: 406 ح 43 في كتاب معاني الاخبار و قد روى‏ انه عنى بقوله‏ «إِنِّي سَقِيمٌ» إني سأسقم و كل ميت سقيم و قد قال اللّه عز و جل لنبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): انك ميت اي ستموت.

(2)

نور الثقلين 4: 407 ح 50 في كتاب جعفر بن محمد الدوريستي باسناده الى ابن مسعود عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: إذا ذكر القدر فأمسكوا و إذا ذكر أصحابي فأمسكوا و إذا ذكر النجوم فأمسكوا،

و

فيه 51 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ قال له السائل: فما تقول في علم النجوم؟ قال: هو علم قلّت منافعه و كثرت مضاره لأنه لا يدفع به المقدور و لا يتقى به المحذور ان خبر المنجم بالبلاء لم ينجه التحرز في القضاء و ان خبر هو بخير لم:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 175

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يستطع تعجيله و ان حدث به سوء لم يمكنه صرفه و المنجم يضاد اللّه في علمه بزعمه أنه يرد قضاء اللّه عن خلقه،

و

فيه 52 عن سعيد بن جبير قال: استقبل امير المؤمنين (عليه السلام) دهقان من دهاقين الفرس فقال له بعد التهنئة يا امير المؤمنين (عليه السلام) تناحست النجوم الطالعات و تناحست السعود بالنحوس و إذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء و يومك هذا يوم صعب قد انقلب فيه كوكبان و انقدح من برجك النيران و ليس الحرب لك بمكان قال امير المؤمنين (عليه السلام) ويحك يا دهقان المنبئ بالآثار المحذر من الأقدار ما قصة صاحب الميزان و قصة صاحب السرطان و كم المطالع من الأسد و الساعات في المحركات و كم بين السراري و الذراري؟ قال: سأنظر و أومى بيده الى كمه و أخرج منه أسطرلابا ينظر فيه فتبسم صلوات اللّه عليه و قال أ تدري ما حدث البارحة؟ وقع بيت بالصين و انفرج برج ماجين و سقط سور سر نديب و انهزم بطريق الروم بارمينية و فقد ديان اليهود بابلة و هاج النمل بوادي النمل و هلك ملك افريقية أ كنت عالما بهذا؟ قال: لا يا امير المؤمنين (عليه السلام) فقال: البارحة سعد سبعون الف عالم و ولد في كل عالم سبعون الف عالم و الليلة يموت مثلهم و هذا منهم و أومى بيده الى سعد بن مسعدة الحارثي لعنه اللّه و كان جاسوسا للخوارج في عسكر امير المؤمنين فظن الملعون انه يقول خذوه فأخذ بنفسه فمات فخر الدهقان ساجدا فقال امير المؤمنين (عليه السلام) ألم أروك من عين التوفيق قال بلى يا امير المؤمنين فقال انا و صاحبي لا شرقيون و لا غربيون و نحن ناشئة القطب و أعلام الفلك اما قولك انقدح من برجك النيران فكان الواجب ان تحكم به لي لا علي اما نوره و ضياءه فعندي و اما حريقه و لهبه فلهذا فذاهب عني و هذه مسئلة عميقة احسبها ان كنت حاسبا.

و

فيه 49 في من لا يحضره الفقيه و روى عن عبد الملك بن أعين قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) اني قد ابتليت بهذا العلم فأريد الحاجة فإذا نظرت الى الطالع و رأيت طالع الشر جلست و لم اذهب فيها و إذا رأيت طالع الخير ذهبت في الحاجة فقال لي: تقضى؟ قلت نعم قال: احرق كتبك‏

و

فيه عن الاحتجاج 53 روى‏ انه (عليه السلام) لما أراد المسير الى الخوارج قال له بعض أصحابه ان سرت في هذا الوقت خشيت ان لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال (عليه السلام) أ تزعم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء و تخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن و استغنى عن الاستعانة باللّه في نيل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 176

فيما لا يعارض قضاء و قدرا من محاسبات الخسوفات و الكسوفات و الزلازل في احتمال دون قطع! «نظر في النجوم» ظاهرا، و استطلع منها متظاهرا انه سيسقم حين الخروج ام بعده، ام «نظر في النجوم» نظرة الإعتبار بأفولها و حراكها فحدوثها و عدم ألوهتها و ربوبيتها، فسقم روحه و تأثر من ضلال عابديها، يضمر في ضميره أن نظرة واحدة في النجوم التي يحسبونها أرباب الأنواع تنبه الإنسان أنها مربوبة لرب السماوات و الأرض، فيسقم روح الإنسان بأحاسيسه المفكرة العاقلة أن كيف يعبدها ذلك الجم الغفير من الناس.

و من شفاء ذلك السقم الحالي أن يكيد أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين، و ما كيده إلّا قوله‏ «إِنِّي سَقِيمٌ» حتى يتركوه، و أن «جعلهم جذاذا إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ».

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90).

«فَتَوَلَّوْا عَنْهُ» يعذرونه في ترك مصاحبتهم، غير معتنين بشأنه، صاحبهم أم تركهم «مدبرين» عنه استهانة به، و إلى عيدهم اعتناء بشأنه، ناسين أو متناسين أنه تهدّدهم بكيد أصنامهم، و ها هو يكيدهم في‏ «إِنِّي سَقِيمٌ» و يكيدهم‏ «ضَرْباً بِالْيَمِينِ»! فَراغَ إِلى‏ آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (91) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (92) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (93).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المحبوب و دفع المكروه و ينبغي في قولك للعامل بأمرك ان يوليك الحمد دون ربه لأنك بزعمك أنت هديته الى الساعة التي نال فيها النفع و امن الضر ايها الناس إياكم و تعلم النجوم الا ما يهتدى به في بر او بحر فانها تدعو الى الكهانة المنجم كالكاهن و الكاهن كالساحر و الساحر كالكافر و الكافر في النار سيروا على اسم اللّه و عونه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 177

و الرّوغ هو الميل على سبيل الاحتيال و التخفي: «فَراغَ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» (51: 26) و قد كان لإبراهيم في بيت الأصنام روغان، روغ «إلى» ذهابا إليها متخفيا، علّ هناك عيونا تنظر «فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ» من طعام قدمه هو أم كان حاضرا كما كانت سنتهم في تقديم الأطعمة لآلهتهم، و لا بدّ لآلهة مجسمة و هي تماثيل ذوي الأرواح- لأقل تقدير حياة للأكل، إبقاء لها و بعدا عن موتها، فلما لم تحر جوابا قال‏ «ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ»؟ ءالهة أموات خرس لا يأكلون و لا ينطقون؟ فكيف هي إذا آلهة و هي أدنى كمالا من المألوهين؟ و هو حجاج على الآلهة بعد الحجاج على المألوهين، و له فيهما الحجة البالغة و لا يملك إلّا قضاء واقعا على الآلهة لكي يظل المألوهون دون آلهة علّهم ينتبهون.

و من ثم روغ «على» ذهابا للقضاء عليها روغا ثانيا عليها «ضَرْباً بِالْيَمِينِ»! يرى جوا خاليا عن رصد العيون، فيدلف إلى أصنامهم فيجد باحة قد اكتظّت بالتماثيل و انتشرت في أرجائها الأصنام، فيخاطبها محتقرا لشأنها، شائنا لعبدتها «أَ لا تَأْكُلُونَ. ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ» و أنىّ للجماد أن يأكل أو ينطق، فأخذ يلطمها بيده، و يركلها برجله، و تناول فأسا و هوى عليها يكسرها جذر مذر و يحطمها «فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» (21: 85) فيسألوه عمن انتهك حرمة الآلهة ليرجعوا إلى أنفسهم ما هؤلاء يأكلون و لا ينطقون فكيف يعبدون؟! و لقد كان حقا «ضَرْباً بِالْيَمِينِ» بيمين القدرة و يمين الصدق و يمين الدين و باليمين الذي سلف منه: «تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» و يا لها من معركة صاخبة صارخة أعماق أسماع التاريخ، مقتل الآلهة التي كانوا يعبدون، و قد شفى من نفسه سقما كان يشكوه:

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 178

و كيف أقبلوا إليه دون بيوتهم و أشغالهم و لا يعلمون ماذا فعل بآلهتهم؟

علّهم تسامعوا بالخبر، أم خمّنوا تحقيقا لتهدد إبراهيم، فلذلك أقبلوا إليه يزفون: يسرعون حاملين أصحابهم على الزفيف لمعرفة الحال بكل عجال، و هم جمع كثير هائج، و جم غفير مائج، و هو فرد واحد لا يخاف إلّا ربه، فهو أقوى من هذه الكثرة و هم إليه يزفون: «قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ. قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى‏ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ. قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلى‏ أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نُكِسُوا عَلى‏ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ. قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ...» (21: 67):

قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (95) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (96).

كيف تعبدون ما تنحتونها أنتم، عبادة الصانع للمصنوع و الخالق للمخلوق؟ فإن حقّت في هذا البين عبادة فلتعبدكم ما تنحتون! ثم لا عبادة في هذا البين‏ «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ» الناحتون‏ «وَ ما تَعْمَلُونَ» آلهتكم التي تنحتون‏

«فان الله صانع كل صانع و صنعته» «1»

تلك- إذا- عبادة تمجها الفطرة و يرفضها العقل و كافة الموازين العقلية و سواها! و يا لها من حجة بالغة دامغة قد صفعهم بها صفعة نبّهتهم عن غفلتهم، و أيقظتهم عن غفوتهم، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون في أنفسهم قائلين‏ «إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 279- اخرج البخاري في خلق افعال العباد و الحاكم و البيهقي في الأسماء و الصفات عن حذيفة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان اللّه ... و تلا عند ذلك‏ «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 179

ليس «ما تعملون» هو نفس العمل أيا كان فإنه مخيّر لا مسيّر، و إنما هو حاصل العمل «ما تنحتون» و كل صنعة، فان مادته مخلوقة، و أنتم بقدراتكم و أفعالكم مخلوقون، مهما بان خلق عن خلق تخييرا و تسييرا، ف- «لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين» و لو كان «ما تعملون» نفس العمل لكان جبرا فعذرا لعمل الأصنام و عبادتها، لا حجة عليهم في تنديد! ثم خلق الأعمال تسييرا من اللّه لا رباط له إبطالا ل- «أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ» و إنما هو التخيير، فهم باختيارهم ينحتون و يعبدون ما ينحتون!.

هنالك دحضت مزاعمهم، و زيّفت آمالهم، فلم يجدوا بدا وجاه حجته إلّا أن يحرقوه كما أحرق أكبادهم:

قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98).

«قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ. قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ. وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ. وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ» (21: 71).

فيا لبنيانهم الجحيم و جحيم البنيان من أجيج النار، تتمثل فيه حرقة أكبادهم، فقد كان لأحدهم أن يحرقه بقليل النار، و لكنهم أجمعوا ليتشاركوا في حرقه كما أحرق أكبادهم جميعا، و لكنهم خاب سعيهم حيث جعلوا الأسفلين الأخسرين، و تلمّع إبراهيم الخليل أكثر مما كان حجة عملية على حججه، كما عارضوه عمليا رغم حججه! و أين يذهب كيد العباد المهازيل أمام صيانة اللّه للخليل إلّا إلى أنفسهم في كل ترذيل بكل سفالة و خسار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 180

لقد كانوا بشركهم سافلين و خاسرين، فأصبحوا بدائرة السوء على إبراهيم أسفلين و أخسرين.

إذ دحضت حجتهم عملية بعد دحضها قولية، خسارا إلى خسار و سفالا إلى سفال! ليس لحماقى الطغيان أمام دعاة الحق إلّا منطق السيف و النار، عند ما تعوزهم كل حجة و تحرجهم كلمة الحق:

«ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ»! و لم تجر سنة اللّه على خرق العادات إلّا أحيانا تقتضيها الحكمة العالية كما في جحيم إبراهيم، و هذه حلقة أولى من قصص إبراهيم و من ثم الثانية: «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 414 ح 61 في روضة الكافي بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: خالف ابراهيم قومه و عاب آلهتهم حتى ادخل على نمرود فخاصمهم ...

و

قال ابو جعفر (عليه السلام) عاب آلهتهم‏ «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ» و اللّه ما كان سقيما و ما كذب فلما تولوا عنه مدبرين الى عيد لهم دخل ابراهيم (عليه السلام) الى الهتهم بقدوم فكسرها إلا كبيرا لهم و وضع القدوم في عنقه فرجعوا إلى آلهتهم فنظروا الى ما صنع بها فقالوا لا و اللّه ما اجترى عليها و لا كسرها الا الفتى الذي كان يعيبها و يبرأ منها فلم يجدوا له قتلة أعظم من النار فجمع له الحطب و استجادوه حتى إذا كان اليوم الذي يحرق فيه برز له نمرود و جنوده و قد بنى له بناء لينظر اليه كيف تأخذه النار و وضع ابراهيم (عليه السلام) في منجنيق و قالت الأرض يا رب ليس على ظهري احد يعبدك غيره و يحرق بالنار قال الرب ان دعاني كفيته، فذكر ابان عن محمد بن مروان عمن رواه عن أبي جعفر (عليه السلام) ان دعاء ابراهيم يومئذ كان: يا احد يا احد يا صمد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا احد ثم قال توكلت على اللّه فقال الرب تبارك و تعالى كفيت فقال للنار «كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً» قال فاضطربت أسنان ابراهيم من البرد حتى قال اللّه عز و جل‏ «وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» و انحطّ جبرائيل (عليه السلام) فإذا هو يجالس مع ابراهيم يحدثه في النار قال نمرود: من اتخذ إلها فليتخذ مثل آله ابراهيم قال فقال عظيم من عظمائهم اني عزمت على النار ان لا تحرقه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 181

وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99).

أو لم يكن لحد الآن ذاهبا إلى ربه و قد «جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»؟ إن لذهابه هذا طرفا أوّل يتكفل السلب: «لا إله» و كما جعلهم جذاذا، و طرف ثان هو الإثبات «إلا الله» و قد فرغ من «لا إله» تقدمة الذهاب إلى ربه، ثم و أصل سيره إلى الإثبات «إلا الله» و قد تعنيه‏ «إِنِّي ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي ...» يقوله أمام جماهير المشركين الأسفلين بحجته الحاضرة الحاذرة الخارقة «يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» ف-

«ذهابه إلى ربه بوجهه إليه عبادة و اجتهادا و قربة إلى الله عز و جل» «1»

إنها هجرة في المكانة قبل المكان، يترك فيها أباه و قومه و أهله و وطنه و كل أواصر القرابة، هجرة كاملة من حال إلى حال، و من كافة الأواصر التي قد تربطه بنفسها، تعبيرا عن كامل التجرد و الإخلاص و الاستسلام لربه.

أو لم يكن مهديا لحد الآن حتى «سيهدين»؟ للهدى مراتب فوق بعض، و كما تطلب دائبا: «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» أم و لأنه تكملة لحجاجه أن اللّه هداه إلى أن «لا إله» ثم يهديه إلى «إلا الله» و ثالثه هدى الدعوة في فسحتها، و بأعوانها كإسماعيل و إسحاق قرتي عينيه، و هي تتمثل في بلائه بإسماعيل كأعلى قمة: و قد يعطف قوله‏ «إِنِّي ذاهِبٌ ...» بما وعد آزر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فأخذ عنق من النار سخره حتى أحرقه قال، فأمن له لوط فخرج مهاجرا الى الشام هو و سارة و لوط.

(1). المصدر 419 ح 64 في كتاب التوحيد عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 182

و موازريه في الشرك: «وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى‏ أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا» (19: 48) فهنا يدعو ربه:

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101).

هنا إبراهيم الوحيد و قد ذرف الثمانين بلا عقب يخلفه يستوهب ولدا من الصالحين، فيبشّر ببكر ولده إسماعيل غلام حليم، و من ثم يثنّيه بإسحاق نبيا من الصالحين، و قد يجاوب هذا الترتيب نص التوراة كما في التكوين 16: 15- 16: «فولدت هاجر لإبراهيم ابنا. و دعا إبراهيم اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل،» و فيه 17: 15- 16 «و قال الله لإبراهيم ساراى امراتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة، و أباركها و أعطيك ايضا منها ابنا ...».

هنا يوصف إسماعيل بكر إبراهيم‏ «بِغُلامٍ حَلِيمٍ» و في غيرها «صادِقَ الْوَعْدِ» و هو فيهما منقطع النظير في سائر القرآن: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (19: 54) و قد يثنّى بحلمه أبوه إبراهيم: «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (9: 114) «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» (11: 75).

و ليس اختصاص «حليم» بهما في ساير القرآن إلّا لما برز من حلمهما القمة في ذبح إسماعيل مهما بطن لساير النبيين، إذ لم يوقف أحد موقفه البلاء المبين:

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى‏ قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102).

إسماعيل بكر ولده، رسول نبي صادق الوعد حليم، و الوالد يذرف التسعين و قد لا يولد له غيره، أم إذا ولد قد يغايره، و قد بلغ معه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 183

السعي في حاجيات الحياة معنوية و مادية بما سعى له فيهما و درّبه، فهو في لمعان الكمال و نوسان الاستكمال، يؤمر بذبحه لا لشي‏ء منهما يستحقانه حتى يوجّه ذبحه بوجه ظاهر «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»! و الرواية القائلة أن الذبيح هو إسحاق إسرائيلية تخالف نص القرآن إذ يبشره بإسحاق بعد قصة إسماعيل‏ «1».

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» تنادى بمعية السعى حتى بلغ، و بمعيته لإبراهيم كما سعى في دعوته، فليس- فقط- أنه بلغ السعى لحاجياته الشخصية مهما كانت شاخصة ذات أهمية، بل و مع إبراهيم في‏ «ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي»

«و هو لما عمل مثل عمله» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اختلاف الروايات من الفريقين في «من هو الذبيح إسماعيل ام إسحاق» تقطعه الآيات حيث البشارة بإسحاق تاتي بعد قصة الذبيح بكاملها، و هذه من الهرطقات الاسرائيلية ان إسحاق هو الذبيح لينحّوا فضلا عن إسماعيل الى إسحاق، كما

روى ابن بابويه باسناده عن داود بن كثير الرقي قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) أيهما اكبر إسماعيل او إسحاق و أيهما كان الذبيح؟ فقال (عليه السلام): إسماعيل كان اكبر من إسحاق بخمس سنين و كان الذبيح إسماعيل و كان مكة منزل إسماعيل و إنما أراد ابراهيم ان يذبح إسماعيل ايام الموسم بمنى ... اما تسمع لقول إبراهيم حيث يقول: رب هب لي من الصالحين، انما سأل اللّه عز و جل ان يرزقه غلاما من الصالحين و قال في سورة الصافات: فبشرناه بغلام حليم يعني إسماعيل من هاجر قال ففدى إسماعيل بكبش عظيم فقال ابو عبد اللّه (عليه السلام) وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى‏ إِسْحاقَ‏ يعني بذلك إسماعيل قبل البشارة بإسحاق فمن زعم ان إسحاق اكبر من إسماعيل و ان الذبيح إسحاق فقد كذب بما انزل اللّه عز و جل في القرآن من نبإهما (تفسير البرهان 4: 30 ح 5).

(2)

نور الثقلين 4: 419 ح 67 في عيون الاخبار عن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه قال‏ سالت أبا الحسن على بن موسى الرضا (عليه السلام) عن معنى قول النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): انا ابن الذبيحين؟ قال: يعني إسماعيل بن ابراهيم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 184

و من بلوغه معه السعى أن سعى معه بين الصفا و المروة بعد ما طافا البيت‏

«فلما صارا في السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ...»

فقد بلغ معه السعي و لمّا يتم الرحلة إلى ربه و الدعوة المتناصرة إلى دينه، و لمّا يولد له‏ «أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» و هم محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته المعصومون (عليهم السلام) و قد استجيب في هذه الدعاء كما يتوافق له النصّان من التوراة و من القرآن: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ‏ ... رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ..» (2: 129). «1»

و نص الاستجابة حسب الأصل العبراني في التوراة كالتالي:

«و ليشمعيل شمعتينحا هينه برختي أوتو و هيفرتي اوتو و هيربتي أوتو بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد و نتتيو لغوى غادل» (تكوين المخلوقات 17: 20)-:

«و لإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها أنا أباركه كثيرا، و أنميه كثيرا، و أثمره كثيرا، و أرفع مقامة كثيرا بمحمد (صلى الله عليه و آله و سلم) و اثني عشر إماما يلدهم (إسماعيل) و أجعله أمة كبيرة» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الخليل (عليه السلام) و عبد اللّه بن عبد المطلب، اما إسماعيل فهو الغلام الحليم الذي بشر اللّه تعالى به ابراهيم‏ «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» و هو لما عمل مثل عمله ...

(1).

المصدر 421 ح 756 المجمع و روى العياشي باسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) كم كان بين بشارة ابراهيم بإسماعيل و بين بشارته بإسحاق ... الى ان قال (عليه السلام) فلما رفع قواعده خرج الى منى حاجا و قضى نسكه بمنى و رجع الى مكة فطاف بالبيت أسبوعا ثم انطلق فلما صارا في السعى قال ...

(2) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص 40- 43 تجد تفصيل هذه البشارة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 185

بعد هذه و تلك يؤمر الخليل بذبح إسماعيل و ليس ذبحا واحدا، إلّا وحيدا يجمع في جنباته ذبحات عدة أعلاها محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته، و

قد روي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أنا ابن الذبيحين!

إذا فتسليمهما لهكذا ذبح دونما سؤال علّة و لا خطرة ببال، إنه القمة العليا من التسليم و «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»! لو أمر إبراهيم أن ينتحر كان عليه أسهل من نحر إسماعيل، فقد أمر بذبح من يفوقه في الكيان بحب الهيمان، و أنه جد الرسول محمد و عترته، و قد بلغ معه السعي و وصل إلى ذلك السعي بمساع الهجرة الهاجرة بواد غير ذي زرع: «رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ...» (14: 37) ف- «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»! و بالروعة الإيمان و الطاعة و التسليم! قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ....

«إني أرى» تلمح لتكرار الرؤيا و تأكدها «في المنام» و رؤيا الأنبياء وحي‏ «1» دونما ريب، فلما ذا يتروّى في تحقيقها بعد الرؤيا الأولى، و يستنظر ابنه فيها، و الوحي منذ نزوله ماض لوقته المقرر، صارم للموحى إليه؟

إنه ما راى في الرؤيا صيغة الأمر بالذبح حتى يمضي فيه دون ترو، و إنما «أَنِّي أَذْبَحُكَ» دون «أمرت بذبحك» و رؤية الفعل لا تدل على الأمر و إنما تلمح لوقوعه، و في الثانية تقوى هذه اللمحة، و في الثالثة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 281 اخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 186

توصل لحد الأمر «1» فان أفعال الأنبياء خيرات تفعل بالوحي‏ «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ» سواء أ كانت في المنام أو اليقظة، و لأن ما في المنام صورة عن الواقع في اليقظة، فليحقق إذا في اليقظة سماحا أو رجحانا أم فرضا، و ما لمح لإبراهيم بفرض الذبح المترائى إلّا في رؤياه الأخيرة فقال‏ «يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ».

... و قد تعني «أرى» رؤيا واحدة متأكدة دون تكرار، و في تبديل الماضي «رأيت» بالمستقبل «أرى» لمحة إلى أنه عاش رؤياه ذاكرا لها دون نسيان، و أن مفاد رؤياه باق إلى الحال و حتى يتحقق عمليا، ففي الماضي مجال التحول نسخا في الحال! و لأن ذلك الأمر كان بلاء مبينا لهما، لا- فقط- لإبراهيم، فليعرض على الذبيح كما عرض على الذابح، و لكي يسلم كما أسلم الذابح، دونما مفاجئة عليه فيما رآه! فلا يأخذه على غفلة و غرّة تنفيذا لما رأى، بل تحضيرا له لكي يرى ما رأى و لينال هو الأخر أجر الطاعة، و ليسلم هو الآخر و يتذوق حلاوة التسليم، فإنه يحبّ لابنه ما يحبه لنفسه! و «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»! ففي رؤياه تلك بلاء، و في عرضها على ابنه بلاء ثان، و في تحقيقها بعد عرض ثالثة البلاء، فهي تفوق كل بلاء ابتلي بها إبراهيم طول حياته، و لأنها التالية لبلاء أبيه آزر و قومه، و بلاء النار و ساير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفخر الرازي في تفسيره الكبير 26: 153 و روى من طريق آخر انه راى ليلة التروية في منامه كأن قائلا يقول ان اللّه يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح الى الرواح أمن اللّه هذا الحلم ام من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما امسى رأى مثل ذلك فعرف انه من اللّه فسمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهمّ بنحره فسمي يوم النحر و هذا هو قول اهل التفسير ... أقول من المحتمل صدقه إلا في شكه ام من الشيطان، و كما ذكرناه في المتن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 187

البلاء «وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً ...» (2: 124) و تلك هي الكلمات العينية الدالات على قمة التسليم لرب العالمين! دون اللفظية التي يلفظها كل إنسان أيا كان و أيان! إِنِّي أَرى‏ ... فَانْظُرْ ما ذا تَرى‏.

«إِنِّي أَرى‏» رؤيا أنا أراها صادقة و أرى تحقيقها دون تروّ و مهلة، زوايا ثلاث من الرؤية «فانظر» نظر العقل و البصيرة «ماذا ترى» فيما أرى بكل تروّ و مهلة! مشاورة ما أورعها و أروعها لتحقيق أمر هو بظاهره إمر، لكنه لا مرد عنه و لا محيد و لتجري سنة المشاورة حتى فيما لا محيص عنه لغرض التمحيص، و كما يؤمر الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

«وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» إبلاغا مبلغك في الأمر، لا تبلّغا بهم إلى أمر ثابت بالوحي، حيث المشاورة تعم التناصر علميا و عمليا في أمر، كالمعتاد منها، أم ليستفيد المشير فيما يستشير فكذلك الأمر، أم ليفيد المشير مستشيره أمن ذا تمحيصا له و تدريبا يبلّغه مبلغه، و هكذا كانت مشاورة الرسول محمد و إبراهيم الخليل! قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ‏.

كأنها كانت نظرة حاضرة دونما حاجة الى تأملة و فكرة، حيث بلغ معه السعى فارتقى في سعيه إلى القمة التي ارتقى إليها إبراهيم من قبل، فتجاوبا في ذلك البلاء المبين‏ «... أَنِّي أَذْبَحُكَ‏ ... افْعَلْ ما تُؤْمَرُ» و هنا «ما تؤمر» عبارة أخرى تفسيرا ل- «إِنِّي أَرى‏ ...» فقد كان أمرا عمليا دونما لفظة، و وحيا إليه من فعل الخيرات يراه الذبيح فكيف لا يراه الذابح؟! و لكنه بحاجة إلى صبر خارق و تسليم فائق ليس في طوق الإنسان أيا كان، و لكنك‏ «سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ» مشية التكوين التوفيق بعد مشيئة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 188

التشريع «من الصابرين» أمام أمرك! و في تحويل «صابرا» عن خاصة نفسه إلى «الصابرين\*» حيث تشمله و سواه، تحوّل من الأنانية بالتفرد، إلى جمعيته الرحمة، و تلميح أديب توصية إلى أبيه بالتصبر كما هو يصبر و أين صبر من صبر! هنا لا تأخذه بطولة و لا شجاعة و اعتماد على همة و لا يرى لنفسه حولا و لا قوة إلّا باللّه، و يا للأدب الرائع و نبل الإيمان و جزالة التسليم، و إلى المذبح بكل طوع و تعظيم:

فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105).

أو لم يسلما لحد الآن؟ و من قبل كانا مسلمين بكل مراتبه! أجل و لكنه حاضر التسليم عمليا، بعد تحضيره نظريا، و أين القول من النظر؟ و أين النظر من العمل؟ «تقولون في المجالس كيت و كيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد»! «فَلَمَّا أَسْلَما» ثم ماذا؟ «و تله» صرعه «للجين» ثم ماذا؟ لا نجد بين إسلامهما و تلّه هنا حديثا، و هو مطوي يعرفه بطبيعة الحال كل عارف بالموقف و الحال، و لا نجد ل- «فلما ...» جوابا، و قد طوي عنه لأنه مدهش دون حدّ، و موحش لأي أحد. و ها هنا كل إخلاص و إسلام، هنا كل إسلام و تلّ، و استسلام على التّلّ، إسلام التل و تلّ الإسلام في أرفع قمة من القلل، إسلام لا يفوقه إسلام.

إنه ليس هو الشجاعة و الجرأة و لا اندفاعة و حماسة في الميدان، يقتل فيه المجاهد أو يقتل، و لكنه لا يقتل نفسه، بل أنفس من نفسه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 189

إسماعيله، و ميدان التل في منى إبراهيم عند جمرة العقبة «1» لا مثيل له في أي ميدان.

علّه قال لأبيه بين إسلامه و تلّه: «لا تذبحني و أنت ناظر إلى وجهي فترحمني فلا تجهز علي، يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطرب فتضرب عني، و اكفف عني ثيابك كيلا ينتضح عليها شي‏ء من دمي فتراه أمي فتحزن، أسرع مر السكين على حلقي بقوة ...» فهذه و تلك أحاديث تروى و ليس هنا إلّا «فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ».

إنه ما تلّه على القفا مهما كان أبعد عن الانعطاف، و إنما «للجبين» كما يفعل بالذبائح كلها، فأفضل الأعمال أحمزها.

«أَسْلَما وَ تَلَّهُ» و لمّا يحقق فعله، رغم ما كمّل ما لديه فلم يبق إلّا عمل المدية الواردة على عنقه، إذا بخطاب النسخ لما أمر؟ فإنه يجوز حين العمل و لمّا يتم إذا كان أمر الابتلاء لا أمر العمل، فقد نسخ أمر الذبح و لمّا يعمل:

وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105).

و من تصديقه الرؤيا «أَنِّي أَذْبَحُكَ» نعرف أنه اشتغل بذبحه، و لكنما المدية وقعت بين أمر الخليل و نهي الجليل: «الخليل يأمرني و الجليل ينهاني» صورة ثانية عن خرق العادة، ف‏ «يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 280- اخرج احمد عن ابن عباس ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان جبرئيل ذهب بإبراهيم الى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ ثم أتى به الى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع فساخ فلما أراد ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 190

امر من الجليل خلاف كل التآمرات على الخليل و لينجوا في معركة صاخبة بين الحق و الباطل، و «صَدَّقْتَ الرُّؤْيا» هنا نهي من الجليل تخليصا ثانيا للخليل هو أنبل و أعلى من خلاصه الأوّل، و في الخلاصين له إخلاص، و أين خلاص من خلاص و إخلاص من إخلاص؟.

ماذا يدريك أمورا حصلت بين‏ «تَلَّهُ لِلْجَبِينِ»- «وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ» إنها فوق المواصفة و الإدراك و لذلك يطوى عنه إلى أمر الخلاص‏ «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» لم يكن القصد من أمر الذبح قتل البري‏ء، و إنما ظهور مدى الإخلاص و قد ظهر بأعلاه، حيث تم الابتلاء و طمّ، و لم يعد يبقى إلّا الجسد الذبيح و الدم المسفوح و لم يكن بنفسه مقصودا، و إنما بالإخلاص في تحقيقه و قد حصل:

وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ‏.

لقد جدت يا إبراهيم بكل ما تملكه و فوقه، و جدت بإسماعيلك و هو أعز من نفسك و كل نفيسك، بكل هدوء و طمأنينة، فلم يبق هناك إلّا اللحم و الدم، و هما ينوب عنهما أي ذبح من لحم و دم هو رمز للفداء، و غذاء للفقراء.

لقد كانت هنا مشيئتان، ظاهرة بالذبح كما أمر اللّه تشريعا في ابتلاء، و باطنة ألّا يذبح تكوينا جزاء البلاء للمحسنين، فقد «أمر ابراهيم بذبح ابنه إسماعيل و شاء أن لا يذبحه و لو لم يشاء أن لا يذبحه لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 420 ح 72 في كتاب التوحيد باسناده الى فتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن (عليه السلام) حديث طويل و فيه يقول‏ يا فتح ان للّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 191

أ ترى هناك تورية في أمر اللّه؟ و اللّه لا يورّي، و لا يقول أمره و نهيه إلّا صراحا! كلّا إن اللّه لا يوّري.

و إنما يمكر الماكرين عن قوة، و ليس منهم إبراهيم، و لم يكن امره إلّا صورة الذبح‏ «أَنِّي أَذْبَحُكَ» و قد حصلت تلك الصورة، فليس للمكلف إلا فعل ما يؤمر كما يستطيع، و قد فعل إبراهيم كما يستطيع‏ «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا» فلم تكن هناك أية تورية!.

إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) بلاء يبين مدى تسليم المبتلى، و يبين أن ابراهيم تحقّ له الإمامة الكبرى، حيث أتم به كلمات حمّل لتدليلها على معانيها، التي تتوحد في غاية التسليم لرب العالمين:

وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108).

الذبح كسرا مصدر و فتحا هو المذبوح، أ ترى بعد أن «ذبح عظيم» هو المذبوح كبشا نازلا من الجنة رعى أربعين خريفا فيها؟ «1» و هو ذبح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إرادتين و مشيتين، إرادة حتم و إرادة عزم، ينهى و هو يشاء ذلك و يأمر و هو لا يشاء، أو ما رأيت أنه نهى آدم و زوجته عن ان يأكلا من الشجرة و هو يشاء ذلك و لو لم يشأ لم يأكلا، و لو اكلا لغلبت مشيتهما مشية اللّه و امر ابراهيم ...

(1).

الدر المنثور 5: 284- اخرج البخاري في تاريخه عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: هبط الكبش الذي فدى ابن ابراهيم من هذه الخيبة على يسار الجمرة الوسطى،

و

فيه اخرج البغوي عن عطاء بن السائب قال‏ كنت قاعدا بالمنحر مع رجل من قريش فحدثني القرشي قال حدثني أبي ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال له ان الكبش الذي نزل على ابراهيم في هذا المكان.

و

في نور الثقلين 4: 429 ح 93 المجمع عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ سألته عن كبش ابراهيم (عليه السلام) ما كان لونه؟ قال: أملح أقرن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 192

و ليس ذبحا، ثم و ليس عظيما و جاه المفدى له مهما كان عظيما لأنه عطية الرب من الجنة، فأين إسماعيل الذبيح و أين هذا الكبش أيا كان من كبش التأريخ؟ ثم و ليس لزام «ذبح عظيم» وحدته، خلاف «ذبح عظيم» حيث تشي إلى وحدته! ...

و لأن ذلك الكبش لم يكن هو- فقط- العظيم يأمر النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يخمر قرناه المعلقين على الكعبة المشرفة «1»!.

أم انه ذبح الذبيح العطشان الإمام الحسين عليه آلاف التحية و السلام؟ و هو أعظم من إسماعيل فكيف يفدى به لمن هو أدنى منه! ثم الذابح للحسين ليس هو اللّه و لا كان بأمر اللّه، فكيف إذا «فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ»؟!.

قد يعني‏ «بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» سنة الذبح يوم الأضحى، فرضا للحاج في منى، و نفلا لغيره في غيرها، بادئة من ذلك الكبش و إلى كل ذبح في منى إلى يوم الدين، و لا تنافيه الروايات القائلة أنه ذلك الكبش، حيث بدأت به سنة الأضحى.

إن في تقديم الأضاحي يوم الأضحى، و هو مما ترك على إبراهيم في الآخرين، فيه رموز عدة كل واحدة في حدها عظيمة، فهو ذبح عظيم في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و نزل من السماء على الجبل الأيمن من مسجد منى بجبال الجمرة الوسطى و كان يمشي في سواد و يأكل في سواد و ينظر في سواد و يعبر في سواد و يبول في سواد.

(1).

الدر المنثور 5: 284- اخرج سعيد بن منصور و احمد و البيهقي في سننه عن امراة من بني سليم قالت‏ أرسل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الى عثمان بن طلحة فسألت عثمان لما دعاه النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اني كنت رأيت قرني الكبش حينما دخلت الكعبة فنسيت ان أمرك ان تخمرهما فخمرهما فانه لا ينبغي ان يكون في البيت شي‏ء يشغل المصلين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 193

نفسه و في مغزاه، في جسمه و في معناه، يفدى به إسماعيل العظيم، فهو أمثولة أولى للتضحية و الفداء، و الأضاحي كلها أمثاله إلّا في اللحم و الدم! إن مناسك الحج كلها رموز، و يبدأ قسم منها من قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل كرمي الجمرات و الأضاحي في منحر منى ابراهيم يرمي الشيطان المتمثل في صورة شيخ هرم عند الجمار الثلاث في كلّ بسبع حصيات، حيث كان يعترضه ناصحا لكي يهدم صرح عزمه في تضحيته، و السبع رمز إلى شيطنات سبع، و الثلاث إلى شياطين ثلاثة.

الحاج يبدأ في مناسكه بإحرامه من مكة المكرمة، ثم إلى عرفات ليستحكم معرفيّات مستجدّا لها، مستعرضا إياها في زواياها الثلاث نفسا و خلقا آخرين و خالقا، ثم إلى المشعر الحرام، غربلة دقيقة لما استعرفه في عرفات، و ليستخلص سمينها عن غثها، شعورا أدق من عرفات، و من ثم إلى منى ليطبق مناه في كلا النفي و الإثبات: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» طردا و دحرا للشيطان بمختلف شيطناته برمز رمي الجمرات، و إثباتا للرحمن برمز التضحية و الفداء، و نقصا عن نفسه بحلق أو تقصير خلاصا عن نفسياته و إنياته، و إخلاصا للّه، تهيئة لها و تعبيدا لطريقها إلى طواف و سعي أماذا.

فلما يرجع من جبهة العقبة و قد رمى الشيطان الأكبر، ينحو نحو المنحر ليقدم أضحيته، و كما فعله إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام، و فيها زوايا ثلاث لكلّ أهميتها و عظمها، فهي إذا «ذبح عظيم».

فالزاوية الأولى منها رمز التفدية للنفس في اللّه، أنني يا رب- و بعد نفي الشيطان- حضّرت نفسي للفداء في سبيلك و بأمرك، و لأن الانتحار محرّم في شرعتك، أقدّم بديلا عني فداء الأضحية: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» هدية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 194

ترمز إلى الفداء و التضحية: «وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ ...» (22: 37) و من ذلك أنها تشعر بذلك الرمز.

و الثانية رؤية سيول الدماء و الأشلاء حتى لا يهابها في سبيل اللّه دفاعا و جهادا أن يقتل أو يقتل، فإن لمعرض الدماء و الأشلاء تأثيرا عميقا في استقبال المعارك الدموية في سبيل اللّه، و هذه ثانية الشعائر.

و الثالثة أنها معرض عريض لإطعام الجياع: «فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى‏ ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» (22: 37) «... لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ» (22: 31).

ففي الهدي هدى معنوية في بعدين‏ «وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ ...»

و هدى اقتصادية في بعد واحد هو الركن الركين في ظاهر الأمر، المأمور بها في آيات الهدى: إطعام البائس الفقير، القانع و المعتر «لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها» فإنها تنال الفقراء «وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ» رمز الفداء و ألّا يهاب الدماء و الأشلاء! هكذا تصبح الأضاحي قياما للناس بسائر الشعائر و المناسك، و كما قام الخليل‏ «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ...» (5: 97)

و هكذا «وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» لو أن المسلمين ذبحوا كما يجب قياما لهم في جنبات روحية و اقتصادية، لا أن يهدروا أتلال اللحوم تعفّن جو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 195

العبادة فتحرق او تدفن و الفقراء الجياع لا ينالهم منها إلّا قليل لا يعبأ به‏ «1» هكذا وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) تركا لذكر إبراهيم و ذكراه في التضحية و الفداء، لحد أصبح تقديم الضحية من فروض الحج في منى، كما و أن إبراهيم شيخ الأنبياء يذكر بمناسبات هامة رسالية في كتابات الأنبياء و في كل حياتهم:

سَلامٌ عَلى‏ إِبْراهِيمَ (109) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110).

«سلام» من اللّه‏ «عَلى‏ إِبْراهِيمَ» و سلام من المتروك عليه من أهل اللّه‏ «عَلى‏ إِبْراهِيمَ» سلاما عليه قولا، و تسليما له فعلا، و كل سلام من أهل السلام ما بقي الدهر «عَلى‏ إِبْراهِيمَ» و «كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» طول الحياة في هذه الأدنى و في الآخرة إلى دار السلام.

و تلك بشارة أولى لإبراهيم بإسماعيل غلام حليم حيث بلغ معه السعي و حلم في البلاء المبين و من ثم ثانية:

وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى‏ إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113).

فبشارته بإسحاق ثانيتهما، و بعد أن ولد إسماعيل و ترعرع و بلغ معه السعي و تذبّح، و قد تتطلب هذه لأقل تقدير ثلاثة عشر من السنين، فهناك غلام حليم ما أحلمه لإسماعيل، و هنا نبيا من الصالحين لإسحاق، «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما»: إسماعيل و إسحاق‏ «مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ» و من أحسن المحسنين من ذرية إسماعيل محمد و عترته المعصومون، و من أظلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد فصلنا القول حول حكم الاضاحي في منى بعدا عن كل إسراف و تبذير في كتابنا (اسرار- مناسك و ادلة حج) باللغة الفارسية فراجع، و كذلك في سورة الحج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 196

الظالمين من ذرية إسحاق الصهاينة المجرمون، و إلى عرض موجز عن جموع من النبيين:

[سورة الصافات (37): الآيات 114 الى 148]

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى‏ مُوسى‏ وَ هارُونَ (114) وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (116) وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (119) سَلامٌ عَلى‏ مُوسى‏ وَ هارُونَ (120) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122) وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123)

إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ (124) أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128)

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلامٌ عَلى‏ إِلْ‏ياسِينَ (130) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132) وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133)

إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (138)

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (145) وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ (148)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 197

هنا منن ربانية على موسى و هارون، ابتداء بسلب هو دوما يتقدم الإيجاب‏ «وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» و هو فرعون و ملأه إذ كانوا يذبحون أبناءهم و يستحيون نساءهم و في ذلك بلاء من ربهم عظيم!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 198

ثم إيجاب في مربع من المنة: «وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ» نصرة بالحجة منذ الدعوة، و أخرى في خوض اللجة حيث أغرق فيها فرعون و ملأه- ثم.

وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (17) نصرة بعد نصرة، و الكتاب هو التوراة، أوتيته موسى أصلا، و هارون فرعا، و هو المستبين حيث يستبين في هذه الرسالة السامية ما تتطلبها دعوة للأمة إلى صراط مستقيم كما:

وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (18) صراط العصمة العبودية و الرسالية و صراط الدعوة الصارخة الصارمة، لحد:

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (119) و علّه مخمّس المنة و لا سيما الضلع الأخير: الصراط المستقيم، ف:

سَلامٌ عَلى‏ مُوسى‏ وَ هارُونَ (120) سلام معهم و سلام في الآخرين الذين هم استمرارية لسلامهم‏ «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (121) الذين يحسنون الدعوة إلى اللّه و الدعاية للّه‏ «إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ» (122) وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) و قد تضاربت الأخبار و الأقوال حول: من هو إلياس، و المتقن هو أن إلياس هو إلياس، فلا تهمنا أسماء تختلف عن النص أو تخالفه، و محطة رسالته هي الإنذار: «إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ» (124) اللّه، و بأس اللّه، و أيام اللّه؟.

أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (125) و بعل هي أحد الأوثان المعروفة، و كأنها كبير الآلهة عندهم، و كيف تذرون دعوة أحسن الخالقين و بعل من مخلوقيه دون الأحسن، و أنتم أحسن المخلوقين‏ «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» و هو «اللَّهَ رَبَّكُمْ» فضلا عن بعل‏ «وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» الذين كانوا يدعون بعلا، فالعبّاد و المعبودون دون اللّه و الآباء القدامى كلهم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 199

خلقه، ثم يعبد خلق من خلقه و هو في أحسن تقويم- يعبد بعلا و هو في أدون تقويم، لأنه جماد فهو أدنى من نبات هو أدنى من حيوان هو أدنى من جان هو أدنى من إنسان، فما هذه الدنائة في الدعوة «أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ»؟.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) هم كلهم، من المكذبين و سواهم، إحضارا للحساب، فإلى ثواب أو عقاب، «إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (128) إذ لا سؤال عنهم يوم السؤال ف‏ «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ».

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) دعوته و رسالته، حيث المرسلون- تلو بعضهم لصق بعض- يتناصرون في الدعوة الرسالية دون خمول و لا فتور.

سَلامٌ عَلى‏ إِلْ‏ياسِينَ (130) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132).

ترى من هو «ال ياسين» دون مدّ كما في بعض القراآت و هي المثبتة في القرآن؟ و من هو «آل ياسين» مدا كما في قراءة آخرين؟ «1» فهل هو «إلياس‏ «2»» السابق ذكره، و كما يقتضيه الترتيب في إبراهيم و موسى و هارون؟ فلما ذا- إذا- «إل ياسين» دون إلياس المذكور قبله و في الأنعام: «وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏ وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ» (85)! و لماذا بعد الفصل بين «إل و ياسين»؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المد هو قراءة نافع و ابن عامر و يعقوب و زيد بن علي و ابن عباس و عمر بن الخطاب و الكسر قراءة آخرين.

(2) الدر المنثور 5: 216- اخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: هو الياس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 200

أم هو المخفف عن «إلياسيين» فيعني به إلياس و آله و أتباعه من المؤمنين؟ و الصحيح- إذا- هو الشدّ دون تخفيف صونا عن أي التباس! و كيف يختص إلياس بهذه الكرامة الشاملة دون إبراهيم و موسى و هارون و هم أفضل منه و أنبل؟! و لماذا الفصل- إذا- بين «إل» و «ياسين»! و هكذا الأمر لو كان هو نبيا غير إلياس لا نعرفه في سائر القرآن! و إذ لا مجال فيما نعرف ل «إل ياسين» فهو هو «آل ياسين»؟

ترى أنه بعد «إلياس» لأنه ابن ياسين؟ و لا نجد في سائر القرآن نبيا ينسب إلى أبيه أيا كان، فإن نسبة النبوة تغنيه عن أية نسبة! ثم و صحيح النسبة «ابن ياسين» أو «الياس بن ياسين»، و أن يذكر أولا بنسبته ثم تثنى.

أم إنه آل محمد، فإن ياسين من أسماءه في القرآن، عني به النداء في يس، و العلم تخليا عنها في الصافات، كما ارتآه بعض كبار الصحابة «1» و كما اتفقت عليه رواية اهل البيت في حجاجات و إجابات عن السؤال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 286- اخرج ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله «سلام على آل ياسين» قال: نحن آل محمد آل ياسين، و في ملحقات احقاق الحق للمرجع الديني العظيم السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج 3 ص 449 رواه جمع من فطاحل القوم و نحن نكتفي بسرد من وقفنا عليه فنقول: منهم فخر الدين الرازي في تفسيره 26: 162 و القرطبي في جامع احكام القرآن 15: 119 و ابو حيان الاندلسي في البحر المحيط 7: 373 و ابن كثير في تفسيره 4: 20 و الهيثمي في الصواعق المحرقة 146 و الترمذي في مناقب مرتضوي 54 و الشوكاني في فتح الغدير 4:

400 و الآلوسي في روح المعاني 23: 129 و السيد ابو بكر الحضرمي في رشفة الصادي 24 و نقله النقاش عن الكلبي، كلهم يروون قول ابن عباس انه آل محمد، و في كفاية الخصام 469 و ابو نعيم الاصفهاني بسنده عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس مثله و عن ابن بابويه بسنده عن ابن عباس في الآية قال ((السلام من رب العالمين على محمد))

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 201

حول «آل ياسين» «1»؟.

و كيف يسلّم هنا على آل ياسين و لم يذكر يس بنفسه و هو الأصل! و ليذكر خاتمة الذكرى من هؤلاء النبيين فإنه خاتمهم! ثم إفراد الضمير في‏ «إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ» لا يناسب جمع الآل على أية حال! قد يعني «آل ياسين»- فيما يعنيه- كلا إلياس و آل محمد فان كلّا من آل ياسين، و لا يردف يس نفسه بهؤلاء لأنه سيدهم و له صلوات فوق السلام في الأحزاب‏ «إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً» (33: 56) و قد يعني «إنه» إلياس فانه من آل ياسين، و يعني محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على البدل، فالمرجع واحد على أية حال، فياسين- إذا- ياسينان و الآل آلان و هذه الثانية تصبح وجها وجيها ل «آل ياسين» «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و عليهم السلام لمن تولاهم في القيمة و عنه عن أبي عبد الرحمن السلمي ان عمر بن خطاب كان يقرء هذه الآية فقال ابو عبد الرحمن آل يس هم آل محمد، و ممن روى عن عمر بن الخطاب قرائة المد ابو عبد الرحمن الاسلمي أخرجه عنه بعدة طرق ابن بابويه القمي في الخصال.

(1). اخرج في كفاية الخصام من طرق الشيعة ستة عشر حديثا ان آل ياسين في الآية هم آل محمد و

في نور الثقلين 4: 432 ح 103 في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ و لهذه الآية ظاهر و باطن فالظاهر قوله‏ «صَلُّوا عَلَيْهِ» و الباطن قوله‏ «وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً»

اي سلموا لمن وصاه و استخلفه عليكم فضله و ما عهد به اليه تسليما و هذا مما أخبرتك انه لا يعلم تأويله الا من لطف حسه و صفا ذهنه و صح تمييزه و كذلك قوله «سلام على آل ياسين» لان اللّه سمى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بهذا الاسم حيث قال‏ «يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» ... و

في كفاية الخصام 471 محمد بن عباس بسنده عن الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن ءابائه عن امير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الآية انه قال‏ ان رسول اللّه اسمه يس و نحن الذين قال: سلام على آل ياسين‏ و رواه مثله في معاني الاخبار باسناده الى كارح عن الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن ءابائه عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 202

المؤمنين\*! و إذا كانت «آل» مدا، و الكتب المتواتر من القرآن دون مدّ، فهل ليس ذلك تحريفا في الذكر الحكيم؟ كلّا فان قراءة المدّ مروية عن الأربعة الكبار و عليها إجماع أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فقد اختص آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالسلام عليهم ضمن السلام على هؤلاء النبيين الكرام و لم يسلم على آلهم، و كما اختص الرسول و آله بالصلاة عليهم بين الأمة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً» «1».

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) و هو ابن اخي إبراهيم (عليه السلام) و من دعاة رسالته، و قد نجاه اللّه في رسالته عما نزل بقومه‏ «إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ» هي امراته الغابرة في كفرها، الغائرة مع الغابرين‏ «ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ» و منهم‏ «عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ».

«وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ» على آثارهم الخاوية «مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

في عيون الاخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع المأمون في الفرق بين العترة و الامة حديث طويل و في أثنائه‏ قال المأمون فهل عندك في الآل شي‏ء أوضح من هذا في القرآن قال ابو الحسن (عليه السلام) نعم اخبروني عن قول اللّه تعالى‏ «يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ...» فمن عنى بقوله «يس» قالت العلماء: محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لم يشك فيه احد قال ابو الحسن (عليه السلام) فان اللّه عز و جل اعطى محمدا و آل محمد من ذلك فضلا لا يبلغ احد كنه وصفه إلا من عقله و ذلك ان اللّه عز و جل لم يسلم على احد الا على الأنبياء صلوات اللّه عليهم فقال تبارك و تعالى‏ «سَلامٌ عَلى‏ نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ» و قال‏ «سَلامٌ عَلى‏ إِبْراهِيمَ» و قال‏ «سَلامٌ عَلى‏ مُوسى‏ وَ هارُونَ» و لم يقل سلام على آل نوح و لم يقل سلام على آل ابراهيم و لم يقل سلام على آل موسى و هرون و قال «سلام على آل يس» يعني آل محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال المأمون قد علمت ان في معدن النبوة شرح هذا و بيانه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 203

138 و هم على طريق الحجاز إلى الشام.

و هذا مرور خاص بواقع آثارهم لخصوص المارّين عليهم القاطنين في أرض الحجاز، ثم مرور لكل ساكني المعمورة.

و من ثم مرور شامل على تاريخهم كما حصل حيث‏

«تمرون عليهم في القرآن‏ «1»»

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) لقد ذكر يونس هنا باسمه، و في يونس: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (98).

و في «ن» هو «صاحب الحوت»: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى‏ وَ هُوَ مَكْظُومٌ. لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (50).

و في الأنبياء «ذا النون»: «وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» (87-) 88) فيونس ذا النون صاحب الحوت هنا في الصافات يذكر بتفصيل من قصته، و الثلاثة الأخرى كملتقطات منها، و هوامش لها، و لكلّ تفسير في محله، و هنا «يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ»:

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) و هل إنه إباق عن رسالته و لمّا تكمل؟ و هو خلاف العصمة و الاصطفاء للرسالة! إم إباق المغاضبة على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين عن الامام الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 204

قومه؟ و هو ذهاب دون إباق‏ «إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً»! و لماذا الإباق بمجرد المغاضبة و هي مستمرة في تاريخ الرسالات! أم إباقا خوف العذاب الموعود لهم و هو على الأشراف و هو «عَذابَ الْخِزْيِ»: «كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ ...»!

علّ الإباق يشمل الثلاثة كلها، و طبعا دون إباق عن الرسالة، بل قلة الصمود عليها و كما

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «كان رجلا تعتريه الحدة و كان قليل الصبر على قومه و المداراة لهم، عاجزا عما حمل من ثقل أوتار النبوة و أعلامها ...» «1»

«أبق» عن قومه، و عن العذاب المشرف عليهم، و عن التصبّر في تداوم الدعوة «أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» المملوء من مختلف الركاب، ظنا أن فيه نجاته و لكن:

فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) و الدحض هو إزالة ما لا يعنى، فمن «ساهم» مساهمة الاقتراع‏ «فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» نعرف أن الفلك أصبح ثقيلا براكبيه، مشرفا على الغرق، فكان و لا بد من إنجاء الجميع دحض البعض، و لكيلا يتنازعوا اقترعوا «و القرعة لكل أمر مشكل» فحصل هنالك «مدحضون» قدر اللازم من تخفيف العب‏ء، «فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» في البحر و لكنه هو بين المدحضين:

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (142) نفسه، لماذا أبق عن قومه إلى الفلك فأصبح ما ظنه نجاتا سجنا أو هلاكا، كرا على أشرّ مما فرّ!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 397 في تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر (عليه السلام) كتب امير المؤمنين (عليه السلام) قال: حدثني رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان جبرئيل حدثه ان يونس بن متى بعثه اللّه الى قومه و هو ابن ثلاثين سنة و كان رجلا ...

الحديث بطوله ذكرناه في 29: 78 من الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 205

أصبح يليم نفسه من بادرته المسرعة «وَ هُوَ مَكْظُومٌ» قائلا: «سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» المنتقصين كمال الدعوة، ظلما لا ينافي العصمة، فالرسل درجات و ليسوا على سواء.

فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144).

و «كان» هنا تضرب إلى عمق الماضي و إلى حاضر بطن الحوت:

«فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ» ظلمات الليل، و البحر، و بطن الحوت‏ «أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ» من أن تظلمني و تسجنّي دون تقصير «إني» أنا لا أنت‏ «سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»!.

و الظاهر من «لبث» هنا لبثه كما كان، فهما إذا حيّان‏ «إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» و في ذلك اللبث المقدر المعلق شاهد صدق على إمكانية زيادة الأعمار مئات الأضعاف و الآلافات.

فلبقاء الإنسان حيا في بطن الحوت، دون جو صالح للتنفس، و هو في البحر، ليس له إلّا دقائق معدودة، فأين هي و إلى يوم القيامة.

فإذا قدّرنا مكوث الإنسان حيا في بطن الحوت لخمس دقائق أصبح مكوث السنة/ 93370 ضعفا فكيف بالآفات السنين إلى يوم الدين.

و هل إن ذلك المكوث- و ليس إلا للنبهة عن خطأ- أهم، أم مكوث صاحب الأمر حجة بن الحسن المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، حيا يرزق، لإقامة دولة إسلامية عالمية سامية.

إنه (عليه السلام)- لحد الآن- ما مكث إلّا (1143) سنة و هي بمتوسط التقدير عشرة أضعاف العمر المتعوّد، و سنة واحدة من مكوث يونس في بطن الحوت هي/ 93370 ضعفا للمكوث العادي هناك، فإذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 206

مكث الامام المنتظر لحد الآن- عشرة أضعاف العمر، لم يمكث إلا كخمسين دقيقة من مكوث يونس فتصبح سنة من مكوثه/ 9337000/ سنة من مكوث صاحب الأمر، فضلا عن‏ «يَوْمِ يُبْعَثُونَ»؟

و ترى‏ «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» هو يوم قيامة الإحياء، و هو الظاهر من البعث الجمعي؟ أم قيامة الإماتة؟ إذ لا بد لكل نفس من موت فكيف يلبث يونس إلى يوم الإحياء! قد يعني‏ «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» مجمع اليومين فان موتهم الجمعي ليس إلا لبعثهم جميعا، أم إن ذلك فرض و تقدير، و لا ضير في عدم الموت لإنسان يقدر له هكذا تقدير، و لكن‏ «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ» و ان البدن يوم الحساب خلاصة عن هذا البدن و ليس كله، فلا بد إذا من موت حتى يبعثوا كما يناسب حياة الحساب‏ فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (145).

«العراء» هو المكان المكشوف الذي لا ستر عليه و لا ظل فيه، و النبذ يرمز إلى رفض و ترذيل كما في آياته كلها إلّا ما هي في مريم‏ «فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا» (19: 22).

و لكن يونس نبذ و هو ممدوح‏ «لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» و هذه النعمة هي دوام التسبيح و الاعتراف بالظلم.

ثم‏ «وَ هُوَ سَقِيمٌ» قد يعني إلى سقم الجسم سقما في الروح، لماذا ذلك الإباق؟ و لكي لا يتأذى بحرّ الشمس:

وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146). و ليكن الإنبات فور نبذه، فإنه من إكرامه، و في تأخيره دون ستر بالعراء ذمّه و هو غير مذموم.

وَ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ (148).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 207

ذلك إرسال له ثان‏ «إِلى‏ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» بعد ما ذهب مغاضبا و أبق إلى الفلك المشحون، فسجن هو و زال العذاب عن قومه، معاكسة عجيبة بحساب، لأنه استعجل عن قومه و هم آمنوا في غيبته: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (10: 98) ثم استكمل إيمانهم لمّا «أَرْسَلْناهُ ...» ثانية «فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ».

و ترى ماذا تعني‏ «أَوْ يَزِيدُونَ» و لا تردّد في علمه سبحانه؟ علّهم حين أرسله إليهم كانوا مائة ألف، و لو لم يزد «أَوْ يَزِيدُونَ» لاختصت رسالته بهم دون مواليدهم، و لكن «يزيدون» المستقبل تضيف إليهم الولائد الجدد ما دام يونس فيهم، و «أو» تقسّم مدى رسالته إلى‏ «مِائَةِ أَلْفٍ» حاضرين‏ «أَوْ يَزِيدُونَ» مستقبلين.

[سورة الصافات (37): الآيات 149 الى 182]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ (150) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (153)

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (157) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158)

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160) فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ (161) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (162) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (163)

وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (164) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (168)

لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (173)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178)

وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (182)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 209

استفهامات تنديدية هي استفحامات بمن يتخذون للّه بنات‏ «وَ لَهُمُ الْبَنُونَ»! تفضيلا لأنفسهم على اللّه، كما فضّلوا عليه أصنامهم، قسمة ضيزى ما لها من مثيل.

ففيما يفترون على اللّه اتخاذ البنات، هم يفترون على الملائكة أنهم هؤلاء البنات: «أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ»؟ و قد خلقوا من بعدهم، و حتى لو خلقوا قبلهم أو معهم فما هم في خلق الرحمن من الشاهدين: «ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ»! «أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» فلا ولادة لا حقيقية و لا تشريفية، لا انثويّة و لا سواها، و في كلمة واحدة «إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» و حتى لو اتخذ ولدا فكيف يصطفي لنفسه البنات على البنين؟

أ إيثارا على نفسه و ليست به خصاصة، ثم الإيثار على خصاصة- على فرضها- مستحيل في ساحة الربوبية «ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»؟ «أَ فَلا تَذَكَّرُونَ» هذه الغلطات الغليظات التي لا تدخل في أدمغة المجانين فضلا عن سائر العالمين!.

«أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ» يبين فريتكم الكذب كحق متين، و ليس ذلك إلّا كتابا من اللّه كما يوحي إلى المرسلين‏ «فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» و ليس «كتاب الله» لأنه مستحيل على اللّه.

وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158).

آية النسب هذه هي الوحيدة في نسب الجن من اللّه ولادة، و قد تعنيه فيما تعنيه‏ «وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً» (43: 15) و لو كان هنالك نسب فهم حسب النسب مكرمون، و لكنهم كما يعلمون «لمحضرون» للحساب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 210

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ‏ ما تتعالى عنه ساحته، أيّا كان الواصفون، مهما كانوا مؤمنين و مخلصين.

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ‏ فإنهم لا يصفونه إلّا كما وصف نفسه.

فكل توصيف إيجابي من اي واصف بعيد عن ساحته لأنه نابع عن جهالة، أم المعرفة غير القمة العالية، و لكن‏ «عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» الذين أخلصهم اللّه عن كل شين و رين، و عن كل جهل، هم يصفونه كما هو أهله، لأن اللّه صنعهم كما يشاء، و لا خطأ في صنع اللّه، فلا خطأ- إذا- في وصفهم للّه! هذا في التوصيف الإيجابي، و اما السلبي فيشاركهم في صدقه المخلصون و المؤمنون، فإذا قال قائل منهم‏ «اللَّهَ عالِمُ» يعني أنه لا يجهل، دون أن يصوّر عن علمه مفهوما إيجابيا كما يفهمون، فإنه تشبيه!.

إذا فتوصيف المخلصين عاصم و معصوم، إن في سلبية الصفات أم في إيجابيتها، و توصيف المخلصين في إيجابيتها غالط مأثوم، و في سلبيتها غير مأموم، و توصيف من سواهم قد يكون إلحادا، و أخرى شركا كما يصفه المشركون أن بينه و بين الجنة نسبا! «فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ» من أصنام و أوثان و طواغيت‏ «ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ»: لستم أنتم العبدة و المعبودون على اللّه بفاتنين، فتنة تنقلب فيها صفاته الحسنى إلى ما تبغون أم تنغلب فيها ذاته عما هي عليه، إلّا فتنة عليكم‏ «إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ» إذ يعني هنا الفتنة و لكنه هو المفتون‏ «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» (51: 14)! فهذا الاستثناء منقطع يقطع كل فتنة على اللّه، ألّا فتنة راجعة إلى فاتنين‏ «إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ» و «أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 211

ثم و غير الفاتنين من المعبودين كالملائكة فهم كما يقولون:

«وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ» مقام في أعمال، و مقام في درجات الأعمال، دون تجاوز عنها و لا قيد شعرة.

«وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ» نصفّ جنودا لرب العالمين، صفوفا متراصة لانتظار الأمر و تحقيقه: «وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ» (19: 64) أجل و هم «صافون لا يتزايلون و مسبحون لا يسأمون‏ «1»» «وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ» للّه، فكيف نرضى أن نعبد من دون اللّه‏ «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ» (21: 20) و هنا نتلمح من «الصافون ...» استحباب الصفيف حالة التسبيح العبادة، و

قد كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذا قام إلى الصلاة قال: استووا، تقدم يا فلان، تأخر يا فلان، أقيموا صفوفكم، يريد اللّه بكم هدى الملائكة .. «2».

«وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ 167. لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ 168. لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ 169» هذه حجة دامغة عليهم‏ «وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ» خلاف ما ينوون و يعرفون‏ «لَوْ أَنَّ ...»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2). نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام).

و

في الدر المنثور اخرج محمد بن نصر و ابن عساكر عن العلاء بن سعيد ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال يوما لجلسائه: اطّت السماء و حق لها ان تئطّ، ليس منها موضع قدم الا عليه ملك راكع او ساجد ثم قرء الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 212

و لو أن الذكر يجعلهم عباد اللّه المخلصين، فما هو الفارق بين ذكر الأولين و الآخرين، إلا أن ذكر الآخرين هو أقوى ذكر للعالمين، فلما ذا لا يؤمنون، فضلا عن كونهم عباد اللّه المخلصين؟! «1» «فَكَفَرُوا بِهِ» هذا الذكر العظيم، القرآن الكريم، رغم قولتهم الخواء «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ 171. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ 172. وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ 173 كلمة سابقة سابغة من رب العالمين ما لها من كاذبة «لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ» هنا و ل- «جندنا» كما و سائر المؤمنين معهم في «المؤمن»: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (51) «2» «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ» استئصالهم، أم حين موتهم، فإنهم لا محالة مغلوبون‏ «وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ» أنت الآن أبصر، و لكنهم الآن عمون «فسوف» بعد الآن «يبصرون» و لكنهم سوف لا ينتفعون! «أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ» استعجالا لمرسى الساعة، أم مرسى العذاب قبل الساعة، و تلك إذا حماقة كبرى ...

«سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. 181 وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (182)»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن انس أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان إذا قام ...

(2) راجع الفرقان تفسير الآية في سورتها ففيه قول فصل فلا نكرره هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 213

سورة ص مكيّة و آياتها ثمان و ثمانون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 215

[سورة ص (38): الآيات 1 الى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (3) وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (4)

أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عُجابٌ (5) وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى‏ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ يُرادُ (6) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (7) أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9)

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (14)

وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15) وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (16)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 216

ص‏ هي كسائر الحروف المقطعة، من مفاتيح كنوز القرآن، تعني من انزل عليه القرآن و من في منزلته، و اما نحن ف «ما ندري ما هو»؟ «1».

و علّها بمناسبة «الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» هو النبي الصادق في دعواه و دعايته، الذي لم يعرف الكذب و لم يعرفه الكذب منذ تكلم، قبل رسالته و بعدها! كما و علّ مدها تاشيرة لمدّ الصدق و صدق المد طول حياته المنيرة؟

اللّهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 296- اخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: سئل جابر بن عبد اللّه الانصاري و ابن عباس عن «ص» فقالا: لا ندري ما هو؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 217

ثم‏ «وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» في صورة القسم و سيرة البرهان، ليس إلّا لاثبات «ص» في صدق النبوئة و الرسالة و كما في‏ «يس. وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» إذ لا نجد قبل و لا بعد مقسما لأجله إلّا «ص»! وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) يذكّر الفطر و العقول، و هو ذكر في كافة الحقول، و لأنه بنفسه دليل على وحيه الصادق، يذكركم أن رسوله هو الصادق الأمين، و كما الرسول هو بنفسه ذكر يشهد لوحي القرآن الحكيم:

«قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا ...» (65: 10) بل و الرسول هو من‏ «الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ»: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» (36: 69) و كما القرآن هو رسول الذكر.

ذكران لصق بعض، يشهد بعضه على بعض، و ينطق بعضه ببعض، ذكرا عن كتابي التكوين و التشريع، و ذكرا لمواضع الغفلة من الفطر و العقول و العلوم! ذكر على ذكر يوضحان كل صغير و كبير، و كل دقيق و رقيق وضح الشمس في رايعة النهار، فلا يبقى مع ذكرها أية غفلة:

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ (2).

فليس كفرهم بذلك الذكر، لقصور في الذكر، و إنما لتقصير منهم أمام الذكر، فهم «في عزة» غارقين في أنانية الشهوات و الفرعنات «و شقاق» إذ جعلوا أنفسهم في شق يقابل شق الرسالات الإلهية: فنحن رجال و هم رجال.

لا يفضل رجال عن رجال، بل نحن أرجل منهم و أنبل في بنين و قوات و أموال! كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (3).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 218

قرون كافرة مضت و غبرت درج التأريخ «أهلكناهم» هلاك استئصال العذاب ام موت «فنادوا» حين هلاكهم استغاثة النجاة «وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ» و فرار و خلاص.

وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (4).

و يا عجباه من عجبهم‏ «أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» و المجانسة هي من لزامات الدعوة الرسالية تكملة للحجة، و إيضاحا عمليا للمحجة «وَ قالَ الْكافِرُونَ» بالتوحيد و الرسالة «هذا ساحِرٌ» يسحرنا بكلامه «كذاب» في دعوته، و من ادلة كذبه دعوته الى خلاف الأصل:

أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عُجابٌ (5).

وي! كأن الأصل الأصيل في الالوهة هو الآلهة، فالداعي الى إله واحد يدعو الى شي‏ء عجاب! و ترى كيف انقلب الباطل أصلا و الأصل باطلا حينما يتعود الإنسان على باطل و دون اي برهان، إلا تعاقب الآباء القدامى على اصالة العدد و رغم ان الأصل بين المشركين- ايضا- إله واحد هو خالق الكون: «و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولن الله قل فأنى تؤفكون»؟! ... و من ثم اختلقوا له أندادا ليضلوا عن سبيله، و على مرّ الزمن و توالي القرون تناسوا ذلك الأصل، و عاكسوا امره بخلاف الأصل، فليأت من يدعي الوحدة ببرهان! رغم ان الواحد متفق عليه و الزائد مختلف فيه، و على مدعي الزيادة ان يأتي ببرهان! فهنا يصور النص مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية العقلية، التي تصدقها كافة البراهين‏ «أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 219

عُجابٌ» لا يخلد بخلد، فهو- إذا- جعل مختلق، و تآمر مدبر يراد من حزب الدعوة الرسالية:

وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى‏ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ يُرادُ (6).

هناك «يراد» تحريف الجماهير عن الآلهة في دعوة مبيتة مختلفة بغية الرئاسة و هنا «يراد» ان تصبروا على الهتكم،! و لا تسمعوا لهذه الدعوة التي هي بدع من الدعوات! إذا ف «امشوا» ابتعادا عن هذه الدعوة العوجاء الهراء «وَ اصْبِرُوا عَلى‏ آلِهَتِكُمْ» و هم اصل الألوهة.

و في «و انطلق» تلميحة الى انهم احتسبوا مقامهم لسماع هذه الدعوة اسرا لعقيدتهم السليمة، و تسليما لها الى غير سليمة، فلذلك «و انطلق» عن اسرهم، و صبرا على حريتهم في عقيدة الآلهة! فقد انقلبت حرية العقيدة- الفطرية العقلية و العلمية- لديهم أسرا و أسر العقيدة حرية، كما انقلب اصل الإله الواحد الى الآلهة! و هكذا يخيل الى من رانت قلوبهم و عميت بصائرهم ان يعكسوا امر الحق و الباطل، تصويرا لكلّ بصورة الآخر، و هنالك استحوذ الشيطان على أوليائه و نجى الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى.

ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ (7).

و كأن الملّة الآخرة هي الأخيرة قبل الإسلام: المسيحية، التي شاعت فيها اسطورة التثليث؟ ام و ملة اخرى ممن عاصروهم حيث الإشراك أصبح سنة شاملة تحلّق على أكثرية الأجواء، و هم- بطبيعة الحال- لا يعاشرون إلّا اضرابهم المشركين مهما اختلفت صنوفه.

و هكذا يكون اهل الباطل، انهم لا يفتشون عن الحق بل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 220

و يستوحشون من أهله، فبالطبع لا يسمعون إلّا ما هم من أهله، فيأخذونه حجة على الحق و أهله! و هذه طريقة مكرورة ماكرة في الأجواء الطاغوتية، حيث يصرف فيها الطغاة جماهيرهم الأذيال عن الاهتمام بصالحهم العقائدي و البحث وراء الحقيقة المنشودة، حيث اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق خطر عليهم، إذ يكشف أباطيلهم و أضاليلهم، فيصعب بذلك استحمارهم.

و قد تلمح‏ «وَ اصْبِرُوا عَلى‏ آلِهَتِكُمْ» بأنهم كأنهم استضعفوا أمام داعية الحق، فلينطلقوا عنهم خلاصا عن أسرهم بأسرهم، و صبرا على آلهتهم المظلومين المهاجمين‏ «إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ يُرادُ» بهم من مسّ لكرامتهم! أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (8).

و إذا كان الذكر ينزل على بشر مثلنا، فكيف أنزل عليه الذكر من بيننا و نحن أولى به منه، و ليس ذلك العجاب لأنهم عرفوا الذكر ثم شكوا فيمن أنزل عليه‏ «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي» إذ ما عرفوه، و لذلك أنكروه، و إذا عرفوه فهم قد «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» «بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ» حتى يثوبوا و لات حين مناص!.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9).

لذلك فلهم الخيرة في نزول الرحمة على من يشاءون، دون ربك، «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ» (17: 100) «أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» (43: 32).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 221

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10).

هنا- في الكون- أسباب عادية متعدّدة لكل متسبب بها تقتضيه لحاجات، و هناك أسباب علمية لا تنال إلّا بالكشوف العلمية بمختلف درجاتها، و هنالك ثالثة لا تنال إلّا بالوحي إلى رجالاته، ثم رابعة تختص بمن له ملك السماوات و الأرض.

فذو القرنين يتبع سببا و سببا و سببا من القسم الثالث بما سببها اللّه له في مسيرته الأرضية الكبرى، و الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يتبع سببا سماويا يحلّق على الأفق الأعلى عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى.

و أما اسباب التكوين الخاصة بمن له ملك السماوات و الأرض و بيده ملكوت كل شي‏ء، فلا تملّك لأحد او تخوّل.

فرعون يطلب من هامان بناء صرح‏ «لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏» بكل غباوة و تخرّف! و هنا المشركون يتحدّون بارتقاء الأسباب الخاصة باللّه، لمكان‏ «أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» أم و الخاصة بتسبيب اللّه، و لكي يستملكوا خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب، و يختصوا وحيه بمن يشاءون.

أو يمنعوه عمن يشاءون‏ «فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ» أسباب السماوات حيطة على الوحي في الملإ الأعلى، و أسباب الأرض، حيطة على قلوب الموحى إليهم، و ليحدّد وحي اللّه كما يحدّدون، و يهبط إلى اي مهبط يحبون.

فهذه الآية و أشباهها من آيات الأسباب ترمز إلى أسباب غيبية لم تكشف البشرية عنها النقاب، و سوف يكشف عن بعضها، الخاصة بغير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 222

الوحي، و غير الخاصة باللّه، على ضوء الكشوف العلمية المتواصلة.

و هناك أسباب لا سبيل إليها باي سبب من الأسباب، و لن يكشف العلم عنها النقاب مهما تقدم و تصدى! فإنها

«أدق من الشعر و أحد من الحديد و هو بكل مكان إلا أنه لا يرى» «1».

جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11).

«جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ» ايّ الأحزاب «هنالك» ارتقاء في الأسباب «مهزوم» في غزو الفضاء، مهما هزمت الجنود العلمية الجبارة أسبابا تنهزم في الأرض و السماء.

إنّ كافة الجنود، بكل الإمكانيات و الطاقات، هي «هنالك» أمام الارتقاء في الأسباب، إنها ليست إلّا «جند ما» في كل هزالة و بذالة أمام ملك السماوات و الأرض و ملكهما و أسبابها الغيبية الخاصة! كما و «جُنْدٌ ما هُنالِكَ» أمام حجة الوحي محجوج «مهزوم» من أي حزب «من الأحزاب» مهما أبرقوا و أرعدوا، فإن للحق دولة و للباطل جولة! إن صرح الوحي لا يساوى أو يسامى ب «جند ما» و كل الأجناد في تلك الساحة العاليه هي‏ «جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ»! كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12).

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ» «أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً» على جبروتهم «و عاد» أصحاب‏ «إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: 5: 297- اخرج ابن جرير عن الربيع بن انس قال:

الأسباب ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 223

(87: 8) «وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ»: أوتاد الحكم الأوطاد، و الأسباب التي بها السلطان كما يثبت الخباء بأوتاده، و يقوم على أعماده، أوتاد الابنية المشيدة المشددة، و القواعد الممهدة التي تشبه الجبال في ارتفاع الرؤوس و رسوخ الأصول، حيث الجبال قد تسمى أوتاد الأرض، فأبنيته كانت كالجبال الأوتاد، كالأهرام التي تقوم في الأرض كالجبال.

وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13).

الأيكة هي الغابة الملتفّة و هم قوم شعيب، و هؤلاء هم أطغى و أنحس و أغوى حماقى الطغيان طول التاريخ الرسالي، لحد يحق لهم القول‏ «أُولئِكَ الْأَحْزابُ» المتحزّبة ضد الرسالات، كأن لا أحزاب سواهم!.

إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (14).

لقد جنّدوا كل طاقاتهم و إمكانياتهم، و حصروها في تكذيب الرسل، فحق عليهم عقابي في الأخرى، و أحيانا في الأولى زيادة عليها، فهم‏ «جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ»! وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15) وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (16).

ما ينتظر هؤلاء الناكرون ليوم الحساب- واقعا دون انتظار- إلّا صيحة واحدة ما لها من مهلة حتى قدر فواق.

فقد ينتظر الإنسان أمرا هو مصدقه فناظره، و قد لا ينتظره إذ هو ناكره فغير ناظره و لكن ذلك الأمر هو ناظره، و هناك نظرا إلى المستقبل الواقع يصح القول أنه ينتظره.

و الفواق فتحا هو الراحة، و ضما هو فواق الناقة، و النص كالأول، إذا فما لهم من هذه الصيحة من راحة، فلا إفاقة من سكرتها، و لا استراحة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 224

من كربتها و لا قدر فواق، كما يفيق المريض من علته و السكران من نشوته.

و قد تعني‏ «صَيْحَةً واحِدَةً» واحدة تلو الأخرى على الأبدال، فقد تكون لهم صيحة يوم الدنيا هي عذاب الاستئصال، ثم لهم و لكل العالمين صيحة لقيامة الإماتة، هي لهم أولاء عذاب، و من ثم صيحة قيامة الإحياء، و لا فواق لايّ من هذه الصيحات لهولاء الأنكاد! و قد تعني- فقط- الصيحة الثانية ليوم الحساب: «وَ قالُوا ... قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ» فلكل صيحة قبل يوم الحساب فواق بعدها، حيث النوم في البرزخ فواق: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» فليس بينهما عرض على النار، لكن «و يوم القيامة أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ» (40: 46) إذ لا تخفيف فيه و لا فواق.

و يا لعجالة الحماقة لهولاء الأغباش يستعجلون قطّهم من صيحة الحساب قبل يوم الحساب، و مهما تكن لهم من صيحة يوم الدنيا فما هي إلّا دون صيحة الحساب!.

و القطّ في الأصل هو المقطوع عرضا كما القدّ هو المقطوع طولا، إذا فهو النصيب المفروض المفروز، و لكن قط الصيحة الأخيرة ليس مفروزا مهما كان مفروضا، فإنه صيحة الإحياء ثم لا فواق بعدها للكافرين و لا نومة فيها فواق، خلاف سائر الصيحة قبلها حتى صيحة الإماتة فإن بعدها و قبل الأخرى برزخ فيه نوم مهما قل أو كثر، و هو فواق!.

[سورة ص (38): الآيات 17 الى 29]

اصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (18) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ (20) وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (21)

إِذْ دَخَلُوا عَلى‏ داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى‏ بَعْضُنا عَلى‏ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى‏ سَواءِ الصِّراطِ (22) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى‏ نِعاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ (24) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى‏ وَ حُسْنَ مَآبٍ (25) يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى‏ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (26)

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (29)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 226

الآيات العشر الأولى استعراضة خاطفة لحياة داود (عليه السلام) في سلطتيه الروحية و الزمنية، بيان الواقع الرسالي لهذا النبي الملك، و إجابة عن شطحات المشركين: «أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا» و نحن أولو قوة و سلطة و مال؟

فذلك لمصداق من مصاديق الرسالات السامية، أن ليس بين القيادة الروحية و الزمنية اية منافرة و مناحرة، بل السلطة الزمنية هي- فقط- حق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 227

للروحيين، مهما حرمهم أهل الزمن طول قرون الرسالات، حرموهم حقوقهم و لكن‏ «الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» و هي آخر الزمن، ثم في الزمن جمع بينهما أحيانا كما في داود و سليمان (عليهما السلام) بما جعل اللّه تكوينا و تشريعا، و أخرى فصل بينهما لشراسة الزمنيين من ناحية و تقاعس الروحيين أو سائر المؤمنين من أخرى كما عشناه طول القرون الإسلامية.

و ثالثة محاولة إيمانية صامدة من المؤمنين لكسر جبروت الطواغيت و استلام أزمة الحكم كما فعله الإمام الحسين سيد الشهداء (عليه السلام) و عدم نجاحه لاستلام السلطة الزمنية هو من جرّاء تخاذل المسلمين أن لم ينصروه، مهما نجح روحيا كأمثولة عالية منقطعة النظير في التضحية و الفداء، روحي و أرواح العالمين لتراب الشهداء مقدمه الفداء.

و رابعة هي من جراء الثورة الحسينية كالثورة الإسلامية السامية الحاضرة في ايران، حيث يقودها ابن الامام الحسين (عليه السلام).

اصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17).

ذلك الأيدي الداودية هي أيدي السلطة الزمنية إضافة إلى الروحية، و ثالثة يد التجاوب معه في تسبيحه من الجبال و الطير، و من أهم أيديه يد العبادة «عبدنا» و على حد

المروي عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود» «1»

اللهم إلّا قائله لأنه- «أَوَّلُ الْعابِدِينَ»! و لماذا «ذا الأيد» ل‏ «إِنَّهُ أَوَّابٌ» يئوب إلى ربه و يثوب دائبة دون وقفة!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 297- اخرج الديلمي عن عمر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 228

«اصبر» على معاناة الدعوة الصعبة المعارضة، و «عَلى‏ ما يَقُولُونَ» على هذه الدعوة، فلتجعل الصبر زادك في هذه الطريق الملي‏ء بالدماء و الأشلاء، مفعمة بكل ابتلاء.

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (18) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19).

و يا لها من يد في الغيب، ان الجبال الجامدة غير الشاعرة بظاهر الحال، هي تسبح معه بالعشي و الإشراق. لا- فقط- معية واقعية، فإنها مع كل الكائنات، و لا- فقط- معه! بل و معية تسامع أصواتها في تسبيحها، كما «و الطير» مسخرة معه يسبحن، و «كل» من الجبال و الطير «لَهُ أَوَّابٌ».

و لماذا- فقط- العشي و الإشراق؟ لعلهما تعنيان مساء صباح تعبيرا ثانيا عن الأوقات كلها، و لأنهما ركنا الأوقات، أم تعنيان وقتي الصلاة، أنها كانت مفروضة في شرعته في الوقتين.

ثم هي كلها أوابة للّه و لكن هنا «لَهُ أَوَّابٌ» في معية التسبيح و تبعيته له، إضافة إلى تسامع أو سمعه فقط.

اجل «له» لا لسواه، و كل أوبة إلى اللّه، ما يدهش العقول من ضخامة العظمة لهذا النبي الملك العظيم! وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ (20).

ملك مشدود بعناية اللّه، شديد على أعداء اللّه، مديد في أرض اللّه، إضافة إلى الحكمة و فصل الخطاب، فالملك دون حكمة ساقط، و الحكمة دون ملك غير مشدودة بالواقع الملموس، و هما دون فصل الخطاب مفصولان عما يراد منهما!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 229

و «فَصْلَ الْخِطابِ» هو الخطاب الفصل، قاطعا دون تردد، مقنعا دون تبدّد، يفصل بين الحق و الباطل، و بين المتخاصمين، و كذلك كل فصل حكيم، كمعرفة مختلف اللغات حيث تفصل بين مختلف المخاطبين في اللغات‏ «1».

و مع كل ذلك تراه يبلى ببلاء، و أنت لم تبل بمثل بلائه العناء، فمهما لم يكن لك ملك، فهناك الحكمة الحكيمة القاصعة، و فصل خطاب قاطع دون ابتلاء في هذه السبيل مهما ابتليت بقوم لدّ ما أتاهم قبلك من نذير!.

وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلى‏ داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى‏ بَعْضُنا عَلى‏ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى‏ سَواءِ الصِّراطِ (22).

الخصم هو الخصومة و كأنهما هما نفس الخصومة لعظمها و شدتها، و من آيته تسوّر المحراب: ارتقاء بتكلف إلى سور المحراب، دون بابه المتعدّد، و هو بادرة غير متعددة تكشف عن بالغ الخصومة، لذلك‏ «فَفَزِعَ مِنْهُمْ»- «قالُوا لا تَخَفْ» لسنا نحن من خصمائك، و إنما نحن‏ «خَصْمانِ بَغى‏ بَعْضُنا عَلى‏ بَعْضٍ ...».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 43- ابن بابويه بسنده عن أبي الصلت الهروي قال‏ كان الرضا (عليه السلام) يكلم الناس بلغاتهم و كان و اللّه افصح الناس و أعلمهم بكل لغة فقلت يوما يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اني لأعجب من معرفتك بهذه اللغات على اختلافها فقال: يا ابن الصلت انا حجه اللّه على خلقه و ما كان اللّه ليتخذ حجة على قوم لا يعرف لغاتهم اما بلغك ما قال امير المؤمنين (عليه السلام): و أوتينا فصل الخطاب فهل فصل الخطاب الا معرفة اللغات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 230

الخصم هنا يطالبونه بالحكم بينهم بالحق‏ «فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ» ثم تقريرا لشاكلة الحكم، و كأنهم هم الحاكمون عليه: «وَ لا تُشْطِطْ» إفراطا في البعد عن الحق‏ «وَ اهْدِنا إِلى‏ سَواءِ الصِّراطِ» من الحق، و فيه فزع لداود على فزع، و هو النبي الملك فكيف يشطط؟.

و هنا في قصة «الخصمان» و «تسعة و تسعون نعجة و واحدة» شطط من المختلقات الزور أقحمت في رواياتنا، تضرب عرض الحائط، و على من نسب إليه الزنا بامرأة أورياه الحتيّ حدّ القذف، لا سيما و أن سليمان حسب الخرافة الإنجيلية ولد منها «1»!.

إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى‏ نِعاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ (24).

كأن العصمة العلمية الإلهية هنا انقطعت عن داود (عليه السلام)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إنجيل متى 1: 6 «ان داود الملك ولد سليمان من التي لاوريا»- راجع «عقائدنا» ص 419- 426- تجد تفصيل الحوار بيننا و بين الجمعية الرسولية الأمريكة حول الفرية التوراتية على داود (عليه السلام)، و في تفسير البرهان 4:

45-

ابن بابويه بسند عن صالح بن عقبة عن الصادق (عليه السلام) في حديث قال فيه‏ يا علقمة إن رضى الناس لا تملك و ألسنتهم لا تضبط و كيف تسلمون مما لم تسلم أنبياء اللّه و رسله و حججه (عليه السلام) ألم ينسبوا يوسف إلى انه هم بالزنا؟ ألم ينسبوا أيوب إلى انه ابتلى بذنوبه؟ ألم ينسبوا داود إلى انه تبع الطير حتى نظر الى امرأة أوريا و انه قدم زوجها امام التابوت حتى قتل ثم زوج زوّجها؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 231

لفترة الحكم فتنة له، و لكي لا يزهو بشد الملك و الحكمة، و يلمس تماما أن العصمة الإلهية هي- فقط- التي تعصمه عن الأخطاء.

و القضية- كما هي معروضة- تحمل في باديها ظلما صارخا مستثيرا، لحد يحمل داود النبي الأواب على الحكم العاجل، دونما نظرة دفاع للمحكوم عليه أو سؤال عنه.

«وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ» لمحة من تسوّر المحراب، و أخرى من جرأة الخصم: «لا تشطط» و ثالثة بعد حكمه و هدوء البال و سكون الحال انتبه خطأ في حكمه، أو علّ المحكوم عليه اعترض عليه، لماذا الحكم- فقط- بدعوى المدعي دون سماع إلى المدعى عليه؟.

هنا «ظن» أنه فتنة و بلية إلهية، و تجربة مرّة تلفت نظره إلى ضعفه على قوته و شدة وطأته في ملكه! «ظن» ما ظنّه «فخر راكعا» لربه «و أناب» إلى ربه مما أخطأ.

فالظن هنا بمعناه كما في سواه، دون العلم بتأويل، إذ لا مدخل هنا للعلم أنه فتنة إلهية، و إنما ملامحها تدل دلالة راجحة غير قاطعة على أنها فتنة! فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى‏ وَ حُسْنَ مَآبٍ (25).

و لماذا «غفر لنا له ذلك» الحكم الشطط؟ لأنه كان ابتلاء إلهيا، و كان العجال في الحكم لظاهر الفخامة في الظلم، فلم يحكم عن شطط، و لا عن جهل، بل عن غفلة ابتلي بها كفتنة إلهية يتكامل بها عباده المخلصون! «و غفرنا» لذلك‏ «وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى‏ وَ حُسْنَ مَآبٍ» كأصل أصيل من حياته الإيمانية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 232

لذلك تراه يغفر له فور ظنه، ثم يمدحه بما يزيح عنه و صمة خلاف العصمة، ثم يجعله خليفة في الأرض:

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى‏ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (26).

أ ترى يوسم داود بوسام الشرف هذا، حاكما مطلقا بين الناس، لأنه ظلم في حكمه، أم لأنه غفر له عن شطط حكمه؟! و قد يلمح أو يصرح‏ «إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ» أن خلافته الرسالية كانت بعد فتنته‏ «فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ» بحكم الشرعة العامة و حكم الأقضية الخاصة، و هنا تزول كل مشكلة تحيك حول عصمة الرسالة، و «خليفة» هنا كما في غيره لا تعني خلافة عن اللّه، فإنه إشراك باللّه و أضل سبيلا، حيث الخلافة تقتضي مستخلفا عنه متجانسا، الميت أو الساقط عن كيانه، سبحان اللّه العظيم.

و إنما تعني خلافة الحكم الرسالي عن رسول أم رسل سابقين.

ثم‏ «إِنَّا جَعَلْناكَ» برهان لا مرد له أن الحكم بين الناس بحاجة ماسة إلى جعل إلهي، فلا خلافة الرسول عن رسول، و لا خلافة خلفاء الرسول عن الرسول، ليس شي‏ء منهما إلّا بجعل و انتصاب إلهي.

فخليفة الشورى! هو خليفة الناس دون الرسول، كما الخلافة الحاصلة بالسيف و النار، دون شورى و لا جعل إلهي، هو خلافة السيف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 233

و النار. فحق لثاني الخلفاء ألّا يدري أ خليفة هو أم ملك‏ «1».

فلأنك خليفة من قبل اللّه‏ «فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى‏» رغم ما حكمت بغير الحق قبل هذه الخلافة، و هو طبيعة الحال في غير المعصومين، و لا دليل على عصمة غير أولى العزم قبل رسالتهم.

يرى داود هذه التجربة المرة قبل خلافته، و لكي يذكر حاله قبل خلافته.

هنا مواصفات عشر لداود (عليه السلام) تحتفّ بخطإ واحد، فهلا تفسّر عشيرة العشرة عشيرتها الواحدة أنها خطيئة صغيرة، بل و أصغر بكثير من خطيئة آدم، و كلتاهما كانتا قبل الرسالة.

ثم و تبتدئ هذه العشر «عَبْدَنا داوُدَ» في أسوة التصبّر، و لولا أنه صبور على فعل الطاعات و ترك الخطيئات و مصابرا في البليات، لما صح‏ «وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ...» و هذه العشرة الكاملة هي:

«عبدنا- ذا الأيد- إنه أواب- سخرنا ...- شددنا ملكه- آتيناه الحكمة- و فصل الخطاب- إن له عندنا لزلفى- و حسن مآب- يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض»! أ ترى بعد أن هذه العشرة الكاملة كلها لما تحتف به من خطيئة كبيرة هي الزنا بامرأة اورياه الحقّي و قتله لكي يخلص منه؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 306-. اخرج ابن سعد عن ابن أبي العرجاء قال قال عمر بن الخطاب: و اللّه ما ادري الخليفة انا ام ملك قال قائل يا امير المؤمنين ان بينهما فرقا قال ما هو؟ قال الخليفة لا يأخذ الا حقا و لا يضعه الا في حق و أنت الحمد للّه كذلك، و الملك يعسف الناس فيأخذ من هذا و يعطي هذا!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 234

الجياد كما في مختلقات الروايات، و حتى لو أنها أغفلته عن الصلاة فما ذنبها حتى تذبح، بل المذنب آنذاك هو نفسه فليذبح- إذا- نفسه! و حين يترك هو صلاته للجياد، ثم يذبحها، ظلما بعد ظلم! فكيف- إذا- يستحق كرامة رد الشمس؟

و أخيرا فما ذا يفيده رد الشمس؟ أ لكي يصلي صلاته قبل غروبها؟ و قد غربت! و حتى إذا رجعت فعليه صلاة قبل رجوعها: «صَلاةِ الْفَجْرِ» و قبل غروبها «صلاة العصر» و قد فاتت الفائتة على أية حال! و حتى لو طلعت ليوم واحد عدة مرات، فلكل طلعة و غربة صلوات فلا فرق- إذا- بين ردها في يومه و بين طلوعها على سنتها لغدها، و ردّها ليومها يرهقه لأداء فرائضه مرة بعد أخرى، فليقض ما فاتته من فريضة ليومه أو غده! أم إذا كان‏ «مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ» تحببا إلى الصافنات الجياد، فهو- إذا- أواب إلى التي أغفلته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب! فلما ذا تستجاب دعوته لرد الشمس و قد زاد غفلة- على غفلته- معمّدة! كلّا يا مختلقي الأكاذيب المعارضة للذكر الحكيم، أنه تغافل عن الصلاة ثم ردت له الشمس، مهما كان رد الشمس علقة و ذريعة لمن يعتقدونها في الإمام علي (عليه السلام) خرافة جازفة جارفة تمس من كرامة العدالة فضلا عن العصمة! لقد كرر سليمان‏ «إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» شكرا لربه طيلة عرض الصافنات الجياد «حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ» ثم قال‏ «رُدُّوها عَلَيَّ» ليكرر مقالته الشاكرة و يتلطف بالخير الناشئ عن ذكر ربه‏ «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ».!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 235

و لو كانت المتوارية بالحجاب الشمس المقحمة في هذا البين، لاستلزم ذلك أنه أخذ يكرر مقالته تلك و لم يصل حتى غابت الشمس، و هو تناقض بيّن حيث يجمع بين غفلته عن الصلاة طيلة المدة، و ذكره أني غفلت عن ذكر ربي! «1».

و بعد كل ذلك ففي رد الشمس من الناحية الكونية قفزة إلى الوراء، تخلفا عن سنتها في دائب سيرها، و في ذلك كورها و تمام دورها و قيامتها قبل قيامتها!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 47 عن ابن بابويه في الفقيه باسناده قال زرارة و الفضل‏ قلنا لابي جعفر (عليه السلام) أ رأيت قول اللّه عز و جل: ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا؟ قال: يعني كتابا مفروضا و ليس يعني وقت فوتها ان جاز ذلك الوقت ثم صلاها لم تكن صلاة و لو كان كذلك لهلك سليمان بن داود (عليه السلام) حين صلاها لغير وقتها و لكن متى ذكرها صلاها.

و

فيه عن الطبرسي قال قال ابن عباس‏ سألت عليا (عليه السلام) عن هذه الآية فقال ما بلغك فيها يا ابن عباس! قلت بل سمعت كعبا يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة فقال ردوها علي يعني الأفراس و كانت أربعة عشر فرسا فضرب سوقها و أعناقها بالسيف فقتلها فسلبه اللّه ملكه أربعة عشر يوما لأنه ظلم الخيل بقتلها فقال علي (عليه السلام): كذب كعب و لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر اللّه للملائكة الموكلين بالشمس ردوها علي فردت فصلى العصر في وقتها و ان أنبياء اللّه لا يظلمون و لا يأمرون بالظلم لأنهم معصومون مطهرون.

و

في الدر المنثور 5: 309- اخرج الطبراني في الأوسط و الاسماعيلي في معجمه و ابن مردويه بسند حسن عن ابن أبي كعب عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في قوله:

فطفق مسحا بالسوق و الأعناق قال: قطع سوقها و أعناقها بالسيف!

أقول: و هي و أمثالها من أحاديث مخالفة للكتاب فلا تصدّق على المعصومين (عليهم السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 236

و القرآن يذكر لداود (عليه السلام) من غير هذه العشر فضائل أخرى و فواضل:

فقد يهزم جالوت الجبار بضربته القاضية: «وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ ...» (2: 251).

كما و يفضله على كافة المرسلين إلّا أولي العزم منهم، حيث يفرد بذكر كتابه بينهم: «وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى‏ بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً» (17: 55).

ثم وهنا بعد آيات‏ «وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» (30)، فهل إن المولود عن زنا و هبة إلهية و نعم العبد إنه أواب؟! و مما يحير العقول أنه خاض جماعة من المفسرين مع إسرائيليات مختلقات مقحمات في روايات إسلامية حول هذه الفتنة الداودية خوضا كبيرا، تتنزه عنه طبيعة الإنسان العادي غير المؤمن فضلا عن ذلك الرسول العظيم!.

و حتى الروايات التي حاولت تخفيف الوطئة عن تكلم الأساطير سارت معها شوطا أو أشواطا، و سحبت معها أشراطا، و هي- أساسا- لا تصلح للنظر، فكل واحدة من أوصافه العشرة جند صامد يذود عنه هذه الوصمات!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ندبت بعلها. و لما مضت المناحة أرسل داود إليها و ضمها الى بيته و صارت له امرأة و ولدت له ابنا.

أقول و في إنجيل متى 1: 6 «ان داود الملك ولد سليمان من التي لاوريا»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 237

و ليس هنا- أولا و أخيرا- إلّا حكمه بما حكم حسب الدعوى: «وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ» و ما تيقن الفتنة فما تأكد- إذا- من الخطيئة «فخر راكعا» لاحتمال أنه خطيئة «و أناب» لو أنها بعّدته عن زلفاه‏ «فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ» سترا لما ظنه، و علّه ستر لأصل الظن دون المظنون إذ لم يكن خطيئة، و قد تلمح له تعقيبه‏ «وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى‏ وَ حُسْنَ مَآبٍ» فبمجرد ظن الفتنة يزدلف إلى ربه و يئوب! ...

تنبيهات على ضوء هذه الآيات:

1- إن للملك و الأيدي زهوة لا تبقي و لا تذر، فليتحذر عنها كل ذي بصر، و حتى داود النبي، فليستغفر ربه سترا عن الزهوات الهاجمة إليه:

«إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» استغفارا يدفع عن النوازل، لا أنه يرفع الكائن الحاصل! 2- على الحاكم بين الناس أن يتخلى عن كافة الطوارئ، آفاقية و أنفسية، فلا يتأثر بأي مؤثر، فلا يتبع الهوى فتضله عن سبيل اللّه، لا! و حتى هوى عقله المستثار بإثارة الهدى كما في داود، و ليجعل الحق بين عينيه.

3- إن حالة الاستغفار تتطلب كل خضوع و خنوع، و حتى للذي ظن فتنة دون علم‏ «وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ».

و هل الركوع هو الركوع؟ و السجود أفضل منه في الخضوع! الركوع المقابل للسجود هو الركوع، و لكنما المطلق منه- كما السجود- يعني مطلق الخضوع، ثم القرائن هي التي تقرر موقفه، و هنا المناسب هو السجود و كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 238

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه سجد في «ص» و قال:

«سجدها داود و نسجدها شكرا» «1».

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27).

لأن خلق الباطل هو خلق باطل و هو خلاف الحكمة، و أن فرض الأعمال يوم الدنيا دونما جزاء، ثم لا حساب بعد الموت، ذلك يشي إلى بطلان خلق الكون، لذلك ينفيه هنا، و أن‏ «ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا» باللّه و اليوم الآخر، حيث الإيمان باللّه يقتضي الإيمان باليوم الآخر «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ».

هنا «باطلا» تضرب إلى ثالوث البطلان: «ما خَلَقْتَ» حالكوني باطلا- و خلقي باطلا- و السماوات و الأرض باطلا، فبطلان الألوهية الحكيمة ينتج خلقا باطلا، و كونا باطلا، و في ذلك إبطال الألوهية، فنكران يوم الحساب نكران للألوهية و حتى لو كان معه شريك أو شركاء.

بل هو الحق، و خلقه حق، و الكون مخلوق بحق، مما يتطلب خليفة في الأرض يحكم بالحق‏ «أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ».

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 304- اخرج النسائي و ابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ... و

فيه اخرج سعيد بن منصور عن الحسن قال: كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لا يسجد في (ص) حتى نزلت‏ «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» فسجد فيها رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 239

أ نجعل خلق السماوات و الأرض باطلا و من بطلانه‏ «أَمْ نَجْعَلُ ... أم نجعل» تسوية بين الصالحين و الطالحين، فكما المفسدين و الفجار ليس لهم في ظن الذين كفروا حساب، كذلك المتقين ليس لهم ثواب، فهؤلاء إذ ينكرون المعاد، هم يسوون بين الفريقين في حساب اللّه حين لا حساب و لا عقاب و لا ثواب، بل و للفجار فضلهم إذ حظوا بحرية الشهوات يوم الدنيا و المتقون محرومون، و «تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‏» «و ما الله بظلام للعبيد» ... ف‏

«لا ينبغي لأهل الحق أن ينزلوا أنفسهم منزلة أهل الباطل، لأن الله لم يجعل أهل الحق عنده بمنزلة أهل الباطل» «1».

و لكي يظهر الحق ناصحا ناصعا و تكون كلمة اللّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى، فهذا:

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (29).

إنه «مبارك» فيه من كافة البركات التي ترقى بالإنسان من أسفل السافلين إلى أعلى عليين، «أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ» لا ليقرأوه او يتبركوا بوجوده، إنما «لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ» أن يجعلوا الآيات دبر بعض، تفسيرا لبعضها ببعض، و تفكيرا في بعضها البعض، سردا رتيبا أديبا رائعا في لباب الآيات‏ «وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ».

... و الآية القرآنية تتدبر من زوايا ثلاث و لكي يظهر لبابها لأولى الألباب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 46- الكافي بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث طويل قال: لا ينبغي ... لم يعرفوا وجه قول اللّه في كتابه إذ يقول‏ «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 240

يتدبر فيها أولا تعقيبا لها، تحقيقا عن معناها بكل إمعان و إتقان، ثم ينظر إلى آياتها العشيرة معها قبلها و بعدها، حيث التأليف قاصد كما الآية نفسها، ثم نظرا إلى كافة الآيات التي تعني ما تعنيه، لنستمد منها كلها ما تعنيه.

فكلما تدبرت في آية أكثر و أكثر، عقلتها أكثر و أكثر، في مجالات فاسحة واسعة فإنه كتاب مبارك لا حدّ لمغزاه، و لا وقفة لمعناه في مرماه!

[سورة ص (38): الآيات 30 الى 44]

وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (32) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ (33) وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى‏ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34)

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (36) وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (37) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (39)

وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى‏ وَ حُسْنَ مَآبٍ (40) وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (42) وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 241

وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ‏ 30 سليمان النبي الملك هنا وهبة ربانية لداود: «نِعْمَ الْعَبْدُ» و لماذا؟ ل‏ «إِنَّهُ أَوَّابٌ» كما داود أواب.

فهل تصدق- بعد- الفرية التوراتية و الانجيلية على داود و سليمان، أنه وليد زنا و باني المعابد الوثنية على الأتلال لنساءه المشركات أمّا هي من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 242

هرطقات جارفة هراء! «1».

ففي إنجيل متى: «إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا» (1: 6) و في صموئيل 11: 3- 26، أنه زنى بامرأة أوريا فحبلت منه! و قد مضيا.

كلّا! يا مدنسي الكتاب المقدس، إنه وهبة إلهية لا من دعارة، و هو نعم العبد إنه أواب.

و إن‏ «نِعْمَ الْعَبْدُ» من المعبود ... يجعل من العبد قمة مرموقة من العبادة كأنه هو العبادة نفسها رغم أنه ملك! «سليمان» و هو مذكور في (17) موضعا من القرآن بكل تبجيل و تجليل، هي لغة عبرانية تعني الملي‏ء من السلم، فهو- إذا- عبارة أخرى عن‏ «نِعْمَ الْعَبْدُ» حيث العبودية هي السلم للمعبود، فإذا ملي‏ء منها العبد فهو «سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»:

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (32) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ (33).

«الصَّافِناتُ الْجِيادُ» هي الخيل الصافنة التي تصفن و تصف قدميها عند السكون بكل استقامة و وقار، جياد شديدة الجري و سريعة إذا جرت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الملوك 11: 1- 8 و نحميا 13: 26 يقول: أخذ سليمان يعاشر و يعاشق النساء الغريبات اللاتي منع اللّه عن عشرتهن فنكح منهن سبعمائة بالعقد الدائم و ثلاثمائة منقطعا فاجتذبن و املن قلبه عن ربه الى انفسهن و هو على كهولته و شيخوخته تنحى نحوهن لحد بني لكل واحدة منهن مذبحا للأوثان على الاتلال ... أقول و هذه خلاصة عن تفاصيل (راجع عقائدنا 427- 441) تجد فيه حوارا شاملا مقارنا بين القرآن و العهدين بشأنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 243

و عدت، و هي خيل الجهاد.

ملك كسليمان النبي له سيطرته و سطوته، تعرض له صافناته الجياد ليركبها هو و جنوده في مقاتلة الأعداء، فيبتهج منها ابتهاجة دون زهوة و لا غفلة و لا رعونة، و ليست مقالته حينذاك إلّا «إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ» حب الصافنات الجياد- فقط- للجهاد، فما أحببتها عن شهوة مال أو جمال، و لا عن كبرياء و دلال، و لا عن شهرة و نوال، و انما «عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» حب ناشئ‏ «عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ» «الصَّافِناتُ الْجِيادُ» «بالحجاب».

فليس سليمان يحب شيئا من مال و جمال إلا عن ذكر ربه، لا عن دافع شهوته و نزوته، و لا يختص ذكره لربه بصلاته و صيامه و قيامه في عبادة ربه، بل و يذكره فيما هو رمز للغفلة و الزهوة، فلا يبطر في نعمته، و لا يعشو عن ذكر ربه‏ «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» يرجع إلى ربه فيما هو بطبيعته ينسى ذكر ربه! و هذه السنة المجيدة في ذكر اللّه هي سنة الأوابين، الذين حياتهم أوبة إلى ربهم على أية حال و في كل مجال، فليس‏ «ذِكْرِ رَبِّي» هنا خصوص الصلاة و لا «عن» تجاوزا، حتى يحب الخير «الصَّافِناتُ الْجِيادُ» تجاوزا عن الصلاة، فكيف- إذا- يستحق كرامة رد الشمس؟ و لا «تَوارَتْ بِالْحِجابِ» تعني الشمس، إذ لم يسبق لها ذكر أبدا، و إنما هي‏ «الصَّافِناتُ الْجِيادُ» المتوارية في سيرها بالحجاب.

و لا «رُدُّوها عَلَيَّ» رد للشمس، فمن هؤلاء الذين يأمرهم بردها له حتى يقضي فائتة الصلاة، أهم أرباب؟ أم عباد أمثاله و هم أقوى منه؟.

ثم و ليس للشمس المردودة المختلقة سوق و أعناق حتى يمسحها «رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ» و لا أن المسح قطع و ذبح للصافنات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 244

إن كل واحدة منها من «عبدنا» الى‏ «خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ» برهان قاطع لا مرد له على براءة ساحته القدسية قبل رسالته مما افتري عليه، فضلا عما بعد «إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ...»!

و المفترون هنا يجعلون من النعاج و النعجة امرأة، و من امرأة زوجة أورياه، إقحامات و اتهامات رديئة دنيئة لا تنسب إلى الأوباش الأغباش، فضلا عن خليفة اللّه في الأرض! «عبدنا» في صيغة الجمع تصوغه كأفضل عبد يجمع في عبوديته بجامع العبادة. و على‏

حد المروي عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «كان أعبد البشر» «1».

ف «نا» و هي ترمز لجمعية الصفات، تجعل داود عبدا للّه من كافة الجهات، دون من يعبد اللّه على حرف ...! و يا ترى كيف يليق ب «عبدنا» أن يرتكب جريمتي القتل و الفحشاء، أم كيف يليق بربنا أن يجعله قدوة الصبر لمحمد و هو أوّل العابدين، أ قدوة لا يصبر على شهوة الجنس، فيقضي على روح مسلم و منكوحه لقضاء السعار الحيواني من شهوة الجنس؟! ثم‏ «ذَا الْأَيْدِ» هل تعني أيدي الجنس المتخلف لكي يرتكب تلك الجريمة النكراء؟ و هي أيدي الرحمة الفائضة الغزيرة التي جعلته حقا «عبدنا»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 297- اخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء قال‏ كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إذا ذكر داود (عليه السلام) و حدث عنه قال: كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 245

و «إِنَّهُ أَوَّابٌ» كثير الرجوع إلى اللّه، كيف يناسب أؤتبه هكذا إلى سعار الجنس، رغم توبته؟

و هل‏ «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ ...» لتساعده على استلاب النواميس و الأعراض؟

أو «شَدَدْنا مُلْكَهُ» لكي يملك قتل كبير من قواد جنده «أورياه» ليملك زوجته بكل حرية و دناءة؟! أم‏ «آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ» ليأتي بخلاف الحكمة و خلاف العدالة و الخلق الإنسانية؟! أم‏ «وَ فَصْلَ الْخِطابِ» ليخاطب جنده ان يجعلو أورياه في مقدمة المقاتلين لكي يقتل؟! أم‏ «إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى‏» بهذه التأكيدات الأربعة، ليرتكب أنحس الكبائر بحق رجل مسلم مجاهد؟! أم‏ «حُسْنَ مَآبٍ» إذ آب إلى ما آب، و خاب ما خاب، بما افتري عليه من فتك و قتل و فاحشة؟! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في صموئيل 11: 2- 26: «و كان وقت المساء ان داود قام عن سريره و تمشى على سطح بيت الملك فراى من على السطح امرأة تستحم. و كانت المرأة جميلة المنظر جدا. فأرسل داود و سأل عن المرأة فقال واحد: أ ليست هذه بنت بشتبع اليعام امرأة أوريا الحثي؟. فأرسل داود رسلا و أخذها فدخلت اليه فاضطجع معها و هي مطهرة من طمثها ثم رجعت الى بيتها و حبلت المرأة فأرسلت و أخبرت داود و قالت إني حبلى.

فأرسل داود الى يوآب يقول: أرسل الي أوريا الحثي ... فأتى أوريا اليه ... فقال داود لاوريا أقم هنا اليوم، و غدا أطلقك ... و دعاه داود فأكل امامه و شرب و اسكره و في الصباح كتب داود الى يوآب: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت ... فقتل أوريا كذلك ... فلما سمعت امرأة أوريا انه قد مات رجلها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 246

ثم و في هذه البادرة الهامة مطلع للعائشين نصف الكرة لردها، حيث يبصرونها راجعة بعد غروبها، و مطلع الآخرين، لمكان التأخر في أوقاتها، و في ذلك إجماع قاصد ملموس لسكنة الأرض كلهم، فكيف يختص نقلة بأشخاص خصوص؟

و من الناحية الأدبية كيف يكون «نعم العبد إنه أواب. إذ عرض عليه ... فقال إني أجبت» فهل إن التغافل عن ذكر الرب في معرض الصافنات يجعله‏ «نِعْمَ الْعَبْدُ» فحين لا يتغافل هو- إذا- بئس العبد؟! و لأنه‏ «نِعْمَ الْعَبْدُ» في تأخير الصلاة فلترجع الشمس حتى يقضيها؟

و كيف يقدم عشيا عرض الصافنات و هو وقت الصلاة؟ غفلة عامدة ما لها من عاذرة؟

هراءات خارفة، و مختلقات جارفة أقحمت في أحاديث الإسلام، و نحن بعرضها على القرآن نضربها على الحائط! ثم‏ «حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ» قد تكون بيانا لمدى قوله‏ «إِنِّي أَحْبَبْتُ» أنه كررها «حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ» لا أن حب الخير محدد ب‏ «تَوارَتْ بِالْحِجابِ» حيث التواري ليس ليواري عنه حب الخير عن ذكر ربه.

و علّ‏ «رُدُّوها عَلَيَّ» قاصد إلى استمرارية ذكره، و لكي يتلطف بالصافنات الجياد بمعشر الجنود، و ليعلموا أن سليمان يحب الجياد- فقط- للجهاد.

و قد يعني‏ «حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ» تواري الصافنات بحجاب الشمس مع حجاب البعد عن سليمان، فأزال أحد الحجابين ب‏ «رُدُّوها عَلَيَّ» و أزال الآخر أدبيا ب‏ «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 247

و لو كان‏ «رُدُّوها عَلَيَّ» طلبا لرد الشمس، فهي كلمة عارية عن كل أساليب الأدب عقيب ترك كل أدب للرب حيث ترك الصلاة، و كأنه متآمر على ربه، و يعتبره جماعة من جنوده، «ردوها» أم يأمر جنود ربه، و اللائق بهذه الحالة الضراعة البالغة و البكاء، و المبالغة في إظهار التوبة، و أما أن يقول منهورا مستهترا متغاضيا عن عظمة الرب‏ «رُدُّوها عَلَيَّ» فلا يقولها أدنى الناس! وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى‏ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34).

«فَتَنَّا سُلَيْمانَ» تأشيرة لامعة أن عرض الصافنات لم تكن فتنة له و ابتلاء، و إلّا فلما ذا هنا «فتنا» و هناك‏ «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ»؟

و ترى ما هو الجسد الملقى على كرسيه و ممّ أناب؟

هل هو جسد سليمان نفسه حين مرض لحد كأنه جسد لا روح له؟

و صحيح التعبير عن المرض هو المرض، دون الجسد الصريح في ميت! ثم «و ألقينا» دون ضمير يرجع إليه، و «جسدا» منكرا دون جسده، ثلاثة دالة على أنه غير سليمان نفسه! أم إنه الشيطان الملقى على كرسيه يحكم بديله أياما «1»؟ فكذلك الأمر، و لأنه حيّ غير مريض، و إلقاء الشيطان على كرسي الحكم الرسالي إلغاء للحكم الرسالي!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر النثور 5: 313- اخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: الجسد الشيطان الذي كان دفع سليمان اليه خاتمه فقذفه في البحر و كان ملك سليمان في خاتمه و كان اسم الجني صخرا، و اخرج ابن جرير عن السدي ان الشيطان حين جلس على كرسيه أربعين يوما ... أقول و انها خرافة نكراء هراء!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 248

أو أنه جسد صبي له كان «استرضعه المزن خوفا من بأس الشياطين، فألقاه الله على كرسيه جسدا تنبيها على أن الحذر لا ينفع من القدر» «1»؟

و لو أن للشياطين مقدرة على قتله لقتلوا مسترضع المزن و السحاب! و كيف يخافهم و لا مميت- كما لا محيي- إلا الله! أو أنه ولد له من واحدة من السبعين امرأة جاءت بشق ولد، رغم ما هواه أن يؤتى بسبعين ولد يضربون بالسيف في سبيل الله و لم يقل إن شاء الله‏ «2»؟ و قد يجوز و لكي لا يقول لشي‏ء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله! و مهما يكن من شي‏ء فليس الجسد الملقى على كرسيه من شأنه حتى يكون شائنا فيه فيستغفر و ينيب، فإنما له صلة بشأن منه، فتنة له في غير محظور و لا مشكور.

فالابتلاءات مختلفة حسب مختلف المبتلين، فكما أن منها جزاء بما عمل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الطبرسي روى‏ ان الجن و الشياطين لما ولد لسليمان ابن قال بعضهم لبعض ان عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من أبيه من البلاء فاشفق (عليه السلام) منهم فاسترضعه المزن و هو السحاب فلم يشعر الا و قد وضع على كرسيه ميتا تنبيها على ان الحذر لا ينفع من القدر و انما عوقب على خوفه من الشياطين‏ و هو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام).

(2)

تفسير الفخر الرازي 26: 208- روى عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) انه قال‏ قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله و لم يقل ان شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجي‏ء به على كرسيه فوضع في حجره فو الذي نفسي بيده لو قال: ان شاء الله لجاهد كلهم في سبيل الله فرسانا أجمعون فذلك قوله: و لقد فتنا ... و أخرجه البخاري في صحيحه مرفوعا عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 249

من سوء تنبيها و تخفيفا عن جزاء، كذلك منه ما يبتلى بها عباد اللّه الصالحون و لكي يزدادوا من ربهم زلفى، فان أفضل الأعمال أحمزها، «وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً ...» (2:) 124) كذلك يبتلي سليمان بفتنة، فيسأله تعالى بعد نجاحه‏ «هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ...» فيؤتاه سؤله «فسخرنا ...».

أ تراه لأنه عصى ربه يطلب منه ذلك الملك القمة، بديل التوبة؟ و كما قالوه في عرض الصافنات الجياد؟! «فَتَنَّا سُلَيْمانَ» حين ترك إن شاء اللّه، و حين‏ «أَلْقَيْنا عَلى‏ كُرْسِيِّهِ جَسَداً» فما فزع من ذلك الجسد الذي عكس هواه في سبيل اللّه، فلما نجح‏ «فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ» من ترك المشكور هنا: إن شاء اللّه، و من أن يعترضه أي محظور، «ثُمَّ أَنابَ» إلى ربه في استيهاب الملك القمة.

و لماذا الاستغفار من ترك المشكور- إن صح الحديث أن ترك إنشاء اللّه-؟ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين!.

و قد يلمح استيهابه ربه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده أن الجسد الملقى على كرسيه كان من يرجو سليمان أن يرثه ملكه، فلما ابتلي بموته استبدل به ما هو خير:

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35).

أ تراه يبخل في ذلك الاستيهاب الإستيعاب، فيتطلب ملكا لا ينبغي حتى لخاتم الأنبياء روحيا، و من ثم لخاتم الأوصياء زمنيا و روحيا و هو يصفهما على البدل كأفضل محبوب كما في النص العبراني التالي:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 250

حكو ممتقيم و كولو محمديم زه دودي و زه رعي بنت يرشالام (نشيد الإنشاد: 5: 16).

«فمه حلو و كله محمد هذا محبوبي و هذا ناصري يا بنات أروشليم» و ذلك بعد ما يصف محبوبه بأوصاف فائقة في آيات سابقة، فكيف له أن يفضّل ملكه على محبوبه الوحيد؟ كما و أن أباه داود يصف القائم المهدي (عليه السلام) بعدة مواصفات في تصريحات تحيد عمن سواه! «1».

قد لا يعني أثره له على من ياتي بعده طول الزمن و حتى في آخر الزمن، بل «من بعدي» لصقا أم طوال الرسالة الإسرائيلية و قد حصل، فان «من بعدي» يعم البعد القريب و البعد الغريب، و نحن نبعّد البعيد ذودا للبخل عن ساحة سليمان، و تأشيرا منه و أبيه في الملك العالمي الأخير للقائم المهدي عليه السلام.

أم يعني ملكا لا ينبغي لأحد من الملوك بعدي‏

«مأخوذا بالغلبة و الجور و اختيار الناس» «2»

و قد حصل فعلا على ذلك الملك، فما ملك أحد بعده‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

(2)

تفسير البرهان 4: 48- ابن بابويه بسند عن علي بن يقطين قال‏ قلت لابي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) أ يجوز ان يكون نبي اللّه عز و جل بخيلا؟ فقال: لا فقلت له: قول سليمان (عليه السلام) «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» ما وجهه و معناه؟ فقال: الملك ملكان، ملك مأخوذ بالغلبة و الجور و اختيار الناس و ملك مأخوذ من قبل اللّه تبارك و تعالى كملك ابراهيم و ملك جالوت و ذي القرنين فقال سليمان: هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ان يقول انه مأخوذ بالغلبة و الجور و اختيار الناس فسخر اللّه له ... فعلم الناس في وقته و بعده ان ملله لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل الناس و المالكين بالغلبة و الجور قال فقلت له قول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 251

و لن يملك زمنيا كما ملك، و أما روحيا فالمسيح و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أفضل منه، و أما زمنيا و روحيا معا؟ فالقائم من آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أكمل منه.

أم يعني «ملكا» في طول مكوثه‏ «1» بين صالحي الملوك و كما هو واقع، فلم يأت حتى الآن ملك يملك طول ملكه.

و علّ مثلث المعنى هو المعني إذ يصلح كل معنى صالحا لذلك الاستيهاب القمة، و القرآن حمال ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه، و الجمع بين الوجوه الحسنة هو أحسن الوجوه! و قد يخرج المسيح و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و المهدي من آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن «لأحد» حيث يعني- فقط- الملوك بعده، و هؤلاء لم يكونوا ملوكا مهما يكون لثالثهم سلطة فوق كافة السلطات الروحية و الزمنية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رحم اللّه اخي سليمان ما كان أبخله، فقال (عليه السلام): لقوله وجهان: أحدهما ما كان أبخله بعرضه و سوء القول فيه، و الوجه الآخر يقول: ما كان أبخله ان أراد ما يذهب اليه الجهال ثم قال: قد و اللّه أوتينا ما اوتي سليمان و لما لم يؤت سليمان و ما لم يؤت احد من العالمين قال اللّه في قصة سليمان: هذا عطاءنا فامنن او امسك بغير حساب و قال عز و جل في قصة محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا.

(1).

الدر المنثور 5: 313- اخرج الحاكم في المستدرك عن عمر بن علي بن حسين قال‏ مشيت مع عمي و اخي جعفر فقلت زعموا ان سليمان (عليه السلام) سأل ربه ان يهبه ملكا

قال حدثني أبي عن أبيه عن علي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لن يعمر ملك في امة نبي مضى قبله ما بلغ بذلك النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من العمر في أمته،

أقول قد يعني قبله قبل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 252

فالقائم المهدي (عليه السلام) يعيش عيشة الفقراء فلا يقال عنه: أحد من الملوك، و سليمان النبي عاش كأفضل عيشة الملوك مهما لم تملكه زهوة الملوك! ف‏ «مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ» يعم الملوك من غير النبيين حيث لا ينبغي لهم ملك النبوة مهما كانوا عدولا، و النبيين غير الملوك إذ لم يعطوا ملكا إلى نبوة، و الإمام المهدي الذي أوتي أقوى قوة روحية و زمنية ليس في عداد الملوك و لا النبيين، فلا ينبغي أن يقال له: ملك، لأنه فوق الملوك، و أن عيشته عيشة أفقر الفقراء.

فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (36).

طرف من ملكه الذي لا ينبغي لأحد أن سخّرت له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، فهو إذا راكب الريح يسوقها كما يسوق ركاب الطائرات‏ «1».

إنها ريح‏ «عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى‏ الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها» (21:) 81) و هي‏ «غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ» (34: 13).

أ ترى لا تنافي «رخاء» هنا «عاصفة» هناك؟ كلّا! فإن رخاء حال جريانها بأمره ألّا تستصعب مطاوعة أمره، ثم و قد يتجمع العصف و الرخاء، أنها تجري سريعة تعصف، و لكنها عصفة الرخاء كأن لا حراك لها، رغم أن الاضطراب و شديد الحراك من خلفيات السرعة.

فالريح العاصفة الرخاء كانت له مركبة فضائية لا تشعره بحراك رغم سرعتها الهائلة! «تَجْرِي بِأَمْرِهِ» كما سخر اللّه‏ «حَيْثُ أَصابَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة سبأ من الفرقان تجد تفسيرا مفصلا لآية الريح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 253

سليمان من هدف يرميه، و أي مكان يعنيه، اللّهم إلّا أن يشارك عاصفة لمولاه سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) فيدور بساطه كما دار «1».

و هذه الريح هي من أسباب السماوات و الأرض، التي لا تسخّر بالعلم، إلّا بما يسخر اللّه لمن يشاء و يرضى، و سوف تسخر هي مع سائر الأسباب- إلّا التي تخص ربنا- تسخّر لصاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه و سهل مخرجه.

وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (37) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38).

«و» سخرنا له «الشياطين» يعملون له ما يشاء «كُلَّ بَنَّاءٍ» منهم في البرو «كل» «غواص» في البحر سيطرة شاملة على البر و البحر!: «وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ» (38: 12) و قرنهم في الأصفاد هو من ذوق عذاب السعير.

هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (39).

«هذا عَطاؤُنا» ملكا لك يا سليمان‏ «بِغَيْرِ حِسابٍ»: لأحد له عطاء، و لا حساب عليه أجرا «فامنن» صرفا و عطاء لمن تشاء و كما تشاء «بِغَيْرِ حِسابٍ»- «أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 50 و روى‏ ان سليمان (عليه السلام) كان يجلس على بساطه و يسير في الهواء فمر ذات يوم و هو سائر في ارض كربلاء فأدارت الريح بساطه ثلاث دورات حتى خافوا السقوط مكنت الريح و نزل البساط الى ارض كربلاء فقال سليمان للريح لم سكنت؟ فقالت: ان هنا يقتل الحسين (عليه السلام) فقال: و من يكون الحسين؟ فقالت: هو سبط محمد المختار و على الكرار فقال: و من قاتله؟ فقالت:

يقتله لعين اهل السماوات و الأرض يزيد لعنه اللّه فرفع سليمان يديه و لعنه و دعى عليه و امن على دعائه الانس و الجن فهبت و سارت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 254

أ تراه عطاء فوضى في منّ أو إمساك بغير حساب؟ كلّا حيث المعطى له حساب دون فوضى:

وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى‏ وَ حُسْنَ مَآبٍ (40).

فزلفاه عند ربه تمنعه عن فوضى العطاء و الإمساك، و حسن مآبه يدفعه ليكون العطاء و الإمساك آئبين إلى اللّه، فما سليمان- إذا- إلا أداة لمرضاة اللّه في ذلك العطاء بغير حساب.

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (42).

أ ترى أن اللّه يسلط الشيطان على عبده و رسوله أيوب أن يمسه بنصب و عذاب، و «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» و هو «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»؟.

هنالك سلطة ممنوعة للشيطان على المخلصين هي على عقولهم و أرواحهم و أعمالهم، لكيلا تبطل حجج اللّه على عباده، و هنا سلطة ممنوحة على أبدانهم و أموالهم هي من الابتلاءات الربانية الشاملة لعباد اللّه الأمثل منهم فالأمثل.

و السلطة الشيطانية على أيوب في ردح من زمن المحنة لم تكن إلّا على الناحية المادية، و قد بلورت فيها السماحة الروحية «إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

فيا لهذا العذاب الجسداني من عذوبة روحية حين يصبر العبد عليه دونما شكوى و لا نكوى، و كما نراه في سائر الصالحين طول الزمن الرسالي من مختلف النصب التي تنصب لهم، و العذاب الذي يقصدهم في سبيل الدعوة، أم في طريق التكملة الرسالية لتكمل الدعوة، و هذه الثانية تمثلت لأيوب‏ «بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 255

«وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى‏ لِلْعابِدِينَ» (21: 83- 84).

نصان في سائر القرآن يتحدثان عن بلوى أيوب و صبره عليها، باختصار في الأنبياء، و فصلا هنا.

ذلك النبي العظيم الذي طمع الشيطان في تضليله بنصبه و عذابه، أن يصدّه عن عبادة ربه أم ينقصه، و لم يصده ربه امتحانا لعبده، فعمل في ذلك و اعتمل و لم يرجع عنه على طول المدة و طائل النصب و العذاب إلّا خاسئا و هو حسير! أجل، و ليكن أيوب قبسا وهّاجا في الإيمان، و مثلا عاليا وحيدا في الصبر و اليقين، حيث ينكص الشيطان على أعقابه و يجمع شياطينه المردة، و يوحي لهم أن اللّه ليس ليصدهم عن أية أذى يريدونها بأيوب، فقالوا:

نجرّده عن أهله و ماله و صحة حاله ليعود مجردا عن إيمانه حيث تشغله بليته باله هنا يريد اللّه بذلك السماح إمتحان عبده، و يريد الشيطان امتهانه‏ «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» و لقد سلّط الشيطان على قصوره فجعلها قبورا، و علّ على ولده أيضا فبدّلهم ميتا، و على مواشيه و أمواله، و على بدنه، فقلبه في حظوظه المادية ظهر بطن لا يبقي له شيئا و لا يذر إلّا أطاح به و دمّر.

يريد الشيطان ليضطر عبد اللّه أيوب إلى اختراق ثوب الاصطبار إذا تهدمت عليه أركان حياته، في ماله و أولاده و دوره و حاله، و يريد اللّه ليجعل من أيوب عبدا صبورا أوّابا شكورا، تصبح قصته ذكرى للعابدين و عبرة للمصابين، و عزاء للمكروبين، و سلوى للمرضى و الزمنى و المجروحين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 256

مرت الأيام، و تحدرت الأعوام و أيوب لا يزال على شكاته حتى هزل جسمه و ذهب لحمه، و أصبح منقوف الوجه شاحب اللون، لا يقر على فراشه من الآلام.

فرّ عنه الصديق، و جانبه الرفيق، و رغبت عنه شيعته و من حوله إلّا زوجه الرؤوف العطوف الحنون حيث تحننت عليه ما وسع قلبها الحنان، و عنيت به ما استطاعت إليه سبيلا، و رفّت عليه بجناحيها، و بسطت له أكناف قلبها، و ما شكت إلّا هموما تساورها من آلامه، و مخاوف تتحذرها على حياته، و لكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤمنة محتسبة.

لهذا أعيى أمر أيوب عبد اللّه إبليس عدو اللّه، و لم يجد إليه سبيلا إلّا من قبل زوجه، فانطلق إليها و هي في بعض شأنها مع أيوب، فتمثل لها رجلا و قال: أين زوجك؟ قالت:

هوذا عميدا وقيذا، يتضور من الحمى، و يتقلب مما ألح عليه من الداء، فلا هو حي و لا هو ميت.

هنا طمع اللعين في إغوائها فأخذ يذكرها بما كان لزوجها في صدر شبابه و غضاضة إهابه من صحة و عافية و نعمة صافية، فأعادت لها الذكرى الأشجان، و أثارت لديها كوامن الأحزان، ثم أخذ يدركها الضجر و ينساب إلى قلبها اليأس فذهبت إلى أيوب قائلة:

حتى متى تعذّب، أين المال؟ أين الجمال، اين الحال و العيال، اين شبابك الذاهب، اين عزك القديم؟! فأجابها قائلا: أراك قد سوّل لك الشيطان أمرا، أتراك تبكين على عز فائت، و ولد مائت؟

فقالت: هلا دعوت اللّه أن يكشف عنك حزنك و يزيح بلواك؟

قال: كم مكثت في الرخاء؟ قالت: ثمانين، قال: و كم في البلاء؟

قالت سبعا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 257

قال: أستحي من ربي أن اطلب إليه كشف بلائي، و لمّا قضيت فيه مدة رخائي، و لكن يخيل لي أنه قد بدأ يضعف إيمانك، و يضيق بقضاء اللّه قلبك، و لئن برئت و أتتني القوة لأضربنك مائة سوط، و حرام عليّ أن آكل من يديك بعد اليوم طعاما أو أشرب شرابا، أو أكلفك أمرا، فاغربي عني حتى يقضي اللّه أمرا كان مفعولا! أصبح أيوب- الآن- وحيدا فريدا و قد اشتدت آلامه، و تضاعفت أسقامه، ففزع إلى ربه داعيا متحننا، لا شاكيا متبرما ف‏ «نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (21: 83) و ذلك في آخر الامتحان، و كما تدل الآية التالية «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ...» استجابة دون فصل! يشكو ربه الرحيم من الشيطان الرجيم دون أن يصارحه في كشف ضره، و إنما عرضا لحاله‏ «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ ...» و قرنا لرحمته تعالى إلى حاله‏ «وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فإن رأيت فارحم عبدك، و إلّا فأنا من الصابرين، فاستجاب له ربه فور عرضه‏ «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ...».

أجل! و لحد الآن يصمد أيوب لوسوسة الشيطان، فيرتقي إلى ذروة الإيمان‏ «إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ»- و ليس الركض حسب العادة إلّا برجل- فذلك لمحة إلى مدى مرضه لحد لم يك يمشي برجل، و لكنه الآن‏ «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ» عدوا قفزة أولى إلى الصحة، ثم و ثانية إلى العافية: «هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ» فلم يكن يسطع قبل لاغتسال و لا شرب شراب.

فما شرب و اغتسل حتى اندملت قروحه ظهر بطن، و برئت جروحه، و كأن بارد الماء كان مرحما ملحما، رغم أنه يضر بالجروح في عادية الأحوال!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 258

و لقد كانت زوجته رق قلبها و حدبت عليه و لم تطاوعها نفسها الكريمة الحنونة أن تتركه و شأنه، و قد لزمته منذ اوّل بلائه على طول المدة و طائل المحنة، فرجعت إليه كعادتها تعاود إصلاح شأنه فترى عجبا حين ترى شابا مكتمل الشباب، غض الإهاب، مكتنز اللحم، وافر المنة و القوة، فحمدت اللّه على ما ردت إليه من عافية.

فهل إن أيوب يتركها و يستبدل بها غيرها، بعد أن يضربها مائة سوط كما عهد من ذي قبل؟ ما هكذا الظن به و لا المعروف من فضله، أن يتناسى حنانها الدائب، و حضورها الواصب.

و حين لا يتركها فما ذا يفعل بعهده عليها و هو بلاء على بلاء و عناء على عناء، إذا يأتي الوحي الحبيب من الحبيب:

وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44).

خذ حزمة من القش و الريحان تشتمل على مائة باقة و اضرب بمجموعها زوجك مرة واحدة، حفيفا رقيقا رفيقا، رخصة لك في يمينك، و رحمة بهذه المخلصة الصالحة التي احتملتك في مرضك، و شاركتك في آلامك!.

و لئن سئلنا كيف يبتلى أيوب بمثل هذه البلية التي تنفّر عنه الطباع، أ بذنب؟ و الأنبياء لا يذنبون، أم بغير ذنب فأسوء و أنكى، و من لزامات الرسالات بقاء الرسل في حالة جذابة غير منفرة، و الروايات تقول أصبح بدنه كله منتنا مدوّدا.

فلنضرب بروايات متخلفات و مختلقات- تمس من ساحة نبي اللّه أيوب و تنتقص من سماحته- نضربها عرض الحائط، كما هو مصير آيات مختلقات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 259

متناقضات في العهد القديم‏ «1»، فقد طغت إسرائيليات في رواياتنا هنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففي حين يصفه حزقيال 14: 14 و 20 بكمال العبودية و الايمان و انه تحمل ألوان الرزايا صابرا محتسبا- و: ليس كمثله احد في كمال الاستقامة و التقوى (أيوب 1:

8 و 2: 3 و 38: 1 و 40: 1 و 6: 42: 7).

نجده يصفه بما يناقضه: (قد كرهت نفسي حياتي، اسيب شكواي، أتكلم في مرارة نفسي قائلا لله: لا تستذلي، فهمني لماذا تخاصمني؟ أحسن عندك أن تظلم، ان ترذل عمل يديك و تشرف على مشورة الأشرار، أ لك عينا بشر ام كنظر الإنسان تنظر ...

حتى تبحث عن إثمي و تفتش على خطيئتي، في علمك إني لست مذنبا و لا منقذ من يدك ... ان ارتفع تصطادني كأسد ثم تعود و تتجبر على، تجدد شهودك تجاهي و تزيد غضبك علي، نوب و جيش ضدي فلما ذا اخرجتني من الرحم ... (أيوب 10:

1- 8).

أشكو بمرارة نفسي ... قد ذبت لا الى الأبد أحيا ... ما هو الإنسان حتى تعتبره و تضع عليه قلبك و تتعهده كل صباح و كل لحظة تمتحنه، حتى متى لا تلتفت عني و لا ترخيني ريثما ابلع ريقي ... لماذا جعلتني عاثورا لنفسك حتى أكون على نفسي حملا ...

(أيوب 7: 11- 21).

فاعلموا ان اللّه قد عوجني ولف عليّ احبولته، ها اني اصرخ ظلما فلا استجاب، ادعوا و ليس حكم، و قد حوط طريقي فلا اعبر، و على سبيلي جعل ظلاما، أزال عني كرامتي و نزع تاج رأسي، هدّمني من كل جهة فذهبت، و قلع مثل شجرة رجائي، و اضرم على غضبه و حبسني كاعداء معا جاءت عزاته و اعدوا على طريقهم و حلوا حول خيمتي، قد ابعد عني اخوتي، و معارفي زاغوا عني، اقاربي قد خذلوني، و الذين عرفوني نسوني، نزلاء بيتي و امنائي يحسبونني أجنبيا، صرت في أعينهم غريبا ... نكهتي مكروهة عند امرأتي، و قممت عند أبناء احشائي، الأولاد ايضا رذلوني، إذا قمت يتكلمون عليّ كرهني كل رجالي و الذين أحبهم انقلبوا عليّ عظمي قد لصق بجسمي و لحمي و نجوت بجلد اسناني، ترأفوا ترأفوا أنتم عليّ يا اصحابي، لأن يد اللّه قد مستني، لماذا تطاردوني كما اللّه، و لا تشبعون من لحمي، ليت كلماتي الآن تكتب، يا ليتها رسمت في سفر و نقرت الى الأبد في الصخر بقلم حديد و برصاص ...» (19:

6- 24).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 260

و هناك فشوهت الحقيقة الناصعة التي أتى بها القرآن العظيم، و لا نؤمن إلا بما جاء نصه في الذكر الحكيم.

و القول الفصل في الجواب في أصوب الصواب تجده عند

باقر العلوم (عليه السلام): ان أيوب (عليه السلام) ابتلي من غير ذنب، و إن الأنبياء لا يذنبون، لأنهم معصومون مطهرون، لا يذنبون و لا يزيغون و لا يرتكبون ذنبا صغيرا و لا كبيرا، و ان أيوب (عليه السلام) مع جميع ما ابتلي به لم ينتن له رائحة و لا قبحت له صورة، و لا خرجت منه مدة من دم و لا قيح و لا استقذره أحدا رآه، و لا استوحش منه احد شاهده، و لا تدوّد شي‏ء من جسده، و هكذا يصنع اللّه عز و جل بجميع من يبتليه من أنبيائه و أوليائه المكرمين عليه، و إنما اجتنبه الناس لفقره و ضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بماله عند ربه تعالى من التأييد و الفرج،

و

قد قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

ابتلاه اللّه بالبلاء العظيم الذي تهون معه على جميع الناس، لئلا يدعوا معه الربوبية إذا شاهدوا ما أراد اللّه أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«... من يعطيني أجده فآتي الى كرسيه، احسن الدعوى امامه، و أملأ فمي حججا فأعرف الأقوال التي يجيبني و افهم ما يقوله لي ... ها أنا ذا اذهب شرقا فليس هو هناك و غربا فلا أشعر به، شمالا حيث عمله فلا انظره، يتعطف الجنوب فلا أراه» (24:

3- 8) «حي هو الله الذي نزع حقي و القدير الذي امر نفسي» (27: 2).

هذا! و لكن ربه يناقضه في هذه التهم «فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل و مستقيم يتقي الله و يحيد عن الشر» (1: 8) «الى الآن هو متمسك بكماله و قد هيجتني عليه لأبتلعه بلا سبب (2: 3) فانظر الى هذه الشطحات المتناقضات في التوراة و الروايات المتأثرة بها ثم انظر الى القرآن الحكيم فاقض ما أنت قاض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 261

شاهدوه، و ليستدلوا بذلك على ان الثواب من الله تعالى ذكره على ضربين استحقاق و اختصاص، و لئلا يحتقروا ضعيفا لضعفه، و لا فقيرا لفقره، و لا مريضا لمرضه، و ليعلموا انه يسقم من يشاء، و يشفي من يشاء متى شاء بأي سبب، و يجعل ذلك عبرة لمن شاء، و شقاوة لمن شاء، و سعادة لمن يشاء، و هو عز و جل في جميع ذلك عدل في قضائه، و حكيم في أفعاله،

لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم و لا قوة لهم إلا به» «1».

ثم في‏ «إِذْ نادى‏ رَبَّهُ» تلميحة أنه ناداه استرحاما تربويا كما يراه الرب صالحا دونما اقتراح عليه أمرا، إلّا «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» هنا و «أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» في الأنبياء.

و «نصب» هي مختلف التعب «و عذاب» فوق التعب و قد عبر عنهما في الأنبياء ب‏ «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ».

و قد يعم ضرّه الدعاية على رسالته تذرعا إليها بمرضه و ذهاب ماله و ولده، و ذلك صورة عامة عن السيرة الرسالية لسائر المرسلين: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ» (22: 52).

و قد يعني النصب سائر أتعابه الظاهرية، و «عذاب» هو العذاب الروحي حيث كان الشيطان ينفر خلصائه القلائل و حتى زوجه الحنون، فيؤذيه ضلالهم أشد مما يؤذيه ضره! إن اللّه تعالى عافاه بمغتسل بارد و شراب فور دعائه، لا فحسب، بل:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 4: 53- ابن بابويه القمي بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 262

وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44).

«أهله» تشمله زوجه، و بأحرى من سائر أهله، و قد كانت معه طيلة مصابه، فكيف‏ «وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ» ثم ماذا تعني‏ «وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ»؟

هذه الوهبة الربانية تشير إلى انفصالة بينه و بين أهله ضمن مصابه الواصل إلى قمته، فرجعها اللّه إليه قبل دعاءه- كما رجع سائر أهله، ثم أتم وهبتها إليه بعد استجابته، حيث لم يرفضها، و عالج موقفه من يمينه أن يضربها و لا يحنث.

ثم الميّتون من أهله خلال المحنة أحياهم اللّه و هم تتمة من أهله، و علّ مثلهم معهم عديد كأمثالهم ماتوا من ذي قبل فأحياهم معهم‏ «1» «رَحْمَةً مِنَّا» زائدة على زحمة حصلت‏ «وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ» أن اللّه لا ينسى الصابرين يوم الدنيا كما لا ينساهم يوم الدين.

و قد تعني‏ «مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» أنه أولد له مثلهم من ولده، و زوجة مثل زوجته، اللّهم إلّا هيه لو أنها ترفض الثانية فإنها على كونها رحمة له و لكنها- حسب العادة- لها زحمة و مشقة! و لكن «معهم» تلميحة لمعية الأهلية فليكونوا آهلين لعشرتهم، ساهلين في عشيرتهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 52 محمد بن يعقوب باسناده عن يحيى بن عمران عن هارون بن خارجه عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قلت: أحيا له ولده كيف اعطى مثلهم معهم؟ قال: أحيا له من ولده الذين ماتوا قبل ذلك بآجالهم مثل الذين هلكوا يومئذ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 263

و لأن النص لا يشير إلى إحياء ميت من أهله، و لا أنهم أو بعضهم ماتوا في هذه الفتنة، و أن «وهبنا» بعيدة عن إحياء، فقد تعني الهبة إرجاع أهله إليه كما كانوا قبل الابتلاء، ثم أولد له مثلهم معهم.

ثم و في أخذ الضغث- أن يضرب به و لا يحنث- دليل أنه كان ما حلف به مسموحا له غير ممنوع، تأديبا لزوجه في محنته، إلّا أنها لما رجعت عما صدر منها خفف اللّه عنها، و ليس ذلك حيلة شرعية فان اللّه ليس ليحتال لنفسه و هو طرف الحلف، و إنما احتراما للحلف و الحالف و المحلوف له كضابطة ثابتة في كافة الالتزامات، أن يحافظ عليها، مهما يخفف عن وطئتها حينما يخف سببها.

و في ذلك لمحة إلى مدى التخفيف عن مجازاة المجرمين، حين يخف الإجرام، أم في العقوبة زيادة على الاستحقاق كما في الزانيين الذين لا يتحملان الحد المقرر لهرم أو و مرض‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 317- اخرج احمد و عبد بن حميد و ابن جرير و الطبراني و ابن عساكر عن سعد بن عبادة قال: كان في أبياتنا انسان ضعيف مجدع فلم يرع اهل الدار الا و هو على امة من اهل الدار يعبث بها و كان مسلما فرفع سعد شأنه الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: اضربوه حده فقالوا يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه أضعف من ذلك ان ضربناه مائة قتلناه! قال: فخذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه واحدة ففعلوا!

أقول: ان صح النقل فلا بد من اثبات شرعي للزنا حتى يحكم الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بما حكم و هنا روايات اخرى بألفاظ اخرى يجمعها التخفيف عن الضعيف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 264

[سورة ص (38): الآيات 45 الى 48]

وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (47) وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (48)

اذكر ابراهيم في مختلف بلواه و صبره الحكيم، و إسحاق في محنته، و يعقوب في يوسفه‏ «أُولِي الْأَيْدِي»: الطاقات الروحية في مختلف شئون الاصطبار و العبودية، و «أولي الأبصار» و بصائر القلوب، حيث كانوا يبصرون نفاذا إلى الأعماق، و قد تعني «الأيدي» الأعمال الصالحة «و الأبصار» النظر الصائب الثاقب و الفكر السديد.

«إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ» فهم- إذا- من المخلصين الذين ليس للشيطان إليهم سبيل، كما درسناه هنا في أيوب، أ ترى «أخلصناهم» دون مقابل و ظرف صالح؟ كلّا، و إنما «بخالصة» حيث هم أخلصوا أنفسهم فليس «أخلصناهم» إلّا «بخالصة» و إنما خالصتهم هي ذكرى الدار، ذكرى خالصة دون شائبة: ذكرى اللّه في الدار الدنيا، و ذكراها أنها دار مجاز و ممر، و ذكرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 265

الدار الأخرى، انها هي الحقيقة و المقر، و قد تكون خالصة صفة للأيدي و الأبصار، أعمالا خالصة، و أبصارا خالصة، تجتمعان في‏ «ذِكْرَى الدَّارِ».

فهذه الذكرى ذات العلاقتين بالنشأتين، هي التي جعلتهم يخلصون أنفسهم للّه، و لكن بخالصة ليس ليخلصهم لحد العصمة المطلقة، فإنها إخلاص من اللّه يخالطه هي ذكرى الدار، فليدركهم إخلاص من اللّه.

فالعصمة الربانية هي في ظرف العصمة البشرية دونما فوضى جزاف، و لا ترجيحا دون مرجح! ثم‏ «ذِكْرَى الدَّارِ» هنا تذكّر لهم ثم تذكير لغيرهم دون اختصاص بهم، و إلّا لم يصلحوا لإخلاص العصمة الخاصة بالدعوة المعصومة.

«وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ» بن ابراهيم صادق الوعد «وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ» و قد نجد لهم نبأ في الأخبار «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في البحار عن الاحتجاج و التوحيد و العيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا (عليه السلام) فيما احتج به على جاثليق النصارى ان قال: ان اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى (عليه السلام) مشى على الماء و أحيي الموتى و أبرأ الاكمة و الأبرص فلم يتخذه أمته ربا- الخبر.

و

عن قصص الأنبياء الصدوق عن الدقاق عن الاسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني قال: كتبت الى أبي جعفر الثاني (عليه السلام) اسأله عن ذي الكفل ما اسمه؟

و هل كان من المرسلين؟ فكتب (عليه السلام) بعث اللّه عز و جل مائة الف نبي و اربعة و عشرين الف نبي مرسلون منهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا و ان ذا الكفل منهم و كان بعد سليمان بن داود و كان يقضي بين الناس كما يقضي داود و لم يغضب الا للّه عز و جل و كان اسمه (عويديا) و هو الذي ذكره اللّه جلت عظمته في كتابه حيث قال: «وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 266

هؤلاء الرسل هم اقطاب الاصطبار في اللّه على مختلف درجاتهم، فلتكن ذكراهم تسلية لخاطر النبي الأقدس و تقوية له في سفره الشاق الطويل الطويل، فهم رفاقه القدامى الذين عبّدوا له سبيل السلام و الإسلام عليهم السلام.

[سورة ص (38): الآيات 49 الى 64]

هذا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ (51) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (52) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (53)

إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (54) هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (56) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (57) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (58)

هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (59) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (60) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (61) وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى‏ رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (63)

إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 267

«هذا» الذي ذكر من ذكرى اصطبار المرسلين، أم هذا القرآن ككل «ذكر» فمن يتذكر به و هو الذي يتقي الغفلات‏ «وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ» لا في الأخرى فحسب، بل و في الأولى كما في جموع المرسلين، و طبعا إنّ للطاغين لشر مآب، و إلى حسن مآب للمتقين في دار الثواب:

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (50).

فلأن الأصل هو الجنة فلتكن مفتحة لهم الأبواب إلّا من أغلقها على نفسه بما قدم، و لكن النار ليست مفتحة الأبواب حتى يساق أهلوها إليها، فلهم ما قبل سوقهم مجالات لكيلا تفتح لهم أبوابها، من صالحات يوم الدنيا، و عقوبات يوم البرزخ، و شفاعات قبل سوقهم الى النار: «وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها ... وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها ...» (39: 73)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 268

حيث الواو في جيئة اهل الجنة حالية، و عدمها في جيئة اهل النار دليل فتحها فور وصولهم لا قبلها «1».

و مع ذلك الذكر المتواصل المديد لا تبقى للغافلين أية حجة يوم يقوم الأشهاد «2».

في هذه الجولة نرى تقابلا في المجموع و الأجزاء، في الأسماء و السمات و في الميّزات.

فهنا «لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ» و هناك‏ «لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ» هنا «جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ» و هناك‏ «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ» و يا له من مسرح هو مصرح لكل مآب و كأنه حاضر! ففي جنات عدن:

مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ (51).

لهم راحة المتكأ و راحة الفاكهة و الشراب، و كذلك لهم متعة الفتيات و الحوريات:

وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (52).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة الزمر في الفرقان.-

(2)

تفسير البرهان 4: 62 محمد بن يعقوب باسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: يؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي افتتنت في حسنها فتقول يا رب حسنت خلقي حتى لقيت ما لقيت فيجاء بمريم فيقال أنت احسن ام هذه قد حسناها فلم تفتتن، و يجاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه فيقول قد حسنت خلقي حتى لقيت من النساء ما لقيت فيجاء بيوسف فيقال أنت احسن ام هذا؟ قد حسناه فلم تفتن في حسنه، و يجاء بصاحب البلاء الذي قد اصابته الفتنة في بلائه فيقول يا رب قد شددت علي البلاء حتى افتتنت فيؤتى بأيوب فيقال بليتك أشد او بليته هذا فقد ابتلي و لم يفتتن!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 269

«قاصِراتُ الطَّرْفِ» على أزواجهن، لا تتعداهم إلى سواهم لا في طرف العيون و لا طرف القلوب، فهن لهم خالصات خالدات غير مشوبات، و هن «أتراب»: لدات منشآت مع بعض، متماثلات الجمال، متوافيات السن مع لداتهن و مع أزواجهن، و «أتراب» ك «ترائب» هي ضلوع الصدر المتقارنات.

هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (53) إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (54).

كما لا نفاد زمنا ليوم الحساب فلا حساب في مداه، كذلك لا نفاد «لرزقنا» «وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» هذه ضفّة الجنة و من ثم ضفة النار و أين ضفة من ضفة؟:

هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (56).

ان‏ «لَشَرَّ مَآبٍ» و هو أسوءه، و «يصلونها» و هو إيقاد النار، إنهما يشهدان أن «الطاغين» هنا هم رؤوس الطغيان، دون الأذناب الأتباع إلّا من هم كأمثالهم، فآيات الصلي كلها تختصهم دون من دونهم: «لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» (92: 15).

هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (57) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (58).

«هذا» حميم: شراب ساخن يحمّ «و غساق»: قيح شديد النتن يغسق و يظلم على آكله، كما غاسق الليل «و آخر» غير هذا «من شكله» في الحمة الحرارة، و النتن «أزواج» فكل شراب النار حميم، و كل طعامه غساق، على ألوانها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 270

هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (59).

ذلك هو الأصل في صلي النار، ثم و «هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ» في صلي النار، كما اقتحموا معكم في الطغيان، دخلوه على بصيرة من باطله، رغم وضوح الحجة وضح الشمس في رايعة النهار، فدخولهم- إذا- مع الطغاة اقتحام بمشقة و تعب، لأنه خلاف واضح الحجة و خلاف العقل و الفطرة، و ذلك طغيان على الحق و تعامي للحجج، فهم إذا طاغون أتباع، كما هؤلاء طاغون أصلاء، مهما اختلف طاغ عن طاغ، «لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ» فالأصلاء يدخلون النار قبلهم ليصلوها قبلهم صلاء أصيلا، ثم هم حشاشات على صلائهم! «فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ» و أنتم قائلون لهم: لا مرحبا- فإذا هم بمعاكسة القول:

بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (60).

أنتم الأصلاء في الطغيان أحق ب‏ «لا مَرْحَباً بِكُمْ» لأنكم‏ «أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا» حيث أضللتمونا «فَبِئْسَ الْقَرارُ»! قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (61).

لأن من سنّ سنة سيئة فعليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أوزارهم شي‏ء.

فهذه طلبة عادلة أن للمضلل عذابا فوق العذاب، و منه دخولهم قبلهم في النار للصّلي الأوّل الأصيل للنار.

وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى‏ رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (63).

«و قالوا» كل من في النار من الأصلاء و الفروع‏ «ما لَنا لا نَرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 271

رِجالًا» كنا نعرفهم يوم الدنيا و «كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ»، إذ كنا نعد أنفسنا من الأخيار، فمن يخالفنا- طبعا- كان من الأشرار.

و لماذا- فقط- رجالا- و النساء المؤمنات أمثالهم؟ لأنهن لا يبرز من حتى يعرفن.

فهؤلاء هم الأخسرون أعمالا «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» دون سائر الضالين الذين يرون أنفسهم في ضلال.

«أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا» يوم الدنيا خطأ منا؟ «أم» هم معنا في النار و لكن‏ «زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ» و بينما الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان، يرونهم إذ يتراءون.

إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64).

النار عذاب من ناحية، و تخاصم أهل النار عذاب فوق العذاب، و ليس في الجنة تخاصم إلّا وئام تام.

[سورة ص (38): الآيات 65 الى 88]

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69)

إِنْ يُوحى‏ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70) إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (71) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (74)

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (75) قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ (78) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79)

قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (84)

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (87) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 273

«إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ» يثبت أصالة التوحيد و وساطة الرسالة، ثم‏ «قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ» هل يعني نبأ التوحيد لأقربيته في المكان و المكانة؟ و احتفافه بذكرى القرآن: هذا ذكر «ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏» يقرّب نبأ القرآن كما و «إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ» يسمح أنه نبأ الرسالة، و سابق ذكر المعاد يلحقه بنبإ عظيم! «1».

قد يعني‏ «النَّبَإِ الْعَظِيمِ» ذلك المربع العظيم على الأبدال، على مختلف الدرجات في عظمها، و «أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ» صادق بالنسبة للكل بين مختلف المكذبين المعرضين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و الروايات القائلة ان امير المؤمنين هو النبأ العظيم هي من باب الجري و التفسير بالمصداق المختلف فيه الحاقا بالمتفق عليه و هو الرسالة كما فصلناه في سورة النبأ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 274

و لان النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، فما أعظم عظيمه، و لكن حماقى الطغيان هم عنه معرضون! ثم‏ «إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ» يحصر كيانه الرسالي في الإنذار كتكليف عام للرسول بالنسبة للعالمين أجمعين، و كونه بشيرا يختص بمن يتأثر بالإنذار.

إذا ف‏ «ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» تخلّ له عن علم الغيب إلّا ما يوحى إليه: «إِنْ يُوحى‏ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ».

«بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏» نجده هنا، و ثانية في الصافات: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ» (8).

و لأن «الأعلى» هنا أفعل مطلق، فملأه أعلى بصورة مطلقة مكانة أو و مكانا، و هم أمناء الوحي تكوينا و تشريعا من الكروبيين.

فقبل أن ينزلوا الوحي من قبل اللّه على الرسول‏ «ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏» و لكنه يعلم بما يوحى قدر ما يوحى، أ ترى ذلك الملأ أعلى حتى من الرسول الذي‏ «دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏»؟ كلّا! حيث الأعلى مكانا ليس هو الأعلى مكانة، و الرسول و هو «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» لا ريب أنه أعلى من كل أعلى إلّا ربه الأعلى! و لأن الرسول ليس ملأ كشخص، ف «الملأ الأعلى» غير مفضلين عليه، إلّا على سائر الملإ، و حتى إذا كان ملأ فهو مستثنى عن مطلق الأعلى.

و ترى فيم كانوا يختصمون؟ قد يكون هو الاختصام في خلق الإنسان: «إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ...» و لكن اين هنا الاختصام إلّا بين إبليس و ربه؟ و ليس الرب من الملإ، و لا إبليس من ملاء عال فضلا عن الأعلى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 275

او أن اختصامهم مطوي عنه هنا، مذكور في البقرة: أ تجعل فيها ...

و لكنه- ايضا- ليس اختصاما بينهم، بل سؤال استفهام عن اللّه كيف يجعل فيها من يفسد فيها؟.

ثم- و على أية حال- كيف يختصم الملأ الأعلى و فيم يختصمون، و هم عباد مكرمون لا يعصون اللّه ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون؟

هنا الاختصام- و بقرينه الافتعال- ليس ليعني الخصومة، و إنما هو الحوار حول الوحي النازل إليهم و ما سوف يتنزل، و تقدّم الوحي عليهم ثم إلى الرسول، لا يقدّمهم في مكانة الوحي على الرسول، فما هم إلّا وسائط الوحي الرسالي للرسول «و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»!.

و قد يعني الاختصام- فيما يعنيه- ما علّه حصل من‏ «إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ» كما تلمح له: إذ قال ربك ... فحار المحتار منهم لذلك الإختيار و حصل الحوار: «إِذْ قالَ رَبُّكَ ...».

و لقد فسرنا قصة آدم و الملائكة و إبليس في مواضيع عدة، و هنا زيادات في تنبيهات:

1- «وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» تبين نفاقه حين كان مع الملائكة فأبرز كفره حين الأمر بالسجود، و لو كان من الملائكة ما عصى فضلا عما كفر و منذ الأول، كلّا! إنه‏ «كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ».

2- «لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» ترى الظرف يتعلق ب «خلقت»؟ خلقته بيدي «استكبرت» عليّ؟ أم‏ «بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ» حيث خلقتك أيضا بيدي، و أقدرتك بيدي؟

قد يعنيهما «بيدي» و ما أحلاه جمعا جامعا للتنديدين بهذا اللعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 276

و ترى ما هما اليدان هنا و في أمثاله: «بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ» (5:) 64) و اليد مفردا في سواه: «قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (23:) 88)؟

اليد هنا و هناك كناية عن القدرة و النعمة و السماحة، و علّهما هنا و في أضرابهما كناية عن كرامة القدرة القمة، حيث الخلق تختلف حسب الدرجات في القابليات و الفاعليات و العطيات: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ».

و علّ اليدين هنا يد الخلق لجسم آدم و روحه، حيث الشيطان تناسى اليد الثانية و أكبّ إلى الأولى ففضّل نفسه على آدم: «قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» و لو أن إبليس نظر إلى نورية آدم و لم ينظر إلى نارية نفسه لم يكن منه ما كان! و إنه الحسد ينضج من ذلك الرد الكافر، و التغافل عن العنصر الكريم الزائد على الطين في آدم! «استكبرت» عليّ ام على آدم، و الأول كفر و الثاني فسق، و قد جمع بينهما، فاستكبر على اللّه و على آدم‏ «أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ» على اللّه؟ و لا إله إلا اللّه! أم على آدم، و ليس العلو إلّا بعلو الروح، و حتى إذا كنت من العالين على آدم فليس لك أن تعلو على اللّه في أمر آدم، فإنه‏ «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ».

و يلوح من جوابه كأنه من العالين على آدم: «قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ...» و لكنه استكبار على اللّه، تحكيما للقياس الباطل على حكم اللّه.

و ترى هنا «العالين» على آدم و قد خلق في أحسن تقويم؟ أجل، عالين على آدم لا على كل الناس، فأهل بيت الرسالة المحمدية هم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 277

العالون على آدم و من فوقه من النبيين، و لكنهم لو كانوا يؤمرون أن يسجدوا اللّه شكرا لما خلق أباهم آدم لما كانوا يتركون! هنالك صدر الأمر برجم الشيطان الرجيم: «قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ» و ما هو مرجع ضمير المؤنث في «منها»؟ إنه الجنة التي كان فيها آدم:

«فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» (7: 13) دون الرحمة إذ لم يكن الشيطان في الرحمة و لم يسبق ذكر إلّا للجنة! هنا اللعين يستنظر ربه إلى يوم الدين، فيستجاب‏ «إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» «1» و لو كان هو- فقط- يوم الدين لكان الجواب- كذلك- هو يوم الدين، و علّ الوقت المعلوم يعني يوم الدين نهاية، و يوم القائم مهلة واسعة، حيث يضيق عليه بين اليومين لأنه من أيام اللّه، فلا دولة فيه للشيطان مهما كانت له بعض السلطة! و هنالك يتهدد اللعين الرجيم ذرية آدم، تحددا لمنهجه و طريقه معهم:

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. 82 إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 83 و ليس استثناء المخلصين تطوعا منه و تراحما، و لكن عجزا، فان اللّه هو الذي أخلصهم: «إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» إذا فالمخلصون في خطر عظيم و أعظم منهم غيرهم، و المخلصون لا خطر عليهم.

قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ 84. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ‏ 85.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فصلناه في سورة البقرة و غيرها فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 278

و ترى «منهم» تعني من المجموعة، فالمخلصون- فقط- هم لا يدخلون الجحيم؟ و هذا خلاف الضرورة و النص أن الجنة هي للمتقين، سواء السابقين و أصحاب اليمين، و كل من رجحت حسناته على سيئآته أمّن هو، أم تعني التابعين، العائشين بحساب الشيطان الرجيم، ف «من تبعك» لا تعم من تبعه في صغائر، أم و في كبائر مكفرة بتوبة ام شفاعة! أم «لأملأن» لا يدل على حتمية العذاب ف‏ «إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا».

و لكن الداخلين هنا هم كافة المكلفين من أهل التقوى و الطغوى، ثم ينجوا أهل التقوى، و النص هنا «مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ».

ثم و ملأ الجحيم ممن تبعه منهم يعم الداخلين الخالدين، مؤبدين و غيرهم، كما يعم غير الخالدين، و هؤلاء الثلاث هم تابعوه، الذين يعيشون على حسابه، دون المتقين على درجاتهم‏ «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ...».

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ‏ فلا أتصنّع و أتحلّى بما ليس لي، و لا اماري حتى في عدم سؤال الأجر، فمن الدعاة من لا يسأل أجرا على تكلف و تصنّع، أو يدعي فوق مكانته على تكلف، و لكن‏ «وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» كما هو لائح من كل أقوالي و أعمالي، لا نعرف تكلفا و لا يعرفنا تكلف طول الحياة رسالية و قبلها.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ‏.

إن القرآن، و إن نبي القرآن إلّا ذكر للعالمين، و لتعلمن نبأ ذلك الذكر بعد حين، إذ تتذكرون هنا بذكراه، أم تعرضون فذكراه حين الموت، ثم ذكرى بأكملها حين الحساب، أحيان ثلاثة، ينفع أولاها، ثم ولات حين مناص، إذ فات يوم خلاص.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 279

سورة الزّمر مكيّة و آياتها خمس و سبعون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 281

[سورة الزمر (39): الآيات 1 الى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى‏ مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (4)

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لا يَرْضى‏ لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (7) وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (8) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (9)

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (10) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14)

فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (16)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 284

نتسمى هذه السورة بالزمر لأنها تتحدث عن الزمر جملة و تفصيلا، ففي جملتها سوق الذين كفروا إلى النار زمرا و سوق الذين اتقوا إلى الجنة زمرا، و تفصيلا حيث تتحدث على طولها عن زمر الجنة و زمر النار.

و كلها تحوي محوى موضوع واحد هو توحيد اللّه تعالى، طائفة بالقلب في تعاقب جولاتها تطبع فيه حق التوحيد و التوحيد الحق، و تمنع عنه تسرّب كل شرك، حيث تستعرضها في صور شتى.

و تقارب آياتها في صلاتها يبرزها كأنها نزلت كما الّفت و الّفت كما نزلت، حيث الصلة الأليفة تبعّد اختلاف تاليفها عن تنزيلها، و ليست بذلك بدعا من السّور فكم لها من نظير.

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إنا أنزلنا.

كما أن إنزال الكتاب من اللّه العزيز الحكيم كان جملة في إحكام في ليلة القدر دفعة دون تدريج، كذلك تنزيل الكتاب تفصيلا في تدريج طول البعثة هو من اللّه العزيز الحكيم‏ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (11: 1) ف «الكتاب» المنزّل هو المنزل مهما اختلفت صورة الجملة عن صورة التفصيل.

(تنزيل الكتاب) مبتدأ و (من اللّه) خبره المؤكد، أو أنه خبر للبسملة، أنها تنزيل الكتاب في تفصيله المجمل فإنها تحوي الكتاب جملة كما الكتاب كله تحويه تفصيلا، أم إنه خبر ل (هذا) أمّاذا من مبتدء؟ و كلّ محتمل و الأول أجمل وفاقا لأدب اللفظ دون حذف، و لأدب المعنى حيث أردف التنزيل بالإنزال.

فعزة اللّه و حكمته باهرتان في هذا التنزيل كما هما في ذلك الإنزال، و من تنزيل الكتاب‏ (تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 285

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2).

(إنا أنزلنا) تأكيد مثلث في (إن) و تكرير (نا) لجمعية الصفات في مثلث الحق: (أنزلنا بالحق) (إليك بالحق) (الكتاب بالحق) حق أنزل إلى حق إنزالا بحق، نور على نور يهدي اللّه لنوره من يشاء، و من لم يجعل اللّه له من نور فما له من نور! فالحق سمة الكتاب في أصله و نزوله و منزله، أ ترى كيف بالإمكان تسرّب الباطل في ذلك الحق؟! إذا (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) و (الدين) يوم الدنيا هو الطاعة، و هو يوم الأخرى جزاء الطاعة، و هو بروز حقيقة الطاعة و لا جزاء لها إلّا هي، (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ): الطاعة، في عبادة السر و العلانية، في النية و العقيدة المطوية، و في أعمال الجارحة الظاهرة جهارا و خفية، دون شرك و لا رئاء الناس أمّن ذا حتى نفسك، متخليا عمن سوى اللّه، متحليا باللّه.

فإخلاص الطاعة لغير للّه إلحاد في اللّه، و مشاكسة الطاعة للّه و لغير اللّه إشراك باللّه، و إخلاص الطاعة للّه توحيد في طاعة اللّه‏ (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) أنت يا حامل الرسالة السامية، لتكون نبراسا تنير الدرب على الدينين كيف يدينون اللّه في طاعته و عبادته! و لتقوم الحياة فرادى و جماعات على هذا الأساس، مراسا في إخلاص و إخلاصا في ذلك المراس، و ليكون متراسا و جاه كل إشراك باللّه في أي حقل من الحقول.

ليس الدين الخالص كلمة تقال، فكثيرون يتكلمون بالإخلاص و لا يدينون، إنما هو منهاج حياة في كافة الجنبات يبدأ من تصور فتصديق فاعتقاد، و ينتهي إلى نظام عملي في حياة الفرد و الجماعات.

(ألا): فانتبهوا- إعلانا عاليا مدوّيا في إذاعة قرآنية، و تعبيرا جليا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 286

جليلا مجلجلا للعالمين أجمع: «أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ» فكما له الألوهية و الربوبية الخالصة دون ندّ و لا ضد و لا شريك، كذلك له الدين الخالص طاعة و عبادة، فلا يعبد في ميزان اللّه- و هو الحق- إلّا اللّه، و لا يطاع إلّا اللّه، اللّهم إلّا من يحمل رسالة اللّه كوسيط في طاعة اللّه ف‏ (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ).

أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3).

إنه لا ولي في كافة معاني الولاية الحق إلّا اللّه، أمّن يلي شرعة اللّه و الدعوة كوسيلة إلى اللّه: (وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ) يعبدونهم من دون اللّه، لقد هرفوا فخرفوا في أسطورتهم العاذرة في تخيّلهم: (ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏): (وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (10: 18)! عبادة غير اللّه يبعّد العابد عن اللّه، لأنها تسوية باللّه، فكيف تعبّد طريقا إلى اللّه: (لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏)؟! فالمعبود الوثن لا يعقل، فلا يقرّب و لا يبعّد إلّا تبعيدا في فعل العابد، و المعبود الطاغوت طاغ على اللّه فكيف يقرّب إلى اللّه زلفى، و المعبود العابد من ملك او نبي أمّن ذا من الصالحين هم يتقربون إلى اللّه بدينه الخالص، و يقرّبون إليه بالدين الخالص، فكيف يقربون إلى اللّه زلفى بما ينافر دعوتهم في بعديها؟ بثالوث العبادة الخاسرة الكاسرة! و

لقد احتج الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حجاجه مع قادة الأحزاب، على مشركي العرب قائلا: (و أنتم فلم عبدتم الأصنام من دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 287

اللّه؟ فقالوا: نتقرب بذلك إلى اللّه تعالى، فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أو هي سامعة مطيعة لربها عابدة له حتى تتقربوا بتعظيمها إلى اللّه؟ فقالوا: لا- قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): فأنتم الذين نحتّموها بأيديكم فلإن تعبدكم- هي لو كان يجوز منها العبادة- أحرى من أن تعبدوها إذا لم يكن أمركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم و عواقبكم و الحكيم فيما يكلّفكم) «1».

و في الحق إن تسوية غير اللّه باللّه في أية منزلة من منازل الربوبية ضلال مبين: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26:) 98) و ظلم عظيم: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) فكيف تكون- إذا- حال من يعبد من دون اللّه و لا يعبد اللّه، زعم أنه يقرب زلفى إلى اللّه؟ إنه أظلم و أطغى و أضل سبيلا! حيث الزلفى هي القربة الزلفى‏ «2» الراجحة على قربة العبادة دون إشراك! فيا لهم مراما ما أبعده أن يعتبروا عبادة غير اللّه أفضل و أحظى من عبادة اللّه.

و هكذا خيّل الى بعض الصوفية إذ يوجهون خطابهم في‏ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) إلى صورة المرشد القطب، زعما أنهم لا يليقون لخطاب دون فصل لبعدهم عن ساحته تعالى و بعده في محتده عنهم، فليعبدوا مقربا عند اللّه ليقربهم بذلك إلى اللّه! و هم بذلك يزدادون بعدا عن اللّه، كما ازداد طاغوتهم بعدا على بعد (ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ)! و هم بهذه الهرطقة الجاهلة القاحلة ينزّلون الرب عن ساحته، و يمسون من كرامته،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الاحتجاج للطبرسي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حديث طويل و فيه:

ثم اقبل على مشركي العرب ...

(2) الزلفى هي مؤنث أزلف فهي افعل تفضيل في القرب و الحظوة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 288

مخالفين أمره في عبادته الخالصة، و رافعين درجة من يزعمونهم عباده إلى درجته الخاصة! (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) () حكم) بين الموحدين و سواهم، و بين المشركين في مختلف شركهم، و بينهم و شركائهم، و المشركون هم المحكومون في هذه الثلاث ل (إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ) في إشراكه باللّه، (كَفَّارٌ) لأنعم اللّه، لا هدى في الأولى و لا في الأخرى، فالإشراك باللّه محكوم في كافة المحاكم العادلة، لدى الفطرة و العقل و الشرعة الإلهية، و لا يملك أية برهنة إلّا حجة داحضة (ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏) (ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها)! لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى‏ مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (4).

(لو) تنحو نحو الممتنع، حيث اتخاذ الولد له يمتنع، و لماذا يتخذ ولدا؟ أ لكي يرثه بعد موته؟ و هو الوارث لخلقه حيا لا يموت! أم ليسانده في سلطانه؟ و هو المساند لكل سلطان، غنيا لا يستند و لا يساند! أم لوحشة عن وحدة؟ و وحشة الوحدة ليست إلّا لضعيف عن ضده الأقوى، و لا ضد له فضلا عن الأقوى! أمّا ذا من أسباب اتخاذ الولد؟ و هي كلها مستأصلة عن ساحة الربوبية: (قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ) (10: 68)؟

كل ذلك في بوتقة الاستحالة حيادا عن فقره تعالى و نقصه، كذلك و التبنّي تشريفيا فإنه مجاز فيما تجوز حقيقته: (وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 289

مُكْرَمُونَ ... (21: 26) فهم المصطفون في العبودية دون البنوة التشريفية.

و مع الغض عن هذه الاستحالة «لاصطفى» هو «مِمَّا يَخْلُقُ» 5 «ما يشاء» دون نظرة لاصطفاء المشركين ما يختلقونه كما يشاءون! «سبحانه» عن أن يتخذ ولدا، أو يصطفي مما يخلق ما يشاء ولدا، أو يصطفيه غيره ما لا يشاء له ولدا، لأنه‏ «هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» واحد لا يثنى باتخاذ ولدا أو اصطفاءه، و قهار لا يحتاج إلى ولد يرثه أو يسانده! ... و لكنهم اصطفوا للّه ولدا ليسوا ليصطفوه لأنفسهم‏ «أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً» (17: 40)؟

و لو تخطّينا هذه الاستحالات فاتخذ اللّه ولدا، أم ولد لأبعد تقدير، لم يكن لزامه أن يشرك به إلّا بإذنه دون الأهواء «سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ».

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5).

آية فريدة في تكوير الليل و النهار على بعض، قد تعني معنى فريدا من الملاحم الغيبية هو كروية الأرض و دورانها.

تكوير الشي‏ء إدارته و ضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، فتكويره على شي‏ء ادارته عليه منضما إليه، فكل من الليل و النهار دائر على زميله منضم إليه، فالكرة الأرضية تنقسم دائبا إلى أفقي الليل و النهار، متصلين ببعض، و كلّ ركب الآخر دوريا، و كما هو الثابت علميا و المشاهد عينيا، فلا وقت من الأوقات و لا آن من الأوان، إلّا أن نصف الكرة ليل و النصف الآخر المقابل له نهار، فكل مكوّر على الآخر، و هما حسب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 290

الفصول و الأيام في تبادل التناقص و التزايد: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ» (22: 61) و هما متلاحقان حثيثا: «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً» (7: 54).

فكلما تدبر الشمس عن أفق يقبل فيه الليل فيغشى النهار في طلبه الحثيث، و كلما تقبل يدبر فيه الليل فيغشاه النهار! فلولا كروية الأرض لاستحال تكوير كلّ من الليل و النهار على الآخر، فإما ليل فقط أم نهار فقط! و لولا دوران الأرض لاستحال إيلاج كل في الآخر، و غشيانه الآخر هو الآخر!.

كور الليل من ناحية و كور النهار من أخرى يقتضيان دورين للكرة الأرضية، فلولا كور السطح نهارا لم يكوّر النهار على الليل، و لولا كور السطح المقابل ليلا لم يكوّر على النهار، حيث التقابل المسطح ليس كورا، فإنما هو التقابل النصف دائري لمكان الكورين.

فهذه الآية ترسم أنسق تعبير و أدقه لكور الأرض و دورها حول نفسها و حول شمسها، لا نجده في الصلاحات الجغرافية طول التاريخ الجغرافي! ثم في الآية ثلاثة مواضع تدلنا على إمكانية و لزوم المعاد الحساب:

«خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ».

فعلى حق الخلق فيهما يحق المعاد، و لو كان باطلا لبطل المعاد: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ» (38: 27) «ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (44: 39). فلو كانت الحياة هي الدنيا لحقّ فيها الحساب، و إذ لا حساب هنا على الظلم الوفير فخلق العالم باطل لولا عالم الحساب.

ثم في تكوير كلّ من الليل و النهار على بعض تقريب لإمكانية الحياة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 291

بعد الموت كما الموت بعد الحياة، و هما لإحياء الإنسان حياة لائقة كما أن الليل و النهار حياة في الأولى سباتا و إبصارا «1».

و أخيرا في جري الشمس و القمر لأجل مسمى دليل ثالث على أجل مسمى.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6).

«خلقكم» نوع الإنسان الحالي في طوله التاريخي و عرضه الجغرافي، دون المخاطبين فقط زمن النزول حيث الخطاب من زمرة القضايا الحقيقة، لا الواقعية الفعلية، فهي كآية النساء: «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَ نِساءً ...».

«مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ» بادئ الخلق آدم ابو البشر، دون ثانيه و ما يتلوه فإنه من نفسين اثنتين لا واحدة «ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها» بعد ما خلق النفس الواحدة و فيها خلقكم جملة كبداية، جعل منها زوجها و فيه خلقكم تفصيلا، ثم لا ثالث لتفصيل الخلق كما لا ثاني لجملته، إذا فمبدأ النسل الإنساني ككل في تفصيله ليس إلّا نفسين، و أسطورة الحورية و الجنية، على تضارب الروايات فيها، لا توافق القرآن هنا و لا سيما آية النساء «وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَ نِساءً،» و هم «الناس» المخاطبون أجمع، فلو كان هنالك لبثّ الناس، رجالا كثيرا و نساء، مدخل من ثالث و رابع لكذب القول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية 39 من الدخان ففيه تفصيل الدليل على البعث على ضوء حق الخلق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 292

«منهما» و الآية في مقام العرض لواقع التناسل أولا و أخيرا! و «جَعَلَ مِنْها زَوْجَها» هنا و «خَلَقَ مِنْها زَوْجَها» هناك تعبيران عن خلق الزوج الأول المجعول لنفس واحدة و «منها» جنسية و نشوية، فهما متجانسان، لا في البداية فحسب، بل على طول الخط كما تلمح له «ثم» الدالة على التراخي، و ليس خلقكم إلّا بعد ما جعل منها و خلق زوجها، و هذه دلالة ثانية ترفض ثالثا و رابعا من حورية و جنية و هما ليستا «منها» ثم «زوجها» ناشئة منها في البداية و لا تنشأ الحورية و الجنية من الإنسان على أية حال، كدلالة ثالثة على إبطال هذه الأسطورة، و تفصيل البحث عنه تجده في آية النساء مما يشي ككل بوحدة التصميم الأساسي لهذا الكائن الإنساني مبدأ «نَفْسٍ واحِدَةٍ» و تناسلا «جَعَلَ مِنْها زَوْجَها» دون تدخّل لكائن آخر أولا و أخيرا.

«وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ...» أ نزولا من السماء إلى الأرض؟ و ليس اللّه إله السماء فقط أو ما كن السماء حتى يعني إنزاله لنا رحمة إنزالا من السماء «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» (15:) 21) و معلوم أن العندية هنا ليست مكانية إذ ليس له مكان، و إنما عندية العلم و القدرة و الرحمة، فتنزيله ككل، و إنزال ثمانية أزواج، إنزال لرحمة من عنده، نزولا من عليائه إلى دنيا البشر

«فإنزاله ذلك خلقه إياه» «1»

كما «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ...».

هذا، و لا يعني الإنزال من السماء إلّا في تصريحة بالسماء «وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ ...» (3: 164) و «ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ» مفسّرة في آية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 476 عن الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال في الآية: فإنزاله ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 293

الأنعام: «وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً ... ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ‏ ... وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ...» (142-) 144).

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ‏.

فلنا في بطون أمهاتنا خلق بعد خلق في ظلمات ثلاث، فما هما الخلقان و ما هي الثلاث؟ «خلقا بعد خلق» تشير إلى التطور الخلقي الجنيني منذ النطفة إلى إنشائه خلقا آخر: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (23: 14).

ف‏ «سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» هي المني الذي جعل في قرار مكين‏ «أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى‏» (75: 37) ف «خلقا بعد خلق» لا تعني اثنين، و إنما تطور الخلق في مراحله السبع هذه‏ «1» و الظلمات الثلاث هي «ظلمة البطن و ظلمة الرحم و ظلمة المشيمة» «2» و هي الكيس الذي يغلف الجنين، و هو يستقر في الرحم المستقر في البطن، و يد اللّه تخلق هذه الخلية الصغيرة في مراحلها و ظلماتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع آية العلق في سورتها من تفسير الفرقان ج 30 ص 363- 365، تجد فيه كيفية انعقاد النطفة و ما يليها من الخلق بعد الخلق.

(2)

نور الثقلين 4: 477 في المجمع هو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام) و في كتاب التوحيد للمفضل بن عمر المنقول عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الرد على الدهرية قال: سنبتدئ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به فأول ذلك ما يدير به الجنين في الرحم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 294

الثلاث، و عين اللّه ترعاها، و هل للعلماء مع كشوفهم العلمية المتقدمة و جهودهم المتواصلة واحدة من هذه المراحل في الأضواء، فضلا عن السبع و في ظلمات ثلاث.

و إنها رحلة قصيرة الزمن بعيدة الآماد، غريبة الأبعاد في مختلف التطورات لخليّة هزيلة في تلك الظلمات إلى إنسان كامل الأعضاء! و هو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن و ظلمة الرحم و ظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء و لا دفع أذى و لا استجلاب منفعة و لا دفع مضرة فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات فلا يزال ذلك غذائه حتى إذا كمل خلقه، و استحكم بدنه، و قوى أديمه على مباشرة الهواء، و بصره على ملاقاة الضياء، هاج هذا الطّلق- بأمه فأزعجه أشد إزعاج- ذا عنفة حتى يولد! سبحان الخلاق العظيم!- رب إنك‏

«ابتدعت خلقي من مني يمنى ثم أسكنتني في ظلمات ثلاث بين لحم و جلد و دم، لم تشهر بخلقي و لم تجعل الي شيئا من أمري ثم أخرجتني الى الدنيا تاما سويا» «1»

ف‏

«ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ»؟ أ فتعبدون ما لا يضركم و لا ينفعكم و لا يخلق شيئا؟ «أم هذا الذي انشأه في ظلمات الأرحام و شغف الأستار نطفة دهاقا و علقة محاقا و جنينا و راضعا و وليدا و يافعا» «2»!

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لا يَرْضى‏ لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من دعاء الامام الحسين (عليه السلام) يوم عرفه: و ابتدعت خلقي ...

(2) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 295

(7).

رغم هذه النعم السابغة، سابقة و لاحقة ف‏ «إِنْ تَكْفُرُوا» باللّه كفرا أو كفرانا «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَفِيظٌ» (11: 57) «وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً» (9: 39) «فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ» لا تنقصون منه فتيلا و لا تزيدونه كثيرا و لا قليلا.

فلا شكركم ينفعه شيئا و لا كفركم يضره شيئا «وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ» (47: 38) و إنما يأمركم بشكره حيث‏ «وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» لا له‏ «وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ...» (27: 40) يرضى شكره لكم طاعة و عبادة لصالحكم أنتم‏ «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» (14: 8) و «عباده» هنا كل عباده، لا الشاكرون فقط، إذ ينقلب إلى عكسه في الكافرين، فيرضى لهم الكفر و لا يرضى لهم الشكر! و فيه إعذار للكافر في كفره و تركه لشكره، فإنما المكلف بالشكر هو الشاكر بطبعه لا سواه! ف‏ «لا يَرْضى‏ لِعِبادِهِ» نفي لرضاه الكفر تكوينا و تشريعا، و لذلك ينهى عنه على أية حال، و لكنه ليس ليحملهم على شكره و ألّا يكفروا تسييرا حيث التكليف يتطلّب الإختيار.

ثم الرضا و الغضب من اللّه كسائر صفاته، لا تعنيان فيه تعالى تحوّل الحال، إذ لا يتغير بانغيار المخلوقين شكرا أو كفرا أماذا؟ من غيار، فرضاه هي موافقة المصلحة فالثواب، و غضبه خلافها فالعذاب، و كل من الثواب و العقاب هو صورة واقعية تبرز يوم القيامة عن الشكر و الكفر صورة طبق الأصل، ف‏ «ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 296

«وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏» «1» لا يحمل الشاكر وزر الكافر، و لا يحظو الكافر حظو الشاكر مهما تقاربت الأنساب أم تغاربت، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏»- «ثم» بعد ما تقضون هذه الأدنى «إلى ربكم» في ربوبية الحساب و الجزاء بعد ربوبية التكليف «مرجعكم» إليه فقط لا سواه، فإنه هو ربكم لا سواه «فينبئكم» بعد تغافل في تساهل‏ «بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» إن خيرا فخير و إن شرا فشر- ل‏ «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ».

وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (8).

هذه هي سيرة الإنسان و سريرته، أن فطرته و هي الأصيلة في كيانه، تبرز عارية في حالة الضر، متكشفة عن غبارها، ساقطة عنها ركامها و أوهامها، حين تنقطع الأسباب و تحار الألباب، حينئذ يتناسى الإنسان كل سبب لفشلها، و يذكر ربه مصلحيا ف‏ «دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ» راجعا عما كان يدعو- في غير ضره- إليه، نوبة بعد أخرى‏ «ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً» أعطاه نعمة عظيمة بعد أن كشف ضره، و كلّ نعمة هناك عظيمة، فكشف الضر نعمة، و إعطاء نعمة بعده نعمة على نعمة «نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ» من ضر منيبا إليه و

«نسي التوبة إلى الله» «2»

: «وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفصيلها الى الآية في سورة النجم.

(2) «ما» بين موصولة و موصوفة ففي الاولى تعني «الضر» و في الثاني تعني التوبة حال الضر و هما هنا معنيّان، و الثاني نص الحديث التالي في نور الثقلين 4: 478، ح 16

في روضة الكافي باسناده عن عمار الساباطي قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه عز و جل: «وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ ...» قال: نزلت في أبي الفضيل انه كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عنده ساحرا فكان إذا مسه الضر يعني السقم دعا ربه منيبا اليه يعني تائبا اليه من قوله في رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 297

«الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ ...» (10: 12).

«ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ» ليس إلّا ضره و توبته لا ربّه، فإنه كان عند ضره يدعوه و لا يدعو إليه، و التعبير الصريح عن اللّه هنا «نسي ربه» و «ما» لا تناسب ساحته و هو المعبّر هنا عن نفسه المقدسة، ثم‏ «وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً» هي الاخرى قرينة على انه ليس ربه و إلّا لاكتفى بضميره «و جعل له ...»!

«نَسِيَ‏ ... وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً» كما كان قبل ضره، و الند هو المشارك في جوهر الذات فهو أعم من المثل المشارك في الذات و الصفات، و الأنداد هنا تعم الوسائل الظاهرة التي يعيشها بعد ما بطلت، و الأوثان بعد ما ضلت، و سائر المحاولات بعد ما كلّت، فاضطر- بعد ثالوث الأنداد التي تبنّاها في حياته- أن ينيب إلى ربه، و بعد ما خوّله نعمة منه نسي إنابته إليه و جعل للّه أندادا في ثالوثها المنحوس‏ «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ» التي اتضحت في ضره، تغطية على تعطية الرب، كأنها من الأنداد، و ما أخونه و أظلمه و أكفره، أن يقضي وطره من إنابته حين ضره، ثم يخيّل إلى المستضعفين أن الأنداد هي التي كشفت ضره و خولته نعمته.

«قل» لهذا الكفور المبين و الأحمق اللعين‏ «تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا» و كلّ متاع الدنيا بحياتها قليل‏ «إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ».

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (9).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يقول‏ «ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ» يعني العافية «نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ» يعني نسي التوبة الى اللّه عز و جل مما كان يقول في رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه ساحر و لذلك قال اللّه عز و جل: قل تمتع بكفرك قليلا إنك من اصحاب النار ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 298

هناك صورة مطموسة نكدة مرهقة تقابلها هنا صورة و وضيئة و وضاءة مرهفة، حساسة و شفافة مشرقة، أ تلك هي الخيّرة النيّرة «أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ» يلزم الطاعة متخضعا «آناءَ اللَّيْلِ» «نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» حال كونه فيها «ساجِداً وَ قائِماً» و علّ «راكعا» هنا مضمّن في «ساجدا» بقرينة «قائما» و إنّ الصلاة هي خير موضوع فهي خير قنوت! «يَحْذَرُ الْآخِرَةَ» حذرا عن موجبات عقابها على أية حال‏ «وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» رجاء بما يقدمه من صالحات تصلح للرجاء، فهو عائش حياته بين الخوف و الرجاء.

فأين تلك الجهالة الحمقاء الخواء، و هذه المعرفة اللئلاء «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ» قانتين في سجود و قيام، عائشين بين الخوف و الرجاء على الدوام، «وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» المضلون عن سبيل اللّه؟

فالعلم المخرج عن الإستواء هو المعرفة باللّه و تحقيق مرضاة اللّه، مهما جهل مختلف الصّلاحات من علم الظاهر او علم: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

فربّ عالم لا عقل له و لا معرفة، و أعلمهم إبليس اللعين، و ليست الرفعة في ميزان اللّه إلّا للإيمان و معرفة الإيمان: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ» (58: 11) فالأصل هو الإيمان، و المعرفة هي سبيل الإيمان.

هنا «الَّذِينَ آمَنُوا» و «الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» و «أُولُوا الْأَلْبابِ» فهل الأولون و الآخرون سواء، في اللّاسواء بينهم و بين‏ «الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»؟

أمّاذا؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 299

علّهم هم فإنهم من الذين يعلمون، أم هم ليسوا هنا إياهم حيث الشاهد يختلف عن المشهود لهم أو عليهم، فكما أنهم ليسوا من‏ «الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» كذلك ليسوا من‏ «الَّذِينَ يَعْلَمُونَ» مهما كان من أولي الألباب من يعلمون، فان منهم من هم في سبيل العلم و لمّا يعلموا، فألبابهم تدفعهم لأن يعلموا ثم يعلموا، و من‏ «الَّذِينَ يَعْلَمُونَ» من هم فوق أولي الألباب، كالمعصومين (عليهم السلام) و لم يسبق التعبير عنهم باولي الألباب كما «يسمّون قوّامين فإنهم تخطّوا درجات الإيمان إلى محض الإسلام»: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً. رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ ...» (65: 11) «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» (39: 18).

فقد ينطبق هذا التقسيم الثلاثي على المروي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) «لقد ذكرنا الله عز و جل و شيعتنا و عدونا في آية من كتابه» فقال عز و جل‏ «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ» «فنحن الذين يعلمون و عدونا الذين لا يعلمون و شيعتنا أولوا الألباب» «1» و يشبهه‏

المروي عن الإمام الحسن المجتبى‏ «نحن الناس و شيعتنا أشباه الناس و سائر الناس نسناس».

و هذا من باب التفسير بأظهر المصاديق بين هؤلاء الثلاثة و لهم مصاديق دون ذلك تعمهم الآية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 478 ح 17 الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد ابن سليمان عن أبيه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه قال لابي بصير يا أبا محمد! لقد ذكرنا اللّه عز و جل ... و رواه مثله جابر و ابو بصير و زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) و محمد بن مروان و حسان العجلي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 300

ثم العلماء الذين يذبون عن ساحة الدين بحجج اللّه التي علّمهم إياها هم من الذين يعلمون‏ «1» و الذين لا يذبون بل و يذبلون و يترذلون هم من الذين لا يعلمون‏ «إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ»! و اولوا الألباب هم اولوا العقول الناضجة و على حد

المروي عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «ما قسم اللّه لعباده شيئا أفضل من العقل فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل و إفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل و إقامة العاقل خير من شخوص الجاهل و لا بعث اللّه نبيا و لا رسولا حتى يستكمل العقل و يكون عقله أفضل من عقول جميع أمته، و ما يضمر النبي في نفسه أفضل من اجتهاد جميع المجتهدين و ما أدى العقل فرائض اللّه حتى عقل منه و لا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل من عقلائهم، هم أولوا الألباب الذين قال عزّ و جل: «إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 22 في كتاب الاحتجاج للطبرسي و روى عن الحسن العسكري (عليه السلام) انه اتصل بابي الحسن علي بن محمد العسكري (عليه السلام) ان رجلا من فقهاء الشيعة كلم بعض النصاب فأفحمه بحجته حتى ابان عن فضيحته فدخل على علي ابن محمد (عليه السلام) و في صدر المجلس دست عظيم منصوب و هو قاعد خارج الدست و بحضرته خلق من العلويين و بني هاشم فما زال يرفعه حتى أجلسه في ذلك الدست و اقبل عليه فاشتد ذلك على أولئك الاشراف فاما العلويون فأجلوه عن العتاب و اما الهاشميون فقال له شيخهم يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هكذا أ تؤثر عاميا على سادات بني هاشم من الطالبيين و العباسيين؟ فقال (عليه السلام) إياكم و ان تكونوا من الذين قال اللّه تبارك و تعالى: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى‏ كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ» أترضون بكتاب اللّه حكما؟ قالوا: بلى قال: أو ليس قال اللّه عز و جل‏ «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» فكيف تنكرون رفعي لهذا لما رفعه اللّه إن كسر هذا لفلان الناصب بحجج اللّه التي علمه إياها لأفضل له من كل شرف في النسب...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 301

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (10).

هل أمر الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يقول لعباد اللّه:

«يا عِبادِ» متشاكسا ربه في عباده؟ و هو خلاف الضرورة التوحيدية و عشرات من النصوص القرآنية! أم إنه لفتة في ندائهم بقربهم لمكان إيمانهم، فيقربهم إلى اللّه زلفى بعد الإيمان بتقوى الإيمان، فلا هم مخاطبون هنا حضورا، و لا معنيّون بالخطاب غيّبا، و ما الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلا حاملا لخطابه تعالى، فما قوله لهم إلّا «يا عباد الله المؤمنين» أو «يقول لكم ربكم يا عبادي»؟ ام يقرأ نص الآية دون نص و لا زيادة و كما هو دأبه في حمل الوحي؟ تلميحا لهم أن ربهم يخاطبهم هنا و هو الوسيط.

فلأن مجرد الإيمان في القلب ليس إحسانا في إيمان، فترك التقوى إساءة في إيمان، و «قُلْ‏ ... اتَّقُوا رَبَّكُمْ» تقوى في تطبيق الواجبات، و تقوى عن طغوى المحرمات، جمعا بين إيمان الجوارح إلى ايمان الجوانح و هو الإحسان في الإيمان، و مما يلمح له الأمر بالتقوى بعد الإيمان، أن الطغوى تجامع الإيمان بل و بعض الشرك أيضا: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ» و الظرف هنا متعلّق بالإحسان فإنه يختص بالأولى و هي دار عمل، دون الاخرى و هي دار جزاء، و لا تعلّق له ب‏ «حَسَنَةٌ» فإنها لا تختص بالأولى إلّا شطر منها قليل، مهما عمّت الحسنة حياة الدنيا و الآخرة: «رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً» (3: 201).

إنه ليست فقط في الحياة الأخرى لهم حسنة، بل و الحياة الدنيا حيث يعيشونها مع اللّه و رضوانه، و لهم سلامة الروح و راحته، و اطمئنان القلب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 302

و سكونته، فكل نائبة لهم في سبيل الإيمان منسية أمام مرضاة الرحمن، ثم في الآخرة لهم حسنة خالصة لا تشوبها سيئة: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (7: 32).

و لأن التقوى قد تعترضها تقية تحدّها، أم طغوى تزيلها حين تعيش في أرض الطغاة.

فهناك هجرة من أرض الطغوى إلى غيرها حفاظا على تقوى الإيمان‏ «وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ»: «يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» (39: 51) مما يدل- من ناحية- على وجوب الهجرة حفاظا على التقوى، و من أخرى أن ارض اللّه لا تخلو من فاسحة لتطبيق التقوى لحدّ ما، فما دامت هناك أرض بالإمكان أن تتقي اللّه فيها أو تكون أتقى فواجب الهجرة لزام عليك دون أية عاذرة، إلا لمن‏ «لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (4: 99).

فإن كان في إقامتك في بلدة أو شخوصك عنها إلى أخرى ضرورة لك خلاف التقوى، أو قلتها، فعليك بشخوص أو إقامة تقوى فيه على تقوى، فالأصل في حياة المسلم كلها- حيث يتبناه فيها كلها- هو التقوى في أي ظرف من زمان او مكان يحافظ فيه على كرامة التقوى.

و إن لم تسطع على تقوى مطلقة فتقية هي تقديم الأهم على المهم على أية حال في كل حل وتر حال.

و ذلك يتطلب صبرا على الحرمانات، على طاعة اللّه و عن معاصي اللّه‏ «1»، و عند المصيبات ف‏ «إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 481 ح 29 في اصول الكافي باسناده عن أبي عبد اللّه (عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 303

توفية بغير حساب و أجرا بغير حساب‏ «وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (16: 96) و على حد

المروي عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): (إذا نشرت الدواوين و نصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان و لم ينشر لهم ديوان ثم تلا هذه الآية) «1».

لا نجد في سائر القرآن لغير الصابرين توفية الأجر بغير حساب، فللذين صبروا للّه و في اللّه على الحرمانات و الأذيات و الهجرانات، لهم منزلتهم الخاصة بين المؤمنين إذ يوفّون أجرهم بغير حساب: لا حساب في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

السلام) قال: إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه فيقال لهم من أنتم؟ فيقولون: نحن اهل الصبر فيقال لهم على ما صبرتم؟ فيقولون:

كنا نصبر على طاعة اللّه و نصبر عن معاصي اللّه فيقول اللّه عز و جل صدقوا أدخلوهم الجنة و هو قول اللّه عز و جل‏ «إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ».

(1). المصدر عن المجمع روى العياشي بالإسناد عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... و

في الدر المنثور 5: 323- اخرج ابن مردويه عن انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان اللّه إذا أحب عبدا او أراد ان يعافيه صب عليه البلاء صبا و يحثه عليه حثا فإذا دعا قالت الملائكة (عليهم السلام) صوت معروف قال جبرئيل (عليه السلام) يا رب عبدك فلان اقض حاجته فيقول اللّه تعالى دعه اني أحب ان اسمع صوته فإذا قال يا رب قال اللّه تعالى لبيك عبدي و سعديك و عزتي لا تدعوني بشي‏ء إلا استجيب لك و لا تسألني شيئا إلا أعطيتك إما ان اعجل لك ما سألت و إما أن ادخر لك عندي أفضل منه و اما ان ادفع عنك من البلاء أعظم منه ثم قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و تنصب الموازين يوم القيامة فيأتون باهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى باهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى باهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى باهل البلاء فلما ينصب لهم ميزان و يصب عليهم الأجر صبا بغير حساب حتى يتمنى اهل العافية انهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به اهل البلاء من الفضل و ذلك قوله: «إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 304

أجرهم و توفيته إذ تكفّر سيئاتهم، و لا في أعمالهم، و لا في حسبانهم، و لا في أمد أجرهم، فهم- إذا- في مربع اللّاحساب و ذلك حسابهم إذ صبروا في اللّه بغير حساب.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) إخلاصا في طاعته و عبادته لأعلى القمم! وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) أولية تتخطى طول الزمان و عرض المكان، و هو فوق الزمان و المكان، فإنها أولية في المكانة و الزلفى: «قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» (43:) 81) فلا مسلم في العالمين يسبقه أو يدانيه، من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين: «... قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (6: 14).

إنه كان عليه أن يحتل الأولية المطلقة في الإسلام، و قد فعل، و إلّا فكيف يأمره ربه بما لا يسطع، أو يخالف أمر ربه فيما يسطع، فقد أمره اللّه و هو طبّق أمره ففاق العالمين في إسلامه للّه رب العالمين.

«أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» يستغرق ماضي الإسلام أيا كان و أيان، ثم‏ «أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» يستغرق مثلث الزمان، فلا يعني الاولية- فقط- إسلامه قبل دعوته إليه، فإن صيغته الخاصة «أن أسلم قبلكم» و قد كان مسلما للّه منذ فطامه في الملك، و منذ خلق اللّه الخلق في الملكوت، و لكنه حقق الأولية في إسلامه في عهده الرسالي بجهاده المتواصل و جهوده المتآصل.

فصاحب الدعوة هو الاوّل في إخلاص الدين و الإسلام ثم يدعو، و هو أوّل من أسلم و أول المسلمين في نطاق دعوته، و لكن الرسول الخاتم هو الأول في إسلامه طول الزمان و عرض المكان لأنه رسول إلى الرسل و شهيد الشهداء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 305

و لكنه مع هذه المكانة العليا ليس ليأمن العذاب إن عصى كسائر العصاة حيث التقوى هي التي تتبنّى الأمن من العذاب:

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13).

هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم، فهلا يخاف المرسل إليه إن عصى بغية الشفاعة؟ زيادة الفرع على الأصل! اللهم إلّا بشروطات الشفاعة حيث تزيل درن العصيان، فرجاء الشفاعة- إذا- ممن يتهدر في العصيان- اعتمادا على الشفيع- هراء من الرجاء، حيث الشفيع هو رهن عصيانه فكيف يشفع لسائر العصيان:

«وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» (21: 28) اللّه دينه و هو من ساءته سيئته و حسنته حسنته، دون المتهدر الذي لا يبالي أحسن أو أساء رجاء الشفاعة، و لا سيما شفاعة المعبودين من دون اللّه! و إذا يخاف الرسول إن عصى ربه عذاب يوم عظيم على عظيم منزلته عند اللّه، فأحرى بالمرسل إليهم أن يخافوا عذابه، و إن كان خوف العذاب ليس لزامه واقع العذاب إذ قد يعفى عنه بتوبة أم رجاحة الحسنات أم شفاعة أو ترك كبائر السيئات، فلأن استحقاق العذاب عند العصيان محتّم، و نفس العذاب بهذه الأمور غير محتم فهنا خوف العذاب دون واقعه.

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) دون مشاكسة في عبادتي و شوب في ديني، مهما وعدتموني بمواعيدكم أو توعدتموني، و هنالك المفاصلة التامة حين لا تعبدون اللّه و ترجون أن أعبد ما تعبدون:

فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (15).

هنا «فاعبدوا» أمر امر هو أمرّ من النهي حين لا يجدي نهي، بل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 306

و يهوى المنهي ان ينهي أمر الناهي إلى ما انتهى إليه في إشراكه باللّه العظيم.

«قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ» حقّ الخسران كأن لا خاسر سواهم‏ «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» لا فحسب بل «و أهليهم» حيث يضلونهم كما هم «خسروا ...» يوم القيامة «ألا ذلك» البعيد البعيد «هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ» حيث يبين خسارة يوم الدنيا و يوم الدين.

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (16).

«لهم» تلمح بصالحهم، تنديدا أو تنكيدا أن لو كان لهم- لا عليهم- شي‏ء فهو «مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ» و الظل هو الستر العالي الشامل، و «من فوقهم و من تحتهم» تعنيان الظل الظليل حيطة بهم دون إبقاء «ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها».

و «ذلك» العذاب البعيد البعيد، المخيف المخيف‏ «يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ» لكي يتقون‏ «يا عِبادِ فَاتَّقُونِ» حتى تتقوا ذلك العذاب المهين.

هنا انتقالة من مسرح الذين طغوا إلى مسرح الذين اتقوا، و اين مسرح من مسرح؟:

[سورة الزمر (39): الآيات 17 الى 37]

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى‏ فَبَشِّرْ عِبادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (18) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (20) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ (21)

أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى‏ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (23) أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (26)

وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (32) وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (35) أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (36)

وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (37)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 309

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى‏ فَبَشِّرْ عِبادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (18).

الطغيان هو تجاوز الحد في العصيان، و الطاغوت مبالغة الطاغي فهو المبالغ في الطغيان، فهو الطاغي على عباد اللّه و على اللّه، حيث يستضعف عباد اللّه، و يستكبر على اللّه إلحادا في اللّه أو إشراكا باللّه، أو مساماة و مساواة للّه، أم ترفعا على اللّه إذ يدعي أنه إله من دون اللّه: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» فكلّ طاغوت على دركاتهم، و لأن الطاغوت صيغة مبالغة فاللام فيه تعني الموصول و هو صلته فيشترك فيه المفرد و الجمع: الذي يطغى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 310

و الذين يطغون، و قد استعمل هنا جمعا لمكان «ها» و كما في غيرها:

«وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ...» كما استعمل مفردا: «يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» (4: 60) و من الغريب القريب تساوي العدد بين الطاغوت و المستضعف، ثمانية بثمانية، مما يلمح بأن لكل مستضعف طاغوتا، و لماذا طاغوت الجمع يرجع إليه هنا ضمير المفرد الأنثى؟ أ لأنها- فقط- الأصنام و الأوثان التي لا تعقل؟

و الطاغوت هو العاقل الذي يدعو إلى نفسه بديلا عن اللّه، فلا طغيان فضلا عن الطاغوت لغير العاقل! أم لان الطاغوت و هو عاقل، يكون من لا يعقل و أرذل منه حيث لا يعقل: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» (8:) 22)؟ «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (55) و هذا هو الحق في أنوثة الطاغوت، و ما ألطفه تعبيرا عن كيانهم الضئيل، و ذكر الطاغوت هنا من واجب الاجتناب ذكر لأنحس ما يعبد من دون اللّه، فغيره مطويّ معه، و لا سيما أن الإنابة إلى اللّه تقتضي رفض كل الآلهة من دون اللّه.

«وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ...» مواصفات ثلاث لمن يعبد اللّه مخلصا له الدين مهما اختلفت الدرجات، ابتداء بالسلب: «اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ...» و توسطا في الإيجاب‏ «وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ» و انتهاء إلى مسك الختام: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» و هكذا يكون دور الحياة لمن يؤمن باللّه: «أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» ثم من دونهم دركات و جاه الدرجات، و بين عليا الدرجات و دنيا الدركات متوسطات.

ليست الهدى و اللب- فقط- السلب: «اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 311

ما لم يلحقه الإيجاب: «وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ» كما ليست هي الإيجاب ما لم يسبقه السلب، فلا ينفعك «لا إله» إلّا أن يلحقها «إلا الله» و لا «إلا الله» إلّا أن يسبقها «لا إله» إيجابا موحّدا مخلصا بعد سلب مطلق.

فقد تسلب ثم لا إيجاب كمن لا يعبد إلها و لا يعبد اللّه، أم قد توجب و لا تسلب كمن يشرك باللّه، إذا فكلمة الحق الهدى هي «لا إله إلا الله».

و عبادة الطاغوت دركات، كما الإنابة إلى اللّه درجات، فقد يعبد الطاغوت كما اللّه، طاعة مطلقة، فعبادة التأليه من دون اللّه هي أنحس دركات العبادة للطاغوت، و قد يطاع دون تأليه و لا طاعة مطلقة فهي أيضا عبادة للطاغوت مهما كنت مسلما

«و من أطاع جبارا فقد عبده» «1»

و بينهما متوسطات.

فإذا تركت عبادة الطاغوت و طاعته عقائديا و عمليا فهنالك الإنابة إلى اللّه، رجوعا إليه بعد فصال، حيث الفطرة و معها العقل تحكم بعبادة اللّه لا سواه، فإذا ترك الطاغوت فإنابة إلى اللّه.

و هنالك بشارتان اثنتان، أولاهما للذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها و أنابوا إلى اللّه، أنّ‏ «لَهُمُ الْبُشْرى‏» و الثانية لهم حين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أ ترى ما هو القول الذي يستمعون و ما هو أحسنه؟ هل إنه مطلق القول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 481 عن المجمع روى ابو بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية انه قال: أنتم هم و من أطاع جبارا فقد عبده،

و

في اصول الكافي بسند آخر عن أبي عبيدة الحذاء عنه (عليه السلام) في حديث طويل حول الآية «و العبادة طاعة الناس لهم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 312

سيئا و حسنا و أحسن؟ و لا حسن للسي‏ء حتى تعمه‏ «فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ»! و لماذا يستمعون عباد اللّه الذين اجتنبوا الطاغوت و أنابوا إلى اللّه، يستمعون سيئ القول و هو ألغى اللغو «وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً» (25: 72) لا يرونه و لا يسمعونه و لا يتبعون! حتى‏ «وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ» (28: 55) فكيف إذا يستمعون؟! اللهم إلّا سماعا أو استماعا للرد و النقض، و له أهله الخصوص دون عامة المؤمنين، و الآية تتحدث عن كتلة الإيمان ككل دون خصوص أهل النقض الحافظين لشرعة اللّه.

إنّ استماع القول لأولي الألباب لا بد أن يعني معنا إيمانيا، بين تكامل باتباع أحسن القول و هو يعمهم، و بين نقض لسي‏ء القول و هو يخص العلماء منهم، فإذا لا يعني لا هذا و لا ذاك فلغيه الوقت و تهدّره، ام ضلال عن الهدى و تكدّره و هما بعيدان عن اولي الألباب، اللّهم إلّا أن يعنى من استماع سيئ القول استحكام حسنه و أحسنه عنده إن كان من أهله.

و لا يختص‏ «يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ» بتلقي السمع الأذن، إذ يعني تلقي القول و الرأي و أكثره بسمع الأذن، فقد يتلقى القول بكتابة أو إشارة أماذا، فالمقصود تفتيش الآراء الحسنة بغية الحصول على أحسنها فاتّباعها علميا و عقائديا و عمليا أماذا؟ و لا يتأتى إتباع الأحسن إلّا بعد تمييزه باجتهاد في تفصيل أو إجمال، فالاجتهاد- إذا- فرض على أية حال! فمن لا يستمع القول، حاصرا إتباعه بما يعقله في نفسه، فكثيرة أخطاءه، و عظيمة بلاءه، فما هو من أولي الألباب، و يقول اللّه تعالى: «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (41: 53) فلا تكفي رؤية الآيات الأنفسية لتبيّن الحق، و من الآيات الآفاقية آيات الرسالات التي هي لزام الهدى لأولي الألباب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 313

و الإنسان أيّا كان- سوى المسدد بالعصمة الإلهية- هو في معرض الأخطاء حين يستقل برأيه، فعليه استماع مختلف الأقوال كشورى بينه و بين أصحاب الأقوال، ثم يتبع الأحسن، فإن في تفتيش الآراء تنبيهات على موارد الخطأ و الصواب، بل قد ينتبه الإنسان للأحسن حينما يسمع غير الأحسن بل و السيّ‏ء، فحينما يفيد استماع القول السي‏ء إتباع الأحسن، يعتبر السي‏ء من الحسن طريقا إلى انتباه الأحسن.

و من يستمع إلى كل قول سيّئا و سواه، دون أن يعني نقضا أو يقدر عليه، فمتهدرة أوقاته و هو على أشراف الضلال، و حين عناية النقض فخارج عن نطاق الآية لمكان «فيتبعون».

و من يستمع إلى حسنة الأقوال و لا يتبع أحسنها فما هو من أولي الألباب، و لا يبتغي الحسن لحسنه، و إلّا فلما ذا ترك الأحسن إلى الحسن و هو جنّة و سوءة الإتّباع أو صدفة لهوى و مصلحيّة.

و أما من‏ «يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ» اتباعا للحق‏ «فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» ف‏ «أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ».

و حسن القول هو حقه الصواب، أم حكاية عن الحق الصواب، أو قريبا إلى واقع الحق الصواب.

فأحسنه في هذا المثلث هو أحقه و أحكاه و أقربه إلى الحق، و الأخير هو محور البحث عن كيفية التقليد و شروطه، و كيان الاجتهاد بشروطه.

قد تكون لك القدرة على استنباط الأحكام باتّباع أحسن الأقوال تمييزا علميا بمحور الكتاب و السنّة فعليك إتباع أحسنها و إن كان خلاف الشهرة أو الإجماع، حيث الميزان الأول و الأخير في شرعة اللّه هو كتاب اللّه ثم سنّة رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و كما

يروى عن الإمام الصادق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 314

(عليه السلام): «العلم ثلاثة كتاب و سنة و لا أدري» «1»

فهما أحسن القول واقعا، و الأقرب إليهما و الأشبه بهما هو الأحسن تقديرا و هو الأوفق لهما تفسيرا.

و قد لا تسطع على استنباط الأحكام بتفصيل، فهنالك استنباط الإجمال أن تتعرف إلى الأعلم الأتقى، فإن قوله أحسن القول لأنه أقرب إلى الحق الصواب، فعليك تقليده.

و قد تقتسم الأحكام إلى اجتهاد و تقليد إن لم تسطع على الاجتهاد المطلق، فالقول عن اجتهاد هو أحسن من القول بتقليد، إضافة إلى ما تحمله آية الذكر «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (21: 7) فلا سؤال تقليدا إن كنت تعلم اجتهادا.

و قد تقتسم التقليد- حيث الأعلمية نسبية- بين المسائل، فتقلد مثلا في أبواب العبادات الأعلم فيها و الأتقى، و في أبواب المعاملات و السياسات أمّا هي من أبواب أو مسائل- تقلد الأعلم فيها و الأتقى.

فعلى المؤمن على أية حال إتّباع الشرعة عن اجتهاد بتفصيله أم إجماله مهما يسمى إجماله تقليدا، فإنه اجتهاد في الحصول على الأعلم الأتقى.

و عليه التحري الدائب في المسائل غير الضرورية ليحصل على الواقع أو الأقرب إليه و الأحرى بالاتباع، حركة دائمة نحو التكامل علميا كما هو نحوه عمليا، فيجنح بجناحي العلم و العمل المتكاملين إلى الأجواء الأحرى و الأرقى من الكمال الذي تعنيه الشرعة الإلهية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المحجة البيضاء للفيض الكاشاني بسند عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 315

و القول المستمع أعم من الإخبارات و الإنشائات، و من أصول الدين و فروعه، و من كتابات الوحي و سواها، فعلى غير المتشرع أن يستمع إلى مختلف الوحي فيتبع أحسنه في ميزان الفطرة و العقل، ألا ذلك هو القرآن العظيم، و على المتشرع أن يستمع إلى مختلف المذاهب للشرعة فيتبع أحسنه في ميزان الكتاب و السنّة.

و على المتمذهب المذهب الأحق الأحسن أن يستمع إلى مختلف القول في أصول الدين و فروعه فيتبع أحسنه، و في كلّ الفرض هو المستطاع من الاستماع و إتباع الأحسن.

و من إتباع أحسن القول فيما يرتإيه أصحاب الشوراءات فيما تحق فيه الشورى من أمور فردية أو جماعية، شورى فتوائية ام سياسية أماذا، و ليس الأحسن فيها الأكثر قائلا إلّا فيما تدل الأكثرية على الأقربية إلى الحق، فقد يكون الأحسن رأي الأقل بمن فيهم الأعلم الأورع، اللهم إلا إذا تساووا و لم تعرف رجاحة لرأي الأقل، و لم يبق في البين مرجح إلا كثرة العدد، فهنا الأحسن رأي الأكثر بنفس السند الدائر السائر للترجيح و هو كونه الأوفق و الأشبه بالواقع حين لم يبق مرجح إلّا هو.

فليست الشهرة و الأكثرية لهما دور في الإتّباع إلّا أن تحملا برهانا على أنهما أقرب إلى الحق، إلّا فيما استأصلت البراهين إلّا الأكثرية لأهل الشورى و هم أهل الرأي، المتوفر فيهم صلاحيات الشورى كما فصلناها في آية الشورى.

إلى هنا إتباع الأحسن من المفروض الذي لا محيد عنه، و قد يجرى دون فرض في الواجبات و المندوبات التخييرية، فاتّباع الأحسن فيها أحسن و ليس لزاما يؤثم بتركه‏ «وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 316

و من إتباع أحسن القول- بعد العلم و العمل و العقيدة- نشره كما استمع‏

«فيحدث به كما سمعه و لا يزيد فيه و لا ينقص منه» «1»

و قد تعنيه «أحسنه» فيما عنت، أنه أحسن الإتّباع بعد أحسن القول‏ «2».

هؤلاء «لَهُمُ الْبُشْرى‏» و هم «عباد» ببشارة بعد الأولى و «أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» بشريان بعدهما سمة العبودية «لَهُمُ الْبُشْرى‏ فَبَشِّرْ عِبادِ» ثم الهداية الإلهية «هَداهُمُ اللَّهُ» ثم‏ «أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ».

و هذه الخمس ليست لمن سواهم، استمعوا القول و لم يتبعوا أحسنه، أم لم يستمعوا أمّن ذا من الخارجين عن هذه الشروطات الخمس، و إن لم يكونوا سواء في الضلالة و سقوط الألباب.

فهذه الآية هي الوحيدة في سائر القرآن بيانا لفرض الاجتهاد و التقليد كلّ على شروطه، يجمعهما «فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» و لا تدل آية الذكر إلّا على مطلق السؤال‏ «إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» فلتقيّد بآية الأحسن، ثم لا حاجة إلى تكلّفات عقلية ام روائية، ضعيفة الدلالة، متعارضة الادلة، فإنما العلم ثلاثة كتاب و سنة و لا أدري! و التقليد الأعمى دون حجة شرعية، و لا سيما إذا كان خلاف الكتاب و السنة، هو من زمرة عبادة الطاغوت، و إن لم يكن المقلّد طاغوتا، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 482 ح 34 علي بن ابراهيم بسند عن أبي بصير قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) قول اللّه جل ثنائه‏ «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» قال: هو الرجل يسمع الحديث فيحدث ... و في نقل آخر زيادة: جاءوا به كما سمعوه- ذيلا- و هم المسلمون لآل محمد- صدرا.

(2) ففي أحسنه المعنيان- احسن القول و احسن الاتباع مهما كان الثاني على هامش الأوّل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 317

التقسيم الثنائي يخرجه عن اللب و الهدى، فهو داخل في عبادة الطاغوت مهما اختلفت دركاتها.

أم إنه بين عبادة الطاغوت و بين اتباع أحسن القول، فالتقسيم إذا ثلاثي أماذا؟

و خلاصة القول في الآية أنها تحريض على الاجتهاد في الحصول على أحسن القول حسب المستطاع، و تحريك للمسلمين بحركة دائبة نحو الحسنى في المعارف و العقائد و الأعمال!.

أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19).

الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان حريصا على هدى الضالين و المنحرفين و هم مصرون على ما هم و هو متحسّر، و هنا اللّه يريحه عن عبأه و يسقط عنه تكلّف الدعوة حين لا تثمر «أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ» دونما بداء منه و لا من اللّه- أنت تتكلف في هداه‏ «أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ» حيث يعيش نار الضلالة فإلى نار الجحيم؟

لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (20) أهل الطغوى حقت عليهم كلمة العذاب، و لأهل التقوى كلمة الثواب، و من ذلك «لهم غرف مبنية من فوقها غرف» في جنات الخلود و من قبلها في جنات البرزخ، و الغرفة هي المنزل الرفيع، و ما أجملها إذا كانت‏ «مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ» قصورا طباقا عالية «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» و من فوقها الأشجار، أ تراها بماذا بنيت و من ذا يبنيها؟ يبنيها اللّه برحمته كما تبناها أهلوها بتقواهم، تبنى لهم كما يشتهون ولديه مزيد «... وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ» (34: 37) «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 318

الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ» (29:) 58).

و بماذا يبنيها اللّه تعالى،

نسمع الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: «بناها الله لأوليائه بالدر و الياقوت و الزبرجد سقوفها الذهب محبوكة بالفضة ...» «1»

«تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» في أرض الجنة رحمة فوقية و أخرى تحتية خلاف ما لأهل الطغوى: «لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ» ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار! ألا فانظروا «وَعْدَ اللَّهِ» ترون‏ «لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ» لايّ من زمر الجنة و زمر النار، كسنة دائبة دون تخلف قيد شعرة، خلاف وعد الشيطان حيث يخلف وعده في الدنيا و في الآخرة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 482 ح 36 القمي في الآية قال حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن محمد بن إسحاق عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سأل علي (عليه السلام) رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن تفسير هذه الآية بماذا بنيت هذه الغرف يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: يا علي تلك غرف ... لكل غرفة منها الف باب من ذهب على كل باب منها ملك موكل به و فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير و الديباج بألوان مختلفة حشوها المسك و العنبر و الكافور و ذلك قول اللّه: «وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ» فإذا دخل المؤمن الى منازله في الجنة وضع على رأسه تاج الملك و الكرامة و ألبس حلل الذهب و الفضة و الياقوت و الدر منظوما في الإكليل تحت التاج و ألبس سبعين حلة حرير بألوان مختلفة متوجة بالذهب و الفضة و اللؤلؤ و الياقوت الأحمر و ذلك قوله‏ «يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ» فإذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحا فإذا استقرت بولي اللّه منازله في الجنة استأذن عليه الملك الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة اللّه إياه فيقول له خدام المؤمن و وصفاؤه مكانك فان ولي اللّه قد اتكى الى أريكته و زوجته الحوراء العيناء قد ذهبت اليه فاصبر لولي اللّه حتى يفرغ من شغله قال: فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمتها تمشي مقبلة و حولها ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 319

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ (21).

«أنزل» هنا دون «ينزل» تدل على نزول سابق، فهو نصيب الأرض من ماء السماء حينما كانت يابسة عطشى، فروّيت بماء السماء: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» (23: 18).

و رؤية ذلك الإنزال هي علمية كشهود، تخص حضرة صاحب الرسالة العظمى (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ثم تعم كل من يعلم أن ماء الأرض كله من السماء، على ضوء الوحي، أم الكشوف العلمية التي أثبتته.

«أَنْزَلَ‏ ... فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ» و السلوك هو النفوذ في الطريق، و قد نفذ الماء في الأرض فأصبح ينابيع تنبع من تحتها ماء صافيا ضافيا بلا كدر و لا ضرر، بعد ما أخذ من الأرض بفضائها كل ضرر و كدر، فالأرض مصفاة لمياهها.

و هذه الينابيع بين فوارة أرتزية، و فائرة فوق الأرض، أم تتكشف آبارا تحت الأرضية، و يد اللّه تمسكه فلا يضيع و يذهب في الأغوار البعيدة بحيث لا تنال الأيدي البشرية! «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ» بذلك الماء المنزل من السماء «1» من عيونه و آباره و أنهاره و أمطاره، دون خصوص الينابيع حيث لا تكفي و لا تتوفر في كل أكناف الأرض و مناكبها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رجوعا لضمير المفرد الى «ماء» دون «ينابيع».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 320

أم إنه الينابيع للأغلبية الساحقة من تروية الأرض بها و لا حصر هنا ينافي تروّيها بالأمطار، و لكنه لا يناسب إفراد الضمير إلّا بتأويل ماء الينابيع و هو عليل.

و هل إن «زرعا» يخص نبتا على غير ساق؟ و هو يخرج كلّ نبت بساق و دون ساق! و الزرع لغويا هو مطلق الإنبات! إلّا أن في مقابلته بالأشجار دليلا على اختصاصه بغير الأشجار كما في آيات عدة «1» و لكنه دون مقابل قد يعم الأشجار، كالظرف و المجرور إذا اجتمعا افترقا و إذا افترقا اجتمعا، اللهم إلّا الأشجار حيث لا تعم النبت دون ساق، و على أية حال فلا ريب في أغلبية استعمال الزرع في غير الأشجار و لكن قرينة الموقع هنا و عدم اختصاص اللغة بغير الأشجار يعمانه للأشجار، و لكنما الموقع يخصصه مهما عمّت اللغة لمكان الهيج و الاصفرار و الحطام المتواصل و لا يناسب إلّا غير الأشجار «زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ» بماء واحد و تراب واحد مهما اختلف الحب و النوى، أ فلا يدل ذلك على تصميم قاصد من إله واحد؟ «ثُمَّ يَهِيجُ» يجف لحد النهاية في اليبوسة «فَتَراهُ مُصْفَرًّا» بعد اخضرار «ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً»: فتاتا من تبن و حشيش: «فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مُقْتَدِراً» (18: 45).

«إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ» تذكرهم بحكمة و اقتدار و رحمة متواصلة، و أن الدنيا دار بلاء و امتحان و ممرّ الى مقر فخذوا من ممركم لمقركم، و ان الموت هو النهاية، و من ثم حياة، كما الزرع يموت ثم يحيى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ‏ «16: 11» «وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ» 13: 4 «جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ 6: 141 «وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً» 18: 32 «وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ» 26: 146.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 321

على طول الخط، و الماء هنا مثل للحياة المبتلاة بزرع و اصفرار و حطام و لكنه باق لا يفنى فكذلك الحياة مهما تغيرت الأحوال باخضرار و اصفرار! أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى‏ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (22).

أولوا الألباب هم الذين شرح اللّه صدورهم للإسلام فهم على نور من ربهم، كما استناروا بأنوار فطرهم و عقولهم، آيات أنفسية و من ثم الآفاقية، «فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» حيث قست فما تنورت لا استنارة منهم و لا إنارة من ربهم‏ «أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» يبين بمظاهر الأقوال و الأفعال.

«أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ ...» خير أم القاسية قلوبهم من ذكر اللّه؟ لا يستويان! «فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» حيث تقسوا فلا تلين منه فتطمئن.

الصدر هو برّانية القلب، كما العقل هو برانية الصدر، فإذا كمل العقل تم اللب، و إذا تم اللب انشرح الصدر، و إذا انشرح الصدر تنور القلب و هو آخر المطاف في السلوك إلى اللّه.

و كما القلب هنا و في أمثاله هو قلب الروح، كذلك الصدر و اللّب و العقل، مهما كان كل في مكانه من سميّاته، فالعقل في المخ و اللب في عمقه، و الصدر في الصدر و القلب في القلب، و كل من جنبات الروح حيث يعمها و يحلّق عليها و هي درجات فوق بعض.

واردات القلوب هي من صادرات الصدور، تصدر عنها إليها فتقلّبها، إن خيرا فنور و إن شرا فظلام، فانشراح الصدر بالحق هدى و ضيقه عن الحق ضلال: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 322

وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 25).

فكما ينزّل اللّه من السماء ماء فينبت لهم به زرعا مختلفا ألوانه، كذلك ينزل ذكرا و نورا تتلقاه الصدور المنشرحة فتلقيها إلى القلوب الحية، دون الصدور الحرجة الضيقة، و القلوب المقلوبة القاسية، فأين قاسية مظلمة من منشرحة نيّرة؟

أ ترى ما هي علامة الإنشراح و النور؟ إنها على‏

المروي عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «التجافي عن دار الغرور و الإنابة إلى دار الخلود و الاستعداد للموت قبل حلول الفوت» «1».

ف‏

«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب و أن أبعد الناس من الله القلب القاسي» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 485 ح 40 عن روضة الواعظين للمفيد روي‏ ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قرأ «أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ ...» فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ان النور إذا وقع في القلب انفسخ له و انشرح، قالوا يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! فهل لذلك علامة يعرف بها؟ قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

التجافي ...

و

في الدر المنثور 5: 325 اخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة في الآية قالوا يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! فهل ينفرج الصدر قال نعم قالوا هل لذلك علامة قال نعم التجافي ...

و

فيه اخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن مسعود قال‏ تلا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هذه الآية فقلنا يا رسول اللّه كيف انشراح صدره قال: إذا دخل النور القلب انشرح و انفسخ قلنا فما علامة ذلك قال: الانابة ...

(2) الدر المنثور 5: 325- اخرج الترمذي و ابن مردويه و ابن شاهين في الترغيب في الذكر و البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا تكثروا ... و

فيه اخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي (صلى اللّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 323

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (23).

أ ترى تدافعا بين هذه التي تحكم بكون الكتاب متشابها كله، و بين التي تعمّم الإحكام له كله: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1) و ثالثة هي آية التقسيم: «... مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ ...» (3: 1)؟ «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً»! الإحكام و التشابه أمران نسبيان، فالقرآن محكم كله قبل تفصيله:

«تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ» (31: 2)- «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ...» فهو إحكام وجاه تفصيل و قبله، ثم و حكيم كله جملة و تفصيلا: «حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ» (54: 5) «وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» حكمة في كيانه أيا كان و أيان، في تفصيله و قبله، في لفظه و معناه و مغزاه، في بلاغه و بلوغه و حكمه، و في أي حقل من حقوله، دون أن يتسرب إليه أمر غير حكيم، أو يتدخل فيه حكيم أو غير حكيم، فحكمة القرآن هي أفضل برهان على رسالة من جاء به‏ «وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ...»!

ثم و هو متشابه كله- وجاه التهافت و التدافع- تشابه المثاني: المعاطف، عطفا لبعض على بعض، و انعطافا مع بعضه البعض، حيث يفسر بعضه بعضا و ينطق بعضه على بعض و يشهد بعضه لبعض.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) قال: يورث القسوة في القلب ثلاث خصال حب الطعام و حب النوم و حب الراحة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 324

و هو محكم في أمه، متشابه في سواه، إحكام الدلالة على مغزاه تفهما، و تشابهها لغير البالغ فهمه، دون قصور في الدلالة، و لا عضالة في التعبير، إلّا جزالة لأعلى قمم الفصاحة و البلاغة، و لكنها الأفهام درجات، و القرآن يحلّق على كافة الدرجات، فآية واحدة هي محكمة لمستفسر و هي متشابهة لآخر و ما هي إلّا هيه، على حدّ المروي‏

عن الإمام الرضا (عليه السلام): «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله»!

إنه متشابه المثاني كله، و متشابه المعاني بعضه، و محكم المعاني كله، فإنه أحسن الحديث، و قصور الدلالة من أقبح الحديث، و تناقض الأبعاض من أقبح الحديث و لكن:

«اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ»، لا سواه، و كل حديث اللّه أحسن من سواه، و كما اللّه نفسه حديث أحسن من سواه: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ» (45: 6) و لكن أحاديث اللّه في مختلف الرسالات بين حسن و أحسن، و هذا القرآن هو أحسن الحديث بقول مطلق، لا يوازى و لا يسامى طول الزمان و عرض المكان‏ «وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ...» (55).

و لقد عبر عن القرآن بالحديث في اثني عشر موضعا اخرى في الذكر الحكيم‏ «1» و هو ما يحدّث عنه، فمنه ما يحدث كسائر الكون، و منه ما يحدث و لا يحدث كمكون الكون، يتحدث عن كل محدث بلسان حال أو مقال و على أية حال، فلسان الفطرة و العقل يحدثان عنه، و لسان التكوين و التشريع محدثان عنه، و يتلوه أحسن الحديث، فهو حادث يحدّث عن كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي هنا و: 4: 140 و 6: 68 و 7: 185 و 18: 6 و 45: 6 و 52: 34 و 53: 59 و 56: 81 و 68: 44 و 77: 50 و 12: 111.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 325

شي‏ء: «لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» (6: 59) و يحدّث عنه كل من كملت عقولهم، إذا فهو «أَحْسَنَ الْحَدِيثِ»: «نورا لا تطفأ مصابيحه و سراج لا يخبؤ توقده، و بحر لا يدرك قعره، و منهاج لا يضل نهجه و شعاع لا يظلم ضوءه، و فرقان لا يخمد برهانه و بنيان لا تهدم أركانه ...»

و لأنه‏ «أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» بقول مطلق فهو- إذا- آخر حديث من عليا الوحي، لا حديث بعده، فلا شرعة و لا رسالة بعده.

«كِتاباً مُتَشابِهاً» بعضه ببعض، في ألفاظه و معانيه، في أغراضه و مغازيه، دونما اختلاف و لا قيد شعرة فإنه «مثاني»: معاطف، فآياته كلها لصق بعض، في مواصلات دون أية مفاصلات، و في تجاوبات دون تهافت و تفاوت، فقد

«نزل القرآن ليصدق بعضه بعضا فلا تجعلوه يكذب بعضه بعضا نثرا لآياته نثر الدقل»! «1».

و من تشابه أبعاضه مع بعض انسجام أحكامه و معارفه في وحدة جامعة تناسب الأجزاء «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» فأحكامه الفردية تجاوب الجماعية، و أحكامه العبادية تناسب السياسية، و أحكامه الاقتصادية تناسج هذه و سواها، دون أي صدام و التطام بين حقوله المختلفة صورة، الواحدة سيرة! و متشابها مع قضية الفطرة و العقل، و حاجيات العالمين أجمعين إلى يوم الدين دون إبقاء.

و متشابها مع سائر الوحي مهما كان أحسن منه فإنه‏ «أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» و يؤيده و يبشر به سائر الوحي الأصيل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من الخطبة 193 عن الامام امير المؤمنين في نهج البلاغة و قد أوردناها بتمامها في مفتتح المجلد الثلاثين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 326

و متشابها مع محكمه في هذا التفصيل‏ «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ» نسخة طبق الأصل.

«كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ» و ترى ما هي الصلة بين جمع المثاني صفة لمفرد الكتاب؟ علّها صفة لآياته في مثنياتها كلها، و صفة للكتاب كله في مثانيه كلها، ف «المثاني» جمع المثنية، تعني المعطوف، لانعطافها كلها مع بعض، و لا سيما التي تتحدث عن موضوع واحد، فهي تفسر بعضها بعضا و تنطق بعضها على بعض، و هي تلائم بعضها بعضا في مختلف حقولها، مثنية هنا في إثنتين.

و هي جمع المثنى لأنها تثنى على مرور الأوقات و كرور الحاجات فلا تدرس- و لا تنقطع- دروس سائر الكتب، كما و هي تجدد حالا بعد حال في فوائده و إشراقاته، فالقرآن يجري كجري الشمس، لا غروب لإشراقه، و لا أفول لإضاءته.

و قد نزلت آياته مثنى، واحدة نزولا و أخرى تأليفا: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ» (75: 18) و لا جمع إلّا بعد نزول.

و هي جمع مثنى الثناء، فالقرآن معارض للثناء عليه في كله بكله، ل‏ «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ» «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ»! و هو في مثانيه المكرورة، و على تجدد الحالات و الحاجات المعروضة عليه، المستضيئة به، و في مثاني معاطفه تفسيرا لبعضها البعض، و موافقة لبعضها البعض، و في مثنى تأليفه الأليف، هو في كل ذلك مثاني و مجالات للثناء، و ما أجملها خماسي المعاني للمثاني، مما يحضّ على الثناء.

فالقرآن العظيم كله مثاني بكل هذه المعاني، مهما كانت ل‏ «سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي» منزلتها الخاصة بين سائر المثاني‏ «وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» (15: 87).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 327

«مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» خوفا مما قدمت يداهم فهم في وجل و ارتعاش و قشعريرة الجلود كخلفيّة لاقشعرار القلوب‏ «ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ» فهم بين خوف مما قدمت أنفسهم، و رجاء مما عرفوا من رحمة ربهم، يعيشونهما طول حياتهم.

فطالما قلب المؤمن يضطرب و جلده يقشعر من الكتاب المتشابه المثاني حين يرى نفسه قاصرة عما يتوجب عليها تجاهه، و يسمع ربه العظيم يكلّمه، فيغشى قلبه خاشعا و يقشعر جلده خاضعا خائفا وجلا.

و لكنه يطمئن بعد ذلك إلى ذكر اللّه: «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فهم عند ما سمعوا آيات العظمة و الجلال طاشوا، و إذا سمعوا آيات الرحمة و الجمال عاشوا، فهم بين طيش و عيش، و خوف و رجاء، حيث القرآن آخذ بازمّة قلوبهم، و

«قد سئل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن تفسير الترتيل فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): حركوا به القلوب»

أجل و «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى‏ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...»! فالغالب على من يستمع القرآن الخشية و الخشوع، مهما لان قلبه و جلده إلى ذكر اللّه، و لكنه بعد ما ملي‏ء خشية و انقلابا «ثم تلين»! فلا تعني الخشية الصعقة

«إنما هو اللين و الرقة و الدمعة و الوجل» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

«تفسير البرهان 4: 74 عن الكافي بسند عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ قلت: ان قوما إذا ذكروا شيئا من القرآن أو حدثوا به صعق أحدهم حتى يرى ان أحدهم لو قطعت يداه و رجلاه لم يشعر بذلك فقال: سبحان اللّه ذاك من الشيطان ما بهذا نعتوا انما هو اللين و الرقة و الدمعة و الوجل»

أقول: يعني (عليه السلام) من الخشية عوانا بين الغشية و اللينة، و الا لكان الائمة غير خاشين او هم مغشي عليهم في جميع أحوالهم حيث يعيشون القرآن فيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 328

ترى لماذا هنا «إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ» و ليس كما هناك‏ «بِذِكْرِ اللَّهِ»؟ قد تكون «إلى» لامحة إلى وقت اللين بعد الاضطراب، أنها تضطرب مقشعرة بكلام اللّه، فلما سلكوا به إلى ذكر اللّه، فملئت به قلوبهم، لانت بعد اضطراب، فرارا منه إليه، و فرارا من كلامه إلى ذكره‏ «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»! أنت تزور عظيما يكلمك بما يتوجّب عليك، فتأخذك الهيبة و الرهبة لأوّل وهلة، ثم بعد هنيئة تستكن إليه و تنعطف بعطفه و لطفه، فيلين قلبك بعد اضطراب، و تفرح بعد اكتئاب! كذلك اللّه و أحرى بكلامه و فوق خلقه قدر ما يفوق خلقه، يقشعر منه جلدك ثم تلين إلى ذكره‏ «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»! و

«إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» «1».

ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ و لكن هدى اللّه و إضلاله ليسا فوضى جزاف، فإنما يهدي اللّه من يهتدي توفيقا له في هداه، مزيدا و استمرارا، و يضل من ضل تركا له فلا يوفقه و يذره في طغيانه يعمه و في غيه يتردّد.

أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24).

في الاتقاء بالوجه وجهان قد تعنيهما الآية، اتقاء في الدنيا فيوم القيامة ظرف لسوء العذاب، و اتقاء يوم القيامة فهو ظرف الاتقاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجمع روى عن العباس بن المطلب ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 329

و الوجه الأول هو كل الوجه قلبا و قالبا أن يتقي الإنسان يوم الدنيا سوء العذاب يوم القيامة بوجهه الظاهر و الباطن، في كل مواجهة لنية و اعتقاد أو عمل أما ذا، فهو يتقي سوء العذاب بوجهه في كل وجوهه و مواجهاته، هل يستوي هو و من لا يتقي فهو ظالم‏ «وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ»! و الوجه الثاني هو وجه القالب، فلأنه أشرف الأعضاء، مظهر الحسن و الحسّ و صومعة الحواس، فإذا اتجه إلى الإنسان عذاب اتقى بيده و سواها من أعضاء وجهه، حفاظا على الأشراف الأعلى، حيث فيه حفاظ عليها كلها، ففيه سمعه و بصره و فمه و لسانه، و إذا تعطلت الأعضاء أو عطّلت، فاليدان مغلولتان إلى العنق أمّاذا لغيرهما، فهو- إذا- يتقي بوجهه سوء العذاب حين يلقى في النار: «أَ فَمَنْ يُلْقى‏ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (41: 40) حيث يلقى فيها مكتوفا فأول ما تمس النار وجهه، فيتقي بوجهه سوء العذاب و هو الإلقاء مهانا في النار.

و ما أخطره موقفا «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ. تَرْهَقُها قَتَرَةٌ. أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ» و مع هذا الهول في زحمة العذاب يتلقى كلمة التأنيب عذابا فوق العذاب: «وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» بوجوهكم و كل الوجوه! و المعنيان علّهما معنيّان مهما كان الثاني أوجه، و القرآن حمال ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه، و من الأحسن الجمع بين الحسن و الأحسن، فإنه أحسن من ذلك الأحسن، اللّهم إلّا أن يختص الحسن بعناية التفسير فغير حسن.

ثم يلتفت من مشهد الحاضرين إلى مشهد من الغابرين ليدل على سنة اللّه في الكافرين، غائبين و حاضرين ليصبح أهل الذكرى من فعلتهم حاذرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 330

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (26).

إن عذاب الدنيا أيا كان ليس إلّا ذوقا للخزي و العذاب، «وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» و أخزى «لو كانوا» في الحياة الدنيا «يعلمون» فسنة اللّه في المكذبين ماضية، و مصارع القرون الغابرة شاهدة، و يكفي هذا الذكر لمن يذّكر و اللّه من ورائهم محيط.

وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28).

لا يبقي القرآن و لا يذر مثالا للذكرى إلّا و يضربه‏ «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» أمثلة فطرية و عقلية و حسية و كونية أمّا ذا من أمثال واقعية، دون اختلاق لما لا يكون أم يستحيل.

و «الناس» هنا مثل لأفضل محور لوحي القرآن و يتبعه الجن أمّن ذا من المكلفين، إذ ليس القرآن- فقط- كتاب الناس، فلا أقل من أنه للجنة و الناس، و مهما كان هناك من المكلفين من هو يوازي الناس، فلأن صراح الخطاب في القرآن موجّه إلى الناس، فلا ضير أن يصبح الناس فيه هم الأساس.

«قرآنا» يقرء، و ما أسهله تناولا معجزة تقرء «عربيا» واضحا بينا لا تعقيد فيه، لا تفهّما فتصديقا، و لا تطبيقا طول الزمن، فهو عربي في كافة الحقول، تحويه كافة الفطر و العقول‏ «غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» في قرآنه و عربيته‏ «عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» على مر العصور، فلا يخلق على الرد و مضيّ الزمن و تقدّم العلوم و العقول، و توسّع الحاجات في مختلف الحقول، و قد يعنيه ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 331

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) تفسيرا ل‏ «عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» «القرآن كلام الله غير مخلوق» «1»

و هو حجة تحكم و لا يحكم عليه و كما

يروى عن علي (عليه السلام) «ما حكمت مخلوقا ما حكمت إلا بالقرآن» «2»

«عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» و لا يطغون، و من أمثال القرآن:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (29).

الشكوس هو العسر و سوء الخلق، فالمتشاكسون هم المتعاسرون المتشاجرون لشكاسة خلقهم، فمن الشركاء من هم العدول المتنافسون و ليست إلّا في حق، و منهم من هم شركاء متشاكسون و ليست إلّا في غير حق، و يضرب اللّه هذا المثل الأمثل لرجل الشرك و رجل التوحيد، فالمشرك هو كعبد يملكه شركاء متشاكسون، موزّعا بينهم فيه يتخاصمون، حائرا لا يستقر على منهج، و مائرا لا يقر على مدخل واحد و مخرج، لا يملك إرضاءهم أجمع فهم عليه ساخطون.

و هكذا يكون دور المشرك في اتجاهاته و لا سيما بين الطواغيت، يعيش عيشة متناقضة متباغضة، لا يدري من أيّ إلى أيّ.

و يتلوه الذي يعبد نفسه و يعبد ربه إلهين اثنين، مهما كان موحّدا في التأليه، فإنه مشرك بالفعل في أعماله و اتجاهاته لا يهدف هدفا واحدا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 326- اخرج الديلمي في سند الفردوس عن انس عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: ... أقول: و «غير مخلوق» علّه من الاختلاق ام الخلق العتيق، ألّا يخلق على مر الدهور!

(2) المصدر اخرج ابن أبي حاتم في السنة و البيهقي في الأسماء و الصفات عن الفرج بن زيد الكلاعي قال قالوا لعلي (عليه السلام) حكمت كافرا و منافقا فقال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 332

ثم المرائي الذي يعبد ربه رئاء الناس‏ «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» فثالوث الإشراك منحوس حسب مختلف دركاته، في حياة رذيلة مضطربة تخرج الإنسان عن وحدته إلى كيان ممزّق مفرّق.

و الموحد هو كعبد سلما لرجل، إذ يملكه سيد واحد، عالما طلباته، متوجها إلى مرضاته، فهو في راحة عن تناقض الحياة و تضاد الطلبات، فالقلب المؤمن بحقيقة الإيمان هو الذي يقطع رحلات الحياة على هدى واضحة، إذ لا يعرف و لا يهدف إلّا مصدرا واحدا و مصيرا و مسيرا واحدا منحا و منعا، فتستقيم اتجاهاته في مختلف الحقول إلى هذا المبدء المصير، عابدا له وحده، و مطيعا له وحده، و معلّقا آماله و أعماله عليه وحده، معلّقا يديه بحبل واحد يشد بكل إمكانياته عروته، يعيش في الأرض متطلعا إلى إله السماوات و الأرض، رافضا سواه وراءه ظهريا.

«هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا» حتى يستويان ممثّلا؟ فذلك في جحيم الحياة الدنيا قبل الآخرة، و هذا في جنة اللّه هنا قبل الآخرة «الْحَمْدُ لِلَّهِ» على وحدته و أمره بتوحيده توحيدا لاتجاهات الحياة نحو الكمال‏ «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ» مدى نحوسة الشرك و اكتئابه، و طيبة التوحيد و اكتسابه.

و ترى إذ «لا يعلمون» فمرفوع عنهم تكليف التوحيد حيث «رفع ما لا يعلمون»؟ كلّا! حيث الجهل هنا متجاهل عامد، و متعاضل شارد، و كيف لا يعلمون و هذا من أوضح موارد العلم لمن له مسكة حتى المجانين، فضلا عن العقلاء العارفين، و لذلك‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ»! و كما الإشراك باللّه- أيا كان- فيه نحو سته و انجرافه، كذلك الإشراك برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يسوّى به من دونه، فيطاع كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 333

يطاع، و

قد يروى عن علي (عليه السلام) قوله: أنا ذلك الرجل السّلم لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1» ثم من يحملون رسالة اللّه كما هو من الأئمة المعصومين (عليهم السلام) «2» ثم العلماء الربانيون، مهما كان الإشراك في هذا المربع دركات حسب الدرجات.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31).

«ميت و ميتون» في صفة مشبهة دالة على ثبات، دلالة على أن الموت لزام لهم كلّهم لا يفلت عنه فالت مهما كان نبيا و حتى أنت يا سيد الأنبياء «3».

و لا يعنى الموت هنا الفوت، و إنما موت الأبدان حقيقة بخروج الأرواح، و ذوق الموت للأرواح تخلصا عن الأبدان و هي أحياء في البرزخ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 485 عن المجمع و روى الحاكم ابو القاسم الحسكاني بالإسناد عن علي (عليه السلام) انه قال ... و في معاني الاخبار باسناده الى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) عن امير المؤمنين (عليه السلام) مثله.

(2)

المصدر عن روضة الكافي باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: اما الذي فيه شركاء متشاكسون فلان الذي يجمع المتفرقون ولايته و هم في ذلك يلعن بعضهم بعضا و يبرأ بعضهم من بعض فاما رجل سلم لرجل فانه الاول حقا و شيعته ...

(3)

المصدر 49 في عيون الأخبار باسناده قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لما نزلت هذه الآية «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» قلت يا رب أ تموت الخلائق كلهم و تبقى الأنبياء؟ فنزلت‏ «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ»

أقول:

لا يبقى بعد نص الآية الأولى شك في انه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يموت مع الباقين حتى يزول بعموم الآية الثانية، فالحديث إذا مركوس او معكوس ان الثانية نزلت قبل فسأل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سؤاله فنزلت الأولى نصا انه يموت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 334

ثم في القيامة الكبرى، و هناك فارق بين‏ «مَنْ شاءَ اللَّهُ» و سواهم، أنهم لا يصعقون و يفزعون يوم الصعقة الموت عن البرزخ، فإنه كموت الأرواح:

«وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (39: 68).

ليس الموت آخر المطاف في رحلة الحياة، إنما هو حلقة بعدها أصل الحياة «يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» و هنالك اختصام العباد المشركين كما كانوا يختصمون في الدنيا في مواليهم و فيما بينهم: «قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 97) «لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ» (50: 28) و «إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» (38: 64) اختصاما متصلا بين الحياتين دون إمهال‏ «ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ» (36:) 49).

العبّاد من دون اللّه يختصمون فيما بينهم و كما يختصم المعبودون، ثم ثالث ثلاثة اختصام العبّاد و المعبودين، ثالوث منحوس، ثم اختصام بين الرسل و المرسل إليهم، و بين كلّ الدعاة و المدعوين: «وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» (25: 30) و أين اختصام من اختصام؟! و من الاختصام ما هو بين الأمة مع بعض في ظلامات «في الدماء» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 327 اخرج عبد بن حميد عن الفضل بن عيسى قال‏ لما قرئت هذه الآية قيل يا رسول اللّه فما الخصومة قال: في الدماء، و اخرج عن الزبير بن العوام قال لما نزلت‏ «إِنَّكَ مَيِّتٌ ...» قلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أ ينكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال نعم لينكرن ذلك عليكم حتى يؤدّي الى كل ذي حق حقه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 335

و سواها، ثم لا خصام بين العدول إلّا مع سواهم حجاجا عليهم و تبكيتا، و حتى الظالم و المظلوم بين الدواب و الأنعام‏ «1» فضلا عن سائر المكلفين كالزوجين و الخدمة و المخدومين و اهل الأسواق‏ «2» و الجارين‏ «3» و الأمراء و الرعايا «4» و حتى الأرواح مع الأجساد «5» فالخصام هناك واقع بين كل ظالم و مظلوم من الجنة و الناس و الحيوان أمّاذا؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر 328 اخرج احمد بسند حسن عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ليختصمنّ يوم القيامة كل شي‏ء حتى الشاتين فيما انتطحتا.

(2)

المصدر 328- اخرج الطبراني و ابن مردويه بسند لا بأس به عن أبي أيوب ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: أول من يختصم يوم القيامة الرجل و امرأته و اللّه ما يتكلم لسانها و لكن يداها و رجلاها يشهدان عليها بما كانت لزوجها و تشهد يداه و رجلاه بما كان يوليها ثم يدعى الرجل و خادمه بمثل ذلك ثم يدعى اهل الأسواق و ما يوجد ثمّ دوانق و لا قراريط و لكن حسنات هذا تدفع الى هذا الذي ظلم و سيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه ثم يؤتى بالجارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم الى النار فو اللّه ما ادري يدخلونها او كما قال اللّه: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها».

(3)

المصدر- اخرج احمد الطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أول خصمين يوم القيامة جاران.

(4)

المصدر- اخرج البزار عن انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يجاء بالأمير الجائر فتخاصمه الرعية.

(5) المصدر اخرج ابن منده عن ابن عباس قال يختصم الناس يوم القيامة حتى يختصم الروح مع الجسد فيقول الروح للجسد أنت فعلت و يقول الجسد للروح أنت أمرت و أنت سولت فيبعث اللّه تعالى ملكا فيقضي بينهما فيقول لهما ان مثلكما كمثل رجل مقعد بصير و آخر ضرير دخلا بستانا فقال المقعد للضرير اني ارى هاهنا ثمارا و لكن لا أصل إليها فقال له الضرير اركبني فتناولها فركبه فتناولها فأيهما المعتدي فيقولان كلاهما؟ فيقول لهما الملك فإنكما قد حكمتما على أنفسكما يعني ان الجسد للروح كالمطية و هو راكبه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 336

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (32).

من كذب على اللّه أن له شركاء أم لم يوح إلى أحد أمّاذا من أكاذيب، ثم كذب بالصدق إذ جاءه و حيا و موحى إليه بآياتهما البينات، فمن اظلم منه، إنه في الدرك الأسفل من الظلم كذبا على اللّه و تكذيبا بما جاءه عن اللّه، مهما كان له أمثال في دركه.

وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33).

لعل‏ «الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ» وجاه‏ «مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ» هو الذي جاء اللّه بكل صدق، صادقا به و بتوحيده و بأقواله.

كما الذي «صدق به» وجاه من‏ «كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ»، هو المصدق لما جاءه عن اللّه من وحي بمن جاء من رسل، تخاصما بينهما في بعدين ف‏ «أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

و لماذا «أولئك»؟ و «الذي» مفرد؟ علّه لأن «الذي» يعم الرسول و المرسل إليه، و كل عدّة تعم المكلفين المصدقين أجمعين ف‏ «أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»!.

فالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) جاء كمن قبله بالصدق عن اللّه، و صدّق بما جاء به و بما جاء به من قبله، و المرسل إليه جاء إليه بالصدق في كيانه و وحيه، و صدق بالصدق الذي جاءت به رسله، فهما على- جمعيتهما- معا معنيان ف‏ «أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» ثم احتمال ثالث أن‏ «الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ» هو الرسول‏ «وَ صَدَّقَ بِهِ» هو المرسل إليه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 328- اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة «وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 337

لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (34).

لهم عند ربهم في مقامات القرب و الزلفى «ما يشاءون» مشية مختارة و ليست مختارة، و «ذلك» العظيم العظيم‏ «جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ» ... أ تراهم إن شاءوا رؤية اللّه، أم شاءوا أن ينالوا درجات الأنبياء، أم شاءوا زوجات المتقين الآخرين فلهم كل ذلك حيث‏ «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ»؟

كلّا! فليسوا ليطلبوا المحال، و هم على علم أن رؤية اللّه مستحيلة، و من المجي‏ء بالصدق و التصديق به تصديق أنه لا يرى: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ».

ثم و لأنهم يعرفون درجاتهم ليسوا ليطلبوا فوقها مما يخص من فوقهم فإنه طلب لغير العدل، و الطالب ما فوقه من مكانة إما ظالم متطاول، أو جاهل متعاضل، و هم عن هذه الظلامات و الجهالات مبعدون.

ثم و لأنهم لهم ما يشاءون من زوجات فلم يشتهون زوجات آخرين، و هكذا تطلّب عارم ناشئ إما عن فقدان و لهم ما يشتهون، أو عن طيش‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «وَ صَدَّقَ بِهِ» قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، و في المجمع انه المروي عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام، أقول و منه ما في تفسير البرهان: 4: 76 محمد بن العباس بسند عن أبي الحسن (عليه السلام) قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) في الآية و ذكر مثله.

أقول: و لقد اخرج الحفاظ و ارباب المسانيد و المؤلفون مثله كابن المغازلي في المناقب و ابن عساكر في فلك النجاة و الكنجي في كفاية الطالب 109 و القرطبي في الجامع لأحكام القرآن 15: 256 و ابو حيان في البحر المحيط 7: 428 و السيوطي في الدر المنثور كما مضى، و المير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي 51 و الالوسي في روح المعاني 30: 3 و أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 338

و عدوان: «و يخرج أضغانهم» ثم و كل هذه خلاف المجي‏ء بالصدق و التصديق به! لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (35).

«أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا» مما يدلنا على أن المحور المعني في‏ «جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ» هم المرسل إليهم الذين يجوز عليهم السوء و الأسوء حتى يكفّر، دون المرسلين المعصومين، ف «عنهم» هنا راجع إلى بعض المعنيّ من‏ «الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ» إن كان يشمل الرسل.

ثم و «أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا» هو الإشراك باللّه قبل الإيمان، حيث المجي‏ء بالصدق و التصديق به أحسن الأعمال فيكفّر اللّه به أسوء الأعمال فضلا عن سوءها، و هذه سنّة ثابتة بالنسبة للأسوء قبل الإيمان، ثم و بعده‏ «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ» (4: 31) دون توبة، و يكفر كذلك كبائر السيئات بتوبة و شفاعة، فهذا المثلث من الأسوء مكفّر لكرامة الصدق و التصديق به، ثم‏ «وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» و هو الصدق و التصديق، ففيهما الأجر العظيم و التكفير العظيم، و كل ذلك من فضله العميم.

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (36) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (37).

من أسباب النزول أنهم قالوا للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لتكفّن عن شتم آلهتنا او لنأمرنها فلتجنّنك فنزلت‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر اخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن قتادة قال قال لي رجل قالوا للنبي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 339

إن اللّه يكفي عباده الصالحين من نبيين و متقين- على درجاتهم- من بأس الكافرين المتربصين بهم دوائر السوء، فأكفى الكفاية- إذا- هو لأكفى النبيين‏ «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (2: 137) «وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» (61: 8).

إن هناك معركة مصيرية بين الداعية إلى الحق و القوى المضادة المرجفة لقلوب خوت أم تكاد، و اللّه واعد عباده الصالحين أن يكفيهم في كل بأس ينال من ساحة الرسالة و الإيمان مهما كان برحمة الاستشهاد.

«وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ»! و كل من سواه ليس إلّا دونه، و عبد اللّه لا يخاف في سبيل اللّه إلّا اللّه دون من دونه و

«من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء و من لم يخف الله أخافه الله من كل شي‏ء» «1».

أ ترى بعد ان هناك كافيا إلّا اللّه، و الكفاية تعني الاعتناء لحد عدم الحاجة إلى غير الكافي؟ كلّا! إنما الكافي هو اللّه دون سواه حيث الكفاية تعنى تمام الربوبية ولاية «وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَكِيلًا» (4: 45) و علما «وَ كَفى‏ بِاللَّهِ عَلِيماً» (70) و وكالة «وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَكِيلًا» (81) و شهادة «وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (79) و خبرة و بصيرة «وَ كَفى‏ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً» (17: 17) و حسابا «وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ» (21: 47) و هداية و نصرة: «وَ كَفى‏ بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً» (25: 31) و قوّة و عزة: «وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً» (33: 25) و شهادة على كل شي‏ء:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(صلى الله عليه و آله و سلم): ... و

عنه قال: بعث رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) خالد بن الوليد ليكسر العزى فقال سادنها و هو قيمها يا خالد اني أحذركها لا يقوم لها شي‏ء فمشى إليها خالد بالفأس و هشم أنفها.

(1). عيون اخبار الرضا عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 340

«أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (41: 53).

أ ترى هذه الصفات الاثنى عشر التي هي لزام الكفاية، توجد في غير اللّه، و حتى محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الأئمة الاثنى عشر (عليهم السلام) حتى يصح الدعاء المختلق «يا محمد يا علي اكفياني فإنكما كافياي» مهما صح «و انصراني فإنكما ناصراي» حيث الكفاية أخص من النصرة! إن ذلك لا يشبه شرعة القرآن و سنة نبي القرآن، ف‏ «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ»!

[سورة الزمر (39): الآيات 38 الى 52]

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (40) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى‏ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى‏ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى‏ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44) وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47)

وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (48) فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 342

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38).

هذا من أسؤلة الحجاج على المشركين المقرين أن اللّه هو خالق السماوات و الأرضين، فلما ذا- إذا- يدعون من دون اللّه من يخلق و لا يخلق، و لا يكشف ضرا يريده اللّه، و لا يمسك رحمة يرسلها اللّه‏ «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» في كشف ضر و إرسال رحمة، و كفاني اللّه عن كل بأس و زحمة و «عليه» لا سواه‏ «يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 343

فلما ذا يخاف عبد اللّه و من ذا يخاف و هو في سبيله إلى اللّه؟ فقد انقطع الأمل عن سواه و انقطع الخوف و الجدل، إذ ليس له بدل إلا جنابه المتعال، فهو كاف عبده، و هو الرقيب على عبده، و هو الوكيل لعبده، و هذه هي الطمأنينة دون خيفة، و الثقة دون زعزعة، و المضي في سبيل اللّه حتى النهاية دونما تخلف قيد شعرة.

و لفظة غير ذوي العقول «ما» و ضمير الجمع المؤنث الراجع إليه «هن» تعريضان بأن ما يدعى من دون اللّه لا يعقل، و هو في الأصنام و الأوثان مشهود، و في الطواغيت معهود، حيث الطغيان على اللّه خلاف العقل، ثم في الملائكة و النبيين مردود، فإنهم لا يتقبلون أن يعبدوا من دون اللّه، فكأنهم لا يعقلون عبادتهم إذ هم ناكرون! هم كانوا يخوّفون الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بمن دون اللّه، و هو يخوّفهم و نفسه باللّه‏ «إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ...»؟ ثم يرسلهم إلى مكانتهم أن يعملوا على حدها هذه:

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (40).

«اعملوا» ضدي و خلاف ما أوحي إلي و أرسلت به إليكم‏ «عَلى‏ مَكانَتِكُمْ»: منزلتكم و إمكانيتكم‏ «1».

«اعملوا ...» ف‏ «إِنِّي عامِلٌ» على مكانتي، معاركة صاخبة كل على مكانته، رغم أني وحدي و أنتم كثرة، أنتم لكم أموال و ليست لي أموال ...

«فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» عين اليقين، و ليس بعد الموت فحسب بل و في الدنيا «مَنْ يَأْتِيهِ» منا «عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ» هو عليه لزام دون فكاك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المكانة هي المنزلة و هي الإمكانية، و كلما كانت المنزلة أقوى فالإمكانية أوسع، فهذا تحدّ ذو بعدين أن كرّسوا إمكانياتكم على مستوى منزلتكم علما و مالا و قوة أمّاذا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 344

و هذه مباهلة عملية مع الذين لا تنفعهم الدعوة بأيّة حجاج إلّا مزيد لجاج، و هذه نهاية المطاف لداعية الحق حينما تبلغ الحجاج ذروته، و لا يتقبل المدعو أية برهنة إلّا ردا بقوله الزور، و انتفاجة الغرور.

إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى‏ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41).

«أنزلنا» إنزالا «بالحق» عليك «بالحق» «الكتاب» بالحق، كتاب حق بإنزال حق على نبي حق‏ «فَمَنِ اهْتَدى‏» بمثلث الحق «فلنفسه» دون أن ينتفع به اللّه و رسوله‏ «وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها» لا على الكتاب الحق و رسول الحق و المرسل الحق‏ «وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» تجرهم إلى الهدى:

«إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ». إلى صراط مستقيم و «للناس» هنا كما في غيرها دليل أنه‏ «هُدىً لِلنَّاسِ» فهم- إذا- قادرون على تفهّمه ف «للناس» تعلّمه و «للناس» تطبيقه و «للناس» نشره، و أنت رسول اللّه الى الناس بكتاب اللّه «للناس».

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى‏ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى‏ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42).

هذه هي الآية الأمّ دلالة على حقيقة الموت و الحياة البرزخية بعد الموت، و تجاوبها بعض الشي‏ء آية الأنعام: «هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى‏ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (61).

أ ترى أن بينها و بين التي تجعل التوفي لملك الموت: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ...» (32: 11) و التي تجعله لسائر الملائكة الرسل: «حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا» (6: 61)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 345

و أضرابها: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ» (16: 32) «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ» (16: 28) «فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ» (47: 27).

هل إن هنالك تهافتا ثلاثيا؟ كلّا! فالمتوفي الأصيل للأنفس كلها طيبة و ظالمة هو اللّه، و الموكّل لذلك كعامل بأمر اللّه هو ملك الموت حيث يدير شؤون الأموات، ثم الموكّلون تحت إمرته بأمر اللّه هم رسل من اللّه! فلا محيي و لا مميت إلّا اللّه، دون واسطة، ام بوساطة هو في غنى عنها، و لكن المتوفى لا يأهل أن يتوفاه اللّه دون وسيط.

فقد يتوفى اللّه دون وسيط من هو أرقى من ملك الموت و أعلى محتدا كالرسول الأقدس (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و من حذى حذوه، و ليس حضور ملك الموت بمحضره حين التوفي إلّا تشريفا و المتوفي هو اللّه:

«وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ» (10: 46).

«أما ملك الموت فإن الله يوكله بخاصته ممن يشاء من خلقه و يوكل رسله من يشاء من خاصته ممن يشاء من خلقه يدبر الأمر كيف يشاء و ليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس لأن فيهم القوي و الضعيف و لأن منه ما يطاق حمله و منه ما لا يطاق حمله إلا أن يسهل الله له حمله و أعانه عليه من خاصة أوليائه و إنما يكفيك أن تعلم ان الله المحيي و المميت و أنه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته و غيرهم» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 489 ح 65 في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول‏ فيه و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات و اما قوله:- ثم ذكر الآيات المذكورة في المتن- فان اللّه تبارك و تعالى يدبّر الأمر كيف يشاء و يوكل من خلقه من يشاء بما يشاء، و اما ملك الموت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 346

هنالك ثلاثية التوفي، من اللّه للرعيل الأعلى، و من ملك الموت بإذن اللّه لمن يتلونهم الخاصة، و من سائر الملائكة بدرجاتهم لسائر الناس بدرجاتهم أو دركاتهم، و إن كان اللّه هو المتوفي فيها كلها! ترى و كيف يصح هذا التقسيم و آية ملك الموت تخاطب ناكري البعث: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ...»؟ و لكنه يعني التوفي بوسيط و ليس إلّا تحت رئاسة ملك الموت بأعوانه الملائكة الآخرين‏ «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ» او «... ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ» فإنهما تفسران توفي ملك الموت أن ليس كله بيده دون وسيط، و كما تفسران مع سائر الآيات‏ «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ» أن ليس كل توفيه دون وسيط.

إذا فالمتوفي لأطيب الطيبين هو اللّه، و للخصوص منهم بعدهم هو ملك الموت، و لسائر الطيبين سائر ملائكة الموت، و للظالمين أنفسهم أدنى الملائكة مهما كانوا كلهم معصومين ف‏ «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ» (22: 75).

ثم ما هو التوفي، و الأنفس المتوفاة هنا؟

ليس التوفي هو الإمامة نفسها، بل هو أعم منها حيث هنا يطلق على الإماتة: «وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها» و في أخرى على أخذ الروح و الجسم دون إماتة و لا إنامة عن هذه الكرة الأرضية إلى غيرها: «إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى‏ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...» (3:) 55) مع العلم أن المسيح حي يرزق حتى الآن: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» (4: 159) و حتى الآن ما آمن به المسيحيون كلهم فضلا عن أهل الكتاب كلهم، فليكن حيا حتى الآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 347

فالتوفي في معنى جامع لهذه الثلاث هو الأخذ وافيا، مهما كان المأخوذ هو الإنسان بروحه و جسمه كما في المسيح (عليه السلام) أم بروحه ككل كما في الإماتة «فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ» (4: 15) و الموت لا يميت، أم بروحه بعضا كما في الإنامة، فإيفاء الأخذ في كلّ بحسبه، إيفاء للمأخوذ كونا و كيانا، أجرا و جزاء، دونما إبقاء هنا أو هناك، و كذلك اللّه يتوفى حين يتوفى و بعده، إيفاء دون إبقاء.

و الأنفس هنا ليست هي الأرواح بالأجساد، مهما كان المجموع نفسا، كما كل نفس، اللهم إلّا توفيا لهما بعد توفي الانفصال، فإنهما معا في حفظ اللّه دون أن يضل منهما شي‏ء: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ» (32: 11) فلولا تعني توفي الجسم مع الروح لما كانت إجابة عن إشكال: «ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ» إذ يعنون ضلال البدن بأجزائه.

فهنالك عند الإماتة توفّيان متداخلان ف‏ «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها» إذ يفصل الروح بكامله عن البدن، و يحفظهما بكاملهما عن الضياع و الضلال، و قد لا تعني آية التوفي هذه إلّا الأول، و لا سيما أن النوم ايضا هنا توف و لا يؤخذ فيه الجسم.

إذا فالأنفس في توفي الإماتة هي الأرواح بكاملها دون إبقاء، من إنسانية و حيوانية و نباتية، فهي تموت بذلك التوفي‏ «حِينَ مَوْتِها» و لا يعني موتها فوتها، و إنما انفصالها عن أجسادها و بطلان تصرفاتها فيها، و إلّا فهي أحيى مما كانت في الحياة الدنيا، كما أن موت البدن- و هو ميت في نفسه- يعني انفصال الحياة عنه و بطلان انصرافه بتصرفات الروح، و أين موت من موت؟

النفس تذوق الموت لانفصال و لا تموت‏ «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ» (3: 185) فما موتها هنا و في أمثالها: «وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 348

اللَّهِ» (3: 145) إلّا ذوقا للموت، أو يعني موت أبدانها اللّهم إلّا هنا حيث‏ «يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ»: الأرواح‏ «حِينَ مَوْتِها».

«وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها» كذلك اللّه يتوفاها، و لكنها ليست النفس الروح بتمامها، بل هي الروح الإنسانية المديرة المدبرة لحياة اليقظة، ثم تبقى الحيوانية و النباتية إبقاء لأصل الحياة نموا و انهضاما لغذاء و تنفسا دون تحسّس، فمعنى توفي النفس النائمة- إذا- هو اقتطاعها عن الأفعال التميزية و الحركات الإرادية كالعزوم و الصعود و ترتيب القيام و القعود و سائر الأفعال الاختيارية.

و بدمج النباتية في الحيوانية، و هي لزامها- فلأقل تقدير- لكل إنسان نفسان متحدتان متمازجتان في حياة، ثم تنفصل الإنسانية في حياة النوم، برزخا مؤقتا حتى اليقظة، و تنفصلان عنه عند الموت فتعيشان دون هذا البدن في الحياة البرزخية، و في القيامة حياة أرقّ و أرقى! ثم بالنسبة لهذه التي لم تمت في منامها «فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى‏ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى‏ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» يمسك النفس الإنسانية المتوفاة لكيلا تنجذب إلى الحيوانية المبقاة، حيث الإمساك يلمح إلى التجاذب بينهما للالتحام، تداوما للحياة الدنيوية، فلولا الإمساك لانجذبت الانسانية الى الحيوانية، و بالإمساك ينعكس الانجذاب: «وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى‏ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى».

فالتلاحم بين نفسي الإنسان لزام حياتهما هنا و في البرزخ، فلا تعيش الإنسانية دون الأخرى، كما لا تعيش الأخرى دون الأولى، ف‏

«ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء و بقيت روحه في بدنه و صار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس و إن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 349

أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح ...» «1»

و سبب كشعاع الشمس أحسن تعبير عن التجاذب بينهما على فصال، فضلا عن حالة الاتصال! فكما «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها» بتمامها، كذلك يتوفى‏ «الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها» لأولاها «فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى‏ عَلَيْهَا الْمَوْتَ» و حتى يتم الموت‏ «وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى‏ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» رجوعا إلى الحياة، فقد يتحقق الموت في وصال للنفسين كحال اليقظة، أم في فصال لهما كحال الموت، يتوفى الأولى أولا بالإنامة و الثانية ثانيا بإمساك الأولى حتى تنجذب الثانية إليها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير العياشي باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ما من عبد ... و هو قوله سبحانه: اللّه يتوفى الأنفس حين موتها ... فمهما رأت في ملكوت السماء فهو مما له تأويل و ما رأته بين السماء و الأرض فهو مما يخيله الشيطان و ليس له تاويل (البرهان 4:

77)

و

في نور الثقلين 4: 489 ح 64 عن كمال الدين و إتمام النعمة باسناده الى داود ابن القاسم الجعفري عن محمد بن علي الثاني (عليه السلام) قال: اقبل امير المؤمنين (عليه السلام) ذات يوم و معه الحسن بن علي (عليه السلام) و سلمان الفارسي و امير المؤمنين متّك على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس إذ أقبل رجل حسن الهيئة و اللباس فسلم على امير المؤمنين فرد عليه السلام فجلس ثم قال يا امير المؤمنين اسألك عن ثلاث مسائل ان اخبرتني بهن علمت ان القوم ركبوا من أمرك ما اقضي عليهم انهم ليسوا بمأمونين في دنياهم و لا في آخرتهم و ان تكن الاخرى علمت انك و هم شرع سواء فقال له امير المؤمنين (عليه السلام) سلني عما بدا لك قال: اخبرني عن الرجل إذا نام اين تذهب روحه و عن الرجل كيف يذكر و ينسى و عن الولد كيف يشبه الأعمام و الأخوال؟ فالتفت امير المؤمنين (عليه السلام) الى أبي محمد الحسن بن علي (عليه السلام) فقال: يا أبا محمد أجبه فقال (عليه السلام) اما ما سألت عنه من امر الإنسان إذا نام اين تذهب روحه فان روحه معلقة بالريح و الريح معلقة بالهواء الى وقت ما يتحرك صاحبها لليقظة فان اذن اللّه عز و جل برد تلك الروح على صاحبها جذبت تلك الروح الريح و جذبت تلك الريح الهواء فرجعت الروح فأسكنت في بدن صاحبها و ان لم يأذن اللّه عز و جل برد تلك الروح على صاحبها جذب الهواء الريح و جذبت الريح الروح فلم ترد الى صاحبها الى وقت ما يبعث ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 350

إذا ف «النوم أخ الموت» و مثل له يمثّله كبراعة استهلال، فانه توفّ كما هو، مهما افترقا بتوفي الروح كله أو بعضه ف‏ «هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى‏ أَجَلٌ مُسَمًّى ...» (6:) 61) «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»، فحين نفكر في النوم و الموت نجد بينهما تقارنا بفاصل يخص الموت، فالنوم- إذا- آية حسية مكرورة طول الحياة تدل على إمكانية الحياة مع الموت و بعده، معه حيث النائم ميت في نفسه حيّ في روحه، حياتا برزخية أولى، فلتكن في الموت حياة برزخية ثانية بعده و كما النائم يبعث باستيقاظ، كذلك الميت يبعث للحياة الاخرى بنفخ الصور.

و إرسال النفس بعد توفّيها في المنام قضاء لأجلها، آية إرسالها بعد موتها قضاء لأجرها.

و اليقظة بعد النوم آية أن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

و آية للرحمة المتواصلة الإلهية تقطع عن الإنسان معاذيره كيلا يقول‏ «إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ...».

و كما أن راحة النوم عن حركات التعب و نهضات النصب آية أخرى تخجل الإنسان أمام ربه إذ يذكّرها، فليراقب أعماله بعده، و كما ترى في منامك رؤياءات صادقة لمكان تجرد أكثر مما في اليقظة، و هناك تنفتح لك شعبة من الوحي فترى ما لا تراه في اليقظة، كذلك- و بأحرى- بعد الموت حيث تتجرد أكثر من النوم، داخلا في عالم تمامه الصدق، فترى ما لم تكن تراه في حياتك الدنيا يقظة و نوما، حيث تكشف عنك غطاءك كلها: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» ... «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 351

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44).

اتخذوا من دونه آلهة «أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ» يشفعون لهم عند اللّه إذ يقولون: «هؤلاء شفعاءنا عند الله»؟ «قل أ» تتخذونهم شفعاء «وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً» لأنفسهم فضلا عمن سواهم‏ «وَ لا يَعْقِلُونَ» فكيف- إذا- يملكون؟

ثم و ليس كل من يملك شيئا و يعقل هو يملك الشفاعة عند اللّه، فإن‏ «لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً» في شرعة و تكوين، و «لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (43: 86).

فهو الذي يملّك الشفاعة من يملكها على شروطها التي هو قرّرها لا سواه، فكيف ترجون الشفاعة ممن ليس يملك شيئا و لا يعقلون، و حتى إذا ملكوا و عقلوا و «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (43: 86) «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» (21: 28)! فإنما الشفاعة في ملك اللّه و عباده لمن يملك السماوات و الأرض ثم إليه يرجعون، و ليس إلّا اللّه وحده لا سواه، ف‏ «لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً» من ايّ كان، لأنه المبدء المبدع و إليه المعاد، فكيف يحق لأحد أن يشفع في ملكه و عنده إلّا بإذنه‏ «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (2: 255)؟.

وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45).

كلّ من الاشمئزاز و الاستبشار غاية في بابه،: امتلاء القلب غما تظهر آثاره في الوجه مغبرا، و امتلاءه سرورا تظهر آثاره في الوجه متهلّلا!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 352

وهب هم يشركون باللّه ما لم يأذن به اللّه، فلما ذا يشمئزون من ذكر اللّه وحده و يستبشرون من الذين من دونه، تلك إذا قسمة ضيزى، اشمئزازا من الإله الأصيل الخالق، و اعتزازا بالشريك المختلق، ذلك بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلهم ما يشتهون فيما يعبدون، و في الحق ما هم بمشركين كما يدعون، بل هم موحدون لعبادة شركائهم، رافضون لعبادة ربهم، فهم- إذا- أنحس من الملحدين الناكرين للّه، العابدين لغير اللّه.

لا تقل إنهم مشمئزون- فقط- من توحيد اللّه: «إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ» و مستأنسون إذا ذكر مع شركائه، فإنهم‏ «إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» فهم يرفضون ذكر اللّه وحده و مع شركائهم، و إذا ذكروه معهم فإنما الهدف الأصيل شركائهم.

و هكذا نرى جماعة من الموحدين، أنهم لا يستأنسون بذكر اللّه استيناسهم بذكرى رسله و أوليائه، كما لا يأنسون بكتاب اللّه أنسهم بخليط الأحاديث من الغث و السمين و الخائن و الأمين، و هذا شرك خفي في المؤمنين باللّه قد يصبح ركاما فيجلو: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ»! قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46).

الحاكمية بين المختلفين تتطلب حيطة علمية بسائر شروطها المتعاضلة المتفاضلة، و لذلك لا يحكم بين عباد اللّه أصالة إلّا اللّه، و الرسول رسالة و الائمة ولاية، و العلماء الربانيون- الأقرب منهم فالأقرب إلى ساحة العصمة القدسية- خلافة عن أئمة الهدى و مصابيح الدجى.

«فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» الذي خلقهما هو أعلم بهما و من فيهما كونا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 353

و كيانا و فعلا و افتعالا، و هو «عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ» الحاكم الوحيد القهار بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، حكما في الدنيا بشرعته المبينة للحق، و حكما في الآخرة و لا رسالة هناك و لا كتاب، اللهم إلّا كتاب الشرعة و الأعمال.

وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ 47 وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (48) «لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» هنا المشركون و الناكرون لحياة الحساب فالثواب و العذاب حيث‏ «حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» «وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ ...» كل ظلم و «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» «... أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ» (7: 45) فهم الذين لم يستجيبوا لربهم ف‏ «لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى‏ وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» (13: 18).

و هم الذين كفروا «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» (5: 37) «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ» (3: 91) و مل‏ء الأرض ذهبا هي كل‏ «ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ» فهذا مثل لعظيم الفداء يوم القيامة الكبرى، و «مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ» ايضا في آيتها تعني المثال‏ «وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 354

الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ...» (10: 54) فلا تنافي بين مثلث الآيات: «ما فِي الْأَرْضِ» «... وَ مِثْلَهُ مَعَهُ» و «مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً» حيث الكل أمثال عن كثرة الفداء.

ثم هنا استحالة في قبول الفداء من بعدين، ف «لو» تحيل أن يكون لهم ما في الأرض، «فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً» تحيل قبول أي فداء منهم مهما كان أطول الأضلاع في مثلّثه، هول ملفوف في ثنايا التعبير الرهيب لا حول عنه بأية فداء و إن في صورها المستحيلة و حتى‏ «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ. وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ» (70: 14).

و مع رد الفداء- لو كان- و بعده‏ «بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» من حق المبدء و المعاد و وحيه الرابط بين المبدء و المعاد، فلم يكونوا يحتسبون ذلك المستقبل العتيد الشديد، و الاحتساب حكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، و هو خلاف الحساب فإنه افتعال من الحساب، و تكلّف كاذب يناقض الحساب، و قد كانوا يحتسبون أن الحياة هي الدنيا، فلم يكونوا يحتسبون أن بعدها أخرى هي أحرى قضية الحساب.

ثم و من ثم‏ «وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا» بعد ما كانوا عنها غافلين عمين: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

يوم الدنيا كانت سيئاتهم في احتسابهم حسنات، أم ما كانت سيئات إذ «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» ثم في يوم الحساب يكشف الغطاء عما عملوا «وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 355

إذ كانوا يستهزئون بالعذاب الحساب، فنزل بهم ما كانوا يحتسبون! مربع من ركام العذاب دون تفلّت عنه و لا تلفّت.

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51).

هذه طبيعة الإنسان و سجيّته، نسيان اللّه و ذكر من سواه، فإذا مسّه ضرّ و لما يحلّ به- حيث المس ذريعة الحلول- هناك «دعانا» أن نكشف الضر عنه‏ «ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا»: «نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ» (8) و «قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ»!.

فرغم أن‏ «نِعْمَةً مِنَّا» هي مخوّلة غير مملّكة، فهي عطية مؤقتة فتنة «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ» و هي «منا» لا منه، لا ذاتا و لا استحقاقا، بالرغم من كل ذلك‏ «قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ» حاصرا هذه العطية الربانية أنها آتية «على علم» مني و خبرة و استحقاق‏ «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

أكثر المنعمين لا يعلمون أن نعم اللّه فتنة و كما أن نقمه فتنة «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلَّا ...» (89: 16).

و من ثم قليل منهم يعلمون أنها فتنة، أ ترى أنهم المؤمنون حقا فلا يغترون بنعمة، و لا ييأسون بنقمة، فهما لهم أمام اللّه على حدّ سواء، فهم راضون بمرضاة اللّه؟ و هناك من يعلم أنها فتنة و لكنه يفتن بها! و منهم قلة قليلة يعلمون و لا يفتنون، ثم و «لا يعلمون» في الأكثر ليس إلّا جهل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 356

التجاهل و الغفلة، جهلا عامدا دون قصور، حيث الجاهل القاصر معذور.

و ليسوا هم بدعا من قائلي هذه القولة ف‏ «قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من أضرابهم و هم الأكثرية الساحقة في التاريخ‏ «فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» على هذه القولة الجوفاء الخواء «فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا» إصابة يوم الدنيا و أخرى يوم الدين‏ «وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ» الحاضرين و إلى يوم الدين‏ «سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا» على سواء «وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ» اللّه.

نجد هذه الآية و أضرابها تكشف عن الفطر و العقول ركام الأهواء الهاوية و الشهوات الخاوية، تعرية من العوامل المصطنعة، و تجريدا للإنسان في ضلاله عن كل حجة، ضاربا إلى أعماق التاريخ في الغابرين، و رابطا بينهم و بين الحاضرين و الذين يستقبلونهم إلى يوم الدين، حيث الكفر ملة واحدة، و في علة واحدة، فإلى جهنم و بئس المصير.

و إنها تلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين، من هم أشد منهم قوة و أكثر آثارا في الأرض و عمارا «فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ».

ألم يعلموا بعد أنّ نعم اللّه بلايا و امتحانات قد تبوء إلى امتهانات، فهي من اللّه على جهلهم لا منهم «على علم» منهم؟ فإن لم يعلموا:

أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52).

و هذا أمر ملموس أنه هو الذي يبسط الرزق و هو الذي يقدر، فكم من كادّ في طلب الرزق الواسع، و عالم كيف يكسبه و قد قدر عليه رزقه، و كم من متبطّل جاهل يأتيه رزقه واسعا رغدا من حيث لا يحتسب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 357

و ليس هذا التقدير استجاشة للبطالة و العطالة، و تجميدا للطاقات البشرية، فإنما أمر بين أمرين، فلا أن بسط الرزق و قدره رهينان- فقط- لسعى الإنسان أو هموله، و لا أن اللّه يبسط الرزق و يقدر كفوضى جزاف تعمية للمساعي و هو القائل‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

إنما عليك أن تسعى قدر الحاجة و الاستطاعة، دون تحتيم على ربك أنه رازقك قدر سعيك، أو يقتر عليك إن لم تسع قدر حاجتك و طاقتك، فإنما عليك السعي و على اللّه التكلان في منتوجات السعي.

سعة الرزق هي حصيلة معدات ليست كلها بيدك، فقد يعدها لك ربك إن رآه صالحا لك أو في كل النظام، أم لا يعدها لخلوه عن صالح هنا أو هناك، ثم يسع الرزق لمن سعى دونك حيث يعدّ له معداته الخارجة عن سعيه، إذا فهو الذي يبسط و هو الذي يقدر، رغم واقع المساعي بمختلف درجاتها، إذا فعليك الحركة قدر المستطاع و على اللّه البركة كما يشاء، زائدة على سعيك أم ناقصة عنه، فإن لم تسع اتكالا على رازقك فما لك إلّا ما لغير الساعين من جوع أم بلغة الحياة أماذا؟

و في تخلف المسببات عن أسبابها المعدة لها دليل صارم لأمر دله أن في الغيب مسبّبا للأسباب ليس لينتظم في خيرتنا تحت الأسباب، إلها واحدا يسبب الأسباب أم يبترها عن كونها أسبابا، و هو الذي‏ «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ» رغم ظواهر الأسباب، تنظيما للكون كأصلح ما يكون، و تدليلا أن هنا مكونا واحدا قديرا عليما فوق الأسباب، خفيا وراء الأسباب.

[سورة الزمر (39): الآيات 53 الى 61]

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَ أَنِيبُوا إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (54) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى‏ عَلى‏ ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57)

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلى‏ قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (59) وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (61)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 359

هنا بعد الهول الرهيب للذين ظلموا و تقطّع الآمال، و تميّز الحال و اضطراب البال، لا يغنيهم أي فداء عما ظلموا بما أسرفوا على أنفسهم، يفتح اللّه أبواب التوبة و الأوبة و الغفران بمصاريعها، حتى ليطمع أهل الكبائر العظائم في رحمة اللّه غير قانطين عنها، و لكنها فرصة متاحة بشروطها في أوانها قبل إفلاتها و فوات الأوان! حالة وسطى بين الخوف المطلق فإياس و إبلاس، و بين الرجاء المطلق فاللّامبالات و الارتكاس:

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَ أَنِيبُوا ...

وَ اتَّبِعُوا..

و إنها أرجى آية في كتاب اللّه و أوسعها «1» تنزل في وحشي بن حرب و كل حرب وحشي حين يدعى إلى الإسلام، و هو يسترخص رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بما أسرف، فتنزل‏ «إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» (5: 70) فلا يقنع لأنه شرط شديد فلعلي لا أقدر على هذا، فتنزل:

«إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48) فكذلك الأمر «فلا يدرى يغفر لي أم لا فهل غير هذا» فأنزل اللّه آية الإسراف هذه فأسلم‏

فقال الناس يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إنا أصبنا ما أصاب وحشي قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بلى للمسلمين عامة «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 331- اخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال قال علي‏ اي آية أوسع فجعلوا يذكرون آيات القرآن‏ «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ...»

و نحوها

فقال علي رضي اللّه عنه‏، ما في القرآن أوسع آية من‏ «يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ ...»

(2)

المصدر اخرج الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان بسند لين عن ابن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 360

و ما أحبها الى الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حيث‏

يقول‏ «ما أحب أن لي الدنيا و ما فيها بهذه الآية فقال رجل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فمن أشرك؟ فسكت النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ألا و من أشرك ثلاث مرات‏ «1»

و ظاهره الإشراك بعد التوحيد «2» رغم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عباس (رضي اللّه عنه) قال: بعث رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه الى الإسلام فأرسل إليه يا محمد كيف تدعوني و أنت تزعم ان من قتل او أشرك او زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مهانا و انا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة فانزل اللّه‏ «إِلَّا مَنْ تابَ ... فقال وحشي هذا» شرط شديد «إِلَّا مَنْ تابَ ...» فلعلي لا أقدر على هذا فأنزل اللّه‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ...» فقال وحشي هذا ارى بعد مشيئته فلا يدرى يغفر لي ام لا فهل غير هذا فانزل اللّه‏ «يا عِبادِيَ ...» قال وحشي هذا فهم فأسلم ...

و

فيه أخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن وحشي قال: لما كان من امر حمزة ما كان القى اللّه خوف محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في قلبي خرجت هاربا اكمن النهار و أسير الليل حتى صرت الى أقاويل حمير فنزلت فيهم فأقمت حتى اتاني رسول رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يدعوني الى الإسلام قلت و ما الإسلام؟ قال: تؤمن باللّه و رسوله و تترك الشرك باللّه و قتل النفس التي حرم اللّه و شرب الخمر و الزنا و الفواحش كلها و تستحم من الجنابة و تصلي الخمس قال: ان اللّه قد انزل هذه الآية «يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ ...» فقلت: اشهد ان لا إله إلا اللّه و ان محمدا عبده و رسوله فصافحني و كناني بابي حرب.

(1). المصدر اخرج احمد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان عن ثوبان قال سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ما أحب ...

(2) المصدر اخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة وليد بن الوليد و نفر من المسلمين كانوا اسلموا ثم فتنوا و عذبوا فافتتنوا فكنا نقول: لا يقبل اللّه من هؤلاء صرفا و لا عدلا ابدا، أقوام اسلموا ثم تركوا دينهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 361

انه ارتداد مليا أو فطريا، و لا يتنافى وجوب قتل المرتد كما يقتل القاتل أمن ذا و تقبل توبته، و قتله من كفارته، فالآية- إذا- تشمل مثلث الإشراك باللّه دون سواه، فاللّه لا يغفر الإشراك لمن مات مشركا، و يغفره لمن كان مشركا ثم آمن، أم أشرك بعد ما آمن، تقية أم ارتدادا.

و لأن‏ «الذُّنُوبَ جَمِيعاً» تعم كافة الذنوب شركا فما دونه ف «يا عبادي» تعم كافة المذنبين مشركين و من دونهم، حيث ينظر إلى واقع العباد فينسبهم إلى نفسه، لا إلى عبادتهم حتى تختص بالعابدين و ليس لهم الذنوب جميعا، فالآية عامة في منطوقها، مهما كان المؤمنون أحرى بها.

و لأن الذنب هو الآخذ بذنب الشي‏ء و هو كل فعل يستوخم عقباه، فلا يخص الصغائر، و لا الكبائر دون الشرك و الكفر، و الإسراف على النفس- و هو تجاوز الحد عليها- يشمل ثالوث الذنب دون إبقاء، و قد عد اللّه تعالى التبنّي و ما فوقه من دركات الكفر من الذنوب: «وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى‏ نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ...» (5:) 18) و خرافة البنوة الإلهية و سائر كفرهم من ذنوبهم، و كما «كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» (8: 52)، و كل هذه و أضرابها إسراف من المسرفين على أنفسهم لا على اللّه إذ لا تنال ساحته بما يفتعله خلقه.

أ ترى كيف يغفر الشرك بين الذنوب جميعا و «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ»؟

إنه الغفران المطلق للشرك، أن يغفر من مات على الشرك كما قبله، لا مطلق الغفران حيث يغفر الشرك قبل الموت، و آية الإسراف تعني مطلق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بعذاب عذبوه فنزلت هؤلاء الآيات و كان عمر بن الخطاب كاتبا فكتبها بيده ثم كتب بها الى عياش و الوليد و الى أولئك النفر فأسلموا و هاجروا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 362

الغفران، لا سيما و أن موردها التوبة عن الشرك قبل الموت، دون آية الشرك حيث تعني بعد الموت، ثم و «ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» بلا فوضى جزاف.

أ ترى آية الإسراف تسرف في غفران الذنوب دون شروط، من توبة أو شفاعة أمّا هيه من مكفراتها؟ و آية الشرك تربطه بمشيئة اللّه و قد تعني شروطاتها المسرودة في آياتها! كلّا فإنها إضافة إلى سائر آيات الغفران، المحدّدة حدوده، المقرّرة شروطه، هنا تأمر بالإنابة إلى الرب، و الإسلام له، و اتباع ما أمر به، مما يجمع جملة شروطات التوبة «وَ أَنِيبُوا إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ‏ ... وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً ...»

إضافة إلى ذكر أمد التوبة أنه قبل الموت لا بعده، فإطلاق آية الإسراف مربوط بالتوبة أم أي مكفر قبل الموت، و لا سيما بالنسبة لذنب الشرك‏ «1».

و ترى أنها تغفر حقوق الناس بجنب حقوق اللّه؟ و حقوق الناس لا تغفر إلّا بعد ان يغفر الناس! حيث‏

«الذنوب ثلاثة فذنب مغفور و ذنب غير مغفور و ذنب نرجو لصاحبه و نخاف عليه، و من الذي لا يغفر مظالم العباد ...» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 332- اخرج عبد بن حميد عن أبي مجلز لاحق بن حميد السدوسي قال: لما انزل اللّه على نبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «يا عِبادِيَ ...» قام نبي اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فخطب الناس و تلا عليهم فقام رجل فقال يا رسول اللّه و الشرك باللّه؟ فسكت فأعاد ذلك ما شاء اللّه فأنزل اللّه‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ»

أقول: استثناء الشرك يخص بما بعد الموت لمن مات مشركا.

(2) نور الثقلين 4: 491 ح 75.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 363

إنها مغفرة على شروطها المسرودة في محالها، و هذه هي الآية المطلقة الأمّ في باب الغفران، تلميحا إلى مثلث من شروطه جملة و التفصيل في سائر آيها دون إهمال و لا فوضى جزاف.

و آيها تمنع عن القنوط من رحمة اللّه ما كان للغفران مجال‏ «وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» (15: 56) و لكن أكثر الناس‏ «إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ» (30: 36).

و ليست رحمة اللّه على سعتها تصيب إلّا من يأهلها، قريبا أم بعيدا بدرجاتها «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (2: 228) و «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» (7: 56).

إن الغفران رحمة لمن أسرف على نفسه ما لم تكن ظلما على الصالحين، و تشجيعا للإسراف يوم الدنيا و تعطيلا للحساب يوم الدين، فلا تشمل- لأقل تقدير- الشرك و سائر الكفر لمن مات كافرا، مهما شملت ما دونهما بشروطاتها العادلة و الفاضلة يوم الدنيا و يوم الدين.

و

الرواية القائلة «و الذي نفس محمد بيده لو لم تخطأوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون فيغفر لهم» «1»

حيث تشجّع على الخطأ معروضة على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 332- اخرج احمد و أبو يعلي و الضياء عن انس قال سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: و الذي نفسي بيده لو اخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء و الأرض ثم استغفرتم لغفر لكم و الذي نفس محمد بيده لو لم تخطأوا ...

و

اخرج ابن أبي شيبة و مسلم عن أبي أيوب الانصاري سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: لولا أنكم تذنبون لخلق اللّه خلقا يذنبون فيغفر لهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 364

القرآن و السنة القاطعة، فمضروبة عرض الحائط، كالتي تؤيس عباد اللّه عن رحمة للّه‏ «1» فما هو إلّا عوانا بين الخوف و الرجاء، دون ترسّل اللّامبالاة في الأخطاء رجاء فوضى، و لا تمحّل القنوط عن رحمة اللّه خوفا مطلقا، فإنما هو كما قال اللّه‏ «لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ‏ ... وَ أَنِيبُوا إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ‏ ... وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ...».

و «يا عِبادِيَ» تذكير بأنهم ليسوا إلّا عباد اللّه، و «الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» إسرافا في التخلف عن عبودية اللّه نكرانا للّه، أو اشراكا باللّه، أو كفرا بآيات اللّه و وحيه، أم تركا لشرعة اللّه كلّا أو بعضا، إسرافا يقنط العبد عن رحمة اللّه و يهبطه يأسا إلى نقمته، و لكنه على إسرافه في أيّة دركاته يبشّر برحمة اللّه بعد ما ينهى عن القنوط منها، و قد ولج في العصيان و لجّ في الطغيان، شاردا عن الطريق، ماردا عن الحق الحقيق، و يا لها من رحمة واسعة نديّة رخيّة، و لكنها ليست بفوضى رديّة، فهناك الإنابة و الإسلام للرب و إتباع أحسن ما أنزل.

وَ أَنِيبُوا إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (54).

فلولا الإنابة قبل الموت فالعذاب بالباب و قد تقطعت الأسباب و حارت الألباب، و الإنابة هي الأوبة إلى أفياء الطاعة بعد ما أسرف في تركها، رجوعا إلى اللّه نوبة بعد نوبة مرة بعد أخرى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر اخرج ابن الضريس و ابو القاسم بن بشير في اماليه عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال: ان الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة اللّه و لم يرخص لهم في معاصيه و لم يؤمنهم عذاب اللّه و لم يدع القرآن رغبة عنه الى غيره انه لا خير في عبادة لا علم فيها و لا خير في علم لا فهم فيه و لا قراءة لا تدبر فيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 365

ثم إسلاما للّه بعد إسلامه لغير اللّه، إسلاما بقلبه و قالبه، بجوارحه و جوانحه، فلا يبقى من كونه و لا كيانه إلّا إسلام للّه، فأمّا أن يلفظ بالإنابة و الإسلام و قلبه ساه و عمله واه، فما هي بإنابة و ما هو بإسلام! و لماذا الإسلام بعد الكفر و أحرى منه الإيمان؟ لأنه بعد الطغيان فيناسبه الإسلام و هو قبل الإيمان و معه و بعد الإيمان، درجات ثلاث من الإسلام ترجى على رسلها بعد الإنابة، و أقلها التسليم في المظاهر خروجا عن الطغيان.

فهيّا أيها المسرفون قبل فوات الأوان‏ «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ» فإنما النصرة الرحمة قبل الموت و لمّا يأت العذاب.

فهيّا هيّا إلى الإنابة و الإسلام، فالوقت غير مضمون، و الرب غير ضامن، و قد يحل الموت و هنا الفوت و لات حين مناص، و قد أفلت الخلاص‏ «ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ» إذ لا توبة بعد الموت و لا أوبة بعد الفوت.

ثم كما ليس الغفران إلّا بشروط، كذلك الإنابة و الإسلام هما على شروط:

وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55).

و إنه القرآن‏ «أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» واجب الإتباع علميا و معرفيا و عقائديا و عمليا «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً» هنا أم بعد الموت‏ «وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ» واجب الإتباع او واقع العذاب، و قد تلمح بغتة العذاب بأنه عذاب الاستئصال‏ «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ» (40: 85) أم و معه عذاب البرزخ و من ثم القيامة و أجمعه ثالوث العذاب، و أيقنه الآخران، و أتقنه الأخرى، فاشعروا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 366

الإنابة الإسلام الإتباع‏ «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً» فلا يفيدكم شعور بعده إلّا عذابا فوق العذاب:

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى‏ عَلى‏ ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56).

تفريطا في طاعة اللّه و عبادته حيث‏ «أَسْرَفُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» أو تفريطا في الإنابة و الإسلام و الإتباع، تقصيرا ذا بعدين‏ «فِي جَنْبِ اللَّهِ» يتحسر عليه بعد فوات الأوان.

و الجنب هو جانب الشي‏ء إنسانا و سواه: «تَتَجافى‏ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ...» (32: 16) «أَعْرَضَ وَ نَأى‏ بِجانِبِهِ» (17: 83) و قد يستعاد للسمت القريب و الناحية: «وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ» (19:) 52) «وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ» (4: 36) أو يجرد عن القرب أيضا كما عن العضو و يبقى السمت و السبيل‏ «وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ» (37: 8).

و لأن اللّه سبحانه يتعالى عن الجنب العضو، و السمت الناحية، و حتى لو كان له هذا الجنب استحال التفريط فيه واقعيا و في الإسراف على النفس، فلم يقل «أسرفوا على ربهم» إذ لا ينال من ساحته أبدا! فجنبه- إذا- قربه و سبيله و وجهه و جهته، تجريدا عن الزمان و المكان و كما في كل فعل أو صفة بجنبه سبحانه حيث يجرد كما يناسب التجرد الإلهي السامي.

إذا «جَنْبِ اللَّهِ» هو قربه، و هو طاعته و عبادته المقربة إليه‏ «1» و هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في نور الثقلين 4: 496 ح 94 في محاسن البرقي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ ان أشد الناس حسرة يوم القيامة الذين وصفوا العدل ثم خالفوه و هو قول اللّه عز و جل‏ «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى‏ عَلى‏ ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 367

القريب لديه، و هو السبيل اليه، و المسرف على نفسه، مفرّط في قرب اللّه فإنه قريب، و أقرب إليه من حبل الوريد، أ فإسرافا في عصيانه بمحضره؟

و هو مفرّط في طاعته و عبوديته، و هو مفرط في رسله و أوليائه، الدالون إليه الحاملون أوامره، و هو مفرّط في السبيل إليه رسولا و رسالة و طاعة و عبادة.

إذا فكل تخلف عن شرعة اللّه، أصلية و فرعية، إنه تفريط في جنب اللّه، إن في توحيده، او رسالته، أمّن يحملون رسالته و هم درجات.

فكما أن نكران اللّه و الإشراك باللّه و ترك طاعته و عبادته تفريط في جنب اللّه، كذلك نكران الرسول القريب لديه، الدال إليه، تفريط في جنب اللّه، ذلك و نكران وصيه الولي و أوصيائه الأولياء تفريط في جنب اللّه و كما يروى متواترا

«جنب الله أمير المؤمنين (عليه السلام)»

أو

«نحن جنب الله» «1»

بيانا لمصداق من جنب اللّه مختلف فيه بين الأمة، إلحاقا له بجنب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 494 ح 82 في خطبة لعلي (عليه السلام) و أنا جنب اللّه الذي يقول: ...

و

في المناقب لابن شهر آشوب ابو ذر في خبر عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يا أبا ذر يؤتى بجاحد علي يوم القيامة أعمى ابكم يتكبكب في ظلمات يوم القيامة ينادي يا حسرتا على ما فرطت في جنب اللّه و في عنقه طوق من النار،

و

في الكافي عن موسى بن جعفر (عليه السلام) في الآية: جنب اللّه امير المؤمنين (عليه السلام) و كذلك ما كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع الى ان ينتهي الأمر الى اخرهم‏

و

القمي عن الصادق (عليه السلام) نحن جنب اللّه‏ و رواه العياشي عن الباقر (عليه السلام)،

و

في المناقب عن الصادق و الباقر و السجاد و الرضا (عليهم السلام) جنب اللّه علي، و في بصائر الدرجات عن الصادق (عليه السلام) قال: أنا شجرة من جنب اللّه فمن وصلنا وصله اللّه ثم تلا هذه الآية، و في كفاية الخصام ص 437 يرويه من طريق إخواننا عن محمد بن ابراهيم النعماني عن جابر عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 368

الرسالة المتفق عليها، مصداقا ثالثا من جنب اللّه بعد اللّه و رسوله.

«و أنيبوا ... و أسلموا ... و اتبعوا» حذار «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» مسرفة غير منيبة و لا مسلمة و لا متبعة «يا حَسْرَتى‏ ... وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» للدين و الدينين‏ «1».

و هذه قولة صادقة من المسرفين الساخرين، و قد تكون لهم أخرى كاذبة يكذبون بها و يعذبون:

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) و قد استحالوا تقواهم بما استحالوا هداهم من اللّه، قولة جارفة في بعديها، إنهم كانوا مضطرين في إسرافهم، و كان مستحيلا على اللّه هداهم‏ «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي ...»! و قولة ثالثة هي ترجّ للمحال‏ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و عن صاحب مناقب الفاخرة في العترة الطاهرة عن أبي بكر و عن ابراهيم بن محمد الحمدويني باسناده عن خثيمة الجعفي عن الصادق (عليه السلام)، و يرويه من طريق أصحابنا عن محمد بن يعقوب عن موسى بن جعفر و عن امير المؤمنين (عليه السلام) و عن أبي عبد اللّه و عن ابن بابويه عنه (عليه السلام) و عن محمد بن عباس الماهيار عنه عن آبائه و عنه عن الباقر (عليه السلام) و عن الرضا (عليه السلام) و عن الشيخ في مجالسه عن الباقر (عليه السلام) و عن ابن شهر آشوب عن زين العابدين و الباقر و الصادق و زيد بن علي (عليهم السلام) و عن الطبرسي في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) و محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات و الى سبعة عشر سندا عنهم عليهم السلام.

(1). إن هنا مخففة عن المثقلة اي و انني كنت لمن الساخرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 369

فإذا بجواب صارم عن هذه و تلك‏ بَلى‏ قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (59).

«بلى» إنني هديتك و «قَدْ جاءَتْكَ آياتِي» التي بها يهتدى‏ «فَكَذَّبْتَ بِها» أنت في خيار دون إجبار «وَ اسْتَكْبَرْتَ» عنها بكل إصرار «و كنت» أمام هذه الآيات و بجنب اللّه‏ «مِنَ الْكافِرِينَ».

ثم و جواب الكرّة هنا أن لا جواب، أم‏ «قَدْ جاءَتْكَ ...» من زمرة الجواب، و قد فصل في غيرها «وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ» (6:) 28) «رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (4:) 75) «حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (33:) 99) «قَدْ جاءَتْكَ ...» إجمال عن هذين الجوابين و ما أجمله! فالمسرفون على أنفسهم هم متحسرون في ثالوثه المنحوس، بين متحسر على ما فرّط في جنب اللّه، و متقوّل على اللّه ما هو منه براء «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي» و مترجّ مستحيلا له على اللّه‏ «لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً» و الجواب لفظيا هو الجواب‏ «بَلى‏ قَدْ جاءَتْكَ آياتِي ...» و عمليا:

وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60).

و قد تلمح‏ «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ» بعد هذه القيلات، أنها قبل يوم القيامة، حين يرون عذاب الاستئصال، و حين الموت دون استئصال، و هما بداية رؤية العذاب المحتوم حين لا يرجون عنها إفلاتا و لا محيدا، و قد يؤكده أن قولة الكذب على اللّه يوم القيامة غير مسموحة و لا ممنوحة، فكيف تقول نفس‏ «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي ...» اللهم إلا سماحا لمزيد العذاب، ليكون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 370

عذابا فوق العذاب، و قد تلمح‏ «حِينَ تَرَى الْعَذابَ» ان هذه القولة الثالثة لنفس القائل الأول و الثاني، بفارق أنها حين ترى العذاب: «وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (6: 27) و الثانية قبل رؤية العذاب حالة الحساب، و الأولى قبل الحساب‏ «حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى‏ ما فَرَّطْنا فِيها» (6: 31) قولات ثلاث في حالات ثلاث لكل نفس مسرفة عليها.

و لأنهم واجهوا آيات اللّه بوجوه منكرة كافرة مستكبرة فهم يوم القيامة «وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» بما سودوها قبلها «أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ»؟

«و

قد يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: يجاء بالجبارين و المتكبرين رجالا في صورة الذر يطؤهم الناس من هوانهم على اللّه حتى يقضى بين الناس ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار، قيل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ما نار الأنيار؟ قال: عصارة أهل النار» «1»

أ تراهم- فقط- المتكبرين على اللّه؟ كلّا و هم في دركات حسب الدركات، من مستكبر على اللّه، أو على رسول اللّه، أم على أئمة الهدى أمناء اللّه، ف‏

«من ادعى أنه إمام و ليس بإمام و إن كان علويا فاطميا» «2»

هو ثالث ثلاثة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 333- اخرج احمد في الزهد عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... و

فيه بسند عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون الى سجن في جهنم يشربون من عصارة اهل النار طينة الخبال،

و

فيه عن انس عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توابيت من نار يطبق عليهم و يجعلون في الدرك الأسفل من النار.

(2)

نور الثقلين 4: 496 في كتاب اعتقادات الامامية للصدوق‏ و سئل الصادق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 371

بين المتكبرين، و من ثمّ كل من ادعى مقاما روحيا ليس له، كأن يحتل المرجعية العليا و في العلماء من هو فوقه، مهما اختلفت عذاباتهم بحساباتهم، فمنهم من يخلد في النار مهانا، و منهم من يخرج بعد ما قضى منها وطره، و منهم من لا يدخلها.

وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (61).

و كما يعذب اللّه الذين طغوا بطغواهم، كذلك‏ «يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا» بتقواهم، حيث فازوا بها فوزهم العظيم، فهو- إذا- ينجيهم «بمفازتهم» دون أية فوضى هنا أو هناك، مهما كان هنا قضية الفضل و هناك قضية العدل‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏»!

[سورة الزمر (39): الآيات 62 الى 75]

اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (63) قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (64) وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِي‏ءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (69) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (70) وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى‏ وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (71)

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (73) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (74) وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (75)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) عن هذه الآية قال: من زعم انه امام و ليس بإمام، قيل و ان كان علويا فاطميا قال: و ان كان علويا فاطميا،

أقول: هذا من باب الجري و التطبيق على المصداق المختلف فيه، و رواه مثله في ثواب الأعمال عن أبي جعفر (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 374

اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ (62).

«الله» لا سواه لا استقلالا و لا مشاركة او معاونة «خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» جملة و تفصيلا، جماعات و فرادى، و إحياء الأموات أمّاذا من خلق يظهر على أيدي الرسل، كل ذلك من خلق اللّه يبرزها على أيديهم تدليلا على اختصاصهم باللّه و رسالاتهم عن اللّه «و هو» لا سواه‏ «عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» خلقه «وكيل» يكل أمره‏ «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» (7: 54).

و خالقيته لكل شي‏ء مما أجمع عليه الموحدون، بل و المشركون أيضا و كما سئلوا فأجابوا: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...» (38) و على حدّ المروي‏

عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «ليسألنكم الناس عن كل شي‏ء حتى يسألوكم هذا الله خالق كل شي‏ء فمن خلق الله؟ فان سئلتم فقولوا: كان الله قبل كل شي‏ء و هو خالق كل شي‏ء و هو كائن بعد كل شي‏ء» «1»

و أنما المسئول عنه «من خلقه» هو المخلوق، لا كل شي‏ء لأنه شي‏ء، فاللّه الأزلي الذي هو قبل كل شي‏ء، و الابدي الكائن بعد كل شي‏ء، ليس من الشي‏ء المخلوق حتى يسئل عنه «من خلقه»؟

ف‏ «كُلِّ شَيْ‏ءٍ» بقرينة «اللَّهُ خالِقُ» يعني كل شي‏ء مخلوق، و لو أنّ كل شي‏ء بحاجة إلى خالق، خالقا و مخلوقا، استحال وجود كل شي‏ء، حيث لا ينتهي إلى خالق غير مخلوق، إذا فكل شي‏ء أصبح مخلوقا دون خالق، أم لا يوجد أي شي‏ء!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 333- اخرج البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 375

هذا السئوال المتعنت هو نظرية البعض من فلاسفة الماركسية، زاعما أن الوجود- أيا كان- لا يستغني عن علة تعاصره، و افتراض موجود دون خالق يناقض هذه الضابطة.

و قد تغافلوا عن أن الحاجة إلى خالق ليست قضية الوجود بما هو وجود، و إلّا كانت المادة الأولية الأزلية على زعمهم بحاجة إلى خالق، و إنما هو الوجود الحادث المادي، يسئل عمن خلقه لأنه مخلوق، و هذا يهدم صرح أزلية المادة و يبني صرح الخالق الأزلي وراء المادة.

فوجاه قولتهم «من خلق الله إذا كان هو الخالق لكل شي‏ء»؟ نقول:

من خلق المادة الأولية إذا كانت هي المتطورة و المطوّرة لكل شي‏ء.

و جوابهم: أن المادة خالقة غير مخلوقة لأنها أزلية، هو جوابنا و بأحرى: أن اللّه خالق غير مخلوق لأنه أزلي كما برهن به الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حجاجه المنيرة، و إذا كان اللّه خالق كل شي‏ء، فكل شي‏ء فقير إليه لا يملك لنفسه شيئا، إذا «وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ» يكل أمره فيما يكلّ في أمره، و لولا وكالته على كل شي‏ء، إيكالا لها إلى أنفسها، لزال كلّ شي‏ء، أو كلّ كل شي‏ء فيما يصلحه و يدبر أمره.

أ ترى‏ «كُلِّ شَيْ‏ءٍ» هنا و هناك يعم أفعال العباد؟ إذا فهم مسيّرون فيها لا حيلة لهم، فلما ذا يثابون أو يعذبون؟! أقول: لا و نعم، لا- حيث الشي‏ء يعني شي‏ء الذات، لا و شي‏ء الفعل مما له فعل، و حيث يعنيهما أيضا فلا- حين يعنى خلقا لها ينافي التخيير، و نعم- حين يعنى أنه الخالق للمختار و اختياره و فعله بالاختيار.

فالفعل المختار له نسبة إلى الفاعل المختار حيث اختاره دون إجبار، و نسبة أخرى إلى خالق كل شي‏ء، إذ لولا إرادته بعد إختيار المختار لما حصل الفعل المختار، فإنه «لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين» و بعد كل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 376

ذلك فالخلق هو التقدير و هو منه على اي تقدير، في شي‏ء الذات و شي‏ء الفعل دون أن ينافي الاختيار، فاللّه هو المقدر تخييرا دون تسيير حيث يحضّر مقدمات الأفعال إبقاء لحال الإختيار و حوله.

ثم ترى كل ممكن شي‏ء لإمكانية وجوده، فليخلق ما أمكن إيجاده، و لكنه لم يخلق إلّا ما يصلح في تقدير الحكيم دون سائر ما أمكن؟

نقول: كل شي‏ء هو كل ما يوجد أم وجد أو هو موجود، و هو بطبيعة الحال صالح لأن يخلق، لا كلما يمكن إيجاده، إلا بتأويل أن بإمكانه و في قدرته أن يخلق كل ممكن، و لكنه لحكمته لا يخلق إلّا ما يصلح في نظام التكوين! و ليس- فقط- خالق كل شي‏ء وكيلا عليه ثم لغيره تدبير كل شي‏ء أم بعض الشي‏ء، بل و:

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (63).

«له» دون «و له» تلميحة إلى أن ذلك لزام خالقيته لكل شي‏ء و وكالته على كل شي‏ء، ثم و تقديمه على «تقاليد ...» يحصرها له دون سواه، فليست مقاليد السماوات و الأرض لمن سواه استقلالا أم مشاركة أم معاونة.

و المقاليد واحدها مقليد، كما الأقاليد واحدها إقليد و هما بمعنى، أهو المفتاح؟ و لفظه «مفاتيح» كما آيتها، بل هو من القلد الفتل، و المقلاد مبالغة الفتل، و هو أبلغ تطويق لما ينفصم بطبعه.

فالسماوات و الأرض بأمورهما، المنفتلة في ذاتها، هي منفتلة لأبلغها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 377

بارادة الخالق لكل شي‏ء، الوكيل على كل شي‏ء، و السماوات و الأرض، صيغة أخرى عن كل شي‏ء.

فكما أن اللّه هو خالقهما، كذلك له مقاليدهما صدا عن الانفلات، و سدا عن الانفراط، و حجزا عن التفريط و الإفراط.

فله- لا سواه- رتقهما و فتقهما، و له فتح أبوابهما بخيراتهما و بركاتهما من إدرار الأمطار و إيراق الأشجار و سائر وجوه المنافع و عوائد المصالح، مادية و معنوية أمّا هيه.

ف‏ «لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ...» «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» (15: 21) «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ ...» (6: 59) مقاليد و مفاتح و خزائن من الغيب و الشهود، فهو الذي يرتق و هو الذي يفتق ف‏ «ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ...».

«وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» في هذا البين، فإن لهم كل رين و شين، إذ لم يفتحوا صفحات قلوبهم و وجوههم إلى آيات اللّه فيعتبروا بها و يتبصروا.

قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (64) فبعد أنه الخالق لكل شي‏ء، الوكيل على كل شي‏ء، و له مقاليد كل شي‏ء، «تأمروني» أن «اعبد» خلقه‏ «أَيُّهَا الْجاهِلُونَ» الغافلون المتجاهلون، عرضا سخيفا سحيقا نابعا عن الجهل المطلق المطموس و القلب المركوس المعكوس، تأمروني ان اعبد غيره و أتركه، أو ان أشرك به غيره في عبادته، و هذه و تلك إذا قسمة ضيزى و ضلال مبين، و كما سوف تعترفون حينما أنتم في النار تسجرون: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 378

وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (65).

الشرك أيا كان و من أيّ كان و أيان يحبط العمل إلّا إذا كان قبل العمل الصالح النابع عن إيمان لاحق، و من الشرك الرئاء، فإنه يحبط العمل المرائى فيه حتى و إن كان الرئاء بعده، أم قبله و لمّا يتوب عنه، و كما يستفاد ذلك الإطلاق من آية الكهف‏ «... فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (110) آيتان تتجاوبان في ذلك، و لكن الثانية خاصة بالإشراك الرئاء، و الأولى تعمّه و الإشراك باللّه.

فالإشراك باللّه أم في عبادة اللّه لا يقبل المصلحية، أن يشرك الداعية مغبة أن يميل المدعو إلى توحيد اللّه و لن، إذ لو كانت نيته صالحة لما تطلّب من الداعية إشراكا يميل- كما يدعي- إلى تركه، و حتى إذا صدق في قولته فلا مبرر أن يفسد الداعية نفسه لإصلاح غيره ف‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» (5: 105).

أ ترى النبي- على توحيده القمة الصارمة- يشارف أو يقارف إشراكا باللّه حتى يتهدد و من قبله من المرسلين‏ «لَئِنْ أَشْرَكْتَ»؟ إنه- لو كان- لم يكن إلّا مصلحيا ظاهرا جذبا للمشركين إلى توحيد اللّه كما تطلبوه إليه، أم هو من باب «إياك اعني و اسمعي يا جاره‏ «1»» لكي يسمعه المشركون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 497 ح 100 عيون الاخبار عن ابن الجهم قال‏ حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أ ليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال فما معنى قول اللّه- الى ان قال-: فاخبرني عن قول اللّه‏ «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» قال الرضا (عليه السلام) هذا مما نزل بإياك اعني و اسمعي يا جاره، خاطب اللّه بذلك نبيه و أراد به الأمة و كذلك قوله‏ «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ» و قوله تعالى: و لولا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 379

عن هذه الإذاعة القرآنية فيقطعوا آمالهم فلا يطلبوا إليه مشاركتهم في إشراكهم لفترة، و يسمعه المسلمون فيعلموا أن إشراكهم بعد الإيمان أحرى بالإحباط، إذا كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على محتده يحبط عمله لو أشرك و لن‏ «1»، فلا يعني «إياك اعني و اسمعي يا جاره» انه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليس هو المعني بالخطاب، بل يعني تعميم الخطاب لغيره بالأولوية حين يعنيه‏ «2» و هذا لا ينافي العصمة حيث الخطاب يعني مثل قوله‏ «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» فالعصمة ليست لتنافي التكليف بالواجب و ترك الحرام مهما لن يترك الواجب و لن يفعل الحرام.

ففي‏ «لَئِنْ أَشْرَكْتَ» إذا ثلاث واجهات، تكليف النبي استمرارا لترك الإشراك، و قطعا لآمال من يريدون منه الإشراك مغبة إيمانهم، و تهويلا للمؤمنين أنهم مأخوذون بالتكاليف الإلهية و بأحرى حين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» قال: صدقت يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(1). و مما يقرّبه ما

في مناقب ابن شهر آشوب عن صحيح الدار قطني‏ ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) امر بقطع لص فقال اللص يا رسول اللّه قدمته في الإسلام و تأمره بالقطع؟ فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لو كانت ابنتي فاطمة فسمعت فاطمة فحزنت فنزل جبرئيل بقوله: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» فحزن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فنزل‏ «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا» فتعجب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من ذلك فنزل جبرئيل و قال، كانت فاطمة حزنت من قولك فهذه الآيات لموافقتها لترضى،

أقول هذا من باب الاولوية ان لو أخذ النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) باشراك و سواه فغيره أحرى دون ان ينظر الى محتده و منزلته.

(2)

القمي عن الصادق (عليه السلام) ان اللّه عز و جل بعث نبيه بإياك اعني و اسمعي يا جارة و الدليل على ذلك قوله عز و جل: «بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» و قد علم اللّه ان نبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يعبده و يشكره و لكن استعبد نبيه بالدعاء اليه تأديبا لامته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 380

يؤخذ النبي بها، ف «إياك اعني» في الواجهة الأولى «و اسمعي يا جاره» في الأخريين! يبدأ صراحا بالأنبياء (عليهم السلام)- و هم لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبدا- تنبيها لمن سواهم إلى تفرد ذات اللّه بالعبودية له و توحّد الخلق في مقام العبودية بمن فيهم الأنبياء دونما استثناء، و التأكيد في «ليحبطن و لتكونن» يؤكد التهديد بالنسبة للآخرين إذا كان يشمل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لو أشرك! و الإشراك باللّه هو القمة المعنية هنا في إحباط العمل، و يتلوه الإشراك برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و خلفاءه المعصومين سلام اللّه عليهم أجمعين في التأويل و المصداق الخفي المختلف فيه‏ «1»، و كما تختلف دركات الإشراك الظلم فكذلك دركات الإحباط حسبها.

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66).

لا تعبد غير اللّه و لا تشرك باللّه‏ «بَلِ اللَّهَ» لأنه اللّه الواحد «فاعبد» «و كن» في توحيد العبادة «مِنَ الشَّاكِرِينَ» للّه.

فلو سمح لك او أمرت أن تعبد غير اللّه و أنت أعلى و أرقى من كل من سوى اللّه، لحبطت منزلتك، و لو كان على مستواك كان ترجيحا عليك دون مرجح، و حتى لو كان أعلى منك كان ظلما للحق، بل إن هذا الثالوث كله من الشرك ظلم فإن الشرك لظلم عظيم و ضلال مبين‏ «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن الحكم بن بهلول عن رجل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: يعني ان أشركت في الولاية غيره‏ «بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» يعني بل اللّه فاعبد بالطاعة و كن من الشاكرين ان عضدتك بأخيك و ابن عمك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 381

إذا فاترك غير اللّه‏ «بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» في أن أمرك بتوحيده، و في عبادته، فأين التراب و رب الأرباب، فلأنه أكرمنا و سمح لنا- بل و أمرنا- أن نعبده لا سواه، لنستظل بظل رحمته و نخطو خطوات، لذلك‏ «وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ (67).

«وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» في ألوهيته و هم يشركون به بعض خلقه، و لا يعبدونه حق عبادته، و لا يطيعونه حق طاعته متجاهلين عظمته و محتده.

ثم‏ «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» في ربوبيته‏ «إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ ...» (6: 91) و على الجملة «ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (22: 74) فقوته و عزته تقتضيان توحيده و إنزال وحيه بيانا لكيف يوحدون و يعبدون.

«وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» حيث يرجعون إليه في قيامته‏ «وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ».

فنكران توحيد اللّه تضييع لقدره، و نكران وحيه تضييع لقدره، و نكران قيامته تضييع لقدره، و كل ذلك من الإشراك به‏ «سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ»! و قدر الشي‏ء منزلته المتميز بها عن غيره، و لكل شي‏ء قدر محدود جعله اللّه له‏ «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً» (65: 3) و لكن اللّه ليس له قدر مجعول و لا محدود، فباطل قدره أن يقدّر بقدر المخلوقين كما يفعله المشركون و أدنى، و حق قدره أن يوحّد في كونه و كيانه، في ألوهيته و ربوبيته، و في أنه المبدء و إليه المعاد، و له ما بين المبدء و المعاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 382

«وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً» علّها هذه الأرض جميعها؟ أم جنس الأرض بسبعها المستفادة من آية الطلاق: «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» و هي أحرى، حيث المقام مقام الجمع في قيامة التدمير و التعمير يوم الجمع، فلما ذا تفلت الأرضون الستة الأخرى عن هذا الجمع، و قد لا تشملها السماوات أم يبعد؟ ثم التأكيد «جميعا» لا يأتي إلّا للجمع، فلا يقال جاء زيد جميعا.

و ترى‏ «الْأَرْضُ جَمِيعاً» ليست قبضته يوم الدنيا حتى تكون‏ «قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ»؟ ... إنه أقبض الأرض عباده يوم الدنيا عارية مضمونة، دون أن يتخلى عنها في ملكها، و لكنها يوم الأخرى تخرج عن هذه القبضة العارية، فهي هنالك له ملك خاص قد ارتفعت عنها أيدي المالكين من بريته، و المتصرفين فيها من خليقته، و قد ورث تعالى عباده ما كان أودعهم من ملكها يوم الدنيا، فلم يبق ملك و لا مالك إلا بطن و ليست قبضته- فقط- ملكه، بل و جمعها بعد بسطها، و تدميرها بعد تعميرها، و كما «وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» جمعا لأقطارها، وطيا لانتشارها: «يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ» (39: 67) ف‏

«يقبض الله الأرض يوم القيامة و يطوي السماوات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض» «1».

و إنها ليست القبضة الإلهية قبضة اليد الجارحة، كما ليس طي السماوات بيمينه الجارحة، و إنما هي القدرة اللّامحدودة، فمن قال إنها قبضة الأنامل ما قدره حق قدره‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور عن أبي هريرة سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ...

(2)

الدر المنثور اخرج عن ابن عباس قال‏ مر يهودي برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هو جالس قال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع السماوات على هذه؟؟؟ و أشار بالسبابة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 383

ف «سبحانه» عن اليد الجارحة بأناملها «و تعالى» عن أن يشرك به غيره أو يشبه بغيره‏ «عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (68) «1».

هذه أصرح آية في الجمع بين نفختي الإماتة و الاحياء، ثم لا نرى صريحة فيهما إلّا لإحداهما، و الأخرى هي الأكثر، و من الأولى و هي الأقل منها: «وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ. وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ ...» (37: 88) و قد عبر فيهما عن الموت الناتج عن النفخة الأولى بالصعقة و الفزع.

و النفخة هي الصيحة و هي كما هي مرتان للإماتة و الإحياء، طالما بينهما معاكسة في قلة الذكر و كثرتها في الذكر الحكيم، فالنفخة أكثرها في الإحياء و الصيحة في الإماتة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و الأرضين على ذه و الجبال على ذه و سائر الخلق على ذه كل ذلك يشير بأصابعه فأنزل اللّه‏ «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» أقول و أخرجه مثله عن مسروق عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و خلافه المروي عن ابن مسعود عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مضروب عرض الحائط انه جاء حبر من الأحبار الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال يا محمد إنا نجد ان اللّه يحمل السماوات يوم القيامة على إصبع و الأرضين على إصبع و الشجر على إصبع و الماء و الثرى على إصبع و سائر الخلق على إصبع فيقول: انا الملك فضحك رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ما قدروا اللّه ...

أقول: ضحكه كان تنديدا و كما تندد به الآية.

(1). راجع الجزء 30 ص 34 من الفرقان تجد تفاصل النفخ في الصور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 384

و «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏» هنا دليل على أن الأولى هي نفخة الإماتة و صيحتها، و التعبير عنها بالصعقة، علّه تلميح أنها صعقة الروح حيث الجسم لا يصعق، و الموت بخروج الروح عن البدن- و هو حي في برزخه- ليس صعقة، لا للجسم و لا للروح، ثم و «مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» حيث تعم الأحياء هنا و في البرزخ و هم أموات عما هنا، لمحة كدلالة ثانية أن الأرواح هي المصعقة و فزعة كما في آية النمل.

ففي النفخة الصيحة، ليست لتموت- فقط- الأبدان، فإن أهل البرزخ منهم قد ماتت أبدانهم من ذي قبل، و لأن الأرواح يغشى عليها دون موت، لأنها نفخة الإماتة و من ثمّ الإحياء، بل إنها تموت في غشيتها و صعقتها، فلا أن ل‏ «مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» صعقة دون موت و لا موتة دون صعقة.

و إنما جمع بين الأمرين، طالما الأحياء- إذا- لا برزخ لهم، و الأموات تموت أرواحهم في البرزخ كما الأحياء هنا دون برزخ، فعند ذلك تبطل الأشياء و تفنى فلا حس و لا محسوس ...: «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 502 ح 117 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ قال السائل: أ فتتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه ام هو باق؟ قال (عليه السلام): بل هو باق الى وقت ينفخ في الصور- فعند ذلك ... و لا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها و ذلك اربعمائة سنة تسبت فيها الخلق و ذلك بين النفختين، و قد يقربه ح 115 عن ارشاد المفيد و لما عاد رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من تبوك الى المدينة قدم عليه عمرو بن معدي كرب الزبيدي فقال له النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اسلم يا عمرو يؤمنك اللّه من الفزع الأكبر فقال: يا محمد! و ما الفزع الأكبر فاني لا أفزع! فقال يا عمرو! انه ليس كما تظن و تحسب ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت الا نشر و لا حي الا مات الا ما شاء اللّه ثم يصاح بهم صيحة اخرى فينشر من مات و يصفون جميعا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 385

«إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» حيث يظلّون دون صعقة و لا فزعة، سواء الأحياء منهم- حينئذ- و الأموات، فلا موت لهم بمعنى الفوت في هذه الفترة لكرامتهم على اللّه، و لأنهم وجه الرب‏ «كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ» فكما اللّه حي لا يموت، كذلك وجه الرب، و منه هؤلاء الأكارم الذين كانت حياتهم في كل وجهاتها و جنباتها في وجه الرب، فهم- إذا- باقون ببقاء اللّه، لا تصعقهم الصعقة و لا تفزعهم الفزعة.

أ ترى من هم‏ «إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ»؟ لا ريب أن منهم الرعيل الأعلى من أصفياء اللّه، و هم الواحد و الاثنان و الخمسة و الأربعة عشر «1» المعصومين المحمديين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

و علّ منهم سائر اولي العزم و كما في المسيح (عليه السلام) «وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» فإن الحي لا يبعث حالة الحياة إلّا أن يكون من‏ «مَنْ شاءَ اللَّهُ» و إلّا كان حق القول «أبعث ميتا» ف‏ «أُبْعَثُ حَيًّا» انتقالة من الحياة البرزخية إلى الآخرة، و من ثم يحيى (عليه السلام) كما فيه: «وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» بنفس الدلالة، أمّن ذا من اضرابهما بين النبيين.

و إذا كان الشهداء ممن شاء اللّه كما يروى‏ «2» فأحرى بالنبيين و الصديقين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: النشر الأول هو موت الأموات بأرواحهم، و النشر الثاني هو حياتهم بالصيحة الثانية.

(1). الواحد هو الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الاثنان هو و علي، و الخمسة هما و فاطمة و الحسنان، و الاربعة عشرهم و التسعة من ذرية الحسين (عليه السلام).

(2) كما

في الدر المنثور 5: 336 عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: سأل جبرئيل عن هذه الآية ... من الذين لم يشأ اللّه ان يصعقهم؟ قال: هم الشهداء مقلدون بأسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة عليهم السلام يوم القيامة بنجائب من ياقوت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 386

و هم أفضل منهم ان يكونوا ممن شاء اللّه، و قد تلمح آيتا حياتهم عند ربهم أنهم ممن شاء اللّه، فلتكن حياة تخصهم بين الأموات فإن لهم حياة عامة يصعقون عنها إلّا من شاء اللّه.

و إذا كان الشهداء و هم الدرجة الثالثة من الأصفياء ممن شاء اللّه، فليكن منهم جبرائيل و ميكائيل و ملك الموت و إسرافيل و حملة العرش و كما يروى عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1» كما منهم كافة النبيين فإنهم قبل الشهداء بدرجتين اثنتين.

ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (68).

«ثم» هنا قد تلمح أن ليس الفصل بين النفختين بقليل، و «ينظرون» هي نظر العيون و نظرة القلوب، حيث ينتظرون ماذا يؤمر لهم من رب العالمين بعد نفخة الإحياء، حالات متتابعة لا تدافع بينها: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى‏ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (36: 51) مسرعين‏ «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً» (78: 18) فإنهم بعد نسلهم إلى ربهم أفواجا لموقف الحساب، قيام ينظرون حسابهم، و هنا:

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِي‏ءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (69).

الأرض هذه ليست هذه الأرض، حيث‏ «تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ» (14: 48) «وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً» (69: 14) و إنما هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر اخرج الفرياني و عبد بن حميد و ابو نصر السجزى في الابانة و ابن مردويه و انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و نفخ في الصور فصعق ...

قالوا يا رسول اللّه من هؤلاء الذين استثنى اللّه؟ قال: جبريل و ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 387

أرض القيامة الساهرة «فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» (79: 14) و هي أرض الحشر الحساب، و من ثم أرض الجنة «وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ» (74) أم أرض النار.

و ترى أن‏ «بِنُورِ رَبِّها» هو «نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» كما في آية النور؟

و هذا كائن منذ خلق اللّه الخلق ما هي كائنة! «و أشرقت» هي إشراقة بعد النفخة الثانية! و نور اللّه أعم من نور الرب حيث تضمن ربوبيته! اللهم إلّا نور الهداية الخاصة زمن الدولة الاخيرة الإلهية بالقائم المهدي (عليه السلام) حيث تتجمع أنوار الرسالات الإلهية فتشرق الأرض بعد ظلامتها حيث تملأ الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا «1»؟ و لكنه قبل القيامة الكبرى، و إن كان من مصاديق‏ «أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ» جريا و تأويلا.

أم هي نور ربوبية الحساب عدلا و فضلا حيث يكشف الغطاء عن الأبصار: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (: 33) و عن المبصرات و المسموعات: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (3: 30) نور مطلق لا ظلام معها حيث‏ «تُبْلَى السَّرائِرُ» (86: 9) «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ» (69: 18) و لكي يتم نور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 503 ح 121 عن القمي بسنده عن المفضل بن عمر انه سمع أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول في الآية: رب الأرض يعني إمام الأرض، قلت: فإذا خرج يكون ماذا؟ قال: إذا يستغني الناس عن ضوء الشمس و نور القمر و يجتزون بنور الامام، و رواه مثله في ارشاد المفيد عند (عليه السلام): إذا قام قائمنا ...

أقول لأن النور هنا هي نور الهداية التي يحملها القائم (عليها السلام) فقد يصح نسبتها الى الامام مهما كانت من اللّه تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 388

الربوبية لأهل الحشر في الحساب: «وَ وُضِعَ الْكِتابُ»: كتاب الشرعة ميزانا و كتاب الأعمال ليوزن به.

«وَ جِي‏ءَ بِالنَّبِيِّينَ» سؤالا عن رسالتهم‏ «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» (7: 6) و اتقاء لشهادتهم: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ» (4: 41) «و الشهداء» بعدهم من الصديقين المعصومين كأئمة الدين: «وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ...» (22: 78) «1».

فالأئمة (عليهم السلام) شهداء من الرسول على الناس، و شهداء لأعمالهم تلقيا و إلقاء، و شهداء في سبيل اللّه، فمن أحرى منهم- إذا- في حظيرة الشهادة، و قد تعم الشهداء كل مستشهد في سبيل اللّه حيث هي جمع الشاهد و الشهيد، فلتعهما معا: الشاهد الشهيد و غير الشهيد.

و كذلك سائر الصديقين‏ «وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ ...» (57: 19)

«وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ» (3: 14).

و من الأرض بأكنافها و فضائها «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» (11: 5) و من الأعضاء: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (24: 24) أمّن ذا و ماذا من شهداء؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 4: 88 ح 4 القمي قال قال في الآية الشهداء الأئمة و الدليل على ذلك قوله في سورة الحج‏ «لِيَكُونَ الرَّسُولُ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 389

و هنالك ... و قد تمت شروطات القضاء العدل محكمة و شاهدا و مشهودا عليه و أعمالا، حيث‏ «أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها» «وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ» الناصع الخالص دونما تخطّ و لا خطأ قيد شعرة «وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» نقيرا و لا فتيلا.

وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (70).

و هنا «ما عملت» دون «جزاء ما عملت» دلالة واضحة على أن الأعمال- خيرا و شرا- هي بنفسها الجزاء، بما تظهر في ملكوتها و حقائقها، حيث‏ «أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها» و «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (37: 10)؟.

ثم- و كل هذه الشهادات بحذافيرها ليست لتثبت شيئا عند اللّه‏ «وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ» بل و لكي يعلم العاملون أن اللّه كان عليما بما يعملون، و يعلموا هم ما ربما كانوا ينسون أو يجهلون فلا يكذّبون.

هنالك يصدر حكم الرب دون نقاش و جدال، فإنه مشهد النور و الظهور، بشاهد العدل و الرب النور، فلا كلمة تقال، و لا صوت يرتفع، فمن ثم:

وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى‏ وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72).

هنا زمر النار و من ثم زمر الجنة، فليس كلّ زمرة واحدة، حيث الكفر دركات فزمر النار دركات، كما التقوى درجات فزمر الجنة درجات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 390

للنار «سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ» (15: 44) و للجنة ثمانية.

و الزمرة هي الجماعة، فهنا جماعات و هنالك جماعات بفارق مختلف الدركات و الدرجات، و لأن النار طباق سبعة و لها سبعة أبواب فعلّ أهلها سبع جماعات، بفارق مختلف الشيطنات.

من شيطان- و بقر- و ثعلب فهذه ثلاث، و من شيطان بقر، او شيطان ثعلب- او ثعلب بقر و هذه ثلاث اخرى، و من شيطان ثعلب بقر، جامعا ثالوث الشيطنات فانه في الدرك الأسفل من النار «1» فلكلّ درك شيطانه، يدخل من بابه‏ «فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ ...» و قد تكون اسماؤها المأثورة تناسب دركاتها «2» و سوق هؤلاء الزمر الى جهنم سوف يكون مهانا «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى‏ نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» (52: 13) «وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى‏ جَهَنَّمَ وِرْداً» (19: 86).

أ ترى الذين كفروا تشمل اصحاب الكبائر غير التائبين و لا المشفع لهم؟ و هم بين مسلمين و مؤمنين امّن هم من غير الكافرين! و ليسوا هم من الذين كفروا مستكبرين و في جهنم خالدين و الآية تعنيهم!.

ام هم من الذين اتقوا؟ و قد طغوا هؤلاء و بغوا، و اين الذين اتقوا من هؤلاء الذين طغوا مهما كانوا في زمرة المؤمنين او المسلمين!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هذه خصائل الإنسان المرذولة المقسمة الى سبع.

(2)

نور الثقلين 4: 504 عن المجمع عن امير المؤمنين (عليه السلام) ان جهنم لها سبعة أبواب اطباق بعضها فوق بعض و وضع احدى يديه على الاخرى فقال هكذا، و ان اللّه وضع الجنان على العرض و وضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنم و فوقها لظى و فوقها الحطمة و فوقها سقر و فوقها الجحيم و فوقها السعير و فوقها الهاوية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 391

إنهم عوان بين هؤلاء و هؤلاء، فلا هم من أهل الجنة بهكذا تكريم:

«سَلامٌ عَلَيْكُمْ ...» و لا من أهل النار مستكبرين و خالدين، فإنهم آخر مصيرهم الجنة مهما دخلوا النار، أم عذبوا قبل النار، فإنه قضية العدل جزاء وفاقا.

«حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها» فأبوابها مغلقة- إذا- قبل أن يجيئوها، خلاف أهل الجنة، فإن أبوابها مفتوحة قبل أن يجيئوها لمكان‏ «وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها» حيث الواو حالية تعني أنها مفتوحة حين مجيئهم إياها:

«جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ» (38: 50).

«فُتِحَتْ أَبْوابُها» و لمّا يدخلوها «وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ» من جنسكم، فالرسالة المجانسة برسول مجانس للمرسل إليهم هي الحجة البالغة عليهم و كما في يس و غيرها «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ...» فرسول الإنس من الإنس و رسول الجن من الجن، و كذلك التجانس في سائر الأجناس وراء الإنس و الجن.

«رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ ...» فإنما هي إتيان الرسالة المجانسة و تلاوة آيات مبشرة و منذرة كحجة بالغة، فلا موقع لأبعاد الزمان و المكان و القوميات و الإقليميات و العنصريات، و إنما رسالة إنسان إلى إنسان أم جن إلى جن أمّن ذا، سواء أ كان الرسول- بالفعل- فيهم، أم قضى نحبه و رسالته حاضرة، أو هو الذي يتلو عليهم آيات اللّه، أمّن يحملون عنه رسالته، فإنما هي الحجة البالغة الإلهية الواصلة كالرسول، يبلغ دون زائدة و لا ناقصة، اللهم إلّا فرعية لا تصطدم أصل الحجة، كالزمن بعد كل نبي و إمام معصوم حجة، و لا سيما إذا كان كتاب شرعته حاضرا دون زيادة او نقيصة كما القرآن العظيم.

فالركن الركين في الدعوة الإلهية تلاوة آيات اللّه المبشرة و المنذرة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 392

«... يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا»: يوم السوق إلى جهنم ...

«قالُوا بَلى‏» قد جاءتنا رسل منا يقصون علينا آياتك و ينذروننا لقاء يومنا هذا «وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ» انهم كفروا بآيات ربهم، لا أنها حقت فكفروا.

«قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ ...» و لماذا «أَبْوابَ جَهَنَّمَ» و الباب يدخل منها دون أن تدخل هي بنفسها «وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ» (12: 67)؟.

هناك ثانية (16: 29) و ثالثة (40: 76) مثلها، قد تعني كلها دخول كل زمرة من باب، و كما الدخول في الأرض المقدسة: «يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ...» (5: 21) «وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً» (2:) 58)، و قد تعني أن هناك دخولين، دخول كلّ بابه، ثم دخوله دركه من بابه.

و لكن الجنة و لها أبواب دون طباق، لا يفترق دخولها عن أبوابها، و لا يتفرق زمر المتقين الداخلين فيها دخولا من أبوابها، و كل يعرف قدره و مقامه، و هم يتعارفون في منازلهم على مختلف درجاتهم.

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (73).

هب إن هناك سوقا للذين كفروا إلى جهنم لأنهم لا يجيئونها دون سوق، فلما ذا يساق الذين اتقوا إلى الجنة، و لهم إليها شوق دون سوق؟

هذا سوق الاحترام و ذلك سوق الاخترام و اين سوق من سوق، حيث يساقون إليها بكل تبجيل و تجليل، و لأن‏ «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 393

إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (43: 67) فلا يرضى أحدهم ان يسبق الآخرين مهما كان حقه السباق، فهم- إذا- يساقون مع الرفاق حيث لا يرضون السباق.

أم و لأن‏ «الَّذِينَ اتَّقَوْا» في إطلاقها هم الرعيل الأعلى، الذين لا يعذبون أبدا، هم- حينئذ- غارقون في مشاهدة جلال ربهم و جماله، حيث يعيشون منذ بعثهم جنة الرضوان، فلا تهمهم جنة الجثمان، لذلك و ذاك و ذيّاك فهم يساقون إلى الجنة «حَتَّى إِذا جاؤُها» و الحال أنها «فُتِحَتْ أَبْوابُها» من ذي قبل، تهيئة لهم و تهنئة «وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها ...» و هناك لا خبر عن الخبر ل «حَتَّى إِذا ...» حيث فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر، لذلك فهنالك لا خبر عن الخبر إلّا «وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ- طِبْتُمْ- فَادْخُلُوها خالِدِينَ»: «سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» (36: 58).

«يساق المتقون إلى الجنة و (قد أمنوا من العذاب و انقطع العتاب و زحزحوا عن النار و اطمأنت بهم الدار و رضوا المثوى و القرار، الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، و أعينهم باكية، و كان ليلهم في دنياهم نهارا تخشعا و استغفارا، و كان نهارهم ليلا توحشا و انقطاعا، فجعل الله لهم الجنة ثوابا و كانوا أحق بها و أهلها في ملك دائم و نعيم قائم» «1».

«سَلامٌ عَلَيْكُمْ» هنا كما سلمتم هناك لربكم «طبتم» هناك فطبتم هنا «فادخلوها» الجنة «خالدين» و اين خالدين من خالدين؟

وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (74).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في نهج البلاغة من خطبة لعلي (عليه السلام) لما قرأ و سيق الذين اتقوا الى الجنة زمرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 394

و الأرض هنا- كما أسلفناها- هي ارض الجنة، و «حَيْثُ نَشاءُ» ليست إلّا حيث يشاء اللّه، إذ ما يشاءون إلّا أن يشاء اللّه، و كل عارف درجته و منزلته و منزله‏ «فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ» دون- فقط- المؤمنين، حيث العمل الصالح هو ركيزة الإيمان و ثمرته.

وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (75).

العرش هنا مصدر الأوامر الربوبية لأهل المحشر، و الملائكة- علّهم- حملة تلك الأوامر تنفيذا لها و هم‏ «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» لمسك الختام كما في وعد البداية «وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ» المكلفين المتخلفين، و طبعا ليس منهم الملائكة الذين‏ «لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» أم قضي بين الصالحين، أنبياء و أئمة و ملائكة أمّن هم؟ و بين الطالحين أيا كانوا «بالحق» في صراحه‏ «وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» من قائل إلهي أو ملائكي أم و أهل الجنة أجمعين‏ «وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 395

سورة غافر مكيّة

و آياتها خمس و ثمانون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 396

[سورة غافر (40): الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (5) وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6)

سورة تتسمى باسم رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، لأنه كان ثورة على الفرعونية الجبارة لصالح الايمان، في حين لا تتسمى باسم الكثير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 397

من المرسلين في سائر القرآن إلّا إبراهيم و نوح و محمد ممن دارت عليهم الرحى، و يونس و هود و يوسف ممن دونهم، ثم نرى مريم و لقمان و المؤمن تتسمى بأسماء هؤلاء الثلاثة و هم ليسوا من النبيين.

و المؤمن هي أولى الحواميم السبع و هي كلها تاج القرآن‏ «1» و ديباج القرآن‏ «2» و هي ثمرات القرآن‏ «3» و روضة من رياض الجنة «4» و يا لها من سبع كالسبع أبواب الجحيم تغلقها على القارئ المؤمن بها «5» و لقد فضّل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فيما فضّل الحواميم‏ «6».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين عن المجمع انس عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ...

(2) الدر المنثور 5: 344 عن انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

(3)

المصدر اخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد اللّه قال بلغنا ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لكل شجرة ثمر و ان ثمرات القرآن ذوات حم من روضات مخصبات معشبات متجاورات فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم ...

(4) المصدر اخرج الديلمي و ابن مردويه عن سمرة بن جندب مرفوعا: ...

(5)

المصدر اخرج البيهقي في شعب الايمان عن الخليل بن مرة ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: الحواميم سبع و أبواب جهنم سبع تجي‏ء كل حم منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي و يقرؤني‏

. (6)

اخرج ابن نصر و ابن مردويه عن انس بن مالك سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ان اللّه أعطاني السبع مكان التوراة و أعطاني الراآت الى الطواسين مكان الإنجيل و أعطاني ما بين الطواسين الى الحواميم مكان الزبور و فضلني بالحواميم و المفصل ما قرأهن نبي قبلي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 398

و تختص المؤمن من بينها بعد التنزيل ب‏ «هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» مما يوحي بأنها تحمل. عزة و علما، و من العلم العزيز حمل العرش: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ» و هم حملة عرش العلم فيما يحملون، و من عزته عز المؤمن من آل فرعون: «وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ...».

ثم الكتاب بوجه عام يحمل من عزته تعالى و علمه ما أمكن حمله للعالمين إلى يوم الدين، و إذا كان‏ «حم» نداء لأحمد- محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) منزل وحي الكتاب من اللّه العزيز العليم، ف‏ «تَنْزِيلُ الْكِتابِ ...» مبتدأ بخبره، تناديه‏ «حم» أن تنزيل الكتاب يخص العزيز الحكيم، كما و أن اصطفاء محطّة الوحي ليس إلّا منه و «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ»!.

أو أن‏ «حم» مبتدأ و الجملة خبره، فأحمد- محمّد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو تنزيل الكتاب، حيث القابلية ظرف للفاعلية فكأنه هو التنزيل، أم أن محمدا هو القرآن و القرآن هو محمد منزّلان‏ «مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»! و كما في «يس» «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» (69)! و ليس «هو» هنا الا «هو».

لتنزيل الكتاب مرحلتان أولاهما تنزيله نجوما متفرقة، و أخراهما تنزيله مؤلّفا كما هو الآن، و كلاهما يحملان من عزته تعالى و علمه ما أمكن و يليق بخاتمة الوحي.

و لأن الغالب على جو السورة هو المعركة الثورة بين الحق و الباطل بأية صورة، حاملة معارض لمصارع الغابرين و عبرة للباقين، لذلك تبتدئ فيما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 399

تبدأ بوصفي العزة و العلم، ليعلموا ألّا غالب على كتابه بعزة او علم، ف‏ «إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ»- «أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» فلا طاقة به لمن سوى اللّه.

غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3).

هذه الست و العزيز العليم أوصاف ثمانية كأبواب الجنة الثمان، تفتتح السورة بها، مزيجة من صفات الجلال و الجمال لتدلنا على أنه تعالى أرحم الراحمين في موضع العفو و الرحمة و أشد المعاقبين في موضع النكال و النقمة.

و إنها مجموعة صفات ذات علاقات موضوعية بمحتويات السورة، فكل موضوعاتها تتعلق بهذه الثمان، التي تحمل بعدي الجلال و الجمال، المتوحدين فيما تتوحد بذاته الواحدة، منحصرة فيه منحسرة عن سواه!.

و العطف بين غافر الذنب و قابل التوب لانعطافهما في أصل الرحمة مهما كان الثاني من مصاديق الاوّل، و الذنب هو الأخذ بذنب الشي‏ء و يستعمل في كل ما يستوخم عقباه، فإن كانت عقبى الأولى فهو من أحسن الصالحات و إن كانت الأخرى فمن أنحس الطالحات.

و الغفر هو الستر دفعا او رفعا، فالغفر عن ذنوب المعصومين يختص بالذنب الصالح كما للرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ ...» و هو بالنسبة للطالح، لهم دفع و صدّ أن عصمهم اللّه من الزلل و آمنهم عن الخطأ، و ما استغفارهم إلا كالاوّل فكالأول أم كالثاني فكالثاني، دون رفع لخلفيّة عصيان على أية حال.

و التّوب هو الرجوع الى اللّه، إما عن عصيان فهو قابله، أم عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 400

نقصان بلا عصيان فبأحرى، أم لجأ إليه عما يعترضهم من بواعث النقصان و العصيان و لمّا، فأولى لهم ثم اولى، كما للمخلصين من عباده، و المخلصين ان يتقبلهم في حماه و يفتح لهم بابه بلا حجاب!.

انه‏ «غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ» في موضع العفو و الرحمة فضلا و هو «شَدِيدِ الْعِقابِ» في موضع النكال و النقمة عدلا، غفرا و عقابا على شروطها، المسرودة في الذكر الحكيم.

«ذِي الطَّوْلِ» و يا له من حفاوة و إكرام ان يحتف عقابه بغفره و طوله و الطول هو المنة و الإنعام الطائل، لا انقطاع له بانقطاع العبد عن ربه، فكلما استغفر بعد ذنب ام تاب يجد اللّه توابا رحيما، ثم لا انقطاع له إذا ركز في محلّه اللائق، و من طوله أن يعفو عن شديد العقاب بعد ركزه بحقه إن لم يكن خلاف العدل بالنسبة لآخرين.

«لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» في هذه و تلك أمّاهيه من اختصاصات الألوهية و منها:

«إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» لا سواه مهما كان وليا او نبيا فضلا عن سواه، فهو المبدأ لا سواه، و هو المرجع لا سواه، و ليس الأمر بينهما إلّا له لا سواه.

ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4).

«لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» (3: 197).

للذين كفروا تقلب في البلاد بتغلّب على أهل البلاد، بعد ما جادلوا في آيات اللّه، طغيانا ذا بعدين: على اللّه و على عباد اللّه، ممّا يغرّ من ينغر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 401

بظاهر الحياة الدنيا، ف‏ «لا يَغُرَّنَّكَ ...» فإنهم كفروا في جدالهم في آيات اللّه و ما هم بغالبين‏ «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ...» و ليس لهم إلّا متاع قليل «و كل متاعب الدنيا قليل» ثم‏ «مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» لأنهم ركزوا على الكفر فلا رجوع حتى يتوب اللّه عليهم، ف‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا» هنا يخصهم دون من يتوب فيتوب اللّه عليهم و يخفف عنهم.

فلأن جدال الكافر هو كافر الجدال و حجتهم داحضة فلا خوف منهم على آيات اللّه، و لأن تقلبهم قليل مهما طال الأمد فلا تغلّب في تقلّبهم على اللّه مهما كان على عباد اللّه و لكنه‏ «مَتاعٌ قَلِيلٌ» «فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ» و «آياتِ اللَّهِ» هنا تعم التدوينية القرآن و التكوينية من نبي القرآن و بيناته و سائر الآيات آفاقية و أنفسية، و الجدال فيها بالحسنى يأتي بالحسنى و بالسّوائى يأتي بالسّوائى، فالأولى جدال المؤمنين ليستحكموا عراها و الاخرى جدال الكافرين ليستهدموا هداها «فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ» ثم و

«جدال في القرآن كفر» «1»

و إن لم يكن عن كفر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 345- اخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال قال: رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... و: مراء في القرآن كفر

و

اخرج عبد بن حميد عن أبي جهم قال‏ اختلف رجلان من اصحاب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في آية فقال أحدهما تلقيتها من في رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و قال الآخر انا تلقيتها من في رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فاتيا النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فذكرا له ذلك فقال: انزل القرآن على سبعة أحرف و إياكم و المراء فيه كان المراء كفر،

و

في كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لعن المجادلون في دين اللّه على لسان سبعين نبيا و من جادل في آيات اللّه فقد كفر قال اللّه عز و جل: ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 402

و «تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ» هو تطويرهم و تطوّرهم من طور إلى طور و من دور إلى دور، نعمة و دولة أماهيه من زخرفات حياة الغرور.

جدال الذين آمنوا في آيات اللّه يخيف و يعز غير ثابتي الإيمان دون انتقاص فيها و انتقاض لها، و لكن المؤمن ما يجادل في آيات اللّه إلّا استنباطا لها، و لو انجرف الى جدال بالباطل و مراء أصبح كفرا عمليا كما نبه به الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

و لكن الذين كفروا هم وحدهم المجادلون في آيات اللّه إبطالا لها، و إضلالا للمصدقين بها، فهم وحدهم يجادلون فيها دونما حجة لهم إلّا داحضة «فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ» مهما تحركوا و ملكوا و استمتعوا فإنهم الى اندحار و بوار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ» ف‏ «لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3: 178) «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ» (8: 59).

«فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ»! فذلك التقلب و التغلب «متاع قليل ثم إلينا يرجعون» فنعاقبهم بما كانوا يعملون.

«فَلا يَغْرُرْكَ ...» و لا تتضايق يا رسول الهدى فكم لهم من نظير «فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ».

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (5).

فهم داحضون كما حجتهم داحضة.

وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6).

فقد جمع لهم دحض يوم الدنيا التي دحض يوم الدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 403

[سورة غافر (40): الآيات 7 الى 12]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى‏ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11)

ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 404

تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (7).

من الذين يحملون العرش ثمانية: «وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» (69: 17) «1» «وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (39: 75).

حملة العرش يومئذ ثمانية، و ما ندري قبله كم هيه، هل هم الثمانية ام زائدة او ناقصة؟ ثم‏ «وَ مَنْ حَوْلَهُ» و منهم الملائكة، هل هم من هؤلاء الحملة؟ فلما ذا افردوا عنهم ان كانوا من‏ «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ»! ام هم المحمولون مع العرش من حوله؟ و حمل العرش- فقط- هو المحور في آية الثمانية! إلّا ان تدلنا على حملهم‏ «وَ الْمَلَكُ عَلى‏ أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» «وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ»! و اين هي الدلالة إلّا احتمالا في آية «مَنْ حَوْلَهُ» مع احتمال انهم ممن‏ «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» مع‏ «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ» لا و أنهم المحمولون معه! إلّا ان واضح التعبير عنه «الذين يحملون العرش يسبحون و من حوله» ففي عطف من حوله- دون فصل و ردفه ايحاء- على اقل تقدير- «انهم محمولون مع العرش، و ان كانوا مع الحملة يسبحون و يؤمنون و يستغفرون ...» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 29 ص 95 من الفرقان تجد تفصيل البحث حول العرش و حملته الثمانية.

(2)

البرهان 4: 90 محمد بن يعقوب بسنده عن صفوان بن يحيى قال‏ سألني ابو قرة المحدث ان ادخله على أبي الحسن الرضا (عليه السلام) فاستأذنته فاذن له فدخل فسأله عن الحلال و الحرام ثم قال افترى ان اللّه محمول؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) كل محمول مفعول مضاف الى غيره محتاج و المحمول اسم نقص و الحامل فاعل و هو في اللفظ مدحة و كذلك قول القائل فوق و تحت و أعلى و أسفل و قد قال اللّه: «وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها» و لم يقل في كتبه انه المحمول بل قال: انه الحامل في البر و البحر و الممسك للسماوات و الأرض ان تزولا و المحمول ما سوى اللّه و لم يسمع احد آمن باللّه و عظمه قط قال في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 405

و على أية حال فالحامل أفضل من المحمول و أكمل، فمن يحملون مع العرش هم دون الحاملين، أ فيبقى بعد احتمال أن استوائه تعالى على العرش جلوسه عليه و ارتكانه فيحمل مع المحمولين، و قد كان و لا عرش و لا حامل له حيث «كان إذ لا كان»! و من أفضل حملة عرش العلم و الرحمة رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الأوصياء من بعده: و هم محمد و علي و الحسن و الحسين و من المحمولين نوح و ابراهيم و موسى و عيسى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

دعائه: يا محمول، قال ابو قرة: و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، و قال: الذين يحملون العرش فقال ابو الحسن (عليه السلام) العرش ليس هو اللّه و العرش اسم علم و قدرة و العرش فيه كل شي‏ء ثم أضاف الحمل الى غيره خلق من خلقه لأنه استعبد خلقه بحمله عرشه و هم حملة علمه و خلقا يسبحون حول عرشه و هم يعملون بعلمه و ملائكته يكتبون اعمال عباده و استعبد اهل الأرض بالطواف حول بيته و اللّه على العرش استوى كما قال، و العرش و من يحمله و من حول العرش و اللّه الحامل لهم الحافظ لهم الممسك القائم على كل نفس و فوق كل شي‏ء و علا كل شي‏ء و لا يقال محمول و لا أسفل قولا مفردا لا يوصل بشي‏ء فيفسد اللفظ و المعنى، قال ابو قرة. فتكذب بالرواية التي جاءت ان اللّه إذا غضب انما يعرف غضبه ان الملائكة الذين يحملون العرش يجدون ثقله على كواهلهم فيخرون سجدا فإذا ذهب الغضب خف و رجعوا الى مواقفهم فقال ابو الحسن (عليه السلام) عن اللّه تبارك و تعالى فقد لعن إبليس الى يومك هذا هو غضبان عليه فمتى رضي و هو في صفتك لم يزل غضبانا عليه و على أوليائه و على اتباعه كيف تجتري ان تصف ربك بالتغيير من حال الى حال و انه يجري عليه ما يجري على المخلوقين سبحانه و تعالى لم يزل مع الزائلين و لم يتغير مع المتغيرين و لا يتبدل مع المتبدلين و من دونه في يده و تدبيره و كلهم اليه يحتاج و هو غني عمن سواه.

(1).

تفسير البرهان 4: 91 ح 6 بسند عن محمد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول‏ في الآية يعني محمدا و عليّا و الحسن و الحسين (عليهم السلام) و نوح و ابراهيم و موسى و عيسى يعني هؤلاء الذين حول العرش،

و

فيه ح 16 شرف الدين النجفي قال و روى عن عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد قال قال ابو جعفر (عليه السلام) في‏ «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ» يعني الرسول و الأوصياء من بعده يحملون علم اللّه عز و جل ثم قال‏ «وَ مَنْ حَوْلَهُ» يعني الملائكة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 406

و علّهم حملة عرش العلم و الرحمة: «رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً» فهم دائبون في‏ «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» «يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ ...».

تسبيحا بالحمد، لا حمدا فقط او تسبيحا فقط، حيث التسبيح سلب لما لا يليق بذاته المقدسة دون إثبات، و الحمد إثبات في معرض الإحباط لقدسية الذات، و لكنما التسبيح بالحمد هو سلب بلسان الإثبات جامعا بين السلب و الإثبات، و هو الحري في توصيف الذات، فقولهم إنه عليم، تسبيح له عن الجهل بإثبات علم، و تسبيح له عن سائر العلم لسائر الخلق، يعني أنه ليس بجاهل على الإطلاق و لا بعالم كالعلماء! «وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» إيمانا صارما واصبا يناسب حملة العرش و من حوله و تسبيحهم بحمد ربهم، و قد تلمح‏ «يُؤْمِنُونَ بِهِ» على وضوح الإيمان لهولاء الكرام، إلى الرد على الذين يتخذونهم أربابا من دون اللّه من ملائكة و نبيين، و هل الرب يؤمن بالرب مهما اختلفت الدرجات؟ ام‏ «يُؤْمِنُونَ بِهِ» واحدا لا شريك له فلا يعبد إلّا هو، فهل يؤمن الشريك بالوحدانية لشريكه؟ و ملامح الايمان أيا كان ظاهرة في وحدة الكون و تناسقه، و وحدة التدبير و ترافقه، و وحدة الوحي بتواتره، فليس لكلّ من هؤلاء ربوبية بعرشه الخاص، و انما حمل لعرش العلم و الرحمة الى من يشاء من عباده دون خيرة لهم و لا اقتداء، فإنما هم حملة مأمورون‏ «لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ».

«وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» و ليس لسائر المكلفين إذ لا يغفر إلّا للذين آمنوا، و ليس لأنفسهم علّه لأنهم معصومون لا يعصون، أو و أن من آداب الدعاء أن يدعو الداعي لغيره متناسيا نفسه، ثم اللّه يغفر له كما للمدعوين، و لكن‏ «وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ» قد تطارده، و الرسول و هو أفضل حملة العرش يؤمر بتقديم نفسه في الاستغفار، فقد تعني‏ «وَ يَسْتَغْفِرُونَ ...»

بعد ما استغفروا لأنفسهم، و دعاء الاستغفار تختلف عن سائر الدعاء، فعلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 407

الداعي أن يصلح نفسه باستغفاره لنفسه حتى يستصلح غيره باستغفاره لهم، مهما كان الاستغفار عن غير ذنب فإنه استصلاح الاستكمال و الدفع عما يطرد، عصمة عن كل وارد و شارد لا يناسب ساحة النبوة.

حملة العرش و من حوله‏ «يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» قائلين قبله ما يهي‏ء جو الغفران:

«رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً ...» قضية سعة عرش الرحمة و العلم، فلا تسع الرحمة ما لم يسع العلم، و لا تفيد سعة العلم ما لم تسع الرحمة «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» فسعة العلم و الرحمة معا هي التي تسمح لمطلق الغفر و الغفر المطلق عن أي ذنب كان، فلأنه واسع الرحمة و العلم، لذلك‏ «إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ ...» (53: 33).

و لأنك واسع العلم و الرحمة فواسع المغفرة «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ» فليست التوبة لفظة تقال، أم نية تنال، أم عقيدة كامنة، فإنها كلها ذرائع لاتباع سبيل اللّه، فلا غفران للذين تابوا و لم يتبعوا سبيل اللّه، إذ ليست التوبة إلّا عن انحراف السبيل.

و ترى إذا كانت رحمته وسعت كل شي‏ء كما علمه فلما ذا يحرم عنها غير المؤمنين؟ إنها وسعت كل شي‏ء إمكانية الشمول دون ضيق أو مضايقة و لكن‏ «فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ...» «قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ...» (7: 157).

و إذا تم الغفران بالتوبة فقد تمت الوقاية عن عذاب الجحيم، فما هو إذا موقف‏ «وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ» بعد «فاغفر»؟ علّها الوقاية دفعا عن العصيان حتى لا يحتاج إلى توبة و غفران، أم و تعم الدفع و الرفع عموما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 408

بعد خصوص، اجتثاثا صارما لبواعث الجحيم، و قد تعم‏ «السَّيِّئاتِ» سيئات المسيئين سواهم ألا تلحقهم بخلفياتها و كما «فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ» (45) فانها وقاية الدفع عما مكروا بموسى ان يفتكوا به و يقتلوه!.

رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8).

و إذا كانت الدعاء «للذين آمنوا و تابوا و اتبعوا سبيلك» ف «هم» في «أدخلهم» يعمهم، فما هو إذا موقف‏ «وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ» و هم داخلون في «و أدخلهم» إذ كانوا مؤمنين فإنهم ممن «صلح»؟.

«مَنْ صَلَحَ مِنْ» تقيّد «لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالمؤمنين الأصول، فتعني هي المؤمنين الفروع و كما في الطور: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ» (21) إلّا في آبائهم و أزواجهم في ظاهر اللفظ، و لكنما الذرية في الطور هي ذرية الإيمان فتشملهم من آباء و ازواج و أولاد، الذين عاشوا الإيمان على هوامش الأصول، حيث‏ «اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ».

و علّ الأزواج تعم الذكران و الأناث كما تعم كافة القرناء في الإيمان، و اختص بالذكر الآباء و الذريات لاختصاص قرابة الإيمان، فذرية الطور تشمل الثلاث هنا، و الذرية هنا تقابل الآباء و الأزواج، كما الأزواج هنا- علّها- تشمل كافة القرناء أنسباء و غير أنسباء.

و لماذا «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» في موضع الغفر و الرحمة؟ لأنهما من لوازم وسعة العلم و الرحمة، استشفاعا بسعة رحمته و علمه يضع العزة حيث تقتضيها الحكمة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 409

وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9).

«و قهم» تعني الذين آمنوا كلهم من أصول و فروع، و ظرف الوقاية هنا أعم من الدنيا و الآخرة و لكن الأهم هي الثانية: «وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ».

و السيآت حين تفرد دون مقابل تعني المعاصي كلها صغيرة و كبيرة، فوقايتهم إياها يوم الدنيا تعم الرفع و الدفع، رفعا بالتوبة لمن ابتلي بها، و دفعا بالتسديد عمن هاجمت عليه و لمّا يبتلى، و هذا يليق بأصول الإيمان و ذلك يناسب فروعه.

ثم إذا تبقّت سيئات عملت دون توبة عنها أم توبة من اللّه عليه لعظمها أماذا من منعة الوقاية، فبقيت ل «يومئذ» القيامة الكبرى ف‏ «وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ» حين لا توبة هناك، وقاية بشفاعة أمّاهيه، و وقاية السيئة «يومئذ» لا تعني السّدّ عن اقترافها، و إنما صدها عن بروزها، حيث الجزاء هو السيئة بنفسها ف‏ «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فالسيئة التي بقيت حتى (يومئذ) توقى و تمحى‏ «وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى‏ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11).

المقت هو أشد الكره، فقد كرهوا أنفسهم باشدها لمّا دعوا إلى الإيمان بحججه و لصالحهم في الدارين فكفروا، و قد خيّل إليهم أنهم غالبون أحرار في شهواتهم و كفتهم حظوة الحياة الدنيا عن أية حياة، و لكن‏ «لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ» فإنه صراح المقت دونما شبهة أو خفاء، فليس يعني عذابا أكثر مما يستحق، بل هو اكبر في مظاهره بنصوعه و هم ماقتون أنفسهم و يحسبون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 410

أنهم يحسنون صنعا قصورا عن تقصير.

أنتم تطّلعون اليوم على مصيركم بكفركم دونما غفلة، و قد كنتم يوم الدنيا في غفلة، و ما أوجع ذلك التذكير في التأنيب في ذلك الموقف الرهيب العصيب! ثم الجواب منهم ليس إلّا كلمة التباب للذليل البائس اليائس «ربنا» و قد عاشوا نكران ربوبيته! انهم يستعطفون الرب بعطف ربوبيته، و قضيتها العذاب عدلا للكافرين، كما أنها الثواب فضلا للمؤمنين. «رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ...» و ما هما الإماتتان و الإحياءتان؟

ترى الإماتة الأولى هي الموتة الكائنة قبل الحياة الدنيا، فالإحياءة الأولى هي إحيائها، ثم الإماتة الثانية هي عن الحياة الدنيا فالإحياءة الثانية هي عن البرزخ إلى الحياة الأخرى: «وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (2: 28)؟ «1».

و الموتة الأولى ليست عن إماتة، فإنما خلقت الأجنة ميتات ثم أحييت! ثم ليست لهم في هاتين الموتتين ذكرى يعترفون بها بذنوبهم، مهما كانت لهم في الإحياءة الثانية فليكتفوا بها في اعتذارهم و ذكراهم! أم إن الأولى إماتة عن الحياة الدنيا ثم الإحياء للبرزخ ثم الإماتة عنه و الإحياء للأخرى، و لم يذكروا الإحياء في الدنيا إذ لم تكن لهم فيها ذكرى و سبب للإيقان بالأخرى، حيث‏ «فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا» تفرّع اعترافهم بإماتتين و إحيائتين في كلها هذه الذكرى؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 347- اخرج الفريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و الحاكم و صححه عن ابن مسعود في الآية قال: هي مثل التي في البقرة «كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ...» و مثله عن ابن عباس و قتادة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 411

و الحياة البرزخية لا تحتاج إلى إحياء آخر بعد الإحياء في الاولى، فانها استمرارية الحياة الدنيا، إذ لم يحصل بالموت إلا انفصال الروح ببدنه البرزخي عن بدن الدنيا! ثم و لا ذكرى في هذه الإماتة الاولى و قد كانوا معترفين بها «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى‏ وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» (44: 35) و انما هي في حياة بعدها، ثم موت و حياة اخرى للأخرى! ام ان الموتة الثانية هي عن إحياءة الرجعة «1» ثم الإحياءة الثانية هي للأخرى، و لم تذكر الإحياءة للحياة الدنيا إذ لم تكن فيها ذكرى؟

و ليست الرجعة إلّا لمن محض الايمان محضا او محض الكفر محضا، و ليس الذين كفروا كلّهم ممحضين للكفر محضا، و هذه المقالة تحكي عن حالة عامة لأهل النار، كما هي لأهل الجنة، مهما استثني عن هؤلاء «إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» و لكنهم داخلون فيمن يرجع فموتتان ايضا، او استثني الاحياء يوم الصعقة، و الممحضون منهم ايمانا او كفرا داخلون فيمن يرجع، فقليل هؤلاء الذين يموتون موتة واحدة و هم الأحياء يوم الصعقة، غير ممحضي الايمان او الكفر! ام الاولى هي عن الحياة الدنيا، و الثانية عن الحياة البرزخية، و الإحياءة الاولى للأولى و الاخرى عن الموتة البرزخية للحياة الاخرى، و في مجموعها الذكرى إن لم تكن في كلّ منها، فقد جبروا نكرانهم‏ «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى‏» باعتراف‏ «أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ» و نكرانهم‏ «وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» باعتراف‏ «وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» ... «فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى‏ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ»؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 19 القمي قال الصادق (عليه السلام) ذلك في الرجعة و في البرهان 4:

93 ح 2 رجعة المعاصر عن الحسن بن محبوب عن محمد بن سلام عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: هو خاص لأقوام في الرجعة بعد الموت فتجري في القيامة فبعدا للقوم الظالمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 412

فآيات الصعقة في النفخة الأولى تعم‏ «مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» و هم ليسوا ممن شاء اللّه فتشملهم صعقة الموت مع من تشمل إلّا من شاء اللّه، و إن كانت للأحياء يوم الصعقة موتة واحدة هي عنها ثم إحياءة ثانية للأخرى، و لكنما الأكثرية الساحقة هم أهل البرزخ يوم الصعقة.

فمن الناس من له إماتات و إحياءات ثلاث، و هم ممن يرجعون يوم الرجعة و هم أموات يوم الصعقة و ليسوا ممن شاء اللّه و قليل ما هم! و منهم من لهم إماتة واحدة و هم الأحياء يوم الصعقة من غير أهل الرجعة و ليسوا ممن شاء اللّه، و قليل ما هم! و منهم من له إماتتان و إحيائتان، كسائر الناس و هم أهل البرزخ يوم الصعقة، فكثير منهم تأخذه الصعقة و هي إماتته الثانية، و قليل منهم هم ممن شاء اللّه، فموتتهم الثانية هي عن حياة الرجعة، و هل يوجد من هم أحياء يوم الصعقة و هم ممن شاء اللّه فلا يموتون بها، و ما هم ممن يرجعون يوم الرجعة، فلا موتة لهم إلا إحياءة واحدة للحياة الدنيا و هي تستمر إلى الأخرى؟

كلّا! ف‏ «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ» بين إماتة واحدة أمّا زادت، ف‏ «مَنْ شاءَ اللَّهُ» كلهم ممن محّض الإيمان محضا فراجع يوم الرجعة ثم يموت، و ما منهم من يظل حيا إلى يوم الصعقة فهي تأخذ أحياءها كأقل موتة.

فالضابطة العامة هي الإماتتان و الإحياءتان، مهما شذ عنها أقل منهما أو أكثر، و قد تزيد إلى أربع كالذي أماته اللّه مائة عام ثم بعثه، إن لم يكن ممن شاء اللّه و هو من أهل الرجعة، فقد أميت عن الحياة الدنيا مرات ثلاث،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 413

ثم الرابعة يوم الصعقة، و لكنما الآية تتحدث عن الأغلبية الساحقة فإن لهم إماتتين اثنتين و إحيائتين، مهما كان موردها اهل النار، «فَهَلْ إِلى‏ خُرُوجٍ» أيا كان و أيان و لو بعد ردح كثير من الزمن «من سبيل» أيا كان و على أية حال، فالمستدعى هناك سبيل مّا إلى خروج مّا خروجا عن أبد النار: «رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37).

ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12).

«ذلكم» المقت الأكبر من اللّه‏ «بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ» بوحدته‏ «وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا» بكثرته «فالحكم» إذا في سبيل من خروج سلبا و إيجابا «لِلَّهِ الْعَلِيِّ» عن الشركاء «الكبير» عن الحاجة إلى الشركاء، و ما حكمه إلّا «إِنَّكُمْ ماكِثُونَ»! ف «إذا» تحقّق موضوعه و «دعي» تضرب إلى عمق الماضي تلميحا إلى أن التوحيد سابق محقق أصيل طول الزمن، فإنه قضية العقل و الفطرة، و دعوة الرسالة الدائبة، و مدلولة سائر الآيات آفاقية و أنفسية.

ثم «إن» تشكك «و يشرك» لطارئ المستقبل، لأن الشرك طارى‏ء مشكّك في تطاول من أهل الزمن! لا حجة له في أي حقل من الحقول، أم أي عقل من العقول، فيا لهم من حماقة معمّقة، و تناس لكل موهبات الإنسانية و الحيوانية. ان يؤمنوا ان يشرك و يكفروا إن يوحّد!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 414

[سورة غافر (40): الآيات 13 الى 46]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى‏ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْ‏ءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (17)

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ (18) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْ‏ءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (21) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (22)

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (23) إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى‏ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (26) وَ قالَ مُوسى‏ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (27)

وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى‏ وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (29) وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31) وَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (32)

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33) وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (34) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (36) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (37)

وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى‏ إِلاَّ مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (40) وَ يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)

لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44) فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (46)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 419

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14).

«هو» اللّه الواحد «الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ» الدالة على وجوده و وحدانيته و سائر صفاته الحسنى، و الكون كله آياته من آفاقية و أنفسية «وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ» مادية و معنوية «رزقا» لأبدانكم و أرواحكم‏ «وَ ما يَتَذَكَّرُ» آياته البينات و رزقه النازل‏ «إِلَّا مَنْ يُنِيبُ» إليه و يرجع عن غفوته و غفلته إلى فطرته و فكرته.

ف‏

«لو كان لربك شريك لأتتك رسله» «1»

و أراك آياته، و الآيات كلها مجمعة عليه، دالة إليه، حيث الكون مكرّس جامع، و كتاب بارع، يدل على مكوّنة دلالة ناصحة ناصعة، دونما مناورة، و لا منازعة، او مضادة و مناقضة «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» في ذوات و دلالات.

و إذ كان واحدا تدل عليه آياته في كافة الجهات و الجنبات‏ «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» إخلاصا له في طاعته و عبادته‏ «وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» و كراهتهم منفية في الفطرة و حسب ما تهدي إليه الادلة، كما تلمح إليها «لو» الامتناعية، إلّا أن غشاوات الفطرة تجعل من المحبوب مكروها، و من النور ظلمات.

رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن الإمام امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 420

مواصفات ثلاث للّه تعالى تقتضي ان ندعوه مخلصين له الدين و لو كره الكافرون، و هي من صفات الأفعال دون الذات المقدسة المتعالية عن هذه الصفات.

أ ترى أن له درجات ترفع و يتدرج إليها؟ و له درجة واحدة دائبة لا زائدة و لا ناقصة هي الألوهية!.

هذه الدرجات الرفيعة هي التي يدرج إليها أهليها كمن يلقي عليه الروح من أمره: «نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ» (6: 83) إذ «هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ» (3: 163) «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» (6: 132) «نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» (12: 76) «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ» (58: 11).

فلانه ذو العرش علما و تربية و تدبيرا إمّا هيه، فهنالك درجات إلى عرشه لكلّ على حدّه و مدّه دونما فوضى جزاف، فمنازل العز و مراتب الفضل التي يخص بها عباده الصالحين و أوليائه المخلصين رفيعة الأقدار، مشرقة المنار، فهي الدرجات التي يرفع عباده إليها، لا التي يرتفع هو بها! تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

و تأويل الرفيع إلى معنى الرافع تأويل عليل، فإنما هو الرفيع، يملك الدرجات الرفيعة، فيرفع بها من يشاء من عباده‏ «ذُو الْعَرْشِ» فله عرش الربوبية بكافة جنباتها لا سواه، تجتمع في عرشه أزمة الأمور، و يتنزل منه كل أمر برفيع الدرجات حسب القابليات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 421

«يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ» إلقاء من أمره لا سواه، و روحا من أمره لا سواه: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» «1» «يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» (16: 2) تنزيلا من أمره بالروح من أمره لا أمر في أيّ من أمره لسواه.

ترى الروح هنا هو الروح القدس، روح العصمة و التسديد المستكن في قلوب المعصومين‏ «2» أم هو الروح الأمين‏ «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ ...» (26: 193) «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» (16: 102) و هما جبريل الأمين‏ «3»؟ ام هو روح الوحي:

«وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ...» (17: 85) فالكل ملقى و منزّل على من يشاء من عباده، مهما كان روح الوحي هو الأصل، و روح العصمة ظرف لنزوله، و الروح الأمين سبب لإنزاله؟

قد يعني الروح الملقى من أمره هذه الثلاثة متأصلة روح الوحي، و هو أحق أن يسمى روحا و أحرى من سائر الأرواح، لأن المكلفين يحيون به من موت الضلالة و ينشرون به من مدافن الغفلة و المتاهة.

و «مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» ليست مشية فوضى جزاف، بل هي اصطفاء «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ» «لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «من امره» حال ام صفة للإلقاء و الروح فكلاهما من امره.

(2) تفسير البرهان 4: 94 ح 1 علي بن ابراهيم قال قال روح القدس و هو خاص لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الائمة (عليهم السلام).

(3)

البرهان 4: 94 ح 2 القمي بسند عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ سألته عن قول اللّه عز و جل: ينزل الملائكة بالروح من امره فقال: جبرئيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 422

إنذارا لائقا برب العالمين لكل العالمين، ثم تبشيرا لمن آمن منهم، فالإنذار هو حجر الأساس الذي ترتكن عليه دعوة الرسالات و من ثم التبشير «إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ» (13: 7) و «يَوْمَ التَّلاقِ» هو القيامة التي تتلاقى فيها الأرواح بأجسادها بعد فصال، و يتلاقى أهل الحشر عن آخرهم‏

«يلتقي أهل السماوات و الأرض» «1»

فهو يوم بروز الكل للكل فهل يخفون على اللّه الذي يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور؟ ثم تلاق في وئام تام لأهل الإيمان، و في محاجة و صدام بين سواهم، و تلاق رابع بين المكلفين و أعمالهم، و خامس تلاقي جزاءهم، و هل يعم التلاق لقاء اللّه في يوم اللّه؟

علّه نعم‏ «وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ» (2: 223) «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» (84: 6) و علّه لا، حيث التلاق لقاء من الجانبين و هو من اللّه حاصل منذ خلق الخلق، و قد تختلف الملاقاة عن التلاق، حيث الثانية تفاعل بين اثنين على سواء، و الأولى فعل من الملاقي بتقبل من الملاقى، فما هما على سواء، اللهم إلّا أن تعنيه ضمن ما عنته من تلاقي أهل الحشر و سواه، فكما أنه يوم الفصل كذلك هو يوم التلاق، كل في موقفه و على حده.

و لأن الإنذار هادف يوم التلاق، فلتعن التلاق لقاء اللّه في يوم الحساب حتى يتحقق حق الإنذار، إذ لا خوف من سائر التلاق لولا لقاء اللّه، مهما عنت سائر التلاق.

يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى‏ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْ‏ءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 514 ح 24 في معاني الاخبار بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: يوم التلاق يوم يلتقي اهل السماء و اهل الأرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 423

أ تراهم لم يكونوا يوم الدنيا الفراق بارزين للّه حتى يبرزوا له يوم التلاق؟ اجل و لكنهم لم يكونوا بارزين لأنفسهم و لا لمن سواهم إلّا من شهد، فخيّل إليهم أنهم مستورون حتى من ربهم، و أما اليوم فقد كشف الغطاء فبرزوا عن مثلث الغطاء، فزال الخيال أنهم مستورون عن اللّه‏ «لا يَخْفى‏ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْ‏ءٌ» عندهم، كما لم يخف على أية حال! «بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ» (6: 28) «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ» (69: 18) لأنه‏ «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ» و يوم‏ «حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ» كما و كان لهم الملك يوم الدنيا ابتلاء و امتحانا مهما كان حقه للّه، و يوم التلاق‏ «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ»! حيث يتضاءل المستكبرون و ينزوي المتجبرون، و يقف الكون كله خاشعا للّه في ذل إعلانا و إسرارا، مهما خشعت له يوم الدنيا إسرارا.

في يوم التلاق هو الملك لا سواه، و هو السائل و المجيب لا سواه، اللّهم إلّا إجابة الأنبياء و الرسل و الحجج‏ «1» و من ثم إجابة أهل الحشر كلهم إذ تبين لهم انه الحق‏ «2».

أم إنه في موقف لا مجيب فلا جواب إلّا للّه حيث‏

«يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شي‏ء معه، كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 27 الفرقان ص 464 ففيه تفصيل البحث عن الآزفة.

(2)

نور الثقلين 4: 514 ح 25 في كتاب التوحيد بسند عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال حدثني أبي عن أبيه عن جده عن امير المؤمنين (عليه السلام) في ا ب ت ث انه قال: الالف الاء الله- الى قوله-: فالميم ملك الله يوم لا مالك غيره و يقول الله عز و جل لمن الملك اليوم ثم تنطق أرواح أنبيائه و رسله و حججه فيقولون لله الواحد القهار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 424

بلا وقت و لا مكان و لا حين و لا زمان، عدمت عند ذلك الآجال و الأوقات، و زالت السنون و الساعات فلا شي‏ء إلا إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، و بغير امتناع منها كان فناءها و لو قدرت على الامتناع لدام بقاءها» «1».

أم إنه يعني الموقفين، فيهما الملك للّه الواحد القهار، و على أية الحالين ف‏ «مَنْ شاءَ اللَّهُ» هم أحياء عند الصعقة لا يصعقون مهما أجابوا أم سكتوا، فرد هو سؤاله على نفسه‏ «لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» أين الجبارون؟

و اين المتكبرون؟ و اين الذين ادعوا معي إلها آخر؟ اين المتكبرون و نخوتهم؟ «2».

الْيَوْمَ تُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (17).

«ما كسبت كل نفس» هو السبب للجزاء على حدّه عدلا في العقاب و فضلا في الثواب، و السبب هو المسبب ف‏ «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (66: 7) إذ يظهر العمل بملكوته فهو هو الجزاء، ف‏ «لا ظُلْمَ الْيَوْمَ» حيث العمل لا يزيد على نفسه و لا تختلط عليه الحسابات و لا تطول ف‏ «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ».

فالزيادة على العمل ظلم، و الخروج عن حدّ العمل عقابا ظلم، و لأن كل عمل محدود زمانا و أثرا أيا كان، فالعقاب اللّامحدود ظلم، بل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن امير المؤمنين (عليه السلام).

(2) نور الثقلين 4: 514 ح 27- القمي بسنده عن أبي عبد اللّه الصادق (عليه السلام) في حديث طويل يستعرض فيه موت الكون كله، أقول و يستثنى منه‏ «مَنْ شاءَ اللَّهُ» حسب التصريح القرآني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 425

لا يعقل حينما يكون العمل هو الجزاء، إلّا أن يجعل من العمل المحدود اللّامحدود من نفسه أو من ملكوته‏ «وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

و أما اللّامحدود من جزاء الصالحات فهو قضية الفضل، لا- فقط- ظهورها بملكوتها، فإنها محدودة في أصلها و في جزائها بملكوتها عدلا، و لا محدودة بفضل اللّه‏ «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ»! وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ (18).

«أَزِفَتِ الْآزِفَةُ. لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ» (53: 57) «1».

«و أنذرهم» أهوال يوم القيامة «الآزفة»: القريبة، فإن كل آت قريب و قد مضى من عمر الدنيا كثيره البعيد، فلم يبق إلّا الآزف القريب، «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ» لأن الأنفاس خنقتها من الهائلة، فأنفسهم- إذا- آزفة الزهوق عند الآزفة، و كما في الحرب يوم الأحزاب‏ «إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ» (10)، «كاظمين» في شدة الاغتمام، و يزيد كظما من ظلم ف‏ «ما لِلظَّالِمِينَ» إذا «من حميم» قريب بحميهم بحمّة القرابة و همتها «فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ» (23: 101) «وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ» مهما كانت هنالك شفعاء لا تطاع!.

إن القيامة الهائلة بنفسها منذرة، فكيف إذا كانت آزفة زاحفة، فالأنفاس يومئذ لاهثة، و القلوب لدى الحناجر زاهقة، و ما لهم من حمّة و لا شافعة.

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ (19).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 27 الفرقان ص 464 ففيه تفصيل البحث عن الآزفة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 426

هنالك أنفس أمينة و أخرى خائنة «وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى‏ خائِنَةٍ مِنْهُمْ ...» (5: 13) ثم و لكل جارحة و جانحة أمانة و خيانة و اللّه‏ «يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ» مثالا لجارحة «وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ» مثالا لجانحة.

فلقد

«قسم أرزاقهم و أحصى آثارهم و أعمالهم و عدد أنفاسهم و خائنة أعينهم و ما تخفي صدورهم من الضمير» «1».

«خائِنَةَ الْأَعْيُنِ» صفة مضافة إلى موصوفها، و كونها مصدرا و صريحه الخيانة خلاف الصحيح و الفصيح، ثم ليست لكل الأعين خيانة و هي قضية المصدر! للجوارح خيانات و «خائِنَةَ الْأَعْيُنِ» أسرّها تدليلا و أسرعها نفاذا، و أخطرها نفوذا، و لذلك تختص من بينها، ثم الخيانة قد تكون جهرة، فيعلمها غير اللّه كما يعلمها اللّه، و قد تكون خفية رئاء الناس، و هي المناسبة هنا ل «خائِنَةَ الْأَعْيُنِ» حيث المرائون يغتنمونها كأنها اللّه كما الناس لا يعلمها ...

ألم تر الى الرجل ينظر إلى الشي‏ء و كأنه لا ينظر فذلك‏ «خائِنَةَ الْأَعْيُنِ» «2»

فهي- إذا- سارقة النظرة، لا كل نظرة عاصية مهما كانت خائنة لمكان «يعلم» ... «وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ» نظرة تخفيها كما تخفي الصدور، و ان يعلم اللّه كل خيانات النظرة و سواها بيّن لا يحتاج إلى بيان فإنه عيان.

و هلّا تجوز خيانة الأعين حتى فيما يجوز كأن تشير غمضا إلى شخص فيعاقب باستحقاق؟ علّها لا إلا فيما لزم الأمر دون مندوحة، و لكنها تقية لا تليق بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فكل أمره صراح و

قد يروى عنه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام امير المؤمنين (عليه السلام).

(2) نور الثقلين 4: 517 ح 33 في معاني الاخبار باسناده الى عبد الرحمن بن سلمة الحريري قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الآية فقال: الم تر ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 427

أنه «لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين» «1»

و لو لم تنبغ لأي مكلف فيما يجوز لم يخصه «لنبي»! ف «لخائنة الأعين» مصاديق ثلاثة أنحسها سارقة النظرة المحرمة ممن يراءون الناس و لا يراعون اللّه، وي كأن الناس أحرى بالرعاية، و أقلها فيما يجوز إلّا لنبي أمّن ذا، و أوسطها كل نظرة محرمة غير سارقة، و سواء في هذه الثلاث أ كانت النظرة إلى شخص او شي‏ء أو أمر، فإنها على أية حال خائنة، مهما اختلفت دركات الخيانة لحد الكراهية لغير الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

و علّ‏ «ما تُخْفِي الصُّدُورُ» تعم السر و أخفى‏ «فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» (20: 7) ما تخفيه اختيارا عمن سواها، و ما تخفيه اضطرارا إذ لا تعلمها في حالها ماذا تكنّ في استقبالها؟

وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْ‏ءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20).

و قضاء اللّه بالحق دون سواه، دليل آخر على ألّا إله سواه، قضاء في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 349- اخرج ابو داود و النسائي و ابن مردويه عن سعد قال‏ لما كان يوم فتح مكة امن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الناس الا اربعة أنفار و امرأتين و قال: اقتلوهم و ان وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الناس الى البيعة جاء به فقال يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بايع عبد اللّه فرفع رأسه فنظر اليه ثلاثا كل ذلك يأبى يبايعه ثم بايعه ثم اقبل على أصحابه فقال اما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا: ما يدرينا يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما في نفسك هلّا أومأت إلينا بعينك قال: انه لا ينبغي لنبي ان يكون له خائنة الأعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 428

التكوين‏ «فَإِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (3: 47) أو في التشريع‏ «وَ قَضى‏ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (17: 23) أم في خلافات خاصة، كلها في الأولى، و ما سوى الوسطى في الأخرى، فهو- فقط- يقضي بالحق في الدنيا و الآخرة بمثلث القضاء، و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشي‏ء.

أ ترى الشي‏ء هنا يعم الشي‏ء الحق و الباطل، و دعاة الحق يقضون بالحق، و دعاة الباطل يقضون بالباطل فكيف‏ «لا يَقْضُونَ بِشَيْ‏ءٍ» مهما لا قضاء لمن دونه تكوينيا؟ أم هو الشي‏ء الباطل و القضاة به كثير؟

«الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» يعم الدعاة و المدعو إليهم، لمكان «يدعون» دون يدعونهم، فقضاء دعاة الباطل ليس بشي‏ء في التشريع و القضاء فإنه باطل، و لا في التكوين لأنه من أصله زائل، ثم المدعو إليهم بين من لا قضاء له أصلا كالأصنام و الأوثان، فحقا إنهم لا يقضون بشي‏ء! و بين من يقضون بالحق فلم يقضوا بشي‏ء يهواه دعاتهم كالملائكة و النبيين، و من يقضون بالباطل و ليس الباطل بشي‏ء! طالما الشي‏ء المقضي به فيمن دونه لا يعم التكوين.

لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) فمن لا يقضي بشي‏ء بين العباد كيف يكون إلها أو شريكا للّه‏ «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»؟

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (21).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 429

الم يرجعوا الى فطرهم و عقولهم، و لم يسمعوا إلى رسلهم، و بعد هذين إذ تركوهما «أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» سيرا تاريخيا في أحوال الغابرين و أهوالهم‏ «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» فيعتبروا ممن قبلهم‏ «كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ» فلم تمنع قوتهم و آثارهم الأشد عن أخذ اللّه‏ «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ» أخذ «اللَّهِ مِنْ واقٍ» فيا لمصارع الغابرين من معتبر و هم واقفون موقفهم فهل من مدّكر؟.

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (22).

و هكذا تكون عاقبة الكفر بآيات اللّه البينات، أخذا في الأولى قبل الأخرى، تدليلا على مدى الأخذ في الأخرى.

و من أنحس النماذج للذين كانوا من قبلهم ثالوث فرعون و هامان و قارون، كل يمثل جانبا من الكفر و المجموع جملة الكفر، تتجاوب في ضخامة الصراع بين الكفر و الإيمان في ذلك المقطع من التاريخ:

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (23) إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24).

فرعون و هامان و ملأهما لم يكونوا من بني إسرائيل و قد أرسل إليهم موسى رسالة قاصدة، مما يدل على أن هذه الرسالة السامية غير محصورة في بني إسرائيل مهما كانوا هم المحور الأصيل فيها «ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ بِآياتِنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِها ...» (7: 103) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ينضم ملأ فرعون إليه في الرسالة الموسوية في الآيات التالية: 10: 75 و 11: 97 و 23: 46 و 28: 32 و 43: 46.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 430

فرعون هو الضلع الأكبر من ذلك الثالوث، و يذكر في سائر القرآن (74) مرة، و هامان ممثله و وزيره (6) مرات و قارون ابن عم موسى (4) مرات، و تجمعهم أجمع هذه و آية العنكبوت‏ «وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ» (39).

و لأن هؤلاء الثلاثة هم المحور الأصيل في السلطة الفرعونية استكبارا و استحمارا و استثمارا، تتجاوب مع بعض في السلطة التامة على المستضعفين، لذلك أصبحوا أصول المرسل إليهم من المستكبرين، كما و بنو إسرائيل هم أصول المرسل إليهم من المستضعفين، ثم الفروع للأولين «و ملئه» و للآخرين سائر المستضعفين في الرسالة الموسوية.

ترى ما هو الفارق هنا بين‏ «بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ» و هي مكرورة في هود و المؤمنين‏ «1» و آيات أخرى تخص السلطان‏ «وَ فِي مُوسى‏ إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» (51: 38) «وَ آتَيْنا مُوسى‏ سُلْطاناً مُبِيناً» (4:) 153) «قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ» (28: 35).

السلطان هو السلطة عقليا أمّا ذا ببرهان، أم واقعيا، فهو- على أية حال- أمر لا يغلب، بل و يغلب، فهل هو فقط آية الثعبان إذ كانت امّ الآيات الموسوية، أفردت بالذكر بعد الآيات أم دونها لأنها هامّتها، و قد غلبت كل سحر من السحرة مما برهنت لهم أنها آية خارقة إلهية؟

أجل إنها سلطان من هذه الناحية، و لكن‏ «وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ» برهان لا مردّ له أنها ليست‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ» 11: 96 «ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى‏ وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ» 23: 45.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 431

آية الثعبان، فانها مهما كانت سلطانا عقليا و حسيا لم تك لتمنع السلطة الفرعونية الكافرة بالآيات عن القضاء على موسى و هرون.

إذا فهو الهيبة المستمدة من اللّه، و السلطة القاهرة الإلهية التي حالت دون المكائد الفرعونية أن تفتك بموسى، إضافة إلى سلطان الآيات بما فيها سلطان الثعبان‏ «فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما» بحجة قارعة «بآياتنا» و «فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما» باستئصال‏ «بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» سلطانا يجمع بين السلطة العقلية و الواقعية، و النتيجة الحاسمة: «فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ».

هذا موسى و معه آيات و سلطان مبين، و هؤلاء «فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ» و معهم شهوات و حيونات و سلطان مهين، لا يملكون حجة و جاه موسى إلّا داحضة «فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ» سنة دائبة في قرية جاهلة خائبة.

فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (25).

لقد كان فرعون قبل «أن جاءهم الحق» «يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ» (28: 4) لكيلا يظهر بينهم موسى، أما الآن و قد ظهر بخارقة إلهية و جاءه بآيات و سلطان مبين و آمن معه من آمن، فلما ذا يجدد مع هامان و قارون قتل الأبناء و استحياء النساء، دون أن يأمروا بقتل الجميع، أم يأمروا كما أمر بعد ردح بقتل موسى لكي يجتث جذور الرسالة؟.

علّه لأنهم لم يسطعوا على قتلهم جميعا و قد تحزبوا بمن معهم من السحرة المؤمنين و في‏ «آمَنُوا مَعَهُ» بدل «آمنوا به» لمحة لامعة بذلك التحزب، فإن في معية الإيمان تناصرا في أصله، فتعاضلا في فصله، و بأحرى لم يسطع على قتل موسى كما تلمح له «ذروني» و في قتل أبنائهم و استحياء نسائهم منعة صارّة عن تداومهم في إيمانهم، و صدّ عن بقاء الإيمان بهذه الرسالة، حيث الناشئة المتربية في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 432

حجر الإيمان تحمله كأقواه إلى الأنسال الآتية، و لماذا أبناءهم دون بناتهم لأنهن لسن ليحملن الإيمان بعد قتل الأبناء تخوفا، و في بقائهن مآرب لهم:

«وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ» من الحياة إبقاء لهن خادمات لهم، و من الحياء سلبا له منهن متعا جنسية «1» «وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» لمن آمن حتى يرجعوا كفارا، و للنساء حتى لا يؤمنّ و لا يؤمّنّ رجالهن في إيمانهم، و قد فعل فرعون هذه الفعلة و كاد هذه الكيدة «وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ» تلمح أنه ما نفّذ أمرهم كما أمروا، أم لم يهدهم إلى مرادهم كما قرروا، فأصبح كيدهم في ضلال، و خاب سعيهم على أية حال، فإنهم‏ «آمَنُوا مَعَهُ» فتحول فرعون إلى استئصال محور الإيمان و منبعه:

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى‏ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (26).

هنا يتفرد فرعون- الطاغية: رأس الزاوية- برأيه الخاص: «ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى‏» و هو بين من لا يرتإي رأيه كما يلمح من «ذروني» و بين من يرتإيه‏ «أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ» فقتل الأبناء و استحياء النساء كمتفق عليه حيث‏ «قالُوا اقْتُلُوا» و قتل موسى مختلف فيه «ذروني» و «قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ» (26: 36) و ذلك قبل إيمان السحرة، فأحرى بمنعهم بعد إيمانهم حيث الإرجاء هادف تبيّن أمره و قد تبين، فقويت المعارضة في قتله.

و قد يختلف منعه قبل الحشر و بعده، فقبل تبيّن أمره لا ينهي قتله مشاكله أو يزيدها، إذ قد يوحي للجماهير بتقديسه و الحماس له برسالته، و بعده إذ آمن به جماهير، و يتحذر الآخرون أن يستفحل أمره بقتله و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و على الثاني الاستفعال هنا للسلب كما في موارد عدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 433

آمن به السحرة، فقتله إذا يزيد في حياته، و على أية حال‏

«منعته رشدته» «1»

سياسيا أو مذهبيا.

و احتمال آخر في «ذروني» أن لم يكن هناك من يمنعه إلا تأجيلا ليتضح أمره، فإنما كان يخاف من قتله بما رأى من آيات صدقه، و من عدم قتله انه يفشّله في قومه كيف لا يسطع على سلطته أن يقتل موسى، فجمع بين الأمرين في قولته الماكرة «ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى‏» حتى لا يقال إنه ما تجرأ على قتله، و إنما منعه مانع، و ردعه رادع من أهل نصحه و حاشيته! و قد يلمح تلاحق «اقتلوا و ذروني» أن فرعون كان يرى قتل موسى و الذين آمنوا معه جميعا، فتكا بالرسول و المؤمنين استئصالا لجذور هذه الرسالة، و استهزاء بربه‏ «وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ» فإن كان ربه قويا فلينجه في ذلك الصراع، و لماذا «أَقْتُلْ مُوسى‏» لأنه يسعى في الأرض فسادا ف‏ «إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ» إلى دينه و هو أصل الفساد «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ» تشكيكا في دينكم، و اختلافا بينكم و تخلفا فيكم.

و من الطريف جدا حجة فرعون في ذلك التصميم الفاتك، و هو مكرور عبر الأجيال المتفرعنة أمام المصلحين على توالي الزمان و مختلف المكان، أن يظهر الباطل الكالح في مظهر الحق الصالح، و يظهر الحق في مظهر المفسد الطالح، ليستجيش مشاعر الشعب المستضعفين ضد الداعية المصلحة، المطالبة بحقهم من المستكبرين ترى بماذا يواجه موسى هذه الطاغية؟ إنه يواجه شعبه المحطمين المستغفلين بكلمة الحكمة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 518 في كتاب علل الشرايع باسناده الى إسماعيل بن منصور أبي زياد عن رجل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول فرعون: ذروني اقتل موسى «ما كان يمنعه»؟ قال: منعته رشدته، و لا يقتل الأنبياء و لا أولاد الأنبياء الا أولاد الزنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 434

وَ قالَ مُوسى‏ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (27) يستبدل قولة فرعون‏ «وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ» ب‏ «إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ» لكيلا يخيّل إليهم أن ربه غير ربهم بل هو واحد لا شريك له رغم مزاعم المشركين، و لكي يعطف بهم إلى العوذ بربهم ممن عاذ به موسى ثم يعمم الاستعاذة «مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ» حيث لا تختص من فرعون، و هناك فراعنة عدة! و درجا لفرعون إدراج سائر المتكبرين دون أن يحسب له حسابه الخاص، تذليلا لسطوته، و كسرا لنخوته، يظهر كأنه لم يسمع قولته، و لم يأهله للمخاطبة، و لا التحدث عنه بشخصه أمام الشعب، و ما ألطفه حجاجا صارما أمام الفرعنة الجبارة، و ما أعطفه للشعوب المستضعفة!. ف‏ «كُلِّ مُتَكَبِّرٍ» لبس رداء الكبرياء من دون حق، و يزيده كبرياء و عتوا أنه‏ «لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ» أنه لا حساب في قولته و فعلته، فهو يعيش الفوضى اللّاحساب، على حساب الكبرياء و الجبروت.

ثم المضيّ في «عذت» مؤكدا بالتأكيد الخاص «إني» مما يطمئنهم أن ربه و ربهم يعيذه من كل طاغية، كما أعاذه منذ ولادته، ثم ترعرعه في حجر فرعون، ثم قيامه برسالته، فذلك منه- إذا- ملحمة غيبية تعدّ في عداد آياته البينات و كما قال اللّه‏ «وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ» و لحد الآن نرى غلبه على فرعون دون أن يصل إليه، حتى أصبح ملأ فرعون يمنعونه عن قتله و هم تحت سلطته و جبروته! فيا لداعية الحق من سلطان لا يغلب أمام فرعون الطاغية، و هو صفر اليد عن كل عدّة مادية و عدّة، و لا يملك إلّا عوذة باللّه أن ينصره على عدوه كما وعده‏ «أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 435

و لقد جرأ موسى بحجته الصراح مؤمنا يكتم إيمانه حتى أبرزه مناصرا صارما لموسى الرسول (عليه السلام):

وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28).

هذا الرجل نعم الرجل كل الرجل، و قد يحق له أن تسمّى السورة به «المؤمن» إذ أصبح ركن الدعوة المناصرة للرسالة الموسوية، حيث انتدب في هذه المعركة الصاخبة الدموية، انتدب يدفع عن موسى و يحاج فرعون و ملأه بحجج ناصحة ناصعة، سالكا فيه مسالك و معرّضا نفسه لمهالك.

«وَ قالَ رَجُلٌ» لا يسمّيه حيث الأصل في تبنّي الشخصيات هو الرجولات بسماتها و بصماتها دون الأسماء، فسواء أ كان الرجل نبيا «1» أم سواه، قبطيا «2» أم سواه، فالمحور الرئيسي هنا رجولته بإيمانه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 519 ح 42 في امالي الصدوق باسناده الى عبد الرحمن بن أبي ليلى رفعه قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال‏ «اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ...» و حزقيل مؤمن آل فرعون و علي بن أبي طالب (عليه السلام) و هو أفضلهم.

أقول: حزقيل كان نبيا إسرائيليا فلم يكن من آل فرعون، و لو كان هذا الرجل نبيا أيا كان لكان مذكورا بسمة النبوة فإنها أعلى درجات الإيمان، و النبي لا يكتم إيمانه إذ لا تقية للأنبياء، ثم حزقيل ولد بعد موسى بقرون، فمن المستحيل إذا كونه‏ «رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ»!

(2)

المصدر ح 40 في عيون الاخبار في باب ذكر مجلس الرضا (عليه السلام) مع المأمون في الفرق بين العترة و الامة و فيه‏ قالت العلماء فأخبرنا هل فسر اللّه الاصطفاء في الكتاب؟

فقال الرضا (عليه السلام) فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موطنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 436

مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ‏ أ تراه إسرائيليا يكتم إيمانه من آل فرعون؟ و صحيح التعبير عنه «يكتم إيمانه من آل فرعون»! فقد كان من آل فرعون و قومه و كما يخاطبهم «يا قوم» و كان‏ «مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ» دون آل موسى، فالمعنيان معنيّان: «رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ» حتى رأى ضرورة التقية المعاكسة أن حفظ الإيمان تناصرا للرسول برسالته أوجب من حفظ النفس، و قد كان حفظ نفسه أوجب من إظهار إيمانه حين لم يكن بهذه المثابة، فلكل حال مقال، و لكل مقال حال‏ «1».

«قال» مستنكرا تصميمهم‏ «أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا» لا لشي‏ء إلّا «أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ» و أنتم لا تنكرون اللّه مهما كنتم به مشركين، فقد يعترف بربوبيّة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و موضعا ... و اما الحادي عشر فقول اللّه عز و جل في سورة المؤمن حكاية عن قول رجل من آل فرعون‏ «وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ ...» فكان ابن خال فرعون فنسبه الى فرعون بنسبه و لم يضفه اليه بدينه و كذلك خصصنا نحن إذ كنا من آل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بولادتنا منه و عممنا الناس بالدين فهذه فرق بين الآل و الامة فهذه الحادية عشرة

، و

في تفسير البرهان 4: 95 ح 1 القمي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال‏ كان خازن فرعون مؤمنا بموسى قد كتم ايمانه ستمائة سنة و هو الذي قال اللّه: «وَ قالَ رَجُلٌ ...».

(1).

المصدر ح 38 في بصائر الدرجات عن أبي جعفر (عليه السلام) قال له رجل ان الحسن البصري يروى ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: من كتم علما جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار؟ فقال: كذب ويحه فأين قول اللّه تعالى: «وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ» ثم مد بها صوته فقال: فليذهبوا حيث شاءوا اما و اللّه لا يجدون العلم الا هاهنا ثم سكت ثم قال: عند آل محمد، و في المجمع عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) التقية من ديني و دين آبائي و لا دين لمن لا تقية له و التقية ترس اللّه في الأرض لان مؤمن آل فرعون لو اظهر الإسلام لقتل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 437

الإله الأصل الذي يصدقه كل المتألهين، ثم لا يفتري عليه بشركاء، «يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ» على قوله‏ «بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ» فإن ربه هو ربكم مهما أشركتم به ما لم يشركه هو، فقوله يوافقكم في أصل الربوبية، و توافقه الفطرة و قد جاءكم بالبينات، فكيف تقتلونه، و ما له من ذنب إلا مقالة حق ثابتة بالبينات! و ما

يروى عن الإمام علي (عليه السلام) أن أبا بكر أشجع الناس و أفضل من مؤمن آل فرعون‏ «1»

تخالف كتاب اللّه، فآية الشراء تفضّل عليا على الإطلاق: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ» (2: 207) و هذه الآية تمدح مؤمن آل فرعون على كتمان إيمانه من قبل تقية و على إبرازه هنا تقية معاكسة للحفاظ على أهمّ من نفسه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

«الدر المنثور 5: 350- اخرج البزاز و ابو نعيم في فضائل الصحابة عن علي (عليه السلام) قال: ايها الناس اخبروني بأشجع الناس قالوا أنت؟ قال: لا قالوا: فمن؟ قال ابو بكر، لقد رأيت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أخذته قريش هذا يحثه و هذا يبلبله و هم يقولون أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحدا قال فو اللّه ما دنا منا أحد الا ابو بكر يضرب هذا و يجاهد هذا و هو يقول ويلكم أ تقتلون رجلا ان يقول ربي اللّه ثم رفع علي (عليه السلام) بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم باللّه أ مؤمن آل فرعون خير ام ابو بكر خير من مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه و هذا رجل أعلن ايمانه».

أقول: لا تخفى المواقف البطولية الأفضل و الأحرج من هذا بكثير لعلي (عليه السلام) ثم لعبد المطلب و أبي طالب و غيرهم في مناصرة النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و آية الشراء تكفي تكذيبا لهذه الرواية، و كفاها كذبا ذيلها «و هذا رجل أعلن إيمانه» أ فمؤمن آل فرعون لم يعلن إيمانه حين قال‏ «أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ» فليكن مثل أبي بكر، بل أفضل منه حيث الفرعنة الجبارة في عهده اخطر من المشركين زمن الرسول، ثم‏ «يَكْتُمُ إِيمانَهُ» كان تقية منه قبل هذا الموقف و كانت لزاما عليه حفاظا على نفسه، فلما انعكست التقية أبرز إيمانه مناصرا لموسى في موقف أحرج من موقف أبي بكر إن صدق حديثه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 438

ثم و على أسوء الاحتمالات- لو شككتم في أمره رغم بيناته- «وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ» فقط «كَذِبُهُ» لا و عليكم‏ «وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ» لأقل تقدير «بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ».

أ ترى مدعي النبوة يجب أو يجوز تصديقه و لا يصلح قتله أو تكذيبه لأنه‏ «إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ» و الكذب في هذه الدعوة ينال المصدقين و يضلّهم عن السبيل أكثر من الداعية، بل و له حظوته من الرئاسة الباطلة، و عليهم شقوتهم تحت نير الضلالة، ثم و على هذا الأساس لا يجوز تكذيب مدعي الرسالة حين لم يثبت صدقه و لا كذبه؟

كلا! حيث المورد هنا قطعي الصدق بيناته‏ «وَ إِنْ يَكُ كاذِباً» تنازل في احتمال في فرض المحال، فالكذب هنا ليس في دعوى النبوة، بل هو في توحيد الإله و أهوال القيامة، فإن يكن الداعية كاذبا في أنباء من النبوة و هو صادق في نبوته ببيناته، فكان للّه شريك، و لم يكن هنالك حساب يوم القيامة، فلا يضركم بقاءه في دعواه، و لا تصديقه، فإنما هو لا سواه يحمل عب‏ء كذبه، فلا عليكم قتله فإنّ‏ «فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ» حيث يفضحه ربه:

«وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» (69: 46)! و موردها محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بعد ثبوت نبوته.

«وَ إِنْ يَكُ صادِقاً» حيث يجوز- لأقل تقدير- صدقه، تنازلا عن واجب صدقه‏ «يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» في الأولى و الآخرة، فطريقة الاحتياط- إذا- ألّا يقتل و لا يكذّب فإنّ في تصديقه نفعا بلا ضرر إلّا عليه‏ «إِنْ يَكُ كاذِباً»! و بهذه الحجة الباهرة يحتج الإمام الرضا (عليه السلام) على الزنديق الناكر للحساب، إذا لم يكن حساب فنحن و إياكم شرع سواء، لم يضرنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 439

ما عبدنا، و ان كان هناك حساب فنحن الناجون و أنتم الهالكون، و هذه حجة أخيرة على من لا يصدق البينات.

ثم المشكوك في دعوى النبوة- إذا لا يملك حجة على صدقه و أنت لا تملك حجة على كذبه- لم يصح تكذيبه و الفتك به إلّا في أصل النبوة إذ لا تصدّق إلّا ببيناتها، و قد ملكها موسى بتسع آيات، و أما فيما يخبر به من أخطار مترقبة فالحائطة العقلية تقتضي ترتيب آثار صدقه، و هكذا تكون أنباء الأنبياء إنذارا عما يعدون.

فكيف يجوز قتل موسى الرسول‏ «أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ» ثم كيف يجوز قتله‏ «وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ»- و من ثم ف‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» سواء أ كان مدعي النبوة و أنباءها الغيبة ف‏ «لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» أم مكذب النبوة على بيناتها الصادقة ف «إن أخذ ربك لشديد»! و من طريف هذا الحجاج تقديم احتمال الكذب للنبي سدا لعجالة التكذيب إن قدّم احتمال الصدق، و كما يقدّم الترديد لداعية الحق‏ «إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى‏ هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» دون «أنتم أو نحن ...» و هذا منتهى النصفة في الحجاج أن يقدم المحاور لنفسه أسوء الاحتمالات ثم يردها بلطف دون عنف.

و هذا منتهى المطاف في حجاج النبوات لمن لا يصدق أيّة بينات، أننا نفرض- على استحالة- كذب صادق النبوة فيما يعد للأخرى، و حتى مع التغامض عن نبوته، فقضية الاحتياط- إذا- ألّا يكذّب فضلا عن قتله، حجة يقبلها كل ذي مسكة و حتى ذي جنة، و لكن حماقى الطغيان ليسوا ليصدقوا أية حجة «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 440

يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى‏ وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ (29).

خير حجاج من مؤمن آل فرعون وجاه شر لجاج من فرعون، يقول الداعية «يا قَوْمِ ...» كحجاج ثالث لا مردّ له لنصرة الحق‏ «لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» لأطول الزمن و على أية حال‏ «ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ» غالبين فيها مستعبدين، هذا يومكم ردح الامتحان‏ «فَمَنْ يَنْصُرُنا» أنا و إياكم سواء «مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا» في يوم اللّه؟ «وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» فهل ينصركم ملككم اليوم و لا يأتي يومئذ إلّا بأسا على بأس حيث ارتكن على بؤس! و يقول الطاغية كلمتيه اللّاغيتين دون أن تحملا أية حجة إلّا لجاج استكبار، إنني حق و فوق الحق، فما أراه هو الحق لا سواه‏ «ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى‏» دون ما يراه غيري أو تراه حجة و برهنة و إنما «ما أَرى‏» ليس إلّا ف «إني أنا ربكم الأعلى»! حيث‏ «أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ» فالرأي الحاسم الرشيد هو قتله سدا عن تغيير الدين و صدا عن الفساد.

إن الفرعنة الطاغية بأية صورة و على أية حال، تحاول و لا تزال أن تحمل الشعوب على ما تراه، فلا تسمح لأحد سواه في رأي سواه، و لا مصدرا و وليا في أمر إلّا إياه، و اللّه الذي خلق السماوات و الأرض يتبنّى أحكامه و أوامره على أوضح البراهين ما أمكن تفهّمه للعالمين، ثم‏ «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ»! داعية الحق يحمل الشعوب على التدبر و التفكير و انتخاب الأصلح ابتداء من نفسه، إن كان حقا ببيناته فاقبلوه و إن كان باطلا فارفضوه.

و داعية الباطل الطاغية «ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى‏» و لا حق لأحد أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 441

يفكر فيما يرى إذ «ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ» فكل ما يراه و يعمل هو هدى و رشاد، و كل ما يراه و يعمله غيره هو ضلالة و في غير سداد، لا يسمحون لأحد- أيا كان- أن يظن أنهم خاطئون، و لا أن يرتإي إلى جوار رأيهم رأيا! و هذا هو معنى الطاغوت أن يجمع بين طغواه على اللّه و على عباد اللّه! ذلك الاستبداد الأحمق باطل أينما كان، و فيمن لبس ملابس الايمان و ظهر بمظهر الإمام للمؤمنين، يستبد برأيه و يأخذ هو برهانه دون برهانه، سنادا إلى اجتهاده، سدا لباب العلم، و صدا عن اي حوار قد يخالفه فيما يرى، و هكذا استبداد طريق الجحيم.

لا يحق تأصيل الرأى و استئصال ما سواه من رأي، إلّا- أولا- للّه و برهانه معه، و كل قوله و فعله برهان، ثم لرسل اللّه صدورا عن اللّه، و من ثم للمعصومين من خلفائهم حيث يصدرون عنهم، و نراهم كيف يواجهون الشعوب بكل تواضع، و قد يظهرون أنفسهم معهم مظهر المشاورين، و ليوجهوهم إلى ما هم عليه من حق الوحي ببرهان لا قبل له.

نرى الداعية ينتقل إلى بيان مثال لبأس اللّه بعد أصل التحذير، دون أن يرد على شخص الطاغية كأنه عديم الوجود، و لأنه لم يأت ببرهان حتى يرد عليه:

وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31).

هناك‏ «إِنْ جاءَنا» يدخل نفسه فيما يجوز مجيئه، و هنا «أَخافُ عَلَيْكُمْ» حيث المؤمنون لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و لأنه أمر واقع لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 442

مردّ له عن الكافرين و ان المتقين في مقام أمين، و الأحزاب المتحزبة ضد الرسالات هم قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم من المكذبين، «إني أخاف عليكم مثل دأب» هم: عادتهم في تكذيبهم آيات اللّه، و عادتهم في جزائهم بما كذبوا «1» دأبا بدأب، «وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ» فانه جزاء وفاق ماله من فراق، و يا له من دأب يخاف عليهم أصبح فيهم ركنا يمثّل به سائر الدأب في تاريخ الكذابات: «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا» (3: 11): «كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ» (8: 54) كذبوا بآيات ربهم (8: 54)! و لماذا «مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ» واحدا لأنهم واحد بطبيعتهم و كيانهم، مهما كانوا أقواما حسب واقعهم و كونهم، فكما الكفر ملة واحدة فقومه كذلك واحد هو الذي يتجلى فيه بأس اللّه، و هذا من بأس يوم الأولى، و إلى تطرّق ليوم آخر من أيام اللّه و هو يوم التناد:

وَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33).

و ما ألطفه ترتيبا رتيبا لإنذارهم من‏ «بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا» و هو أقل تقديرا بأسا و احتمالا، ف «إن» تشكّك، و الدنيا تخفّف، و هو أقل الاحتمالات من «إن يك صادقا فعليه كذبه» ثم يوم الأحزاب و هو أوسط تقديرا محققا ثابتا للأحزاب، و من ثم اليوم الآخر يوم التناد!

«يوم ينادي أهل النار أهل الجنة» «2»

، كما نتنادى نحن و إياكم هنا و اين تناد من تناد:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدأب الأول اضافة المصدر الى الفاعل و في الثاني اضافته الى المفعول اي دأب اللّه إياهم.

(2)

نور الثقلين 4: 519 ح 44 في معاني الاخبار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: يوم التناد يوم ينادي اهل النار اهل الجنة: ان أفيضوا علينا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 443

«وَ نادى‏ أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ» (7: 50) و التناد بينهم و بين ربهم: «أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ» (41: 44) «يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ» (40: 10) «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ» (41: 47) «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» (28: 65) ثم محاجة و تناد بينهم‏ «إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ» فهم في مثلث من التناد، بعد إذ رفضوا هنا صالح التناد «وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ».

إنهم يتنادون قبل دخولهم الجحيم و بعده، عائشين هناك تصايحا و تناوحا لأصوات في زحام و خصام، يوليهم و يدبرهم خوفة و فرارا.

«يَوْمَ تُوَلُّونَ» عن شركائكم و عقائدكم و أعمالكم «مدبرين» عن ثالوثها فرأوا و لات حين فرار، مولّين مدبرين عما كنتم له متولين و إليه مقبلين‏ «ما لَكُمْ مِنَ» باس‏ «اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ» فانه المنتقم هناك لا سواه، و له الملك لا سواه، فانه الديان لا سواه‏ «وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ» إضلالا يوم الدنيا بعد ما ضلوا «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» و آخر يوم الآخر بعد ما ضلوا عن صراط الجنة، ضلالا عن ضلال، ينتهيان إلى ما ضلوا يوم الدنيا «وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ»! وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (34) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 444

جَبَّارٍ (35).

«يوسف» هذا هو المعروف المسماة به سورته، اللامعة ثورته، و هذه الآية هي الفريدة تدليلا على رسالته السامية قبل موسى و كأنه‏ «كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» «1» رفيع المنزلة في رسالته، يتلو تلو من دارت عليهم الرحى و علّها قريبة إلى موسى زمنا كما تلمح له‏ «لَقَدْ جاءَكُمْ» و قد عرفنا من سورته أنه بلغ في ثورته مبلغ الملك أم كبير وزراءه، و على أية حال حصل على مكانة عظيمة في مصر حد كان له عرش‏ «وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» و هو- على جمعه بين السلطة الروحية و الزمنية- «فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ» و معه بيناته في سلطتيه، و استمر التشكّك‏ «مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ» مات عن رسالته على حالته‏ «قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» استراحة لموتته و ارتياحة لهلكته، فانطلاقة عن الشك في رسالته إلى تاكّد من انقطاع الرسالة: «قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» ف «لن» هذه كانت كامنة في قلوبكم متحولة إلى شك لردح السلطة الكائنة، ثم تحولت إلى ما كانت، فأنتم أولاء الحماقى الصّلتين الصّلدين في الكفر و «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ» يرتاب في البينات و يسرف في ارتياب، و من خلفياته أن يضله اللّه ختما على قلبه.

«الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ» إبطالا لها و إخمادا لنائرتها «بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ» أيا كان و أيان «كبر» ذلك الجدال الإبطال‏ «مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ» لبينات آياته حين تكذّب بغير سلطان‏ «وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا» حين تكذّب على علمهم و بمحضرهم‏ «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» فلا فسحة لقلبه و لا مجال لنور المعرفة و لا شطرا قليلا ليصبح منفذا لرؤية الحق حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

«المصدر ح 45 المجمع عن كتاب النبوة بالإسناد عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ قلت: فكان يوسف رسولا نبينا؟ قال: نعم أما تسمع قول اللّه عز و جل: لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 445

الطبع‏ «عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» طبعا شاملا لا يبقي على أثر، و سدا كاملا لا يرجى معه أي مفر، فوا ويلاه إذا ختم اللّه على كلّ القلب و لات حين مناص و لا منفذ لخلاص! و هذه الآية اليتيمة بين آيات الختم، حيث تعممه على كل القلب، و لأنه في أسفل دركات الكفر و النكران من الإنس و الجان! فالقلوب ثلاثة، قلوب طامة بالنور، تامة في كمال النور، فكلها نور دون ظلام فهي في أفضل الدرجات، و قلوب مختومة بظلمة لا مجال فيها لنور، فهي في أسفل الدركات، و قلوب هي عوان بين ذلك مهما اختلفت درجاتها بين مؤمن و من يفتش عن إيمان.

أ ترى فرعون الطاغية يغيّر رأيه بعد هذه الجولة الضخمة التي تأخذ بأزمة القلوب غير المختومة؟ كلّا! و لكنه لا يرى بدا من ردة فعل غير التي أبداها لحدّ الآن، و لكي يغتر المتأثرون بدعوة الداعية، تظاهرا هو تظاهرة أمام المستضعفين بلون غير الذي كان حتى الآن أمام الداعية:

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (36). أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ (37).

الصرح هو العرش فقد يكون للجلوس عليه ك‏ «صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ» (27: 44) و أخرى للصعود عليه تطلّعا إلى عال و كما يطلبه فرعون من هامان، و هو برج عال كأعلى ما يمكن، خروجا عن الأسباب الأرضية إلى أسباب سماوية، فكما في الأرض مركبات موصلة إلى أخرى هي أسباب للتنقلات الأرضية، كذلك للسماء، فهنا صرح يطّلع عليه على أسباب السماوات، ثم الركوب على مركبة سماوية، اطلاعا على ما فيها من كائنات كامنة! و لا يمكن الارتقاء في الأسباب إلّا لمن يملكها علما و اقتدارا و كما يتحداه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 446

القرآن: «أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ» (38: 10) أسبابا يقصر عنها العلم مهما جال جولته في السماوات و الأرض، فهي إذا اسباب خارقة للعادة، خفية إلّا لمن أطلعه اللّه، و كما أوتي ذو القرنين من كل شي‏ء سببا «فَأَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ‏ ... ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ‏ ... ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ...» (18: 85- 92) ... مهما كانت لنا أسباب تعمنا أم تخص الخصوص من علماء الأسباب روحيا و ماديا «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ» (2:) 166).

فالعالم بأسره يعيش مثلث الأسباب و إن كان لكلّ أهل، و لقد تسمّع فرعون أن هناك أسبابا لارتقاء السماوات و اشتهى أن يبلغ الأسباب‏ «لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ» و قد خيّل إليه أنه ربّ الأرض و بيده أسبابها: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» ثم لم يجد في الأرض إله موسى فيبني صرحا يطلعه ليبلغ أسباب السماوات فيطلّع إلى إله موسى، كأنه كائن في السماء.

و قيلة القائل إن اللّه في السماء، فما كان يعرف فرعون مكانة إله موسى و لا مكانه إلّا تعريفا من موسى فأخذ يطّلع إلى إله موسى في السماء؟ إنها قولة زائفة تزيفها تصاريح موسى حول الإله: «قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ. قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ. قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» (26:) 29).

فهذه سخافة الرأي من فرعون أن لو كان لموسى إله فلا بد أنه في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 447

السماء، إذ لا أرى في الأرض من إله غيري ف‏ «لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً» أن له إلها.

و هكذا يموّه الطاغية فيداور و يحاور علّه يجد مفرا من لجّة الحجة، و لكيلا يواجه الحق جهرة و صراحا، و لا يعترف بوجوده فضلا عن وحدانيته التي تهز عرشه و جبروته، فليس فرعون بالذي يفتش عن إله موسى، و على هذا الوجه المادي الساخر، اللهم إلّا استخفافا و استهتارا من ناحية، و تظاهرا بالاطلاع إليه بأسباب السماوات من أخرى، فلذلك يخرف و يهرف فيما يحرّف و يحرف، تطرقا بالمحال «أبلغ أسباب السماوات» و إلى محال آكد «فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏» و من ذا الذي يتساءله في تطلّعه و تضلّعه و اطلاعه إلى ماذا؟ حيث الجواب سوف يكون: لم أطلع إليه، أم لم يكن فيما اطلعت، «وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ» موسى «كاذبا» أن له إلها غيري، أم وجدت في السماء من يدعي أنه إله موسى‏ «وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ» إله موسى «كاذبا» فتنتهي الحوار في كيده إلى ميده‏ «وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ» أن زينه الشيطان و علّه أصبح أشطن من الشيطان! «وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ» بما صدّها عن نفسه فانسدت عليه‏ «وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ» فقد كاد كيده كلّه في الأرض و إلى السماء و لكي يدحض حجة الحق، و لكنه أصبح في تباب بعد ما آمن السحرة كلهم أجمعون، و أغرق فرعون بجنوده أجمعين، غرقا بكيده مرتين و «ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ»! وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38).

هنا- و قد بلغ من كيد فرعون التوصل إلى اسباب السماوات- يستمر الذي آمن بحجته، كأن لم يتكلم فرعون بشي‏ء، استخفافا به و لأنه لا جواب لهرائه، فإنما يعاكس قولة فرعون من قبل‏ «وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 448

الرَّشادِ» بقوله‏ «يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ» و اين رشاد من رشاد؟ هكذا يتحداه بكلمة الحق دون ان يهاب سلطانه و المتآمرين معه.

يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (40).

«إنما» تحصر «هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا» بأنها «متاع» متاع المتعة الفانية، و متاع التجارة الباقية «1» «وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ» فخذوا من ممركم لمقركم، و من المتعة الفانية تجارة باقية لن تبور.

يبرهن هكذا مرشدا لهم بعد ما أثبت لهم بما أثبت وحدانية اللّه و حقانية اليوم الآخر، حيث النصيحة دون برهان لا تفيد الناكر.

و من عدل اللّه تعالى يوم الحساب‏ «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها» فإنها هي بملكوتها دون زيادة أو نقيصة، اللهم إلّا بتوبة أو شفاعة أمّاهيه، و قضية المماثلة بين السيئة و جزائها أنه محدود كما هي فهو متناه كما هي متناهية! «وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً» أيا كان‏ «مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏» دون فارق بينهما إلّا بصالح العمل، «وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» حيث الإيمان ركن لصلاح العمل فهو دونه حابط «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» (5: 5) و إذا كان جزاء السيئة بحساب فثواب الحسنة بغير حساب، مهما كان لكل حسنة حساب في‏ «بِغَيْرِ حِسابٍ» حيث الجنة من فضل اللّه و رحمته‏ «2» و النار من عدل اللّه و نقمته.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 351- اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان الحياة الدنيا متاع و ليس من متاعها شي‏ء خيرا من المرأة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرتك و إذا غبت عنها حفظتك في نفسها و مالك.

(2)

نور الثقلين 4: 520 ح 48 في كتاب التوحيد حديث طويل عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 449

و هذا هو سبيل الرشاد ايمانا و عملا و عقيدة في صيغة موجزة سائغة لائقة بالداعية، تعريفا بالدارين، و صورة جامعة من خلفيّة الأولى للأخرى.

وَ يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42).

و لماذا «ما لي» و ليس العجاب إلّا مما لهم من دعوة زائفة؟ لأن «ما لهم» واضح وضح الشمس أنهم عاشوا هوامش الضلالة، مرتزقين و في الإضلال، فليوجّه السؤال إلى نفسه «ما لي» استحضارا لحاله و ما له من بيئة، فهل فيه ضلال كامن يدفعهم لدعوته إلى النار؟ و هو معلن بالحق في أشد الأخطار! فلا مطمع إذا و لا مطمح في دعوته إلى النار، فليس إلّا أنهم هم الضالون إلى ذلك الحد العجاب، انهم يدعون داعية الحق إلى الباطل فإلى نار، و هذه الحالة البئيسة هي من خلفيات الطبع‏ «عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» ألّا يحصر ضلاله في نفسه، بل و يضل من يضل و يحاول في إضلال من لا يضل فهو في ثالوث الضلال المنحوس! و كيف‏ «أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» و يعلم الذي آمن ألّا شريك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

امير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيه‏ و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات و اما قوله عز و جل‏ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ‏ قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال اللّه عز و جل: لقد حقت كرامتي- او قال-: مودتي لمن يراقبني و يتحاب بجلالي ان وجوههم يوم القيامة من نور على منابر من نور عليهم ثياب خضر قيل من هم يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: قوم ليسوا أنبياء و لا شهداء و لكنهم تحابوا بجلال اللّه و يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب نسأل اللّه ان يجعلنا منهم برحمته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 450

له؟ و هو مجاراة مع المشركين أنني و إياكم لا نعلم- لأقل تقدير- أن للّه شريكا، حيث الآيات آفاقية و أنفسية ليست لتدل له على شريك، و لا أنه أوحى إلى نبي من أنبيائه أن له شريكا، و اتبّاع غير العلم محظور في كافة الحقول لدى أصحاب العقول، و أنا أدعوكم إلى ما تقتضيه العقول، و أنتم تدعونني إلى ما ترفضه العقول، أنتم تدعونني‏ «لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ» به و بتوحيده‏ «وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ» و أين دعوة من دعوة! لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) «لا جرم»: لا بدّ حقا دون ريب‏ «أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» من طواغيت و أوثان‏ «لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ» أ ترى كيف لا دعوة للطاغية في الدنيا و قد وصلت لحد تدعوا دعاته الذي آمن و هو في قمة الإيمان، و الدعوات و الدعايات الطائلة المزخرفة للطغاة تملك من كل وسائل الإعلان ما لا تملكه دعاة الحق، مهما لا يملكون دعوة في الآخرة.

علّ «دعوة» تعم دعوة منه كهذه و لا تحسب بحساب إذ لا تملك أية برهنة، فليست هي حقا بدعوة ف‏ «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ...» (13: 14) لا سواه.

ثم دعوة من أنبياء، و لم يعهد دعوة من صاحب رسالة ببيناته لطاغوت أو وثن، بل و هم مجمعون على توحيده‏ «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» (21: 25).

فهم- إذا- آلهة دون رسل داعية! و من ثم‏ «لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ» تستجاب أن تنفّذ أوامرهم كما اللّه، إذ لا يملكون في الكون تغييرا و لا تحويرا في كلمة نافذة «أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» و أخيرا لا يقدرون على إجابة دعوة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 451

«إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ» (35:) 14) «وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْ‏ءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ» (13:) 14).

ففي مربع الدعوة لا تجد لهم ضلعا ضليعا ألّا ضئيلا من دعوة باطلة لا تملك أي برهان، فليست هي أيضا بدعوة، فهل تجد إلها دون دعوة في الدنيا و هي تجواله، و بأحرى‏ «وَ لا فِي الْآخِرَةِ» فالملك يومئذ للّه و لا يتكلمون إلّا من اذن له الرحمن و قال صوابا، «وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ» دون الآلهة التي ليس لها دعوة «وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ» في نكران الحق‏ «هُمْ أَصْحابُ النَّارِ» لا سواهم مهما دخلوا النار بكبيرة موبقة ثم يخرجون، فأصحاب النار هم الآبدون في النار.

و هذه جولة أخيرة في حجاج الذي آمن وجاه اللجاج العارم من آل فرعون فأصبحوا في ارتجاج، و لا سيما في ختامها حيث يخبرهم عن مستقبلهم أسفا على ماضيهم و حالهم و لات حين مناص:

فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44).

لم يبق عليّ بعد هذه الحوار من شي‏ء «فَسَتَذْكُرُونَ» هنا و في الأخرى‏ «ما أَقُولُ لَكُمْ» و لا تنفعكم الذكرى‏ «وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي» في مكرهم عليّ‏ «إِلَى اللَّهِ» فلا قوه إلّا باللّه‏ «إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» بصير بمن يدعو إليه ما أمكنه لحدّ الخطر على نفسه و نفيسه، و بصير بمن يصر في إنكار و استكبار، فلا بد و أن ينصره عليهم و كما فعل، فقد كان هناك تخاوف، إخافة من آل فرعون و إجابة عنها ب‏ «فَسَتَذْكُرُونَ‏ ... وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 452

و ترى ما هو الأمر الذي يفوّض إلى اللّه، و لا تحمله إلّا هذه الآية في سائر القرآن؟

«أمري» لا تعني كلّ أمر، فإنما هو أمر الحياة في خطورتها عقيب هذه الدعوة الصارمة و ليس بيده، و أمر الدعوة حيث بلغت إلى آخر المطاف فلا حول له و لا قوة إلّا كما فعل، فليس هو أمر التكليف أن ينسحب المكلف عن أمره و هو في استطاعته فيفوضه إلى اللّه، و لا الأمر الذي ليس منه و لا إليه مما يختص باللّه فإنه كله للّه ليس لأحد فيه أمر سواه، إذا فهو امر بين أمرين، أن يواصل في تحقيق ما حمّل كما يستطيع، و يفوض أمره إلى اللّه فيما لا يستطيع، اقتساما لأمره بين أمرين، مهما كان متوكلا عليه في كلا الأمرين، فليس التفويض- و هو الرد- إلّا بعد تقويض، دون الأمور المستطاعة المحولة إليك، و لا غير المستطاعة المستحيلة عليك، فلا رد فيهما إلى اللّه، إلّا فيما لا قوة فيه إلّا باللّه و قد حول إليك.

«أُفَوِّضُ أَمْرِي» هذا «إلى الله» لا سواه و لا فوضى جزاف ف‏ «إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» حيث يأمرهم بما لا يستطيعون إنهاءه و إكماله، فأنا قد عملت بواجبي كما أمرت، ثم اللّه يكفيه فانه الكافي لا كافي سواه.

فقد يريد اللّه أن أقتل دون دعوتي و لكي أفوز أنا و تفوز دعوتي، كما قتل الكثير من دعاة الحق دون دعوتهم إلى الحق، أم يريد الإبقاء عليّ تعجيزا لعدوي، أم و إفناء عدوي بعدي و هم ينظرون، و أنا فائز على أية حال ما لم يمسوا من كرامتي إضلالا لي أو انتقاصا من إيماني.

إذا فليس كل من يفوض أمره إلى اللّه، في دعوته إلى اللّه، يضمن بقاءه فيها، و إنما المضمون- إذا- الحفاظ على إيمانه، و الإبقاء على دعوته مهما قضي عليه في شخصه و كثير ما هم، و هناك قلة قليلة كإبراهيم و يوسف و آل موسى و جاه آل فرعون:

«و المفوض أمره إلى الله في راحة الأبد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 453

و العيش الدائم الرغد، و المفوض حقا هو الفاني عن كل همة دون الله تعالى كما قال امير المؤمنين (عليه السلام): رضيت بما قسم الله لي، و فوضت أمري إلى خالقي كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي ...» «1»

«و المفوض لا يصبح إلا سالما من جميع الآفات و لا يمسي إلا معافا بدينه» «2».

فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (46).

ظاهر إطلاق الوقاية هنا خلاف الرواية «3» أنه قتل، حيث الحوق بآل فرعون هو غرقهم لمّا لاحقوا آل موسى، و التفويض الى اللّه وقاية لكل من مكر به في سبيل الحق‏ «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2)

مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: المفوض ... كذلك يحسن فيما بقي قال اللّه عز و جل في المؤمن من آل فرعون‏ «وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ» و التفويض خمسة أحرف (ت ف و ى ض) لكل حرف منها حكم فمن أتى بأحكامه فقد أتى به «التاء» من تركه التدبير في الدنيا و «الفاء» من فناء كل همة غير اللّه تعالى و «الواو» من وفاء العهد.

(3)

نور الثقلين 4: 521 ح 52 محاسن البرقي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه‏ «فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا» قال: اما لقد سطوا عليه و قتلوه و لكن أ تدرون ما وقاه وقاه ان يفتنوه في دينه‏ و رواه مثله في الكافي، و القمي: فقال ابو عبد اللّه (عليه السلام) و اللّه لقد قطعوه اربا اربا و لكن وقاه اللّه عز و جل ان يفتنوه عن دينه.

(4)

المصدر عن كتاب الخصال عن الصادق (عليه السلام) قال: عجبت لمن يفزع من اربع كيف لا يفزع الى اربع- الى قوله-: و عجبت لمن مكر به كيف لا يفزع الى قوله‏ «وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» فاني سمعت اللّه تعالى يقول بعقبها «فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 454

إن‏ «ما مَكَرُوا» تشمل‏ «أَقْتُلْ مُوسى‏» فضلا عمن معه، و إضلال الذين آمنوا معه، و من سيئاته قتله و إضلاله إذ خاض في حواره الصارم مع موسى بين الجماهير المحتشدة «فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا» تشمل من السيآت هذه و تلك- إذا- فما قتلوه رغم ما مكروا «وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ» بدلا أن يحيق به سيئات ما مكروا! و قد لا يكون قتله في سبيل دعوته من سيئات ما مكروا، فانه من حسناته في حساب اللّه حيث الشهادة في سبيل اللّه كرامة ما فوقها كرامة! و سوء العذاب هو العذاب السوء، و كل عذاب سوء، و لكنه كان سوء على سوء إذ غرقوا حينما ترائى الجمعان فأدخلوا نارا فور غرقهم و هذا من سوء العذاب.

«و حاق» نزل و أصاب‏ «بِآلِ فِرْعَوْنَ» فرعون و من معه‏ «سُوءُ الْعَذابِ» حرق بعد غرق، ف‏ «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» ترى أنه عرض دون دخول؟ و لماذا «غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» و لا رياحة في النار و لا تخفيف؟

العرض عبارة أخرى عن الدخول كحالة خاصة منه كما يعرض اللحم على النار لنضجه‏ «وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ» (46: 34) و قد يلمح أنهم متاع يعرض على النار و هي تشريهم كما شروها أنفسهم من قبل، فهم متاع النار، ثم‏ «غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» دليل أنها نار البرزخ، لا لأن القيامة ليس لها غدو و عشي، فإنما لاختصاص العذاب بهما، و رياحة بينهما، و لا راحة و لا مهلة لأهل النار الأخرى في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و تصديق الوعد و «الياء» اليأس من نفسك و اليقين من ربك و «الضاد» من الضمير الصافي للّه و الضرورة اليه ... أقول: و (3) الثانية ذيل الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 455

النار، و دليل ثان‏ «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ» فهذا- إذا- شديد العذاب، و من ثم أشده، و لأن الأشد هناك مطلق بين أهل النار- فهم- إذا- في الدرك الأسفل من النار ف‏ «أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» «وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ» (49) و تخفيفه بين كل غدوّ و عشي هو تخفيف العذاب أياما فوق يوم! «فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» (2: 86) «خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ» (2: 162) لا تخفيفا عن نفس العذاب و لا عن خلوده و لا عن فواصل بينه و إن كانت ساعة و أدنى و كله تخفيف للعذاب، و «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ» (4: 56) و كفت نار الخلد نضجا للجلود لآن مّا، فإذا نضجت غدوا ثم ظلت ناضجة دون تبديل إلى العشى نقض العموم المستغرق للأزمان في «كلما» ... إذا فهي نار البرزخ دون ريب إذ لا توافقها مواصفات نار الخلود.

و لو أن عرض الغدو و العشى هو في نار الآخرة إذا

«فهم من السعداء» «1»

و لولا أن عرضهم هو دخولهم فما تعني‏ «مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً» (71: 21) و هي نار البرزخ لغرقى نوح كما تلك ناره لغرقى موسى‏ «2»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 522 ح 56 القمي قال‏ رجل لأبي عبد اللّه (عليه السلام) ما تقول في قول اللّه عز و جل: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا فقال ابو عبد اللّه (عليه السلام) ما يقول الناس؟ فقال: يقولون انها في نار الخلد و هم لا يعذبون فيما بين ذلك فقال (عليه السلام): فهم من السعداء فقيل له جعلت فداك فكيف هذا؟ فقال: انما هذا في الدنيا فأما في نار الخلد فهو قوله‏ «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ».

(2)

المصدر ح 58 في الكافي باسناده عن محمد بن عثمان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 456

فهذه الآية- إذا- هي في عداد الآيات البرزخية، و هي مع آية نوح (21) تعذّب آل فرعون كآل نوح في نار البرزخ الكامنة في الماء، و كيف بالإمكان وجود نار في الماء تحرق؟ لأنها نار برزخية و هي في أعماق المواد الدنيوية كامنة، فكما أن البدن البرزخي يختلف عن الدنيوي، كذلك ناره و جنته، فهما كامنتان في مكامنهما من مواد دنيوية، يظهرهما اللّه لأهليهما في البرزخ دون أن تظهرا لأهل الدنيا إلّا لمن‏

«لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا».

فالبرزخ بناره و جنته عالم كامن في عالمنا، لا يراه إلا أهلوه، و كما النار كامنة في كافة الذرات لا يحرّرها إلا كاشفو الذرة لحدّ مّا، و نحن نعيشها في موادنا كلها، من ماء و ثلج أمّاذا؟

و هل إنّ‏ «غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» في البرزخ تعنيهما فيما نعيشهما هنا؟ أم فيه غدو و عشي كما يناسبه و كما في الحياة الأخرى: «جَنَّاتِ عَدْنٍ‏ ... وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» (19: 62) تقرر للأخرى غدوا و عشيا كما للأولى مهما اختلفتا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: سألته عن أرواح المشركين فقال: في النار يعذبون يقولون ربنا لا تقم لنا الساعة و لا تنجز لنا ما وعدتنا و لا تلحق آخرنا بأولنا و رواه مثله عنه (عليه السلام) عن أبي بصير.

أقول: لعل عرضهم على النار إدخال في نار البرزخ و عرض الاراءة من بعيد على نار الآخرة و كما

في الدر المنثور 5: 354 اخرج ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده من الغداة و العشي ان كان من اهل الجنة فمن اهل الجنة و ان كان من اهل النار فمن اهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك اللّه يوم القيامة، و زاد ابن مردويه‏ «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» ثم المقصود من الدنيا قبل القيامة حيث البرزخ في موازاة الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 457

إنهما للبرزخ ليسا قطعا ما للأخرى و لمّا تأت، فقد يكونان وفقا لما للأولى و هو الاولى، إذ لا شمس للبرزخ تخصه، اللهم الّا أن يعنيا طرفين لواحد الزمن في البرزخ حيث يختلف عما للأولى، اللهم إنا لا نعلم إلّا ما علمتنا، و ما هو هاهنا إلّا «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» أو أنهما ما يوافق الاولى في البرزخ حتى إن لم يكن فيه غدوّ و عشي.

[سورة غافر (40): الآيات 47 الى 60]

وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (47) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (48) وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (49) قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى‏ قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (50) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51)

يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى‏ وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (53) هُدىً وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57) وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى‏ وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لا الْمُسِي‏ءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (58) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59) وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 459

محاجة أهل النار عذاب فوق العذاب، إذ لا تبوء إلّا إلى تباب، حسرة على حسرة و بوارا فوق بوار في النار: «وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ» الضعفاء و الذين استكبروا «فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ» القاصرون عن تقصير، المقصرون في حياة التبعية حيث تناسوا استقلالهم، فاستغلّوا لمّا لم يستقلوا فعاشوا أرذل حياة و أعضله و هي حياة التبعية الهامشية للمستكبرين، فأصبحوا أداة لافتعالاتهم، آلات لتحقيق شهواتهم، دونما حظوة لهم أنفسهم إلّا قليلة متبقّية على هوامشهم، عبيد مرتزقة، في حياة العمالة الجهالة، و هم يحسبونهم معذورين حيث استضعفوا «فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ» كما أغنينا عنكم نصيبا من حياة العار و الدمار، نصيبا بنصيب و اللّه من ورائنا حسيب، فيسمعون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 460

الجواب الحاسم الجازم‏ «إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ» فلا حكم لسواه إذ لا حاكم هنا سواه؟ حاكم عدل في ذلك العدل.

و هل «يتحاجون» هنا يخص آل فرعون لسابقة حالهم؟ علّه نعم فإنهم المخصوصون بذكرهم، أو يعم سائر الكفار حيث المحاجة بين الضعفاء و الذين استكبروا و هم أعم من آل فرعون مهما كانوا أنحس مصاديقهم، فالمورد لا يخصّص حتى لو كانوا هم المورد؟ «وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ...» بعدها يؤيد العموم، و منطق الآية نفسها منطق العموم! فهي- إذا- محاجة بين ضعفاء التاريخ و مستكبريهم: «وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ» (14: 21).

و «الضعفاء» هنا لا تعني كل الضعفاء، و إنما المقصّرون في قصورهم و اتّباعهم، دون المستضعفين‏ «مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ...» (4: 98)

فضلا عن مستضعفي المؤمنين فإنهم ليسوا ضعفاء في ذوات أنفسهم و أفكارهم مهما استضعفوا في حركاتهم و سكناتهم و بظاهر حياتهم‏ «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ ...» (28: 5).

بل هم الضعفاء المستضعفون‏ «الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً» (4: 97).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 461

فما لم يكن ضعيفا في نفسه لا يستضعف في دينه، بل يتبلور إيمانه مهما استضعف إلّا الضعيف القاصر غير المقصر.

إن الضعفاء المقصرين تنازلوا عن كرامات اللّه و تغافلوا عن كرامة الإنسانية المستقلة الحرة المختارة، و انساقوا انسياق الشياة وراء المستكبرين و الطغاة، و لم يسمحوا لأنفسهم أن يقولوا «لا» اللّهم إلّا بلى في كل بلاء لعناء أوردوهم فيها، و لا سمحوا أن يفكروا في هذه الحياة الرذيلة الهزيلة، زاعمين أن المستكبرين يغنون عنهم في الأخرى كما أغنوا- فيما خيّل إليهم- في الأولى، فجاء الجواب حاسما لأوهامهم‏ «إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ» «لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ» لا محين إلى استحالة في هدى اللّه إذ لم يكونوا من أهلها، و لكن أضلنا اللّه فأضللناكم!.

و في محاجة أخرى‏ «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ، قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (37: 29) فقد كنتم ضعفاء في أصل الإيمان فاستغللناكم باستضعاف على ضعفكم ظلمات بعضها فوق بعض.

«إِنَّا كُلٌّ فِيها» فانّ كلنا ضعاف لا نقدر على شي‏ء، فلا نجد لنا نصيرا و لا مصيرا إلّا النار و لا يغنينا عنها شي‏ء إلّا البوار، هنا ييأس الضعفاء عن الكبراء فينعطفون إلى خزنة جهنم:

وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (49) قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى‏ قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (50).

«الَّذِينَ فِي النَّارِ» في نفسها تعم الخالدين و الآبدين و غيرهما، و تخفيف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 462

يوم من العذاب، يعني المستحق الذي لا يقبل العفو، مهما كان من الذين يخرجون عن النار بعد ردح بعيد أو قريب من الزمن، و لكن الآية التالية تختصّهم بالكافرين الناكرين للرسالات و للمبدء و المعاد، فهم الآبدون في النار دون من يخرج فإنهم يستحقون تخفيف يوم و أيام من العذاب حيث مصيرهم الجنة و الثواب.

و لماذا «لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ» لمكان البعد البعيد عن الرب و ألّا جواب لهم منه، و لذلك‏ «ادْعُوا رَبَّكُمْ» دون ربنا أو رب العالمين، حيث انقطع عنهم عطف الربوبية بكفرهم.

و «يَوْماً مِنَ الْعَذابِ» قد يعني زمانا مّا ملموسا من العذاب، حيث المتقاضى في ذلك السعير الحارق البالغ، و من أهل النار عالمين أنهم يستحقونها جزاء وفاقا، إنه ليس بطبيعة الحال إلّا أقل زمان، فعلّه واحد من الزمن الأخروي أيّا كان، فاليوم في القيامة بين أدنى الزمان و طائلها و بينهما عوان، و يعرف كل حسب القرائن، كمثل اليوم في الدنيا و بينهما البرزخ العوان.

و هنا لا جواب لأهل النار من خزنتها إلّا التأنيب العتاب، تذكيرا بسبب الدخول في النار:

«قالوا» ألم تك عندكم آيات من الأنفس و الآفاق لكم فيها عبرة، فان لم تكن أو لم تعتبروا «أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ» و ترى معاصرو الرسل أتتهم رسلهم بالبينات فما بال الغيّب يعاتبون بعتبهم فيعذّبون عذابهم؟ القصد من إتيان الرسل إتيان الرسالات ببلاغها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 463

و بلوغها، فما عاشت الرسالة بحملتها رسولا و كتابا أمّن ذا، فالحجة بالغة دامغة و ان كان الرسول قضى نحبه، كما قد لا تبلغ الرسالة و الرسول حي يرزق، فالمدار على بلوغ الرسالة الحجة ببيناتها، و كلما كانت أقوى فناكرها أخزى في حياته أم بعد مماته- «قالُوا بَلى‏» قد أتتنا رسلنا بالبينات‏ «قالُوا فَادْعُوا» تعجيزا في دعائهم‏ «وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ» فكما عاشوا في حياة التكليف ضلّالا، فسوف يعيشون حياة الجزاء ضلّالا في دعائهم أمّاذا!.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51).

و علّ هذه هي سابق وعد اللّه و سابغة: «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ» (37: 173) الذين آمنوا هم منصورون كما المرسلون، فهم جميعا جند اللّه الغالبون! قاعدة صارمة مطردة طول التاريخ الرسالي دونما استثناء.

هنا تأكيدات أربع لتحقيق ذلك الوعد «إن- نا- ل- ننصر» اثنتان لجمعية الصفات و هي أقوى تأكيدا، و الأخريان من أداة التأكيد.

و ذلك تعقيب جاسم جازم يناسب الموقف الحاسم الباصم، أن جند اللّه غالبون و منصورون من رسل و مؤمنين، لا فقط «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» بل و «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» بينما نشاهد في تاريخ الرسالات أنهم بين شريد و جريح و مهتوك و قتيل و مكذوب من الأكثرية الساحقة بين المرسل إليهم، فأين- إذا- وعد اللّه لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ و من هنا يدخل الشيطان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 464

في النفوس و يتدسس ضعاف النفوس، ليحملهم إلى التشكك في صدق الوعد أو التكذيب بصادق الوعد.

و لكن المناسبة بين الحكم و الموضوع تقضي أن النصرة هنا تدور حول موضوع الرسالة و الإيمان، و هما أمران معنويان، و الناس يقيسون بظواهر الأمور، و في فترة قصيرة من الزمان و حيّزة محدودة من المكان، و لكن فسيح الزمان و وسيع المكان بما فيهما زمن دولة القائم المهدي من آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يجعل الإنتصار في المجموعة ل‏ «رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» في السلطة الزمنية إلى السلطة الروحية «1» مهما اختصت قبل ذلك الزمن بالأخيرة.

و لو نظرنا إلى بعدي الرسالة و الإيمان معها و بها، لرأيناهما تنتصران دون ريب، فأول ما تتطلبه منهم الرسالة و يطلبه صارم الإيمان أن يفنوا في سبيل تحقيقها حتى يبرزوها بصورة أسمى و أقوى، و لكي يعلم الناكرون أنها أثمن عند أصحابها من كل قيم الحياة، فإنها كلها زهيدة ضئيلة أمام قضية الرسالة و الإيمان! إبراهيم يلقى في النار ليلقي العقيدة و يلغيها، و لكنه لا يرجع عنها إلّا في هزيمة قصيرة و انتصار كبير «يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ» فحتى لو أنه احترق كما الكثرة الكثيرة من حملة الرسالات قتلوا في هذه السبيل، فالمنتصر في سبيلها هو أصحابها، حيث لا يقتل إلّا الرسل دون الرسالات، و هي تزدهر و تنمو بهذه التضحيات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 526 القمي باسناده عن جميل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت قول اللّه تبارك و تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا ... قال: ذلك و اللّه في الرجعة اما علمت ان أنبياء كثيرة لم ينصروا في الدنيا و قتلوا و أئمة من بعدهم قتلوا و لم ينصروا و ذلك في الرجعة أقول: يعني مجموع النصرين و هو تفسير بأكمل المصاديق، و الا فالنصر الروحي حاصل لهم على طول الزمن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 465

و سيد الشهداء الحسين بن علي صلوات اللّه عليهما يستشهد في تلك الصورة المفجعة، أ تراه منهزما في هذه المعركة؟ في الحق إنه منتصر على يزيد الطاغية، فانه أبرز للأجيال مدى صمود الإيمان أمام أنحس الطغاة حيث لا يرحم رضيعا، و أصبحت معركة العاشور مدرسة عالية في القمة لمواصلة الفداء و التضحية في سبيل اللّه، فقد نصر هو و المؤمنون معه في سبيل هذه الرسالة السامية.

هنالك النصر على اللذات و الشهوات و الرغبات في طريق تطبيق الرسالات، صمودا صارما حتى التضحية بالنفس و النفيس، و تقديم كل غال و رخيص، و لكي تبقى العقيدة، و يبقى الحق و يزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

أذلك هو النصر أم أن يبيع إيمانه بالثمن الأرخص الأركس: الحياة الدنيا بزهرتها و زهوتها؟

و في كلمة قصيرة غير حصيرة إن نصر اللّه يرى‏ «رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» في غلب الحجة حيث تغلب الباطل و لا تغلب، و الغلب في بينات الحق و زهوق الباطل، و الغلب الكامل في العاقبة فإن‏ «الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» و هي الدولة الأخيرة زمن القائم المهدي (عجل اللّه تعالى فرجه) حيث يرجع المرسلون و الذين آمنوا إلى محض الإيمان.

ليس النصر للذين آمنوا في الحياة الدنيا إلّا إذا نصروا اللّه و هو محض الإيمان‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ» (47: 7) و «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ» (3: 160) «وَ لَيَنْصُرَنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 466

اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (22: 40) «وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (30: 47).

و أما الرسل فهم منصورون على أية حال مهما اختلفت صور النصر، فإن سيرها واحد هو انتصار الرسالة روحيا، و قد تنتصر زمنيا، حتى يتم لها الإنتصار في الدولة الاخيرة: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ ...» (9: 40) انتصارا لتداوم حياة الرسول، تكملة للرسالة في القدر الذي قدره اللّه، و كما نصره اللّه بفتح مكة نصرا عزيزا «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً» (48: 3).

و لقد نصر نوح بعد ردح بعيد من الزمن زمنيا بعد نصره على طول خط الرسالة روحيا: «قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ...» (23: 27).

و في إبراهيم‏ «قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ، قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ، وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ. وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ» (21: 71).

و في موسى: «وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى‏ مُوسى‏ وَ هارُونَ، وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ، وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ، وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ» (37:) 119).

و في عيسى بن مريم: «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى‏ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 467

مُسْلِمُونَ‏ ... وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ. إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى‏ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ ...» (3: 55) «وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً. وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» (4: 159).

ثم و لمن قبلهم و بينهم و بعدهم من النبيين انتصارات توحّدها غلبة الحجة بنصوع المحجة، و زيادات في سلطات زمنية ما قل منها أو كثر و حتى يأتي صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، فهناك يتم الإنتصار و يعم البسيطة و كل العالمين.

هنالك انتصار لهم في الحياة الدنيا و من ثم‏ «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» و هذا تعبير فريد في القرآن تسمى فيه القيامة ب‏ «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» و ما هي الصلة الوطيدة بينه و بين نصر الرسل؟ إنه سمة لجانب من القيامة و هو قيامة الأشهاد، حيث الأشهاد ينصرون الرسل و الذين آمنوا في شهاداتهم في مربع الشهادة، و هي انتصار لهم فوق انتصار:

يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52).

حيث الأشهاد يشهدون عليهم دون إبقاء فلا تنفعهم معذرتهم بل‏ «هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ، وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» (77: 36) و ترى إذا لا يؤذن لهم فيعتذرون، فكيف لا تنفعهم معذرتهم و هي تلمح أنهم يعتذرون؟.

لا يؤذن لهم نهي عن الاعتذار إذ لا ينفع: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (66: 7) فعدم نفع الاعتذار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 468

على فرضه مهانة، و عدم الإذن فيه مهانة أخرى، خلاف جند اللّه إذ كان لهم انتصار فوق انتصار! «وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ» من اللّه و الملائكة و النبيين و المؤمنين، و بالنتيجة «وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» بما قدمت أيديهم، لعنة بما يقوم الأشهاد، و سوء الدار بما تقبل شهاداتهم عليهم، قدر ما أساءوا في هذه الدار.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى‏ وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (53) هُدىً وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ (54).

و هذه جماع الرسالة الموسوية على طولها حيث ختمت بانتصارها، نموذجا من نماذج الإنتصار الرسالي، بعد صبر و انتظار:

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (55).

يا؟؟؟ حامل الرسالة الأخيرة و هي أثقل و أطول و أكمل من كافة الرسالات، عليك بالصبر الجميل الطويل‏ «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» أن ينصرك اللّه نصرا عزيزا «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» و عليك في هذه السبيل الشاق الطويل الملي‏ء بالأشلاء و الدماء، أن تستغفر لذنبك، لذنب الرسالة التي تعيشها بأخطارها، و الدوائر المتربصة بها حتى يغفرها و يسترها عما يمسها بسوء و كما غفر اللّه بما فتح مكة نصرا زمنيا إلى روحي، و من قبل منذ الرسالة من الناحية الروحية.

و ان تستغفر لذنبك: السيآت التي تعترضك قضية السلطة الزمنية، و كذلك الروحية، أن تدفعها عن ساحتك قبل أن تدنّسها، بكل ما تملك من إمكانيات، و تفوض أمرك الى اللّه فيما لا تسطع على دفعه حين تقوّض ظهرك، فتصبح في مثلث الاستغفار عن ذنبك، في العصمة المطلقة الإلهية و قمتها، و لا رابع له من ذنب مقترف و عصيان حيث الساحة الرسالية بريئة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 469

عن كل عصيان، فضلا عن رسول الرسل و سيدهم (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! «وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لا تسبيحا فقط و لا حمدا فحسب، و إنما تسبيح بالحمد، أن تصفه كما وصف به نفسه، و تنزهه عن صفات المخلوقين، و عن زيادة الذاتية منها على ذاته أو تركّبها، و مماثلة غير الذاتية منها لسواه تعالى، فقولك «عالم» تعني منه «لا يجهل»- و لا أن «علمه كسائر الخلق» فلا نحيط بعلمه شيئا و لا ندرك منه كما هو شيئا. و هذا تسبيح بحمده، و اما حمده دون تسبيح به فقد ينجرف الى اثبات صفات تشبه صفات المخلوقين إمّا ذا مما لا يليق بساحة رب العالمين.

«بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ» و هل إنهما فريضة الفجر و العصر «1» حيث السورة مكية و الفرض في ردح من العهد المكي كان لهما؟ «و سبح ...» أمر باستمرار الفرضين حتى ياتي امر اللّه لا أنه بدايتهما؟ حيث الصلاة بادئة بدء النبوة و الآية بسورتها نازلة ردحا بعد النبوة! أم إن العشى و الإبكار كليل نهار تعني الوقت كله، و قد ذكر طرفاه لأنهما أهم الأوقات للذكر و الذكرى في مجموع الليل و النهار، نيامة في العشي و إفاقة في الابكار، ففي افاقة الإبكار مثال للحياة بعد الموت، و في نيامة العشي مثال للموت بعد الحياة، فهما وقتان لهما أهميتهما للذكرى؟

أم إنهما تعنيان أوقات الصلاة كلها «2» و قد ذكرا بينها كأهم الصلوات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 352- اخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال:

صلاة الفجر و العصر.

(2) المصدر اخرج ابن المنذر عن الضحاك في الآية قال: صل لربك بالعشي و الابكار قال: الصلوات المكتوبات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 470

و الأوقات، و القصد إلى الصلوات المفروضات في مجموعة الليل و النهار؟

التسبيح بالعشي و الإبكار مكرور في آيات مدنية: «وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ» (3: 41) «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ» (18: 28) و كما في أخرى- مثل هذه- مكية: «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ» (6: 52) اثنتان باثنتين، في إبكار مرتين و غداة مرتين و العشى في الأربع كلها، فلا نحتمل أنهما الفرضان حيث الخمس فرضت قبل المدنية بردح من الزمن.

ثم للاحتمالين الآخرين مجال، و الخمس المفروضات تشترك فيهما، فإما أن تعنيها الآية بخصوصها، أم في عموم التسبيح و هي أهمه! «1».

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56).

ليس جدال هؤلاء الحماقى انتصارا لهم على الرسالة الإلهية، فإنه‏ «بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ» و هو يعم نفي أي سلطان، كالذي يجادل دون أي برهان، أم بسلطان الباطل: «وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» و كلاهما سيان في أنهما «بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ».

هؤلاء الطغاة لا يجادلون في آيات اللّه بسلطان قاطع و لا ريبة أو شك هما في سبيل تحقيق الحق و إبطال الباطل، حيث الشك في هذه السبيل شك مقدس، فليس في صدورهم واحدة من هذه العاذرة «إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ» متناسين أنفسهم و متجاهلين أنهم مهازيل ضعاف، لا حول لهم و لا قوة إلّا باللّه، لذلك فهم يتنفخون و يتنفجون في تشامخ و تعال و حتى على اللّه و آياته و «ما هُمْ بِبالِغِيهِ» كبر في صدورهم خيّل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآيات الثلاث الاخرى في محالها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 471

إليهم، يهدفون إلى بلوغه في واقعهم أمام آيات اللّه و «ما هُمْ» على أيّة حال، و في أي حلّ و ترحال و بأية وسيلة و إدغال‏ «بِبالِغِيهِ» فإنهم داحضون بكبرهم و بحجتهم أمام حجج اللّه، و متى رأيت في تاريخ الرسالات أن يبلغ مناوءوها بكبر في صدورهم، يبلغوا دحضها و إيحائها إلّا دحض أنفسهم و فضحها «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» من كيد هؤلاء و ميدهم حين يحاولون تضليل المستضعفين‏ «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» مقالكم و مقالهم «البصير» بأحوالكم و أحوالهم، فإنه ينصر حقه و يهدر باطلهم.

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57).

«أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها»؟ بل هي أكبر و أشد من خلقهم مهما كان الإنسان أحسن تقويما! و ليس الأكبر و الأشد في الخلق في ميزان اللّه، فكل خلق له هين، إنما هو في ميزاننا، و لمّا يقيس الإنسان نفسه إلى السماوات و الأرض و هما مجموعة الكون، يطامن من كبريائه متصاغرا متضائلا، إلّا أن يذكر خلقه‏ «فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» و ليس إلّا في استعداده القمة للإيمان القمة حيث الكافر في أسفل سافلين! «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» و هم الأكثرية الكافرة باللّه، المكذبة بآيات اللّه، فلأنهم «لا يعلمون» متجاهلين متغافلين ف‏ «إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ» و لكن‏ «ما هُمْ بِبالِغِيهِ».

وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى‏ وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لَا الْمُسِي‏ءُ قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ (58).

الأعمى و البصير مثل للجاهل و العالم، و الآخران للمؤمن الصالح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 472

و سواه، و لماذا «وَ لَا الْمُسِي‏ءُ» بدلا عن «و لا الذين آمنوا» علّه يعني نفي المساواة بين أفراد «المسي‏ء» بعد نفيها بينه و بين الذين امنوا و عملوا الصالحات بحذف اللّا فيهم عطفا على‏ «وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى‏ ...» فقرينة العطف و نفي الإستواء بين المسي‏ء تكفيان دلالة على حذف اللّا عن الذين آمنوا.

فهناك سلوب ثلاثة في الإستواء ثالثها بين أفراد المسي‏ء المنقسم إلى المسي‏ء إيمانا و عملا فأسواهم، و المسي‏ء إيمانا لا عملا حيث يمكن فسيّئهم، و المسي‏ء عملا لا إيمانا فأقل سوء، هم لا يستوون عند اللّه، كما لا يستوي الذين آمنوا و عملوا الصالحات مع مثلث المسي‏ء، و تشبهها «لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ» و قد مضت، و اللّااستواء في مطلق الحسنة يعني حسنة الإيمان و العمل الصالح مفردا و جمعا، و هنا جمع بينهما، فالاستواء حاصل بينهم لحدّ مّا مهما اختلفت درجاتهم‏ «قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ».

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59) و هذه الأكثرية بين من يعلم ثم يجحد و لا يؤمن‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» و من لا يعلم متجاهلا حتى يجهل رغم توفر البراهين على أنها آتية لا ريب فيها، فلأن «لا يؤمنون» يعم «لا يعملون» و «لا يعلمون»، لذلك يؤتى به دون «لا يعلمون» إضافة إلى أن توفّر البراهين عليه لا تفسح مجالا ل «لا يعلمون» إلّا تجاهلا مهما بلغ حد الجهل، فإنه جهل من يعلم! «ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (45: 26) الجهل و لا سيما المركب منه- مصدر البليات كلها، فالجاهل يسي‏ء إلى نفسه و إلى ذويه، و يحسب أنه يحسن صنعا فهو من الأخسرين أعمالا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 473

وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60).

ترى و متى قال ربكم ... فهل هو قاله هنا «أدعوني ...»؟ و هذا مستقبل و «قال» ماض! أم هو قاله في آية المضطر: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ» (27: 62) و لكنها مكية كما هي، إلّا أنها علّها نازلة قبلها، لكنها تعد إجابة المضطر دون أمر بالدعاء! أم إنه آية الفرقان المكية: «قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً» (77)؟ و حقا إنها هيه إذ تحوي ما تحويه، و تعني ما تعنيه، و لكنها ليست دلالة المطابقة، إلا تضامنية بدقة! أو أنه قاله في أم الكتاب و محكمه، يقوله هنا في تفصيل الكتاب؟ أم إنه جماع آيات الدعاء مكية و مدنية؟ و على أية حال‏ «وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...» لا ريب أنها قول ربكم! و «ربكم» هنا دون صيغة أخرى: اللّه- ربي- رب العالمين، لمناسبة الدعاء عبادة و استدعاء فإنه أمر تربوي يعم عباد اللّه المؤمنين.

و هل ان «ادعوني» أمر بدعاء الاستدعاء حين الحاجة و البلاء؟ لمكان‏ «أَسْتَجِبْ لَكُمْ» و شطر من آيات الدعاء: «هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» (3: 38)؟

أو أنه أمر بدعاء العبادة لمكان‏ «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي» و شطر آخر من آيات الدعاء: «وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً» (72: 18) «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ» (7:) 194) «قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...» (40:) 66).

أم إنه يعنيهما لشطري الآية «أَسْتَجِبْ لَكُمْ‏ ... عَنْ عِبادَتِي» و شطري‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 474

آيات الدعاء، و ان دعاء الاستدعاء لزامه دعاء العبادة من قبل ف‏

«الدعاء تلو العبادة» «1»

فلا يستدعى إلّا من يعبد و لا يعبد إلّا من يستدعى، و الثانية شرط أصيل للأولى: «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ» (2: 40) و «عهدي» هو عهد العبادة «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (36: 61) و «عهدكم» هو الاستجابة! ف‏

«لو وفيتم لله لوفى لكم» «2»

و كما أن دعاء العبادة عبادة كذلك‏

«الدعاء هو العبادة» «3»

بل هي مخ العبادة، و كما الاستكبار عن عبادته كفر، كذلك الاستكبار عن دعائه فانه مخ الكفر، و علّ «عبادتي» تعني دعاء الاستدعاء كأصل بعد دعاء العبادة، و كأنها هي العبادة لا سواه، فإن حقيقة الدعاء هي حقيقة التعلق باللّه و الزلفى إلى اللّه و هي حصيلة العبادة، فهي- إذا- مخ العبادة: يا رب‏

«سميت دعاءك عبادة و تركه استكبارا و توعدت على تركه دخول جهنم داخرين» «4»

صاغرين، «فلا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 355 بإسناد عن النعمان بن بشير قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الدعاء تلو العبادة ثم قرء «وَ قالَ رَبُّكُمُ ...» هل تدرون ما عبادة اللّه؟

قلنا: اللّه و رسوله اعلم قال: هو إخلاص اللّه مما سواه.

(2)

نور الثقلين 4: 527 القمي حدثني أبي عن محمد بن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد اللّه‏ قال له رجل: جعلت فداك ان اللّه يقول: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» و انا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم لا توفون بعهده و ان اللّه يقول: «أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» ...

(3)

المصدر اخرج ابن مردويه و الخطيب عن البراء ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان الدعاء هو العبادة و قرأ «وَ قالَ رَبُّكُمُ ...».

(4) المصدر من ادعية الصحيفة السجادية و قلت‏ «ادْعُونِي ...» فسميت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 475

و كما أن الدعاء تلو العبادة، كذلك العبادة و الدعاء تلو المعرفة «1» و كما تلمح له‏ «إِذا دَعانِ».

«ادعوني» في دعاء الاستدعاء هنا ركن لمكان «أستجب» و لكنها تستصحب شرطها الأصيل: دعاء العبادة، ثم تتلوها «عبادتي» أنها دعاء الاستدعاء و الافتقار، فالأخرس عن هذا الدعاء على حاجته على أية حال، ناكر لفقره و افتقاره إليه، و كافر بغناه.

و هل تعني «أدعوني» بلسان القال؟ و كثيرون يدعون و لا يستجاب لهم، و قليل يدعون بلسان الحال و هم مستجاب لهم! أم تعني لسان الحال دون قال؟ و المقربون من عباد اللّه يدعونه بمقال مع حال! أم تعني لسان الحال و يبرزه المقال و الأعمال، فالعناية إلى مثلث الدعاء كأكمل درجات الدعاء، و هو الذي يضمن الاستجابة؟ و قد تعنيه آية البقرة «فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ ...» (186) فإن «دعان» بعد «دَعْوَةَ الدَّاعِ» لا يعني تكرار الدعاء، بل هو حقيقة الدعاء دونما شائبة، ظاهرة ناطقة عن الباطنة بلسان العمل و القال.

و إذا كانت الاستجابة مضمونة بعد الدعاء فما لنا- في الأكثر- لا يستجاب لنا؟ «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 104 في كتاب التوحيد باسناده الى موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: قال قوم للصادق (عليه السلام) ندعوه فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه.

(2)

المصدر ح 92 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان المؤمن ليدعوا اللّه عز و جل في حاجته فيقول اللّه عز و جل: أخّروا إجابته شوقا إلى صوته و دعائه فإذا كان يوم القيامة قال اللّه عز و جل: عبدي! دعوتني فاخرت إجابتك و ثوابك كذا و كذا دعوتني في كذا او كذا فأخرت إجابتك و ثوابك كذا او كذا قال فيتمنى المؤمن ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 476

«أَسْتَجِبْ لَكُمْ» و «أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ» و هما من وعده الصدق: لا يتحقق إلّا على شروطه و في زمنه الصالح، فإذا توفرت الشروط في دعاءك فالاستجابة كائنة على أية حال، في حال أم استقبال: هنا أم في البرزخ أو الأخرى و هي أحرى و قد

«يتمنى المؤمن أنه لم يستجب له دعوة في الدنيا مما يرى من حسن الثواب» «1»

و لكنك قد تدعو غير صالحك، فاللّه أجل أن يغرك بجهلك صالحك عن طالحك، و قد يعوّضك صالحا بدل ما دعوت من غير صالح و أنت لا تدري.

و قد تدعو و أنت غير صالح للاستجابة فكيف ترجوا الإجابة؟

و قد تدعو ربك فيما خوّله إليك أو ألزمه عليك، و ليس الدعاء إلّا فيما لا تسطع أم لا تكفيه!.

و على أية حال ليس عدم الإجابة إلّا لنقص فيك أو في دعاءك أم هي مستقبلة قريبة أم غريبة، في دنياك أم أخراك، فثق بما وعدك ربك و اتّهم نفسك في غير إجابة، أو انتظر مستقبلا فيه الإجابة «2».

خلف الوعد من خلفيات الجهل او العجز او البخل او الخوف أمّاذا من نقص في الواعد يقتضي نقضا في وعده، و كل ذلك بعيد عن ساحته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 531 عن أبي عبد اللّه عليه السلام.

(2)

نور الثقلين 4: 527 ح 74 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ قال السائل: الست تقول يقول اللّه تعالى: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» و قد نرى المضطر يدعوه فلا يجاب له، و المطيع يستنصره على عدوه فلا ينصره؟

قال: ويحك ما يدعوه احد الا استجاب له اما الظالم فدعاؤه مردود الى ان يتوب اليه، و اما المحق فانه إذا دعاه استجاب له و صرف عنه البلاء من حيث لا يعلم او ادخر له ثوابا جزيلا: ليوم حاجته اليه و ان لم يكن الأمر الذي سأل العبد خيرا له إن أعطاه امسك عنه و المؤمن العارف باللّه ربما عز عليه ان يدعوه فيما لا يدري أ صواب ذلك ام خطأ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 477

تعالى مستحيل، فإذا لا تستجاب دعوتك فتّش نقصا فيك أو نقضا في شروط الدعاء.

من الحاجيات ما يعطيها ربنا دون دعاء، و منها ما يعطيها بدعاء فإنها شرط الإعطاء، ليس لأن اللّه بحاجة إلى أن يدعى ليعلم عن جهل أو يحظو حظوة الاستدعاء، و إنما حظوة القرب للعبد و ليعلم أنه بحاجة دائبة إلى اللّه، فيعيش الافتقار إليه في أحواله كلها، بقلبه و لسانه و كافة و جهاته ف‏

«ادع و لا تقل قد فرغ من الأمر فإن الدعاء هو العبادة» «1».

أدع ربك على كل حال، و اطلب منه ما تحتاجه غير مصر و لا جازم علّه لا يصلح لك و أنت جاهل، و حتى إذا كان من صالحك و لا تستجاب فإن نفس الدعاء عبادة لا تضاحى، كيف و ربك يدعوك لدعائه و يعدك الاستجابة! و

«من اعطي الدعاء لم يحرم الإجابة» «2»

و عطاء الدعاء هو حالها و استعدادها بشرائطها.

و للدعاء شروط عدّة هي العدّة للاستجابة، منها الوفاء بعهد اللّه العبادة، و منها حالة التضرع و الخفية: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (7: 55) و منها ترك الإصرار الجازم علّه لا يصلح له ف‏ «عَسى‏ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ ...» و من‏

«الذنوب التي ترد الدعاء سوء النية و خبث السريرة و النفاق مع الإخوان و ترك التصديق بالإجابة و تأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها و ترك التقرب إلى الله عز

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 83 القمي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سمعته يقول: ادع ... ان الله عز و جل يقول: ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين.

(2) نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام) مستشهدا بالآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 478

و جل بالبر و الصدقة و استعمال البذاء و الفحش في القول» «1».

إن هناك أمورا تتقدر فتقضى بحولك و قوتك، و أمور أخرى لا تطيقها و قد أمرت فيها بدعاء ربك، فلا تقل‏

«قد فرغ من الأمر» فإنه قول اليهود فكيف قال: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»؟ «2».

و يا له من رحمة واسعة سابغة، يأمرنا بدعائه، ثم يتهددنا إن تركناها: «سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ» صاغرين، و إذ تعلم أنك فقير ضائق و اللّه غني واسع، يعطيك سؤلك إذا دعوته، فما يمنعك من دعائه إلّا استكبارك، أم سوء ظنك به كأنه مخلف وعده عباده أمّاذا من خطأ عارم؟! كل سائل عبد لمن يسأله مفتقرا، فهل أنت تسأل سؤلك عباده، ثم تستكبر ان تسأله تعالى و هو رب السائل و المسؤول؟ ضعف الطالب و المطلوب!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 106 في كتاب معاني الاخبار باسناده الى أبي خالد الكابلي قال سمعت زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: الذنوب التي ترد الدعاء ...

(2)

المصدر ح 96 في عيون الاخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع سليمان المروزي حديث طويل و فيه قال الرضا (عليه السلام): يا جاهل! فإذا علم الشي‏ء فقد اراده، قال سليمان: اجل، قال: فإذا لم يرده لم يعلمه؟ قال سليمان: اجل، قال:

من اين قلت ذاك و ما الدليل على ان ارادته علمه؟ و قد يعلم ما لا يريده ابدا و ذلك قوله تعالى: «وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ» فهو يعلم كيف يذهب به و لا يذهب به ابدا، قال سليمان: لأنه قد فرغ من الأمر فليس يزيد فيه شيئا قال الرضا (عليه السلام) هذا قول اليهود فكيف قال: ادعوني استجب لكم قال سليمان: انما عنى بذلك انه قادر عليه، قال: أ فيعد مالا يفي به فكيف قال: يزيد في الخلق ما يشاء، و قال عز و جل: «يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ» و قد فرغ من الأمر؟ فلم يحر جوابا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 479

[سورة غافر (40): الآيات 61 الى 68]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (61) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (65)

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 480

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (61).

تعريف ب «ربكم» الذي‏ «قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» أنه‏ «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً ...» نعمتان هامتان لم يسألهما الإنسان ربه و قد أعطاهما إياه قبل خلقه، فكيف إذا سأل نعمة؟

أ تراه يبخل فيما يسأل و هو كريم فيما لم يسأل! الليل هنا و في سائر القرآن لباس‏ «1» و سكن لتسكنوا فيه عن حركات التعب و نهضات النصب:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير آية النبأ في النوم و في لباس الليل و معاش النهار، الى ج (30) الفرقان ص 18- 34.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 481

«قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ» (28: 72).

صحيح أن في شغل الليل و راحة النهار سماحا شرعيا و إمكانية كونية:

«وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ» (30: 23) و لكنه تبصرة على ضوء قانون، و سماح إذا لزم الأمر، و الأصل هو «اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً» فإنّ سكن الليل بنومه ضرورة حيويّة تسكن فيه الخلايا الحية لتستمد حياتها و نشاطها في النهار، و مجرد النوم لا يكفيها توفيرا لهذا النشاط، فالخلية الحية المتعرضة لضوء مستمر و نهار سرمد تصل إلى حد الإجهاد، فتتلف أنسجتها إذ لم تتمتع بقسطها اللازم من سكن الظلام.

كما و أن في سرمد الليل أو شغله بدل النهار إجهادا في صورة أخرى لهذه الخليات، فلكلّ ضرورة حيوية على حدّه في جذره و مدّه.

و هذه القاعدة تنحو نحو الأكثرية الساحقة في أمكنة هذه المعمورة، ففي المناطق التي يقل الليل أو النهار لساعة و نصف ساعة، أم يطولان لستة أشهر، لا تمشى هذه القاعدة إلّا بديلا عنها بالمنام في ظلام مصطنع أو ضياء مصطنع، و على أية حال فراحة الظلام و إبصار الضياء أيا كان هما فضل من اللّه و رحمة «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ» كافرين بفضله أم غافلين! ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63).

«ذلكم» البعيد المحتد، الكبير المتعال «ربكم» إذ خلقكم و «لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» لا أنتم فحسب بل و «خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» جملة و تفصيلا، فلا شي‏ء الّا و هو خالقه إلّا شي‏ء؟؟؟؟ فليس مخلوقا حتى يخلقه هو أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 482

سواه، فالكون إما شي‏ء خالق أو شي‏ء مخلوق ثم لا شي‏ء، مستحيلا ذاتيا أو مصلحيا و هو الممكن الذاتي، فهما «لا شي‏ء» على طول الخط، مهما استحق الممكن اسم الشي‏ء وجاه المستحيل الذاتي، فإنهما لا شي‏ء في الواقع.

و لأنه‏ «خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» فهو إذا رب كل شي‏ء «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» حيث الخالق أقوى و أعلم فأحرى أن يكون ربا لما هو خالقه، و لا يأتي غيره إلّا بالخسار و الدمار «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» فلا خالق و لا رب و لا معبود و لا ملجأ و لا منجى إلّا هو «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» تصرفون إفكا و زورا عن دعوته عبادة و استدعاء أمّاذا؟

«كذلك» البعيد البعيد، الرذيل الرذيل «يؤفك» عنه تعالى إلى سواه‏ «الَّذِينَ كانُوا» بزمن بعيد «بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» إذ أبصروا إليها و لم يبصروا بها حتى يستبصروا فعميّت عليهم الأنباء فعموا و صموا فلا يفقهون حديثا! اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (64).

أ ترى الأرض قرارا ساكنة لا حراك لها؟ فما ذا نصنع بآيات حراكها كالدحو و الطحو و الذلول و الكفات و الراجفة و يسبحون و أضرابها؟! القرار من القرّ: البرد، ما يلمح أن الأرض كانت حارة سريعة الحراك و مجنونة، لا تقر و لا تحنّ لراكب كما دلت آية الذلول، ثم ذلت بعد شماس و قرّت بعد ارتكاس.

فالأرض القرار هي الباردة نسبيا بعد حرارتها البالغة، دون برودة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 483

مطلقة يسكن فيها الجسم عن أي حراك و هو موته و انعدامه، إذ لا بد للمادة- على أية حال- من حركة مّا، ذرّية و فوق الذرية أم دونها، حيث المادة هي الحركة، فقرار الأرض و غيرها نسبية جانبية، و هو هنا في بعدين، قرّ البرودة و قرّ الاستقرار الراحة لساكنيها، و مجرد جعل الأرض قرارا دليل أنها كانت غير قرار، حارة شموسا ثم قرّت و ذلّت بعد شماس‏ «أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً» (27: 61) فأنهار الأرض هي مجعولة بعد قرارها، فلم يكن قبله ماء أو كلاء لشدة الحرّ الشماس.

ثم و «لكم» تدلنا على قرارها النسبي لساكنيها، دون سكون أصلي لها، و على حد المروي‏

عن الإمام علي (عليه السّلام) في شأنها «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها ...» «و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشم من صياخيدها فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها» «1» ...

فقد عبر عن حركتها المعدّلة بالسكون، سكونا عن الميدان و الاضطراب لحد لا يحس ساكنوها حركاتها! ثم و في بناء السماء بعد قرار الأرض لمحة ثالثة لمعنى القرار، أنه السكن الراحة، و كما يستريح الإنسان في الطائرة دون صوت و لا اضطراب، يعلم حراكها و لا يلمسه إلّا أن ينظر إلى السحاب حولها و الأرض تحتها! و ليس قرار الأرض لاستقرار الحياة- فقط- من خلفيات البرودة و تعديل الحركات، فهنالك موافقات كثيرة خلّفت ذلك القرار الراحة، الممكّن للحياة الناضجة المرتاحة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عنه (عليه السّلام) في خطبتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 484

«فلو دارت الأرض حول نفسها أو شمسها أسرع ما تدور الآن لاندثرت هي، و تناثر ما عليها، و قضت نحبها بمن عليها! و لو دارت أبطأ مما هي لبطلت الحياة عليها أو صعبت، و لولا دورانها حول نفسها لفرغت البحار و المحيطات من مائها، و تحولت الفصول إلى فصل واحد.

و لو كان الأوكسجين بدلا عن 21% خمسين بالمائة تعرضت كافة المواد القابلة للاشتعال لحرقها، و لو هبطت عن قدرها كعشرة بالمائة أو أقل لابتليت الحياة بقلة الحرارة اللازمة لتداومها و نضجها.

و هناك آلاف الموافقات المتشابكة لا نعلمها، خلفت قرار الأرض كما نعيشها، لولاها لبطلت الحياة أم صعبت على ظهرها» «1».

و نعمة ثالثة بعد قرار الأرض و بناء السماء «وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» لا كسائر الحسن في سائر الخلق، بل الأحسن المطلق الذي ليس فوقه حسن‏ «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» مهما كان يساوى و يسامى في حسن: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» حيث يبقى القليل غير المفضّل و لا المفضّل عليه، و لو وقفنا أمام صورة الإنسان:

الجسمية- فضلا عن صورته الروحية- وقفة دقيقة، بل و أمام كل عضو من أعضائه أو خليّة من خليّاته لقضينا عجبا على عجب، حيث يرجع إلينا البصر خاسئا و هو حسير!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مقتطفات عن كتاب «مع الله في السماء» للدكتور احمد زكي و كتاب «العلم؟؟؟

للايمان» ترجمة محمود صالح الفلكي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 485

نضرب لذلك مثلا العين مقيسة على الذبذبات الضوئية في جوه، و أذنه مقيسة على الذبذبات الصوتية، و كل حاسة له أو جارحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته، لولا الموافقات بين هذه الذبذبات أو تلك و بين قدرات العيون و السمع لاختلّ مصلحة السمع و الإبصار و لم يكن للإنسان على وجه الأرض قرار!.

و رابعة «وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ» ما تستطيبه النفس السليمة مأكلا و ملبسا و مسكنا و منكحا و منظرا أماذا من رزق مادي، و فوق ذلك كله الطيبات الروحية و النفسية، طيبات فوق طيبات! «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ» لا سواه‏ «فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» دون سواه الذي ليس رب نفسه فضلا عن العالمين!.

[سورة غافر (40): الآيات 69 الى 85]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73)

مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (74) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (79) وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (83)

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (85)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 487

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69).

استفهام تقرير للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أم ايّ من الذين آمنوا على الأبدال، ثم تنكير لمن يجادلون في آيات اللّه، و آيات اللّه من أدل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 488

الآيات على اللّه دون إبقاء لأيّة ريبة إلّا يقينا لا شك فيه، فكيف يجادلون فيها و «أَنَّى يُصْرَفُونَ» حيث يصرفهم الشيطان و تصرفهم أهواءهم، و ما هو إلّا كبر به ينصرفون‏ «إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ»- «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟!.

فالصرف من الحق إلى الباطل قد يكون قصورا من المصروفين ببلة أو جنون، أم تقصيرا يضرب إلى قصور، كأن يصوّر لهم الحق باطلا و الباطل حقا و هم غافلون، و ثالثة عن بالغ التقصير كمن يجادل في آيات اللّه دون ايّ سلطان إلّا لتصديقه ف‏ «أَنَّى يُصْرَفُونَ».

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70).

و علّ الكتاب هنا جنس الكتاب السماوي و كما تلمح إليه «رسلنا» دون «رسولنا» أم هو القرآن لأنه- في الحق- هو الكتب كلها كما أن رسوله الرسل كلهم، ثم التكذيب بكتاب و رسول واحد تكذيب للكتب و الرسل كلهم، حيث المصدر واحد.

هم أولاء الحماقى و إن كانوا هنا لا يعلمون عن تعنّت و تقصير، و لكنهم‏ «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» هناك علم اليقين و عين اليقين:

إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72).

و «الأغلال» هناك هي هي الأغلال هنا حيث ظهرت بسيرتها في الأخرى، فأغلال العبودية للطواغيت، و أغلال الشهوات و الحيوانات و الإنيّات، هي هي التي تظهر بحقائقها يوم يقوم الأشهاد، و كل يحمل غلّه معه كما يحمل عداءه و غلّه ف‏ «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 489

الْمُتَّقِينَ» كما و يحملون سلاسلهم المسلسلة بينهم و بين أحمّتهم و نيران شهواتهم.

و لأن السّجر هو تهييج النار و إضرامها، فإسجارهم إذا في النار قد يعني أنهم حطب النار وقودها، فهم أولاء بعد ما يسحبون في الحميم جرا على الأرض إليه، يضرمون في النار حيث يزيدونها تهيّجا و اضطراما، فيزدادون هم أنفسهم بأنفسهم تشنّجا و اضطرابا:

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (74).

«ضَلُّوا عَنَّا» هنا في صفة الألوهية إذ تبين لنا أنهم ليسوا بآلهة، أم ضلت ذواتهم رغم أنه الظهور تأثيرا إلى مدى دنائتها «بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً» إذ لم يكن هناك واقع للدعوة كما للمدعوين، و هذا ضلال لأهل الضلال فوق ضلال لمكان التلبّك و التلكّع الجارف حين الإجابة عن سؤال.

ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75).

الفرح بالحق حق لا سؤال عليه، و لكنه بغير الحق فرحة باطلة و ضحكة على الحق، كمن يضحكون على المذنبين و يفرحون بدمارهم و أضرارهم، ثم المرح هو شدة الفرح و التوسع فيه.

ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76).

أبواب جهنم هي مداخلها السبع لأصحابها، و ليس‏ «خالِدِينَ فِيها»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 490

تعنيها حيث لا خلود في المدخل و إنما هي جهنم يخلد الداخل فيها مهانا «فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77).

عليك واجب التصبّر لحق الوعد عليهم، فسواء أريناك‏ «بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ» ما دمت فيهم يوم الدنيا «أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» إن العذاب لا محالة واقع، فحتى لو لم نعذبهم في الدنيا «فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ» فليس أمرهم إلّا إلينا، فما دمت حققت واجبك الرسالي فقف عنده، فأما النتائج فليست لك و لا عليك و حتى شفاء صدرك أن تشهد فيهم بعض الوعيد، فلا تعلق قلبك بشي‏ء إلّا بلاغ الرسالة، ثم الأمر كله للّه، و للّه الأمر من قبل و من بعد و ما أنت إلّا رسول! وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78).

إن من قصّ عليه من الرسل قليل‏ «1» من كثير منهم، و لكنهم على قلتهم عددا يحلّقون على من سواهم عددا، فإنهم عظماء الرسل بين من دارت عليهم الرحى أو من ينحو نحوهم، و على أية حال فالسنة الرسالية هي ما تصرح به الآية أن الآيات أن الآيات الرسالية عذابا و رحمة إنما هي بإذن اللّه و مهما كانت الآية الرحمة لإثبات الرسالة تأتي زمن الرسول، فآية العذاب قد تأتي بعد الرسول، فلا تك في ضيق من تأخير آية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث المذكور منهم في القرآن (26) رسولا بين الألوف المشار إليهم في أحاديثنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 491

«فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» فإذا جاء أمر اللّه في آية «قُضِيَ بِالْحَقِّ» على ناكريه‏ «وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ».

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (79) وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80).

و ها هي آيات من اللّه لصالح المجموعة في الحقول المعيشية المادية، ليست تأتي إلّا بإذن اللّه، فبأحرى الآيات الرسالية أن ترتبط- فقط- بإذن اللّه دون سواه.

وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81) فالعالمون يعيشون آيات اللّه في كل حلّ و ترحال و على أية حال، دون أن يملكوا منها آية فيأتوا- هم- بآية، فإنما هي من اللّه و بإذن اللّه‏ «فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ»؟

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (82).

ذلك سير الأرض في الطول التأريخي و العرض الجغرافي، حصولا على عاقبة الماضين، ما تبقّى من آثارهم في أماكنهم أو تهدّم، و ما جاء في الأثر الصحيح عنهم مهما تأخر أو تقدم، فذلك سير يبشر المؤمنين و ينذر الكافرين، عبرة من الغابر هي تذكرة للحاضر.

فتراهم «كانوا أشد منهم قوة و آثارا في الأرض» في الحياة الظاهرة الحاضرة، «فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» فأنتم بأحرى، و عذاب اللّه عليكم- إذا- أشجى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 492

فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (83).

اعتزوا بعلومهم التي كلها حلوم و ظنوا أنها العلم لا سواه، و حياتهم هي الحياة لا سواها.

«فرحوا» به و مرحوا و استهزؤا بعلوم الرسالات، و اعتبروها تأخرا عن الحياة، فالحياة التقدمية هي العلم بالدنيا و طاقاتها و حالاتها و العمل لها ليس إلّا، فإنها هي التي تصلح للحياة حيث تصلحها، دون العلوم الروحية التي لا تأتي إلّا بأسر الإنسان و حصره عن حريته في الحياة، و لكنما العلم دون إيمان فتنة أيا كان و حتى العلوم الروحية، فإنه يوحي بغرور، و يبعث إلى شرور، حيث يستخفه علمه و ينسى جهله، فلا يطامن من كبريائه و عليائه، إلّا إذا تبنّاه الإيمان، أم هو تبنّى الإيمان، و ما العلم الظاهر إلا وسيلة لظاهر الحياة، و لا العلم الروحي إلّا وسيلة لحقها الباطن، فلولا الإيمان لم يلي في العلم إلّا خسران‏ «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» (53: 30) «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

و لكنهم «حاق بهم» و أحاط «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ».

كانوا يستهزؤن بمواعيد اللّه عليهم فحاقت بهم:

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (83) و نرى ايمانهم عند رؤية البأس ينفعهم و ما هو بإيمان؟

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (84).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏25، ص: 493

سنة سنية دائبة «في عباده» ألّا تقبل التوبة عند البأس و حضور العذاب لأنها لا تحن إلى واقع، و ليست إلّا خوفة من عذاب واقع! اللهم إلّا إذا كان إيمانا بصدق و حق، دون مماراة و مجاراة نظرة زوال العذاب ثم العودة، فقد يكون الأخذ بالبأساء عذابا لا مرد له إذ لا يضّرّعون مهما قالوا آمنا: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى‏ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (6: 45).

هذا- فإذا تضرعوا عند البأس و آمنوا صدقا نفعهم ايمانهم كما في قوم يونس: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (10:) 98).

ف «آمنوا» هو حق الايمان فليقبل، و «قالُوا آمَنَّا» ليس إلّا قولة الايمان خوفة عن البأس فلا يقبل.